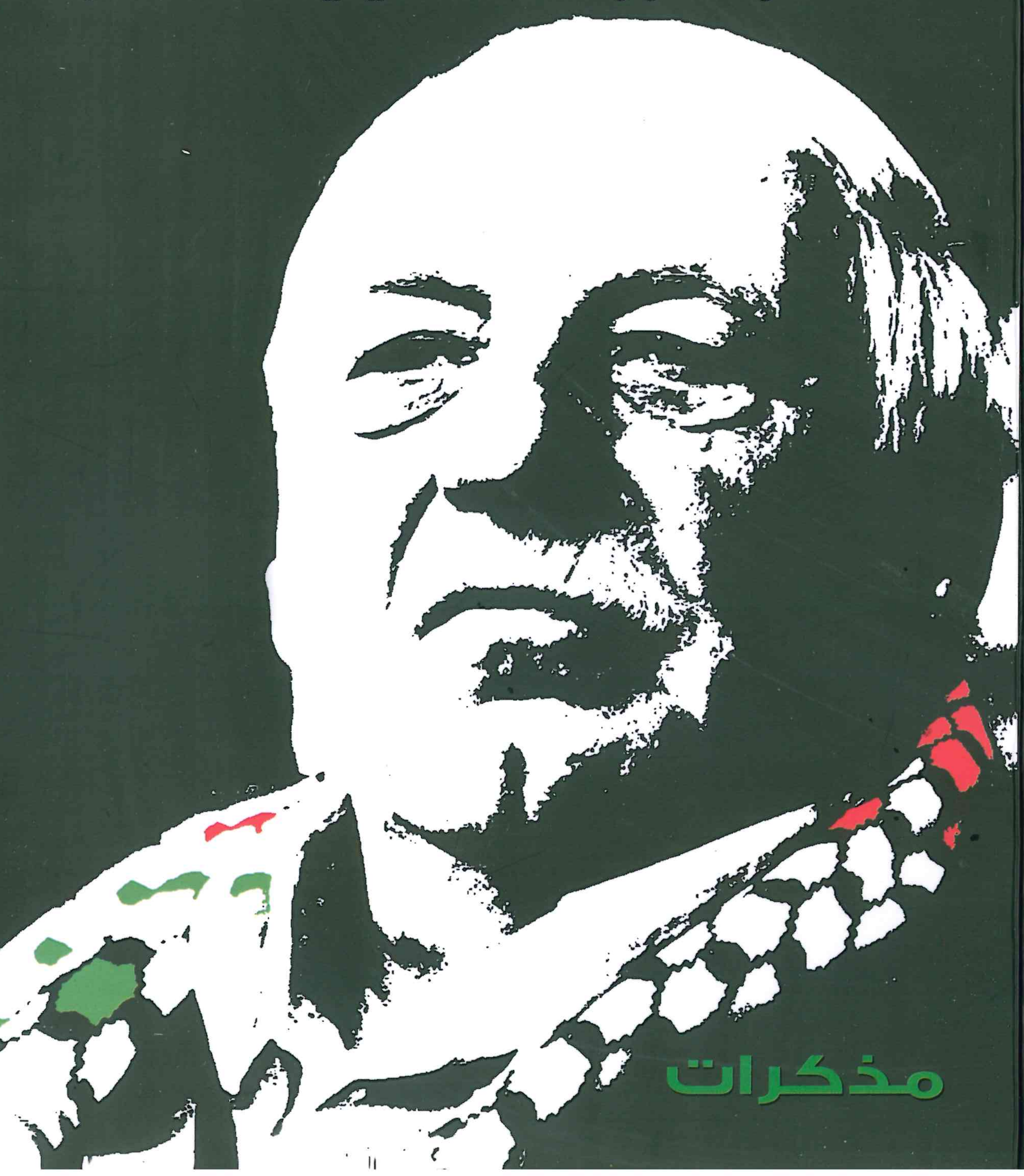
أحمد جبريل

ذاكرة الثورة الفلسطينية المعاصرة



مذكرات

مذكّرات أحمد جبريل

ذاكرة الثورة الفلسطينية المعاصرة

مذكّرات أحمد جبريل

ذاكرة الثورة الفلسطينية المعاصرة

اســـم الكتـــاب: **مذكّرات أحمد جبريل**

ذاكرة الثورة الفلسطينية المعاصرة

تـــــــــأليف: **أحمد جبريل**

عـــدد الصـــفحات: 374

القيـــــــــاس: 24.5*17

الطبعــــة الأولــــى: 1000/ 2022م - 1443هـ

سورية. دمشق. ص.ب: 2291

هاتف: 963113444369+

963930700443+

البريـــد الإلكترونـــي: newdalmoun@gmail.com

الموقـــع الإلكترونـــي: www.newdahmoun.com

التنســيق والإخـــراج: القسم الفني – دار دلمون الجديدة

تصــميم الغــلاف: م. مهند المهنا



دار دلمون الجديدة

للطباعة والنشر والتوزيع

Isbn : 978-9933-661-70-0

إهداء

إلى أرواح الشهداء الذين ارتقوا إلى العُلا من أجل فلسطين وحرّيتها...

إلى رفاق الدّرب المتمسّكين بالثوابت والمبادئ...

مقدّمات استثنائية

الإمساك باللحظة التاريخية وحرب الهوية

لم يكن شعب فلسطين المثخن بجراح المجازر والتهجير والاجتثاث من أرضه، بحاجة إلى المزيد من الآلام والعذابات الإضافية، كي يبدأ ثورته المعاصرة، ولم يكن بحاجة إلى مراكمة طبقات الزمن المرير حتى تختمر الفكرة وتنمو بذور الثورة.

كانت المخيمات الفلسطينية المسكونة بالغربة ووجع الحنين تتلمس في عتمة الليل العربي الطويل نوافذ الضوء وتسقي ذاكرتها من نهر الحكايات عن وطن صار أجمل كلما مر الوقت على بيوته التي تنتظر عودة أهلها.

ربما تحتاج الثورات الاجتماعية والسياسية إلى عوامل وأسباب ومقدمات فكرية نظرية تسبح في الوقت والجدل والدراسات حتى تأخذ مداها وتؤسس لفعل التغير الذي قد يبدأ في مراحله الأولى طفولياً هادئاً أو يأخذ شكل انفجار بركاني دفعة واحدة بفعل حادثة عابرة تشعل المكبوت في الصدور والعقول؛ يسبق ذلك أو يواكبه دور لشخصيات مؤثرة في صناعة الرأي العام من فلاسفة وأدباء وإعلاميين ومفكرين يبرز من بينهم رياديون يلتقطون اللحظة التاريخية المناسبة، حيث تستوجب تلك اللحظة روحاً فدائية تنصهر بالثورة دون تردد أو تأخير.

خصوصية القضية الفلسطينية تحدد، وسط عوامل أخرى، في الصراع مع المشروع الاستيطاني الغربي الأمريكي الصهيوني القائم على العبث بالتاريخ وادعاء أن فلسطين "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" وهو ادعاء يفترض لتحقيقه تذويب الهوية الفلسطينية في أسيد المختبرات الأمريكية والأوربية العنصرية بقتل من يستطيعون قتله وتهجير المتبقي من شعب فلسطين واستحضار رواية مركبة واستنبات تاريخ لا جذور ولا هيكل عظمياً له..

ولعل الثقافة الأمريكية التي قامت على جزّ رؤوس الهنود الحمر واحتفلت أفلامها الهوليودية بأوسع عملية تطهير عرقي في التاريخ حيث روجت لثقافة الانتصار هذه واستمرارها بصهر جماجم وعظام اليابانيين في هيروشيما وناغازاكي هي التي وضعت الفلسطيني أمام معادلة صراع الوجود.

على أن التحدي في الحالة الفلسطينية أشد خطورة؛ ففي صراع الحرب على الهوية والبقاء أنت أمام خطر يتجاوز حدود النووي في هيروشيما وناغازاكي، ذلك أن النووي لم يلغِ تاريخ اليابان ووجودها وإن كان أخضع إرادتها السياسية حتى الآن.

وبهذا المعنى فالحرب على الهوية والتاريخ تتجاوز في خطورتها المجزرة الجماعية المباشرة حيث تتعارك في منازلة الوجود الخرافة التلمودية التوراتية وتقاتل حملات (العقائد) المطيرة باسم الرب وجنوده.. معارك يسقط فيها عن الفلسطيني انتماؤه للمكان ويصير دمه وماله وعرضه من ضرورات المنحة (الإلهية) لاكتمال (دولة إسرائيل).

لا شبه ولا مجال للتشبيه بين المأساة والنكبة الفلسطينية مع أي شعب آخر في العالم. ومع أن جريمة الإبادة العرقية الشاملة التي تعرض لها الهنود الحمر تبدو بلا شبه في التاريخ البشري حيث حصدت سيوف وبنادق المستوطنين البيض رؤوس ما يقارب مئةً واثني عشر مليوناً من سكان البلاد الأصلين، إلا أن ثمة فارقاً مرعباً وهو أن عملية إبادة الهنود الحمر تمت بغفلة عن عين التاريخ والرأي العام الإنساني المقطع الأوصال آنذاك، في حين جرت وتجري محاولة محو فلسطين والفلسطينيين تحت عين الكاميرا وأعين التاريخ بكامل مفرداته المعاصرة، وتحت سمع وبصر الرأي العام الإنساني، ولتشرعن (المحرقة السياسية) حرق هوية شعب كامل ودفنه حياً بقرار سياسي وقانوني دولي بعد أن استعصى على المجزرة ومرتكبيها إنجاز حرب الإبادة دفعة واحدة.

وكأن الفلسطينيين كانوا يعرفون بحسّهم ووعيهم الفطري عمق وطول الحرب، وأنهم بحاجة لسلاح سرّي تصعب السيطرة عليه فمارسوا الولادة مثل أشجار الغابات دفعةً واحدة كفعل تحدٍّ ومقاومة.

الخيار الوحيد.. ورياح القلب والعقل

أحمد جبريل الذي شُلع من بلدته اليافاوية (يازور) ولم يُكمل العاشرة من عمره، أدرك أن طفولته قد سرقت وأن أحلامه قد اغتيلت قبل أوانها.

لا أحد يستطيع أن يقدّم إجابة شافية لطفلٍ لا تقنع فطرته وفطنته المبكرة الأجوبة المراوغة، وقد تبدّل الزمن ونمت أشواكه في طريقٍ طويل، أماكنه موحشة وقلقة.

سرّ الغربة المفاجئة وملامح الدهشة والحزن العميق في وجه أبويه، زاد من غربته وحفر عميقاً في الذاكرة الطرية التي عرّشت بتفاصيل البيت في بلدته "يازور" التي صارت وسع البلاد، وصارت البلاد هي الكون ونافذته الوحيدة فلسطين.

الذاكرة والأحداث الصغيرة وفسحة التأمل وبواعث المخيلة النورانية لم تجنح نحو نوازل الحياة، وكانت كلما سار الزمن بها ومعها تنهض رغم رماد النكبة وتشير إلى هوية مبدعة يشتعل جمرها رغم أنها تبدو ملتحفة بالرماد.

قد تتوالى الميول والهوايات علينا باكراً وتتلون وتتبدل بصورٍ ربيعية وخيالاتٍ تغازل نجوم الليل، لكن قلة هم الذين يشكلون غدهم كما تشتهي رياح القلب والعقل وليس رغبات الأسرة التي تريد أن تعجن مستقبل أيامنا كما تشاء.

أحمد جبريل لم تبدل قوانين الأسرة ورياحها وأمنياتها إصراره العنيد على صنع قارب العودة بيديه والذهاب في رحلة تموج بحارها بأعتى العواصف.

الفتى الوحيد بين عدد من شقيقاته لم يرضخ لإلحاح الأسرة ليدرس ويصبح طبيباً مثل جده، وأصر على خياره الوحيد رغم تعدد خيارات الدراسة. التطوع في الجيش كان طريقاً لتحقيق هدف يكبر في عقله وصدره ويشكل جسر العبور نحو يازور. ورغم العوائق التي وضعت في وجهه أكثر من مرة، ينجح أخيراً بالالتحاق بالكلية العسكرية في مصر لتبدأ رحلة التكوين وترتيب الواقع والغد في مجابهة مع ما يراه البعض تمرداً على المستحيل وتحدياً لواقع قرر كبار تلك المرحلة أن عدم الركون إليه يعني الدخول في متاهة العبث والقفز عن قوانين الدول وحدودها وفلسفة الهدوء وفريضة الولاء لحسّ الجماعة الغريزي وفضيلة الصمت التي تستر العجز عن البوح بتلاشي الإرادات وانكسارها أمام فلسطين التي تسرّبت من بين أيدينا ومن جبهات الجيوش.

ولأن فلسطين هي نافذته على الكون وهي بيت أسرار طفولته ونداء الروح المفعمة بالحياة، فقد سار الفتى وراء قلبه ليتماهى كل هذا الحب مع رحلة البحث عن الأسئلة التي عجز الكبار عن حلّها وعن إعادته إلى يازور.

مع فلسطين ورحلة العودة من بحار الضياع ومجابهة شتيمة اللجوء والأسئلة البلهاء التي يرشقك بها من رجموك بتهمة الفرار من فلسطين وبيع قلبك، لا خيار أمام قوة المستحيل إلا صناعته.

لا يتسع الوقت لمزيد من التأمل والتفكير وانتظار أن يخطّ الزمن ملامحه فوق وجهك حتى تكون (جمل المحامل) وعلى كتفيك تحمل الصخرة وشوارع القدس العتيقة ليس لتدحرجها مثل (سيزيف) كلما صعد نحو القمة.

غاندي لا يواجه (مصارع الرب)

مضى نحو الكلية العسكرية في مصر وراح يبشر بالثورة. كان وهو يسابق الوقت غير عابئ بما يعنيه أن تخالف بعض القواعد العسكرية كضباط في الجيش. وكان كل همّه أن لا يجفف الصمت الحقيقة التي عاشها والرواية التي كتبت شواهدها زمن جده الكنعاني.

لا آذان تصغي ولا وقت لانتظار الزمن لإثبات زيف الرواية الخرافة التي اتهموا الله بها وادعوا أنه رضخ في لحظة ضعف؛ لمشيئتهم وطوّب لهم فلسطين.

جاء في سفر التكوين الإصحاح (24 – 32) أن يعقوب الذي يجهل الله اسمه، قد نال لقب (إسرائيل) أي "مصارع الرب" حسب المفردات العبرية، بعد أن صارع الرب الذي جاءه على شكل إنسان أو ملاك. ولأن الرب لم يقدر على يعقوب، قال له: "أطلقني لأنه طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني". السفر– 26

"فقال له– الرب: ما اسمك؟ فقال: يعقوب"

"فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب؛ بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت". السفر– 28.

في مواجهة وعد الرب لإسرائيل تدحرجت الخرافة، وصارت عقيدة سياسية مع اليمين المسيحي منذ القرن السابع عشر على أيدي المهاجرين البروتستانت؛ الذين فروا إلى أمريكا هرباً من الاضطهاد الديني، وهناك استنسخوا وما زال فكرهم الاضطهادي الذي ولد من رحم تعاليم الكنيسة البروتستانتية المسيحية الصهيونية، وقناعاتهم بأن شرط عودة المسيح المخلّص لا تتحقق إلا بقيام "إسرائيل" على أرض فلسطين.

المسيحية الصهيونية عبرت عن ذاتها بضرورة مسحنا عن وجه الأرض وتطهيرها منا لتستوعب يهود العالم كشرط مسبق لمعركة (هرمجدون) النووية التي ستطهر الأرض من الشر. وفي ترويجه لتلك المعركة يرى المؤمن بدور القنبلة النووية (المحبة لإسرائيل) المسيحي الصهيوني الواعظ (كينين كوبلاند) حفيد السلالة البروتستانتية أن "الله أقام إسرائيل وهو يتحرك لأجلها. إنه وقت رائع أن نبدأ في دعم حكومتنا طالما أنها تدعم إسرائيل".

فماذا يفعل الفلسطينيون ليحموا رؤوسهم من الجزّ ويواجهوا إزهاق الأجنة في بطون أمهاتهم ويجابهوا شهوة الدم والقتل ونصال الذبح أو لهب المحارق ؟! وحادثة الطفل أبو خضير وإحراق عائلة الدوابشة شاهد ليس بعيداً.

هل نحن بحاجة لثورة فكرية ونظرية ثورية لندفع الموت عن تاريخنا ومستقبل أجيالنا؟

تجربة السنوات المبكرة من شباب أحمد جبريل التي اكتوت بنار الإرهاب الصهيوني جعلته يؤمن أنه لا يستطيع أن يكون غاندي الذي تطوع كطبيب في الجيش البريطاني قبل أن يكتشف طريق الثورة (السلمية) حيث لا خطر على اقتلاع الهنود من أرضهم وتاريخهم، وبالتالي فإن الصراع للخروج من ظلال العبودية السياسية ليس مثل صراع الوجود والتاريخ والهوية، وسباق الوقت في وجه الأفكار البروتستانتية النووية في مواسم التسابق على إلغائنا من قبل الحكومات المؤدلجة على توقيت أفكار معركة (مجدو) النووية لا تسمح حتى لمفكري حزب (راكاح) الشيوعي بتحقيق بعض الفلسفات النظرية القائمة على إمكانية سقوط أفكار المؤسسة الصهيونية من داخلها؛ بالنظر لما تحمله من تناقض في بنيتها حسب قناعاتهم.

الثورة حتى تكون قادرة وتنتصر ليست مجرد بضع رصاصات تطلق في وجه الريح أو أمنية تتحقق بالدعوات والابتهالات..

قبل أكثر من خمسين عاماً وخلال اجتماع مع الخلايا الأولى للجبهة في أحد بيوت مخيم اليرموك سأله أحدهم: هل تبشرنا بأننا سنعود قريباً إلى فلسطين؟

أجاب جبريل: أنظر إلى ذلك الطفل الجالس في "الكرّيجة"، ربما يراها هذا الطفل حين يصبح رجلاً، وربما لا. ربما الجيل الذي سيأتي من بعد، أو الذي يليه.

وكان ذلك الطفل هو "جهاد جبريل" ابنه البكر؛ الذي استشهد بعد أن اغتاله الموساد الصهيوني في العشرين من أيار عام 2002، وكان يشغل مهمة المسؤول العسكري في الجبهة.

الثورة المعاصرة كما خطّ مسارها "أحمد جبريل" كانت تجسيداً أرسى مفاهيمه التي تجذّرت عبر أكثر من نصف قرن بملح البدايات وخبرة الفعل والروح والتجارب، وكما رآها في أول التوهّج وأول العزم؛ ليست نتاجاً لثورة العاطفة المشحونة بروايات الجدات، على الرغم من أهمية ذلك، بل هي مغالبة بؤس حياة التشرد والانتصار على عواصف التيئيس والإحباط وخذلان ذوي القربى وطعنات الغدر والتشكيك بنزاهة الهدف أمام الحدود العربية المسيّجة بخوف الأنظمة ورعبها من تجاوز خطوطها الحمراء.

آنذاك، كان العمل الفدائي موضع تهمة وتشكيك فيما اعتبر البعض أن الثورة صناعة وأطر وشعارات وخطب حماسية تعبوية، وأن مسألة التحرير قاب قوسين وأدنى، وبمجرد دفع الأنظمة العربية للاشتباك القسري المباشر مع العدو وتوريطها في الصراع ستقلب المعادلة ويزجّ بالمنطقة في أتون ثورة شاملة تجهز على العدو بالضربة القاضية.

ظلّ أحمد جبريل يزرع ورفاقه الذين آمنوا بأسلوبه خلايا المقاومة المنيعة في شعاب الأرض المحتلة وليس في ذهنه الذهاب تحت إغواء الأضواء إلى التنافس مع أحد على لقب صاحب الطلقة الأولى.

الفئة المؤمنة بفهمه للثورة ومناقبية ثوارها، التي سارت معه في معركة العودة والتحرير نجحت في اجتياز الامتحانات الصعبة لإغواء المال السياسي التي لاحقت حتى المقاتلين في القواعد الذين صبروا على الجوع والتجويع ولم ينقّلوا سيوفهم أو قلوبهم بين هذا وذاك وظلت أبصارهم وبصيرتهم بوصلتها فلسطين.

ليس من السهل أن تقنع وأنت في مقتبل العمر من استجابوا لدعواتك السرية للذهاب نحو الشهادة بأنك قادر على تحمل مسؤولية وأعباء الإبحار بهم وقيادة سفينة الأمل.

كان أعضاء الخلايا الأولى من فدائيي الجبهة يتهامسون عن دور الرجل الذي التفوا حوله واستجابوا له واطمأنت قلوبهم لحضوره ومنطقه الذي سرى بينهم لما فيه من تأثيرٍ وإقناع جعلهم يثقون به.

ثمة حادثة يرويها رفاقٌ من الرعيل الأول للجبهة؛ فبين فكرة تأسيس (جبهة التحرير الفلسطينية) وبضع سنين من تكوين الخلايا الأولى، لم يعرف عن نفسه لرفاقه باسمه الحقيقي "أحمد جبريل" بل عرف باسم "سعيد"، ولم يقدم نفسه على أنه قائد الجبهة ومؤسسها واكتفى بأن يعرف ذاته كرسول بينهم وبين القيادة التي لا تسمح الظروف بكشف أسمائها.. ذلك ما كان يردده أمامهم كلما طالب بعضهم بلقاء القيادة ورأسها، وكأنه يقول في نفسه "المهم أن يشتد عود التنظيم.. المهم أن نحمي الثورة من خطر الذاتية والارتجالية والتجريب".

كان يخشى من تشظّي الحلم على أيدي الهواة في أجواء نشوة الحماسة الجماهيرية وزحمة البيانات العسكرية الإنشائية.

الفرق بين موتين!

ماهية شخصية جبريل التي تمتلك الحجة والذهن الإبداعي وهو يخط مساراً ونهجاً للفدائيين وما زال في أوائل العشرينات من عمره، أثمرت بعد عقد من الزمن إبداعاً ثورياً من خلال عمليات فدائية مبتكرة مثل الخالصة أولى العمليات الاستشهادية في الساحة الفلسطينية وعنوان مدرستها التي اتّسعت.. تلك العملية استوقفت وقتها باحثين يابانيين ودفعتهم للاستقصاء والبحث عمّا إذا كان الفلسطينيون يؤمنون بتقمص الأرواح مثلهم كي يمارسوا فعل (الكاميكاز)!.. وحين

اكتشفوا سرّ أن يختار الفدائي لحظة وشكل موته، انحنوا بأدب واحترام وصمتوا، فثمة فرق لا حدود له بين أن تموت من أجل الإمبراطور وعرشه ثم تحيا هائماً على وجهك في مكانٍ آخر وبين أن تقتل ولا تموت وتملأ السماء فرحاً حتى لا تحزن الأرض ويستعبد أهلها.

أما عملية الطائرات الشراعية التي هزت أركان المؤسسة العسكرية الصهيونية واخترقت بنيتها الحصينة، فقد اعتبرها خبراء الاستراتيجية العسكرية أنها عبقرية الفعل الثوري في أبلغ صورة، وعنها قال خبراء السياسة أنها الصاعق الذي فجر انتفاضة الحجارة، وعن أبطالها قالت الصحافة الصينية: "التنين الهابط من السماء"، أما الإيطالية فقالت: "لو قدر للفلسطينيين أن تقوم لهم دولة فأول عمل يجب أن يقوموا به هو نصب تمثال لخالد أكر مفجر الانتفاضة في أهم ساحات مدنهم".

المسار والنهج المتجدد مع عمر الثورة والجبهة يتجلّى من خلال تفاصيله الغنية بأعظم عمليات إطلاق سراح الأسرى من سجون الاحتلال كما حصل في عمليتي "النورس" عام 1979 و"الجليل" عام 1985 اللتين أذلتا جيش العدو وقادته، خاصةً حين أجبروا في عملية الجليل على إطلاق سراح 1150 أسيراً فلسطينياً وعربياً من سجونهم، ويومها قال العدو على لسان قادته وجنرالاته: "ما جرى كان صفقة عار وهزيمة استراتيجية".

ليس جبريل من ينشد مجداً ذاتياً، وهو الزاهد في إنكار الذات ويحرّم رفع صوره في المكاتب، فالشهداء وحدهم يستحقون صدارة المكان والزمان. لكن التاريخ والزمن المنزّه عن ثرثرات الصفحات المكتوبة بحبر المال وشعراء البلاط يأبى أن يمرّ بصمت حين يذكر قادةً بنوا مجداً لشعوبهم وأممهم وأسهموا في كتابة صفحات تختصر الأزمان، فالرجل الذي لهثت خلف أخباره وسائل الإعلام العالمية وبحثت الكاميرات عن ملامح وجهه كان يأبى الظهور ويؤمن أن ظروف المعركة ومسيرة النضال ستفسدها الكاميرا حين تدخل قواعد المقاتلين وتتجول مع القائد في الوديان والأحراش.

ما بين عام 1959 حين راح يؤسس التنظيم، وعام 1976 مرّت ثمانية عشر عاماً دون أن يعرف صورته سوى الفدائيين.

عذر جيفارا وملهاة أبو القناني

التجربة العسكرية الفدائية في الأردن ولبنان أحدثت في أحد مفاصلها صدمة قاتلة.. فقد احترق جانب من مساحة الحلم الخضراء، وحين صارت المقاومة في واد والجماهير في وادٍ آخر اقتلعت الثورة من بيت الأمان.. من بين جماهيرها!!

تكاد الصورة رغم فوارقها تذكرك بمأساة جيفارا في أحراش جنوب شرق بوليفيا يوم وجد نفسه مع ثلّة من رفاقه وحيداً محاصراً وغريباً في أرض وناس لم تحضنه رغم عظمة أهدافه النبيلة في تحرير أمريكا اللاتينية من الاستعباد الأمريكي، حين تسربت الثورة من بين أصابع الثائر الأممي يوم وشى به فلاح بوليفي لم يرَ بجيفارا مخلصاً له.. يقول المزارع البوليفي (مانويل كورتيز) بعد مضي أربعين عاماً على لقائه مع جيفارا وهو واحد من بين قلائل التقوا به:

"لم نكن نعرف الثوار جيداً في تلك المرحلة. كنا نخشاهم.. الجيش كان يحذرنا من أنهم يأتون لسلب أرضنا".

وقلةٌ هم الذين تساءلوا مع جبريل: لماذا اقتلعنا من بحرنا الجماهيري؟

كان يعلم أن أبناء المخيمات حاضنة المقاومة، لا يمكن أن ينقلبوا على أنفسهم وينبذوا الثورة التي انطلقت لأجل تحقيق أحلامهم وأهدافهم بالحرية والعودة ولكن الثورة اقتلعت من محيطها!!

ربما يجد بعض البوليفيين عذراً للفلاح البوليفي الذي وشى بجيفارا نتيجة الجهل والتضليل، لكن ماذا عن الفلاح الفلسطيني الذي رأى الفدائيين أول الأمر على شكل ملائكة؟.. لماذا أحسّ بعد زمن أن هوة عميقة كانت تكبر بينه وبين ذوي البدلات المرقطة؟!

يحكى أن أحدهم من ذوي تلك البدلات أو الياقات المنشاة ويدعى (أبو القناني) قد أقام عرساً لابنه في أحد ليالي مدينة إربد فأشعل سماء المدينة بطلقات الدوشكا ابتهاجاً، وكان بذلك يجرح صدر السماء ويرشق وجه الثورة بالسواد ويملأ صدرها بثقوب الفوضى والعبث ويدمي قلوب من تعلقت آمالهم بالفدائي الملاك.

اكتشف الناس أن كثرة من قادة هؤلاء الملائكة ليسوا كما ظنوا وأن كثيرين بينهم يعشقون ثرثرات المقاهي والتقاط الصور مع البنادق وخلفها !!

وكان ثمة من يتربّص بهم ويحصي أخطاءهم، بل ويتقمّص أدوارهم ويضيف إليها جرعة زائدة حتى يصل السواد إلى عمق الصورة، وهذا ما كانت تفعله (كتائب الشريف ناصر الملكية) بقرار ملكي.

ماذا يفعل أحمد جبريل حيال ذلك؟.. الرجل الذي لا يعرف صورته ويسمع بصوته ويرى أفعاله أحد سوى الفدائيين؟.. لا يمكن لمن اختار درب الثورة أن يسير في دربها على طريق (أبو ذر الغفاري)، فأن "تمشي وحيداً وتموت وحيداً" كما هو حال الغفاري، هو أمرٌ لا يستقيم مع الرؤية والدور وفعل المقاومة وزرع الأمل مهما نمت في الدرب أشواك القبيلة ومهما بدت الطريق موحشة. ولم يكن وارداً أن يدير ظهره، لمن وثقوا به واطمأنت قلوبهم لمساره وسيرته واقتنعوا أنه يسير بهم نحو فلسطين..

قدرك أن تكون ينبوع التفاؤل ولا تكشف عما يموج في القلب من غضب وصراع مع ظواهر الإحباط التي استطالت وهاجمت أورامها السرطانية أنحاء مختلفة من قيم الثورة ومفاهيمها ومبادئها..

آمن أحمد جبريل أن الثورة علم وعمل وسلوك وخلق عظيم وعقيدة، وأن من ينصر الله ينصره ويثبّت أقدامه، وكما كان يعمل كضابط خبير في هندسة المتفجرات وفق قاعدة لا تسمح بالخطأ حيث الخطأ الأول في التعامل مع المتفجرات هو الخطأ الأخير، رسخ في عمله بين الفدائيين وفي بناء التنظيم معاني ومفاهيم سامية للقتال ضد العدو انطلاقاً من بناء الفدائي الإنسان مع ذاته ومحيطه. ولمزيد من إحكام هذه المفاهيم ميدانياً ومنعاً لأي انزلاق نحو المظاهر الاستعراضية وسطوة البندقية المختالة بذاتها ولذاتها، عمل على تحصين البيئة الثورية وشعاره (المدينة مفسدة الثوار) فبيئتهم هي قمم النسور والصقور ومواقع الثوار هي الجبال والوديان والأحراش.

في ثقافة الفداء على طريق تحرير الأرض والإنسان، للروح الفدائية السامية منزلة عليا تستوجب أنسنة الأماكن الموحشة وبعث الضوء والحياة في باطن الأرض العاتم المخنوق.

هي جماليات الأماكن التي تتألق بأنفاس من نذروا أنفسهم لتزين السماء.

تجربة الأنفاق المؤنسنة كانت مثل رحم الأمهات تحمي فدائيي الجبهة من مئات الغارات الجوية التي شنها الصهاينة وكانت قواعد ارتكاز لا يأتيها الموت المجاني، بل صارت مصيدة للغزاة، كما حصل حين حاول العدو الانتقام لعملية الطائرات الشراعية وأغار على أنفاق الناعمة عام 1988 فقُتل قائد الهجوم وعدد من الجنود المهاجمين وكاد يقع في الأسر عدد آخر. وفي مكان آخر وقواعد تنظيمات عدة كان الفدائيون يتساءلون لماذا تترك قواعدنا بين السماء والطارق في بناية أو تحت الخيام؟!

معنى الفداء والفدائية: هي إدامة الاشتباك المباشر مع العدو في أرض المعركة وليس عبر عمليات القشرة السطحية أو إطلاق صاروخ من هنا وهناك. وبنفسه ومن خلال قيادته للعديد من الدوريات العسكرية التي امتدت مساحتها على كامل أرض فلسطين أرسى وطور القاعدة الأثيرة لفهمه العسكري "ليس مهماً أين تصل قذائف المقاتلين، بل المهم أين تصل أقدامهم".

التجربة العسكرية التي اختطّها جبريل وكان حريصاً أن تكون مدرسة عامة في الساحة الفلسطينية أعاق تجذيرها التهافت على الشهرة الذي حكم تصرفات المتعجلين على إنجازات سريعة وخاطفة والصراع على لقب التنظيم القائد والأكثر حضوراً في ساحة الإعلام والدعاية واقتناص مشاعر الجماهير الفلسطينية والعربية التي كانت في حالة غليان واندفاع حماسي ومبهورة بالثورة والفدائيين الذين اخترقوا ليل الصمت العربي بعد النكبة ثم النكسة وهزيمة الجيوش العربية عام 1967.

الأسئلة المحرمة!

أُخرجت المقاومة الفلسطينية من الأردن، بل اقتلعت من بحرها الجماهيري بعد أن أثخنت جراح مجازر أيلول جسدها وأثقلت خطواتها اللاحقة.

إلى لبنان حملت المقاومة الفلسطينية تجربتها في الأردن دون أن يجيب أحد عن أسرار مأساة ومجازر أيلول، عن سر التجربة التي فشلت ولم تزهر فصولها أو يُبحث في الظروف الذاتية والعوامل التي استغلها النظام الأردني لينفذ مخطط ضرب الثورة وتهجيرها.

وبينما كان جبريل يعيد تقيم التجربة ضمن أطر الجبهة حيث جرى محاسبة أعضاء في المكتب السياسي وإقالة من قصّر في اللحظات الحاسمة، كانت تولد في بيروت (جمهورية الفاكهاني) وصار في أكثر من قرية لبنانية إلى جانب مختارها مختار آخر يرتدي بذلة مرقطة! وتبخرت دعوات جبريل التي أطلقها في المجالس الوطنية واللقاءات القيادية الفلسطينية لأهمية الاتعاظ مما آلت إليه المقاومة في الأردن خوف أن (تلدغ المقاومة من ذات الجحر مرتين).

لكن ما نفع صرخات الشاهد وأسئلة الشهداء أمام الزبد المتدفق مع نهر الكلام المزركش عن بطولات الهزيمة وفلسفة الانتصارات الخاوية وتحميل المؤامرة أوزارنا وخطايانا!

إما أن تكون شريكاً أو صامتاً أو حيادياً أو تقول كلمتك وتغادر وعلى أبعد حدٍ أن تكون مجرد روائي سريالي يعجن الحكايات خارج الزمان والمكان.. وأي دور غير ذلك فأنت خارج بنية النص الثوري الواقعي الذي يحيي العظام وهي رميم، وحين يتعلق الأمر باختلاف حول إدارة المعركة العسكرية والسياسية ستجلد بسياط المتنفذين ومن نصبوا أنفسهم أولياء أمر الشعب والثورة، وستلاحقك تهمة العدمية والتطرف وتتهم باللغة الخشبية.

من يعرف أحمد جبريل عن قرب أو حاول تلمّس سيرة حياته وتتبّع مسار خطواته ونهجه في الحياة والمقاومة سيدرك أن الرجل لا يرضى أن يكون شاهداً حيادياً أو راوياً لأحداث مبهمة وقد عاش كل تفاصيل التجربة وخاضها وتماهى معها بمشاعره وأحاسيسه وعقله وسيفه.

حرصه على نقاء الفكرة ومسار الثورة هو ذات الحرص على خوض الحرب الشعبية بفدائيين لا يموتون برصاصة طائشة أو بالغلط كما يقال، أو لقلة خبرة ونقص في التدريب لأن "المقاتل الجيد لا يقتل" بسهولة، مع إدراكه أن قوافل الشهداء ستتلوها قوافل على طريق التحرير والعودة لكنه قانع بأن مجتمع الثورة لا يتقدم ويحقق الانتصارات بغير قاعدته من الفدائيين المحصنين بوعيهم وسلوكهم الثوري، وتلك البنية الثورية هي التي تحمي ذاتها من التبعية (والاستزلام) وتحمي القرار

السياسي من الانحراف بما تملك من قوة ووعي وإرادة وشجاعة تدافع بها عن الثورة فلا يهدر دمها هباءً ولا يفرط به.

الأفكار النظرية ومسار التجربة المعمّد بالدم والدفاع عن الثورة وحماية الهدف والجدل بالتي هي أحسن لا يحتاج إلى عبارة الفيلسوف الغامضة بل لقوة العبارة والموقف الواضح الذي ينبض بعمق الفكرة، وهو ما اتصفت به لغة جبريل الحاسمة الواضحة النقدية، وبالعمق الملازم للموقف الصريح حتى تصل الفكرة دون موارية، بل وبقصدية مباشرة حين يقتضي الأمر وضع الأصبع على الجرح والنقطة فوق الحرف، حيث تكون العبرة في اللغة التي تفتح آفاقاً لا لبس فيها، خاصة وأن الساحة الفلسطينية باتت تتأرجح بين الأيديولوجيا والفكر السياسي المستولد من نصوص طغت عليها الترجمات الحرفية وأخرى جرى تهجينها بلقاحات فكرية قومية وإسلامية تعددت مراجعها ومشيخاتها، الأيديولوجيا والفكر السياسي الهجين فيما كانت الثورة في بواكير عمرها.. تلك الأيديولوجيا بما تحمله من إحالات على الفكر السياسي لمجتمعات مستقرة أو في حالة صراع طبقي حاد فيما بينها، بخصائص وأهداف سياسية واقتصادية وبرامج عمل لا يمكن إسقاطها على واقعنا السياسي والاجتماعي وطبيعة صراع الوجود والهوية الذي نخوضه كحركة تحرر وطني.

راهن من وظّفوا فرص وعوامل الاحتواء السياسي والمالي لإذابة معنى الوحدة خدمة لتيار سياسي أو مرجعية إقليمية، على النزعة الأبوية التي حكمت عقلية بعض القيادات الفلسطينية ما أسهم في وأد أبرز المحاولات الجادة التي قام بها جبريل حين حلّ تنظيم (جبهة التحرير الفلسطينية) الذي أسّسه وثبّت مكانته في ساحة القتال مع العدو الصهيوني، وشكّل مع "شباب الثأر" و"أبطال العودة" الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام 1967. تلك المحاولة هشّمتها نزعة الاستئثار بالقرار والاحتواء وإحالة كل إنجازاتها وتوظيفها خدمة لتيار سياسي لم يراعِ شروط الوحدة، وقبل ذلك مدّ جسور الوحدة مع حركة فتح وصيغتها الأولية على طريق الوحدة التي تمثلت بالإعلان عن قيام (قيادة طوارئ موحدة) بين جبهة التحرير الفلسطينية وفتح.

للأسف لم يُكتب لكلا التجربتين الوحدويتين الاستمرار فالنزعة التنظيمية والمرجعية الفكرية السابقة على الوحدة والولاء للتنظيم الأول، ظل يلقي بظلاله السلبية الشاحبة على الحياة السياسية والتنظيمية للحالة الوحدوية.

رغم ما عرف عنه من تشبّث مبدئي بالثوابت الوطنية في زمن التحولات والانعطافات الكبرى وحرصه أن تكون منظمة التحرير بيتاً لحركة النضال الوطني الفلسطيني وإطار عمل جامع يقارب تجربة جبهة التحرير الوطني الجزائرية، إلا أن واقع المنظمة المحكوم بتحالفات ونفوذ القوة الأكبر بدعم المال السياسي العربي المشروط عرّض المنظمة إلى هزات كبرى مسّت مسار العمل المشترك وبنية حركة التحرر الوطني الفلسطينية، وطالت بتأثير من سياسة الهيمنة والتفرد بالقرار، الفصائل الفلسطينية التي عارضت تلك السياسات وأبت الرضوخ للأمر الواقع ولظاهرة الواقعية السياسية الميكيافيلية التي بدأت تغزو برنامج وميثاق منظمة التحرير الفلسطينية.

غدر الخوارج ورقصة شارون

مكرهاً على خوض أبشع مستنقعات الحرب وحالات الدفاع عن بيئة ومكانة ودور المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية بعد أن بات يهدد وجودها المد الانعزالي الكتائبي المدعوم صهيونياً في ما عرف بالحرب الأهلية اللبنانية، حين كادت تنهار خطوطها الدفاعية في قلب بيروت الغربية، وجد جبريل نفسه خلافاً لقناعته مجبراً على كسر القاعدة التي حمت المقاتلين من التماس مع رخاوة المدن ومفسدة لياليها، وتحت وطأة الضغط والمناشدات من قادة فصائل لبنانية وفلسطينية اتخذ القرار الصعب والمر لوقف الانهيار الكبير فنزل مقاتلو الجبهة من قواعدهم إلى قلب المدينة وقلبوا المعادلة.

بنفسه قاد المعركة وأصيب فيها، لكن جرحاً في النفس وفي جسد المقاومة لم يلتئم.. اتسعت ساحة الرمال المتحركة، وكان ثمة من يدبر في ليل القبيلة الإجهاز على (القيادة العامة) ورأسها بعدما باتت تهفو قلوب المقاتلين إليها وتغرد خارج سرب (الحمام) الذي يهدل طرباً بأنشودة (السلام).

نصال غدر الخوارج تكسرت على نصال أبلسة الموقف المبدئي لرجل أبى أن تشبّ نار المحاور العربية في الحبل السري للجغرافيا السياسية ما بين سورية والمقاومة، كي يتم تقديم رمادها قرباناً لهنري كيسنجر وصحبة (العرب)، وكان المتراقصون حول رمادها يحتسون خمرة شق الجبهة.

ينجو جبريل من جهلاء قريش ويمضي بالثورة فحربه ليست هنا .

مرت بضع سنين وشارون يعدّ لرقصة أخرى على جسد بيروت وأشلاء صبرا وشاتيلا .

حمل جبريل قفصه الصدري رغم تحذير الأطباء بخطورة حالته.. غادر المشفى، ومال على ظهره ممتشقاً قامة المحارب، ووصل بيروت قبل أن يطبق الحصار.

وظّف كل إبداعه لإقامة خطوط دفاعية أساسها فدائيون وهبوا الله أرواحهم.

رغم آلام ظهره أتم مع المقاتلين عملية خندقة ومترسة المدينة وهو الذي وصفه ناشر كتاب (إسرائيل في مواجهة جبريل) الأمريكي، (صموئيل كاتس) أنه أحدث ثورة في حرب العصابات بابتكاراتٍ جديدة وبنى بذكاء قوة هجومية من (تكنو إرهابيين).

قاتلت بيروت لكنها سقطت...

صمد الفدائيون وأبدعوا واستشهد الأبطال.

وكان قرار الرحيل على ظهر السفن (الأطلسية) المستأجرة مع (بوليصة تأمين بتوقيع الوسيط الأمريكي (فيليب حبيب) على أمن أهلنا في المخيمات المفجوعين من رحيل البنادق المُطَمئنة، شرط أن لا يفكر مقاتل واحد بالعودة سراً أو علناً إلى لبنان.

عبثاً حاول جبريل أن يقنع من خالفوه الرأي الاستمرار بالمقاومة..

عبثاً حاول أن يبدل رياح السفن بما تشتهي الثورة.

يمّم وجهه شطر دمشق فيما أبحرت سفنٌ أخرى نحو شواطئ لا منارات فيها .

لم تشفع لأحد أهازيج المغنّي وهو يردد : "يشهد الله علينا يا بيروت..".

سقطت بيروت.. غضب البحر، وماتت الابتسامات على شفاه أطفال صبرا وشاتيلا ...

بألمٍ يعصر القلب ويدمي صفحة الأمل، استمع جبريل لبعض قادة الفصائل وهم يندبون المرحلة. وبكلامٍ نائحٍ يقول بعضهم: "لقد سقطت المرحلة". جوابه كان فعلاً وإرادة.

عاد مع فدائيين قدّت عزيمتهم من كبرياء وشموخ وإيمان مطلق بالنصر وإن طال الزمن.

عاد إلى البقاع والجبل لتبدأ دورة أخرى في مسار الثورة الصعب..

تحرّر الجبل وانتفضت بيروت وهزم المارينز..

نهض الفعل مع الإرادة التي تلاقت وتكاملت مع مسيرة حزب الله وفاتحة الانتصارات..

لتثبيت تلك الانتصارات وحمايتها من لعبة الاستثمار في سوق السياسة الاستهلاكية، وعقد الصفقات بذريعة غياب الظهير العربي والإسلامي، وبكائية يا وحدنا، ومقولة (القرار الوطني المستقل) رأى جبريل أن منطق كتاب الثورة وفلسفتها الثورية الواقعية يستوجب بناء تحالفات معيارها مدى قرب هذا النظام أو ذاك من فلسطين والالتزام بحقوق شعبنا التاريخية.

كان ثمة من يخلع صاحبه ويراوغ في المكان، ويثبت صاحباً في مكانٍ آخر حسب قواعد التكتيك الجوال بين العواصم وأهوائها وإملاءاتها المثقلة بالمال والملفات الصفراء. ودفعت الجبهة ثمن تحالفاتها مع من آمنوا أن لا حرية ولا سيادة واستقلال حقيقياً لبلادهم ما دامت فلسطين تحت الاحتلال.

اتهمت الجبهة بعقيدتها الفلسطينية الكفاحية لأنها لم تغسل مواقفها بمال النفط، ولم تعطّر برامجها بالروائح والمفردات الباريسية والأمريكية، ورشقت بماء النار لأنها تحالفت مع دمشق، وأقامت اعتباراً لمعنى الجغرافيا السياسية الحاضنة. ووصل حدّ الاتهام أن شرعنت (الفئة الباغية) استباحة دم من يتمسّك بهويته الوطنية وأصالة الانتماء لوطنه وأمته.

ولعلّ أخطر فصول حروب الهوية شنّ حرب مذهبية مسيّسة على العلاقة الجهادية مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية التي شخّصت بدقة أن جسد الأمة سيظلّ مهدداً بوجوده، ولن يتعافى إلا بزوال الاحتلال "إسرائيل غدة سرطانية يجب استئصالها".

نحيب التلمود وقَسَم الاغتيال

الخوف والهلع الذي زرعه في قلب يهوه وجنوده منذ كان يفكك الألغام التي سيّجوا أنفسهم بها ويعيدها إليهم لتتفجّر بين المستوطنين والخبراء ورأس الخرافة، جعلهم في حالة بحث محمومة وعجولة عن آثار الفدائيين وقائدهم.

بعد عملية الخالصة الاستشهادية فاتحة العمل الاستشهادي المبهرة لجؤوا إلى لعنات الحاخامات ودعواتهم لعلّ تعاويذهم تساعد في اختطاف أو قتل العقل الذي يأتيهم بالموت على أيدي فدائيين يتزنرون بالشمس ويفجرون أنفسهم وهم يبتسمون فيما يعلو نحيب التلمود.

تنوّعت أساليب الموساد وملحقاته الأمنية وأذرعه المدسوسة في خوابي العواصم المترهلة وهم يقتفون آثار الرجل الذي نوّع في مفاجآت الموت، يباغتهم به رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، مثلهم الأعلى الشهيد الأول للجبهة (خالد الأمين) الذي مضى نحو الشهادة، وفي شهر رمضان الكريم، وزوجته حامل، زوادته قرآن ورشاش بدائي وبضع طلقات.

تكثّفت جهود استخبارات مستعربة مع الموساد فكمنوا له في غير مكان إلا أن فطنته وحدسه ويد الله أعمت أبصارهم عنه.

عرفوا ولعه بالقراءة فأرسلوا له كتاباً مفخخاً، وشاء القدر أن ينفجر بين يدي ساعي البريد.

ظنّوا أنّ حملتهم قبل الفجر على أنفاق الناعمة - وقد رصدوا قبل يوم أن جبريل فيها- ستحقق لهم هدفاً مزدوجاً وهو دفن المقاتلين في الأنفاق وخنقهم بالغازات السامة المحمّلة بجعب على ظهر كلاب بوليسيه مدربة، واغتيال جبريل والأفضل أسره حياً حتى يقنعوا جيشهم بأنه بات أسير قبضتهم وليس شبيهاً له.

وأكلوا أصابع الندم والخيبة حين اختطفوا طائرة الركاب الليبية ظناً منهم أن جبريل على متنها.

أقسم الحاخامات وعسكرهم بربّ الجنود أن لا يغمض لهم جفن وأنهم لن يعرفوا راحة يوم السبت، قبل أن يحرقوا قلبه، وكان الهدف اغتيال نجله الأكبر جهاد.

قتلوه، وشُبِّه لهم أنّ المهمة المستحيلة قد أنجزت.

توهّج دمه برداً وسلاماً في قلب جبريل، فالبنادق التي أبحرت من شواطئ لبنان إلى غزة مع سفنٍ راوغت الليل ونثرت التراب في أعين الحصار، تحدّثت في غزة وبثّت وصايا جهاد وهو يُوَدِّعُ قلبه مع كلّ بندقية وطلقة زوّد الفدائيين بها.

أوهام التكتيك

البرامج اليائسة وتلك المنهجة التي تسللت إلى الساحة الفلسطينية بذريعة اقتناص فرصة انسحاب العدو المحتمل من الضفة الغربية وغزة، بدأت تنسج أوهامها في المفاوضات السرية والعلنية التي سبقت أجواء مؤتمر مدريد وتوّجت في أوسلو..

واجهت الجبهة نذر ومقدمات (حصان أمريكا وطروادة) بتحالفات فلسطينية عبرت عن نبض الناس.

كل تلك التحالفات أخفقت في تفعيل الأطر التي أنشأتها، وأرجحت مواقف بعض قواها لغة التكتيك والممارسة البهلوانية لمعنى ومفهوم الحفاظ على الوحدة الوطنية وقواعدها..

المأساة التي أصابت الساحة الفلسطينية وشتّت شمل صفوف قواها وفصائلها حصلت مع الإطاحة بميثاق المنظمة واغتيال روحه باستئصال البنود التي تؤكد على حقّ شعبنا في الكفاح المسلح وتحرير فلسطين من بحرها إلى نهرها.

التناقض بين نهج مقاوم وآخر اختزل الحق التاريخي ببضعة أمتار من فلسطين، وغاب واقعياً ونظرياً مفهوم حركة التحرر الوطني الفلسطيني..

شاهد ما شفش حاجة.. لكنه يعرف كل شيء

جرت الصغائر في نهر الثورة ومسّت قداسته..

وجد جبريل نفسه مكرهاً على ملاحقة "العيّار إلى باب الدار" وبكل ما أوتي من حكمة وصبر سعى لأجل رأب الصدع، لعل بواعث الضمير الكلي والإحساس بالخطر المحدق بالقضية يدفع نحو الحد الأدنى من صيغ العمل الوطني..

بتردّدٍ ملحوظ، وفي القلب غصّة، وبحثاً عن بصيص أمل وقّع على تفاهماتٍ وأوراق، بدت غير ناضجة بين فتح وحماس.. وقّع رغم أنه يخشى، بل يعرف أن ما بين السطور لا يعكس ما في الصدور وكتب: "شاهد ما شفش حاجة"..

سأقاتل حتى لو بقيت وحيداً

أشواك القلق نبتت في العيون

تكثّفت كل الحروب السياسية والإيديولوجية والخرافية؛ التي شنّت على فلسطين عبر عقود في (حرب الربيع) الهابط بالمظلة الأمريكية.

تفجرت البلاد، وجزّت رؤوس العباد، وتدحرجت باسم الدين والحرية والديمقراطية والعدالة والتغيير.

إنها الحرب؛ هي الحرب المستولدة من رحم سايكس بيكو وبلفور والمبادرة العربية (للسلام).

حرب القرن وصفقته.. حرب الفتنة المخبأة في جحور المذهبية والطائفية، وتحت عباءة برميل نفط.

حرب تدمير الحلم، وحاضنته الجمهوريةِ العربية السورية.

حرب لاقتلاع رحم الولادة الخصيبة من مخيم اليرموك، وبعثرة حلم العودة وبعثرة ذاكرة العائدين على أرصفة الغربة في جهات الدنيا الأربع.

حرب اغتيال العقل الجمعي للأمة وقبر مشاعرها وآمالها وأحلامها.

ولأنه الشاهد على تعاقب فصول الحرب المفتوحة بجسد فلسطين ويحفظ أسماء القتلة ويعرف عناوينهم، فقد حاولوا قتله وإحراق رفاقه وهم أحياء في (الخالصة) التي أودعها قلبه قبل عقود وأنار سماءها أبناؤه الفدائيون..

نأى كثيرون بأنفسهم وقفز آخرون من مركب البلد المبارك.

جمع جبريل أركان الجبهة وكوادرها وعناصرها وقال: "من منكم أراد خوض هذه الحرب فليتبعني. سأنزل إلى الشارع وأقاتل حتى ولو بقيت وحيداً دفاعاً عن سورية، ليظل طريق القدس عامراً بالحياة".

حتى يبقى طريق فلسطين متوهّجاً بضوء الشجرة المباركة وقناديلها تأتي هذه المذكرات إسهاماً في تقديم جوانب معاصرة من الرواية الفلسطينية وجذورها الضاربة في أعماق التاريخ التي صاغها شعبنا ونسج وقائعها بدم شهدائه ونبض روحه.

تردد جبريل كثيراً قبل أن يسرد ويكشف بشفافية مطلقة عن أحداث ووقائع عاشها وأخرى كان لها تداخلات وانعكاسات على ثورتنا وشعبنا.

حاول وعلى مدار سنين أكثر من باحثٍ ومؤسسةٍ إقناعه بأهمية وضرورة وضع تجربته ورؤيته في عين الضوء، وبين أيدي الأجيال الباحثة عن الشهود والشواهد الناهضة من قلب رحلة الفداء والعودة.

كان يردّد: "إن قلت كل ما لدي سأحرج كثيرين، فقلةٌ من يقبلون الحقيقة ويجرؤون على قولها".

ندرك أن مرّ الحقيقة جارح، وأن قراءة هذه المذكرات ستخضع للتأويل والتفسير لدى البعض على خلفية مرجعياتهم السياسية والفكرية، دون التوقف أمام الإشراقات فيها التي تفتح نوافذ الأمل سواء عبر صفحات المجد المنداة بدم الشهداء والفداء، أو تلك المعتمة التي وضع إصبعه على جراحها.

أنور رجا

الطفولة والنشأة

ذاكرة المكان

في قرية (يازور) التي تقع بضواحي مدينة يافا وتشتهر بزراعة الحمضيات وُلد أبي "علي أحمد جبريل" عام 1910.

جدتي، والدة أبي، رفضت الزواج بعد وفاة جدي الذي خلّف وراءه البيارات والأراضي ونذرت نفسها لتربية أولادها. سهرت الليالي على والدي وشقيقته "سرّية"، وتعبت كثيراً في تعليم وتدريس والدي رغم الظروف الصعبة.

جدي "والد أمي" سوري من أصول شركسية، وقد كان في العهد العثماني بروفيسوراً ورئيس أطباء سورية ولبنان، أما جدتي، والدة أمي، فهي سورية دمشقية.

عائلتنا هي العائلة الأكبر في (يازور)، جدي كان مختاراً للقرية ويتبع له باقي المخاتير، وتوارث أعمامي هذا المنصب. والمختار في ذلك الوقت كان يحظى بقيمة كبيرة ويحل كل مشاكل المجتمع ولم يكن عمله محصوراً فقط بالمنطقة بل كان الناس يأتون إليه من القرى والمدن المجاورة لحل مشاكلهم لأن القضاء كان محدود الانتشار.

ألحّت العائلة على والدي بالزواج من ابنة عمه لكنه لم يرغب بذلك، بل تزوج من فتاة سورية من أصول شركسية من مدينة القنيطرة وهي السيدة العظيمة والفاضلة "حياة محمد علي بشحالوق" حتى لا يسبب أي إحراج للعائلة.

كانت أختي "فايزة" أول العنقود وقد تزوجت فيما بعد ضابطاً فلسطينياً من مدينة نابلس اسمه "علي بوشناق" التحق بجيش الجهاد المقدس في عام 1948، ثم التحق بجيش الإنقاذ وفيما بعد التحق بالجيش السوري، توفي مبكراً بجلطة قلبية.

أما أنا فقد ولدتُ في عام 1938 وسُمّيت باسم جدي، يعني اسمي (أحمد علي أحمد) ولكن تم تسجيل ولادتي في عام 1937 لأدخل المدرسة.. بعدي جاءت أختي فوزية ثم سميرة وأميرة وسحر.

جدتي، أم والدتي، من بيت العسلي وهي عائلة دمشقية مشهورة مجاهدة من أيام الأتراك. شكري العسلي ابن عمها وزوج أختها، وشغل منصب نائب في مركز "المبعوثان" الذي يسمّى البرلمان المركزي في اسطنبول.

خال والدتي "صبري العسلي" كان مناضلاً ضد الاحتلال الفرنسي لسورية وسجن عدة مرات، ثم بعد الاستقلال عيّن كأول وزير للداخلية عام 1946، ثم أصبح رئيساً للوزراء مرات عدة ثم نائباً للرئيس جمال عبد الناصر بعد الوحدة بين سورية ومصر عام 1958.

ذكريات الطفولة

بحكم العلاقة القوية التي تربط عائلتنا بعائلة جدي المقيمة في سورية– القنيطرة، كنا نقوم بزيارتهم على الدوام. بدأت أتذكر هذه الزيارات بعد أن بلغت سن الخامسة من عمري.

سجلني والدي في المدرسة الابتدائية استثنائياً عندما أتممت السادسة من عمري، وعندما حدثت النكبة كنت أشرف على الترفع إلى الصف الخامس وكانت أختي "فايزة" قد سبقتني إلى المدرسة بعامين.

كان مدير مدرستنا المرحوم الأستاذ راشد الزعبي مهندساً زراعياً من طوباس جنوب شرق جنين وهو والد الأخ هشام الزعبي أحد كوادر الجبهة رحمه الله وصهر الدكتور طلال ناجي الأمين العام المساعد للجبهة، وكانت تربطنا بهم علاقات عائلية مميزة. وكانت صفوف الدراسة في تلك المدرسة حتى الصف السابع فقط، ومن يرغب بإكمال دراسته يذهب إلى القدس أو يافا.

قريتنا "يازور" تقع على طريق القدس – يافا، أو تل أبيب – القدس. كنا نذهب إلى يافا التي يفصلها عن تل أبيب شارع إسكندر عوض. لم يكن منزلنا في قرية يازور نفسها، بل يقع بين قرية يازور ويافا، ضمن البيارات على الطريق الرئيسي بالقرب من السكة الحديد.

كان الوجود اليهودي حولنا يستفزّنا وكذلك وجود الجيش البريطاني على بعد عدة كيلومترات منا. وكان يستفزّنا أيضاً سماع صوت القنابل والانفجارات أثناء تدريب جيش الاحتلال البريطاني لليهود على الرماية وإلقاء القنابل.

تحيط بقريتنا "يازور" مجموعة مستعمرات من كل الاتجاهات، أهمها مستعمرة (نيتر) مساحتها ليست أقل من 2000 دونم وتبعد عن منزلنا حوالي 800 متر وقد كانت أول وأكبر مدرسة زراعية- يهودية الهدف من إنشائها تحويل اليهودي التاجر إلى يهودي مزارع وغرس حب الأرض والزراعة في عقول الصهاينة للتمسك بها . ومن المستعمرات أيضاً روشبينا- موليدت.

كان الصهاينة يعبرون الطريق الإسفلتي من تل أبيب إلى القدس، والمفروض أن يمر بالقرب من منزلنا الذي يبعد عن هذا الطريق ما بين 30- 40 متراً فقط. كنا نرمي الحجارة أنا وأقراني من الأولاد بالـ (المغّيطة أي النقيفة) على السيارات التي كانت تقلّ الصهاينة والإنكليز، ثم نلوذ بالفرار قبل أن تأتي دوريات الجيش الإنكليزي للتحقيق بالأمر. وكذلك كنت أرى دوريات جيش الاحتلال الإنكليزي وهي تقوم بدهم البلدة بطريقة وحشية للتفتيش عن الأسلحة والذخائر، فكانوا يجمعون الأهالي في الساحات ويفتشون البيوت ويحفرون الأرض إذا لزم الأمر. هذه الممارسات ولّدت لدينا مشاعر الحقد والكراهية على المحتل الإنكليزي، وعلى العدو الصهيوني الغادر.

هذه المرحلة من العداء النفسي ضد اليهود كانت تتنامى وقد وصلت إلى مستويات غير مسبوقة لأننا لمسنا الخطر المحدق بنا وبعائلاتنا وأيقنّا أن الصهاينة يحيكون المؤامرات ويمارسون كافة الأساليب ليأخذوا أرضنا وبلادنا وبمساعدة من المحتل الإنكليزي. المحتلان الإنكليزي والصهيوني عندي سواء وهما وجهان لعملة واحدة، لقد كرهتهم وحقدت عليهم كما كرههم والدي.

كان يدفعني الفضول رغم صغر سني لزيارة تل أبيب، لأنها كانت ملاصقة لمدينة يافا، وفيها أشاهد الشباب يرتدون زياً يشبه زي الكشافة، ويسيرون في رحلات.. فيما بعد أدركت أن هدفهم من ورائها التعمّق في دراسة أراضينا من أجل برامجهم الاستيطانية.

وثمة حادثة لن أنساها؛ فمقابل البحر كان هناك شارع مرتفع، وكي تصل إلى البحر عليك أن تنزل درجاً.. عندما رأيت شباب الكشّافة اليهود بصقت عليهم وغادرت.

لم تكن الكهرباء متوفرة في قريتنا "يازور". كنا نستخدم "اللوكس" للإنارة. كنت أسمع أن الإنكليز يقومون بمداهمات في قريتنا، وإذا وجدوا عند أي شخص بندقية صيد يُسجن لسنوات، وفي حال وجود ذخيرة "طلقات" فإن الحكم يكون قاسياً. مقابل

هذه القسوة الشديدة في التعامل مع الفلسطينيين كان التساهل مع اليهود، فقد كانوا يدربونهم على الرماية في منطقة اسمها "الرمل" وهي منطقة رملية تفصل بين قريتنا والبحر. كانوا يدربون عصابات "الهاغانا" التي أصبحت نواة للجيش الصهيوني، والتدريب بحجة أن "الهاغانا" يرافقون قوافل الباصات الصهيونية وهي تخرج من القدس إلى تل أبيب وبالعكس، وعددها عشرون باصاً تسير أمامها عربات إنكليزية مصفّحة لحمايتها من أهل القرى العربية التي تمر خلالها أو بالقرب منها.

أول قرية كانت تمر منها باصات الصهاينة هي قرية يازور ثم قرية "بيت دجن". كان الإنكليز يتذرّعون بأنهم أسسوا "الهاغانا" كي تحمي قوافل الصهاينة، وقد واصل الإنكليز منح اليهود الأراضي العربية الفلسطينية من أجل بناء المستوطنات بحجة أنها أملاك دولة وليس لها أصحاب حسب زعمهم.

ما قبل النكبة

مع بدء الاشتباكات مع اليهود التزم الإنكليز ثكناتهم، وقامت عصابات "الهاغانا" بتحمل مسؤولية الدفاع عن القوافل باعتبارهم "جيشاً دفاعياً عن اليهود".

أذكر هذه الحادثة الهامة، حيث صنع ابن عمي "جبريل فارس جبريل" رحمه الله ورفيقه من آل حمودة لغماً وزرعاه بالقرب من الجسر الواصل بين بيتنا وبين قرية يازور، وفجّراه بعربة لجيش "الهاغانا" - مكان التفجير قريب من منزلنا - وفتحا النار عليها فقتلا وجرحا من بداخلها، ولاذا بالفرار قبل أن تصل دورية الإنكليز إلى موقع الانفجار. لجأ ابن عمي إلى منزلنا حتى لا يلقوا القبض عليه.. مازلت أذكر أنه أحضر لي قبعة كان يرتديها أحد قتلى رجال "الهاغانا" وقدمها لي كهدية.. ارتديت القبعة ونظرتُ إلى نفسي في المرآة ثم خلعتُها ورميتُ بها أرضاً وقلتُ: أنا لا أرتدي زيّاً يهودياً.

بعد هذه العملية البطولية ازدادت حدة الاشتباكات أكثر فأكثر، وتبيّن لأهالي البلدة أنهم لا يملكون أي قطعة سلاح يواجهون به العدو ويدافعون به عن أنفسهم وعن بلدتهم، فسارع الرجال لبيع الغالي والنفيس إضافة لحليّ نسائهم لشراء السلاح والذخيرة، وبدأ الفلسطينيون يبحثون عن الأسلحة. والدي اشترى رشاشاً صغيراً مخزنه جانبي ومعه مخزنان إضافيان و(50 – 60) رصاصة فقط. في نهاية عام 1947 على ما أذكر كان المسلحون من أهل البلدة يتجمعون كل مساء وينصبون

الكمائن ويشتبكون مع اليهود الصهاينة إذا اقتربوا من ضواحي قرية يازور. كنا نواجه عدواً مدججاً بالأسلحة.

كان لدى اليهود سلاح أسماه الفلسطينيون "سلبند" وهو سلاح مرعب (مضاد للدروع). عندما كبرت بدأت أتخيّل كيف كان والدي يقاتل ومعه مخزنان فقط، كل مخزن يحتوي على 20 – 30 رصاصة، ومخلاية صغيرة يضع فيها 30 – 40 رصاصة عيار 9 ملم.

كنا نذهب إلى بيت عمي، وهو كان ابن عم والدي ولديه بندقية لم أعد أذكر نوعها، والمخلاية موجود فيها ذخيرة 40 – 50 رصاصة، وهذه المخلاية محاكة يدوياً وتُوضع على الرقبة.

في عمر التسع سنوات، كنت أسمع عن اشتباك مع هذه المستعمرة أو تلك، فأذهب وحيداً إلى مكان الاشتباك، وعندما يلحظ المجاهدون وجودي- ومنهم أعمامي وأولاد أعمامي- يصرخون بي ويقولون ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ويعيدني أحدهم بالقوة إلى البيت. وكنت أتساءل وأنا عائد إلى البيت، لماذا لم أخفْ وأبقَ في البيت بعيداً عن الخطر، وأنا وحيد والدي. عندما كبرت بدأت أفكر ما هو تفسير هذا العداء لليهود؟ .

عندما أفكر بأحداث الطفولة والنشأة هذه، أجد إجابة على أسئلة كثيرة كانت تخطر على بالي، فكل ما مررت به من أحداث صغيرة كانت أم كبيرة، كان لها أثر في بلورة شخصية الفدائي المستقبلي.

منزلنا كان قريباً من المستعمرات ومتطرفاً عن البلدة- يقع بين يازور ويافا- وكان اليهود يقومون بتنفيذ غارات وينسفون المنازل.

ذات مرة، كان والدي في كمين من الكمائن، وقد اشتد القصف فأرسل ابن عمي ليخرجنا من منزلنا ويأخذنا إلى بلدة يازور وكان الوقت ليلاً.

كان شبان البلدة ينصبون الكمائن للصهاينة الذين يعبرون الطريق الرئيسي. بعد أن غادرنا منزلنا أحضر والدي مجموعة من المجاهدين وتمركزت في بيتنا لحمايته ومراقبة الصهاينة والإنكليز.

بقينا في البلدة بعض الوقت حتى طلبت (الهيئة الفلسطينية العليا) التي كان يرأسها مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، من أهالي بلدتي "يازور" و"سلمة" إخلاء النساء والأطفال والشيوخ إلى أماكن أكثر أمناً، وأن يبقى الرجال والشبان في البلدة لحمايتها والدفاع عنها.

انتقلنا إلى دمشق بواسطة صبري العسلي بعد أن اتصلت به جدتي ورجته أن يساعدنا على الخروج بعد أن بدأ الخطر يحيط بنا، وقتها كان العسلي وزير الداخلية في سورية.

عندما وصلنا إلى دمشق ودّعنا والدي وذهب إلى الأردن وعاد منها إلى قرية يازور. وقتها لم يكن يوجد هواتف، كانوا يستخدمون (البرقيات) لأن الرسائل تحتاج فترة أشهر حتى تصل وهكذا انقطع الاتصال بوالدي.

حصلت كارثة فلسطين وخرج الإنكليز. هرب الناس إلى اللّد والرملة نتيجة المعارك والمذابح التي نفّذتها العصابات الصهيونية بحق الفلسطينيين وعدم وجود السلاح والعتاد الكافي ليدافعوا به عن أنفسهم. جدتي والدة أبي بقيت مع إخوتها وذهبت إلى اللّد والرملة. أخبارهم ظلّت مقطوعة.. ونحن لم نكن نعلم إن كان والدي على قيد الحياة أم لا.

بقينا بعض الوقت في دمشق قبل أن نتجه صوب القنيطرة حيث يسكن جدي الذي كان لديه عيادة طبية. وقد استطاع خالي صبري العسلي أن يمنح عائلتنا بأكملها الجنسية السورية. يومها كانت القنيطرة مركز الجبهة الأمامية باتجاه فلسطين في مواجهة العدو الصهيوني.

ذكريات الحرب واحتلال فلسطين

أثناء وجودي في القنيطرة كنت أجلس على شرفة منزلنا لأراقب تحركات المجاهدين من الجبهة السورية عن كثب والمتجهة للقتال في فلسطين، وأفرح كثيراً عندما أرى تحركات الجيش السوري على طول خط الجبهة نهاراً وليلاً، واستقباله الحار للمتطوعين العرب والسوريين الذين يتوافدون إلى القنيطرة من كل مكان للتجمع قبل الالتحاق بجبهات القتال في فلسطين. وكان المجاهدون السوريون مميزين بالـ "حطّة الحمراء والعقال".. لا يمكن أن أنسى شاباً صغيراً لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، اسمه إياد موصلي، وهو ابن عائلة تجمعنا بها صداقة قوية، ترك أهله وذهب متطوعاً للقتال في فلسطين وجاء ليزورنا وهو يرتدي اللباس العسكري والعقال والحطّة الحمراء وخنجر على جنبه.

بعد استقرارنا في القنيطرة (الجولان) التحقت بمدرسة القنيطرة الإعدادية، وقبل تسجيلي في الصف الخامس خضعت لاختبار تحديد مستوى وكانت النتيجة أنني لا

أصلح لأكون في الصف الخامس فأعادوني إلى الصف الرابع لفروق في المنهاج ولظروف النكبة.

كنا نتردّد إلى دمشق باستمرار، لأن جدي لأمي يملك منزلاً فيها وحالته المادية جيدة. كنت أرى اللاجئين الفلسطينيين أمام وكالة الغوث يحمل كل واحد منهم وعاء ليأخذ حصته من الحليب، كنت أشاهد ذلك وأتألم.. واليوم أتساءل هل هذه المأساة وصور الماضي هي البدايات التي أثرت في حياتي الحالية أم أن هناك أسباباً أخرى؟

كان عمري عشر سنوات وكنت أزور بيت خالي صبري كثيراً، أسأله باستمرار: كيف فعل اليهود بنا كل هذا يا خالي! لماذا لم يفعل الجيش السوري أي شيء لمنع هذه الكارثة في فلسطين؟!

كان يشرح لي الأسباب ويقول: «يا أحمد، سورية أخذت استقلالها قبل عامين من هذه الحرب على فلسطين، وجيشنا جيش صغير وحديث العهد، لم نكن نملك ذخيرة ولا سلاحاً بل كنا نشتريها من تركيا ونهرّبها بأكياس القمح.. لا تحمّلونا مسؤولية التخاذل في نصرة فلسطين فالظروف كانت صعبة وقاسية» كنت أجلس عند خالي ويأتي أصدقاؤه السياسيون وأسمعهم يتحدثون.

في القنيطرة كان لدينا "راديو"، وكانت أمي تستمع إلى الأخبار. تُرى هل تأثرتُ بأصدقاء خالي السياسيين وأحاديثهم عن الأوضاع السياسية الصعبة والمعقدة أم أنني تأثرت بالحكايات التي كانت ترويها لي أمي عن شكري العسلي وعن أقربائها الذين استشهدوا في الغوطة الدمشقية أو في "جباتا الخشب" (جبل الشيخ) أثناء الثورة السورية ضد الفرنسيين؟. هل هذه الأجواء هي التي جعلتني أتجه بهذا الاتجاه النضالي الذي أنا فيه حالياً، أم أن وجودنا في القنيطرة بعد النكبة ومعاصرتي لقوافل المجاهدين المنطلقة من خط المواجهة الأول في القنيطرة إلى فلسطين لقتال الصهاينة هو ما أبقاني في جو الحرب ولعب دوراً في تشكيل شخصيتي الفدائية المناضلة؟ أم أن زواج أختي من ضابط فلسطيني وهو "علي بوشناق" وكان قد ترك أسرته ومقاعد الدراسة والتحق بجيش الإنقاذ للدفاع عن فلسطين، هو ما أثر في شخصيتي؟

أقسمنا أنا وأصدقائي في سن المراهقة اليمين على القرآن الكريم على أن نكون مجموعةً واحدة ويداً واحدة، واتفقنا على ألا نلعب القمار ولا نشرب الكحول ولا نتعاطى الحشيش. هذا كله كان نوعاً من أنواع القيم الأخلاقية ومحاربة الظلم والوقوف مع المظلوم.

أصدقائي الآن منهم من هو على قيد الحياة ومعنا في الجبهة ومن المؤسّسين، ومنهم من توفي - رحمهم الله - مثل يوسف طبل (أبو جهاد) وعدنان داغستاني.

أحببت كرة القدم من خلال خالي "نور السلام" الذي كان يلعب كرة القدم في منتخب سورية، هو و"مروان دردري" في مركز حراسة المرمى، وكنت أذهب معه عدة مرات للتدريب، وأذكر هنا أنه في سن الرابعة عشرة انتسبنا أنا وأصدقائي إلى نادي الجولان في القنيطرة.

كانت في النادي حديقة صغيرة يجلس فيها مجموعة من الشبان ومن بينهم خالي، معظمهم يشربون الكحول ليلاً، لذلك قررنا الانسحاب من نادي الجولان وأسقطنا عضويتنا، وشكلنا مجموعة خاصة بنا أسميناها (نادي الصاعقة) في القنيطرة، واشترينا القمصان والكرة من مصروفنا الخاص لأن إمكانياتنا المادية كانت محدودة.

يوجد مقبرة شهداء فلسطين للجيش السوري في القنيطرة وهي لا تزال إلى الآن، لذلك كنا، أنا ومجموعة من رفاقي في المناسبات والأعياد وفي ذكرى معركة ميسلون واحتلال فلسطين 1948 تحديداً، نأخذ عدة التنظيف كاملة كما نأخذ معنا طعاماً وماءً ونذهب إلى المقبرة لتنظيفها حتى تليق بالشهداء، ونردد أمام قبور الشهداء: «أيها الشهداء لن ننسى دماءكم ونحن على العهد سائرون وسنلحق بكم إن شاء الله في الجهاد».

حصلت على شهادة "البريفيه" (التاسع) بمدرستي في القنيطرة، ولإكمال الصف العاشر كان عليّ أن أذهب إلى مدينة دمشق لأن هذه المرحلة غير موجودة في مدارس القنيطرة. سجلني أهلي في الصف العاشر في مدرسة داخلية للمسيحيين مع العلم أن أخوالي وخالتي كانوا موجودين في دمشق. المدرسة اسمها البطريركية للروم الكاثوليك في حارة الزيتون بالقصاع، وفيها طلاب من المرحلة الابتدائية إلى البكلوريا . يدير المدرسة رهبان أو خوارنة وبجانبها الكنيسة.

خالي "نور السلام" كان قومياً سورياً ويهتم بالكتب الأدبية.. كنت أطّلع على هذه الكتب وأقرأ للزعيم أنطون سعادة فأعجبت بشخصيته كثيراً لأن آراءه كانت واضحة كل الوضوح حول قضية اليهود وفلسطين. كان لديه كتاب عن اليهود مغاير تماماً لقصة الإسرائيليين والصهاينة.

انتسبت للحزب السوري القومي الاجتماعي في عام 1954 أثناء وجودي في مدرسة البطريركية وساعد في ذلك أن أحد المشرفين المدنيين في هذه المدرسة كان

قومياً سورياً. كنت أكره الشيوعيين بسبب اعترافهم مباشرةً بـ (إسرائيل) وسماحهم لليهود الروس بالهجرة إلى فلسطين.

التحقت بالثانوية الأهلية بسوق ساروجة، كان أصحابها من بيت اليازجي. في هذه المرحلة تأثرت بالأوضاع السياسية، كنت في الصف الحادي عشر يوم استشهاد عدنان المالكي في الملعب. وقتها كنت جالساً على الدرج عندما رأيتهم يرفعونه عن الأرض وكان مضرّجاً بالدماء. لكن لم أكن أعلم من هو. بعدها جرت ملاحقة القوميين.

كان القوميون أذكياء، فعندما علموا أنه تتم ملاحقتهم أحرقوا كل الملفات والوثائق الخاصة بهم. لم يكن اسمي "مقيّداً" معهم، لكن الآن إذا سألت القوميين يقولون لك: أحمد جبريل كان قومياً سورياً. لكن بعد هذه الحوادث بفترة قطعت علاقتي بالحزب.

درست في المدرسة الثانوية الأهلية الصف الحادي عشر والبكالوريا العلمي. ركزت على دراستي، وقبل شهرين ونصف من انتهاء العام الدراسي انقطعت عن المدرسة لأكرّس وقتي للدراسة. يومها ذهبت إلى حلاق وطلبت منه أن يقص لي شعري كله "أي على الصفر". قال لي الحلاق: لماذا تريد أن تقصّ شعرك بهذه الطريقة؟ قلت له: لأنني أريد أن أبقى في المنزل ولا أريد الخروج منه إلا وقت الامتحان.

في البكالوريا كان عندنا دورتان (عادية واستثنائية). الأساتذة في مدرستنا كانوا يعطون الطلاب دروساً خصوصية، وأنا لم أكن آخذ أي درس خصوصي.

نجحت بالبكالوريا وبعلامات جيدة تؤهلني أن أدرس في الجامعات السورية طبّ أو هندسة.

اختبار الذات والإعداد للعودة إلى فلسطين

شكّلت النكبة أكبر التحديات عند الشعب الفلسطيني، وهذا كان دافعاً ومحرّضاً للحصول على الشهادات العلمية حيث سافر العديد من أبناء شعبنا إلى الكويت والسعودية ودول الخليج للتدريس والتوظيف وكسب الرزق، أما أنا فكنت أرغب أن أتعلم لكي أحقق معرفةً في كيفية مقاتلة العدو الصهيوني الذي يحتل فلسطين، لذلك كنت أبحث عن الوسائل وكيف أعدّ نفسي لهذا التحدي الجديد في حياتي.

أخفيت أفكاري عن عائلتي، لأنني كنت أعرف رغبتهم الشديدة بأن ألتحق بكلية الطب أو الهندسة، وكانوا يميلون إلى الطب أكثر لأن جدي كان طبيباً ويملك أكبر عيادة في القنيطرة وكانوا يريدونني أن أتابع عمله في العيادة.

لم أتجرأ على إخبارهم بقراري الصادم والمخالف لرغباتهم والمحبط لآمالهم، وكنت أبرر لنفسي بأن شعبنا لديه من الأطباء والمهندسين أكثر من أي شعب آخر وليس بحاجة للمزيد، ولكنه بحاجة لمقاتلين أشداء لبدء الكفاح المسلح طريقاً لتحرير فلسطين من رجس الصهاينة، مقاتلين يعملون على المحافظة على حق عودة اللاجئين بفعل النكبة إلى مدنهم وقراهم وأرضهم وكان المثل أمامي الثورة الجزائرية.

لقد تأثرت بثورة الجزائر العظيمة، وقرأت عن نضالات شعبها ضد الاستعمار الفرنسي الذي استمر 130 عاماً وقدّم خلالها الملايين من الشهداء إلى حين تفجّرت أخيراً ثورته عام 1954 في وجه المستعمر والمستوطن الفرنسي.

تجربة الجزائر ومقاومة شعبها المجاهد لدولة عظمى مثل فرنسا، دفعني لتساؤل مشروع: لماذا نحن الفلسطينيين لا نبتدئ بثورة مسلحة خاصة بنا تستهدف الكيان الصهيوني الغاصب؟

بالمقابل كنت أعلم أننا كشعب فلسطين ليست لدينا القدرة على تحقيق الانتصار لوحدنا ضد العدو الصهيوني المتحالف مع قوى دولية، وكنت أقول بأنه يجب أن نكون في طليعة أمتنا، نشد عضدها من خلال إطلاق الحرب الشعبية طويلة الأمد في الوقت والزمان المناسبين عبر تبنّي استراتيجية حرب العصابات التي تقوم على شنّ غارات سريعة ومتواصلة، وزرع العبوات والألغام ونصب الكمائن. دائماً كنت أعتقد أنني كفلسطيني يجب أن أذهب وأبحث عن الكفاح المسلّح وحمل السلاح وقتال هذا العدو الغاشم.

كنت أتأمل الواقع الرسمي العربي المرير المحيط بفلسطين، فأجده قاتماً ومزرياً، لا يعطي القضية الفلسطينية حقها ولا يفيها قيمتها إلا إعلامياً، باعتبارها القضية المركزية للأمة العربية، بل إن الكثير من الدول العربية اعتبرتها قضية هامشية تغيب وتغيّب عن أجندتها واهتماماتها وتعمل جاهدة للتخلص من ثقلها.

رفضت دراسة الطب لأني سأقضي عشر سنوات بين دراسة واختصاص، وأنا كنت أرغب بالانتساب إلى فرع لا يأخذ هذا الوقت الطويل لرغبتي الجارفة باختصار الوقت والانخراط السريع والمباشر بالقتال ضد العدو الصهيوني فأنا في عجلة من أمري.

بعد رفضي دراسة اختصاص الطب وإبلاغي أسرتي بذلك، ذهب والدي رحمه الله إلى بيروت وكان على علاقة مع محامي شركة (كات) الأستاذ "نبيه إلياس" والتي

كان يملكها "إميل البستاني"، وهي من أكبر شركات المقاولات في الوطن العربي في ذلك الوقت. وفي اللقاء الذي جمع والدي مع الأستاذ نبيه إلياس طرح عليه موضوع دراستي وتفوقي بالشهادة الثانوية – الفرع العلمي، فقال له الأستاذ نبيه: "فليأت إلى بيروت ويأخذ منحة لدراسة الهندسة في الجامعة الأمريكية على حساب شركة (كات) بالإضافة إلى مساعدة مالية شهرية وسيتم تعيينه في الشركة عندما يتخرّج من الجامعة مباشرة".

بعد هذا الحوار عاد والدي من بيروت مسروراً جداً، قال لي: "إذا كنت لا تريد دراسة الطب لطول مدة الدراسة، فاذهب إلى بيروت وادرس الهندسة في الجامعة الأمريكية لأربع سنوات أو خمس سنوات، وعندما تتخرّج ستعمل مباشرة في شركة (كات)، علماً بأن العمل في هذه الشركة ليس بالأمر السهل". هنا لم أستطع معارضة عائلتي، لذلك وافقت على اقتراحه مرغماً ظاهرياً، بعد ذلك جهزت لي والدتي أغراض السفر استعداداً للالتحاق بالجامعة، ولكن رغبتي الحقيقية والخفية كانت الالتحاق بالكلية العسكرية بحمص.

بدلاً من السفر إلى بيروت للانتساب إلى الجامعة الأمريكية قمت بتقديم طلب الانتساب إلى الكلية العسكرية وبدأت بالفحوص الطبية المتكررة والمقابلات الشفهية والكتابية اللازمة للانتساب للكلية العسكرية ولعدة مرات، وكانت شروط القبول صعبة للغاية، حيث يُعرض المتقدم على ثلاث لجان خوفاً من الخطأ. كنت رياضياً ولياقتي عالية، وكان رئيس لجنة المقابلات المقدم أمين الحافظ (أصبح رئيساً للجمهورية فيما بعد).

كان الطالب يقف أمام اللجنة بعد الفحص الكتابي وتطرح عليه أسئلة بالتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والسياسة. عندما حان دوري تفاجأ أعضاء اللجنة من إجاباتي على كل الأسئلة فقالوا لي: "أين درست كل هذه المعلومات؟". ضحكت وقلت لهم: "أنا أحب المطالعة كثيراً"، وفي بعض الأحيان إذا لم يتوفر معي المال كنت أقف أمام بائع الجرائد لأقرأها، وكذلك أعشق الراديو والأخبار السياسية.

واجهتني معضلة كبيرة بخصوص قراري الذهاب إلى الكلية العسكرية، فإذا علمت والدتي بالأمر ستذهب إلى خالي صبري العسلي الذي كان رئيساً للوزراء في سورية، وتطلب منه منعي من الالتحاق بالكلية كوني وحيداً ومُعفىً من خدمة العلم، وسيتصل

خالي بدوره مع السيد وزير الدفاع ويطلب منه منعي من الالتحاق بالكلية. هذا الأمر كان يؤرقني لذلك أخذت القرار بإخفاء الأمر عن العائلة لعل الله يساعدني.

في المطار تجمّع الطلاب المسافرون، وقررت أن أتصل بوالدتي هاتفياً وأودعها كي ترضى عني. قلت لها: "يا أمي.. أنا مسافر". تفاجأت والدتي وسألتني عن وجهتي، قلت لها: إلى القاهرة.. ارضي عني وسامحيني لأني سرت بطريق أنتم لا تريدونه.. هذه حياتي وأنا أخطط لها".

حضرت أمي إلى مطار المزة خلال نصف ساعة هي وخالي نور السلام لتودّعني وبكت كثيراً ورجتني أن أعود عن قراري. قلت لها: يا أمي، أنا اتخذت قراري بالالتحاق بالكلية الحربية ولا رجعة عنه.

قبّلت يدها وقلت لها: "ارضي عني".

صعدت إلى الطائرة التي توجهت بنا إلى القاهرة وهناك التحقت بالكلية الحربية.

النشاط داخل الكلية الحربية المصرية

كان مدير الكلية الحربية المصرية الأميرالاي محمد فوزي- أصبح فيما بعد جنرالاً، وبعدها وزيراً للحربية- ما أرويه كان عام 1957، أي بعد عام من العدوان الثلاثي على مصر عام 1956.

آنذاك كان عمري تسعة عشر عاماً، ولم تغادرني فكرة "كيف سنبدأ بالعمل العسكري". كنت أتساءل في نفسي عن السبل بعد أن أثبت العمل السياسي فشله في تحقيق آمال الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم، رغم أن بعض الأحزاب كان يتحدث عن فلسطين.

وصادف أن اجتمعت في الكلية الحربية بأربعة فلسطينيين جاؤوا من قطاع غزة في ذلك الحين (حيث شكّل الرئيس جمال عبد الناصر "كتيبتين فلسطينيتين" في قطاع غزة، وكان يختار في كل عام عدداً من الفلسطينيين ليدرسوا في الكلية كي يخدموا في الكتيبتين بعد أن يتخرّجوا ضباطاً).

بدأت بالتقرّب من هؤلاء الطلاب الضباط الموجودين في الكلية، والحوار معهم حول القضية الفلسطينية، مركّزاً الحديث على ضرورة أن نقدم التضحيات لفلسطين ونفكر في كيفية العودة إلى وطننا، وخاصةً أن لديهم في قطاع غزة تجربة أسس لها الرئيس عبد الناصر في عام 1955 هي "تجربة الفدائيين" وتعرض قطاع غزة حينها

لاعتداءات صهيونية كبيرة بالإضافة لاحتلال قطاع غزة عام 1956 أثناء العدوان الثلاثي.

بعد مدة أصبحنا أصدقاء ولا أزال أحفظ أسماءهم، وقد تجاوب أحدهم مع ما طرحت عليهم. ومن بينهم ضابط استشهد في الأردن عام 1969 بعد التحاقه بمنظمة التحرير الفلسطينية.

في أحد الأيام تفاجأت أن هناك من قدّم تقريراً إلى رئاسة الكلية الحربية يتهمني بأني أسعى لتشكيل تنظيم فلسطيني يدعو إلى الكفاح المسلح طريقاً لتحرير فلسطين، وهناك من يقف ورائي ويدعمني.

الأمن المصري لم يحقق معي لأنني كنت من ضمن البعثة الرسمية السورية، حيث استدعيت بعد فترة إلى أحد المكاتب في الكلية الحربية، وعندما وصلت إلى المكتب وجدت بانتظاري خمسة ضباط أحدهم المشرف على دورتنا في الكلية واسمه المقدم "عدنان الدقر" سوري الجنسية، أما باقي اللجنة فكانوا ضباطاً عسكريين برتب عالية في الجيش السوري (عقداء وعمداء). طلبوا مني الجلوس وسألوني: من أين أنت، وما هي سيرتك الذاتية؟ قلت لهم: أنا فلسطيني. قالوا: لا، أنت سوري، قلت لهم: لا، أنا اكتسبت الجنسية السورية. قالوا: كيف اكتسبتها؟ قلت لهم: والدتي سورية وخالي مسؤول في الحكومة السورية. قالوا: مَن هو؟ قلت: صبري العسلي رئيس مجلس الوزراء.

نظروا إلى بعضهم البعض وسألوني إن كنت منتسباً إلى أحد الأحزاب في سورية فنفيتُ ذلك.

سألتني اللجنة الكثير من الأسئلة، وعرفت فيما بعد أن رئيس لجنة التحقيق هو العقيد "أكرم الديري"- وكان من الضباط المعروفين في سورية- ومعه رئيس الاستخبارات السورية وكان رئيس الاستخبارات العسكرية هو عبد الحميد السراج، خلفه في عهد الوحدة العقيد محمد اسطنبولي. وقد استدعوا أربعة من زملائي السوريين في الكلية إلى التحقيق وسألوهم عني.

في تلك الفترة بدأت أشعر أن رسائلي مراقبة، وعندما كنت أذهب في إجازة كان يتم تفتيش خزانتي. كنت في السنة الأولى في الكلية وعمري 19 عاماً وأتعرض لتجربة قاسية كهذه. كنت قلقاً جداً وأخاف أن أُفصل من الكلية، أو أن تصدر القيادة السورية أمراً بإنهاء خدمتي. وعشت أزمة نفسية قاسية وأنا بهذا العمر الصغير.

(بعد عدة سنوات التقيت وأنا أخدم بالقطاع الأوسط في الجولان وفي نادي الضباط في العلّيقة بالصدفة بالمقدم المصري "محمد رفعت" الذي كان يخدم في هذا القطاع وهو رجل عسكري جدي "رحمه الله" وكان مسؤولاً عن وحدتي أثناء دراستي في الكلية الحربية. ألقيتُ عليه التحية وتناولنا الغداء سوياً، وأخبرني أن لجنة التحقيق السورية في الكلية الحربية آنذاك استدعته وسألته عني وأنه قال لهم: هذا الطالب من أفضل الطلاب خلقاً وسلوكاً، ويحب العلم).

بدأت أتأثر بالمحيط الذي كنت أدرس فيه، خاصةً بعد أن جاءت بعثة طلابية من الجزائر- 12 طالباً- ليتخرّجوا ضباطاً من الكلية الحربية ثم يلتحقوا بالثورة الجزائرية. وكان هؤلاء أول دورة تخضع لدورة في الكلية الحربية في مصر أو في غيرها- كان الفرنسيون يطلقون على الثوار الجزائريين اسم "الفلّاقة" ومعناها "العصابات في الجبال".

هذه البعثة من زملائي الجزائريين كان لها أثر كبير على مستقبل حياتي النضالية، بحيث أصبحت مقتنعاً بنقل التجربة الجزائرية إلى الحالة الفلسطينية عندما نتبنّى حرب الشعب طويلة الأمد.

كنت أقضي معظم أوقات فراغي مع إخوتي الطلبة الجزائريين خاصة يومي الخميس والجمعة وقد حدثوني عن الثورة الجزائرية، ومنهم من كان يقاتل في الجبال فعلاً.

(حين شُكّلت أول حكومة مؤقتة للجزائر كان مقرها في القاهرة في حي اسمه "الجاردن سيتي"، وكنت أنا وزملائي الجزائريين ننام ليلة الخميس في هذا المقر).

دائماً كنت أحرّض نفسي على الأسئلة وأقول: اختبرت نفسي الاختبار الأول ونجحت فيه؛ أي الدخول إلى الكلية الحربية بعكس ما كانت عائلتي تريد، والآن حان وقت الاختبار الثاني وهو أن أذهب إلى الجزائر مع زملائي في البعثة الجزائرية بعد التخرج من الكلية والاختصاص، وأتقن حرب العصابات وأشارك في الثورة الجزائرية مقاتلاً، وفي حال استشهدت أكون قد استشهدت في حرب الثورة الجزائرية ضد فرنسا، وإذا بقيت على قيد الحياة أكون قد اكتسبت خبرةً كبيرةً في كيفية حرب العصابات أنقلها مستقبلاً لإخوتي في فلسطين لقتال العدو الصهيوني الغاشم.

بدأت أستفيد من أصدقائي الجزائريين وأحصل منهم على المعلومات التي تتقصني عن حرب العصابات، كيف يقاتلون في الجبال، وكيف ينصبون الكمائن، وكيف يشنّون الغارات، وكيف يفجّرون العبوات، وكيف يزرعون الألغام.

في الكلية الحربية في مصر بعد أن تتخرّج ضابطاً وتريد الاختصاص فإنهم يفاضلون حين الاختصاص على الشهادة (علمي أو أدبي) والمعدل، فالشهادة العلمية تمنح الطالب مجالات مختصة أكثر في أمور الجيش (مدفعية- إشارة- هندسة ...الخ)، أما طلاب الشهادة الأدبية فيختصون (دبابات- مشاة أو اختصاصات إدارية).

لم أكن من الأوائل في الكلية، ولكن عند التخرج كنت من المتفوقين. طلبت منا الإدارة في الكلية أن نرسل لهم الاختصاص الذي نرغب بمتابعته بعد التخرّج. كانت رغبتي الوحيدة دراسة سلاح الهندسة (ألغام ومتفجرات). ودفعني إلى هذا الاختصاص اعتقادي الجازم بأنه سيفيدني كثيراً في حرب العصابات، فهذه الرغبة لم تأت بشكل عفوي، مع العلم أن الكثير من الطلاب كانوا يفرّون من هذا الاختصاص، ويطلقون عليه "سلاح الموت"، لأن الخطأ الأول في هندسة المتفجرات هو الأخير، وكان بعض الطلاب يفضلون اختصاص المدفعية أو الدبابات لأنه مريح وله وزن سياسي.

بعد أن تخرّجت ضابطاً درست اختصاص الهندسة في مدرسة الهندسة العسكرية في حلميّة الزيتون في القاهرة. وبعد أن حصلت الوحدة بين سورية ومصر أُقفلت الكلية العسكرية في حمص وأُلحق طلابها جميعاً بالكلية الحربية في القاهرة وكان معهم حوالي أربعة طلاب جزائريين أيضاً (بعض هؤلاء الطلاب الجزائريين أصدقائي استشهد والبعض الآخر ترقّى في الثورة الجزائرية واستلم مراكز هامة، منهم رئيس الوزراء الأسبق عبد الحميد الإبراهيمي، وكاشر شريف، والأكحل عيّاط الذي استلم فيما بعد المخابرات العسكرية، وأيضاً عبد الرزاق بوحارة واستلم قائد فرقة عسكرية أرسلها الرئيس بومدين لتقاتل مع الجيش المصري بعد هزيمة 1967، ومن أصدقائي أيضاً محمد قادري الذي عيّن فيما بعد سفيراً للجزائر في سورية) وكان سلاح الهندسة سلاحهم المفضل.

قررت أن أذهب معهم إلى الجزائر بعد الانتهاء من دراسة الاختصاص- سيكون هذا الاختبار الثاني في حياتي.

لم أخبر أهلي ولا أي أحد ولكني حضّرت رسالة أودّع بها أسرتي وأقول لهم فيها: أنا ذاهب لأقاتل مع الثورة الجزائرية لأختبر نفسي وقدرتي في أن أكون لاحقاً في نواة الكفاح المسلح الفلسطيني ضد الصهاينة المحتلين.

سألت رفاقي الجزائريين كيف ستكون رحلتنا؟ قالوا: من هنا إلى الإسكندرية ومنها إلى ليبيا ثم تونس ومن هناك نقطع خطاً اسمه "موريس" الذي أنشأه الفرنسيون وهو حقل من الألغام والالكترونيات يعمل على الكهرباء، ثم نصل لجبال الأوراس.

قررت يومها أن أخبر أهلي بقراري هذا في الطريق من الإسكندرية إلى ليبيا، وأن أعتذر منهم لأني قد أستشهد في هذا الطريق ولا أعود حياً إليهم.

في الإسكندرية، نزلت أنا والشباب الجزائريين أصدقائي في فندق درجة ثالثة. أخبروني أن قائداً عسكرياً جزائرياً مهماً قادم إلى الفندق، وسيطلبون موافقته لأخذي معهم إلى الجزائر. سألتهم: ما اسمه؟ قالوا: "عمروش" وهو قائد جزائري معروف- استشهد فيما بعد.

أخبروني حينها أن القائد "عمروش" يريد مقابلتي ولكن لغته العربية ثقيلة جداً. في لقائي بالقائد "عمروش" أخبرني أن أصدقائي حدّثوه عني، وقال لي: نحن نرحب بك، لكنّ لدينا قرار لا نستطيع مخالفته، ينص على ألا يكون في صفوف الثورة الجزائرية إلا الجزائريون حصراً، وإذا سُمح للعرب أن يكونوا في صفوف المقاتلين الجزائريين ستكون أنت أولهم. لكن الآن هذا أمر غير وارد.

حزنت كثيراً لذلك..

وقعت هذه الأحداث كلها في عام 1959.

عدتُ إلى القاهرة وأثناء وجودي فيها تعرّفت على بعض الطلاب الذين يدرسون في القاهرة ومن بينهم ابن عمي الدكتور علي أبو شميس جبريل "رحمه الله"، وكان يسكن قربي في مصر الجديدة ومعه طالبان يدرسان الطب من غزة؛ وهما الدكتور حسن أبو غزالة والدكتور حسام أبو شعبان. طرحت عليهما أفكارنا في موضوع العودة وتحرير فلسطين، وطلبت منهما أن يساعداني في التعرّف على الطلاب الآخرين الفلسطينيين الذين يدرسون في جامعة القاهرة وجامعة عين شمس، وكانوا حينها قد شكلوا رابطة للطلاب الفلسطينيين لرعاية شؤون الطلاب الفلسطينيين الذين يدرسون في مصر ويقومون بنشاط سياسي محدود، وقد تحولت هذه الرابطة فيما

بعد إلى اتحاد اسمه "اتحاد الطلبة الفلسطينيين" يضمّ روابط فلسطينية من أقطار متعددة.

شرح لي الدكتور حسن أبو غزالة والدكتور حسام أبو شعبان مسيرة هذه الرابطة والاتحاد خلال السنوات الماضية، وقالا لي: إن هناك انتخابات للهيئة الإدارية في الرابطة ولسنوات، وسيطرت الاتجاهات الإخوانية على الرابطة منذ عام 1952 إلى عام 1956، وكان يرأس هذه الرابطة آنذاك الطالب المهندس (محمد عبد الرؤوف عرفات القدوة) رغم أن والده مصري ووالدته فلسطينية من القدس، وكان نائبه صلاح خلف "أبو إياد" من يافا، وحين تخرجا ذهبا للعمل في الكويت.

وفي الانتخابات الحالية أخبراني أن الاتجاهات القومية هي التي تسيطر الآن على هذه الرابطة وخاصة البعثيين والقوميين العرب.

وتعهد حسن أبو غزالة وحسام أبو شعبان بتعريفي على الأشخاص الذين يقودون هذه الرابطة وهم الطلاب "لطف غنطوس"، "زهير الخطيب"، "مازن أنصاري" الذي كان يدرس الهندسة، والمهندس هشام الشريف الذي تزوج في الكويت من ابنة الشهيد القائد حسن سلامة واسمها (جهاد). التقيت مع كل منهم على حدة وتحدثت معهم عن قضية فلسطين.

كما التقيت مراراً مازن الأنصاري وهو من يافا، وعلمت فيما بعد بأن هناك صلة نسب بيننا وبينه. وبالعموم طرحت عليهم مسؤولياتنا كشباب في العمل من أجل فلسطين وتحرير فلسطين، مستفيدين من تجارب الشعوب، من الشعب الجزائري إلى الثورة في كوبا إلى الثورة الفيتنامية ضد الاستعمار الفرنسي، فأبدوا استعداداً للتفهم. لكنني نُصحت بألا أتعمّق في العلاقة معهم لأن مسؤولياتهم كطلبة تحول دون ذلك. رغم ذلك بقيت على تواصل معهم.

عرّفني الدكتور حسام أبو شعبان على ضابط من غزة كان يخدم في الوحدات العسكرية بغزة واسمه "فايز الترك"، وبعد فترة من الزمن تم اللقاء مع فايز الترك عند مجيئه إلى القاهرة، وتحدثت معه عن واجباتنا كشباب فلسطيني تجاه قضيتنا وتجاه القدس فوجدت أن الأخ فايز الترك لا يقلّ حماسةً عني، وجرت اجتماعاتٌ متعددة بيننا وبدأنا نكتب على الورق أمانينا وخطط عملنا كي يستطيع كل منا بعد افتراقنا أن يعمل على تنفيذ ما اتفقنا عليه سواء في غزة أو في سورية، كل في موقعه وبالتواصل معي.

أردت من كلامي هذا القول أنني كنت أبحث في كل مكان عن العنصر البشري الجيد الذي يمكن أن نعتمد عليه في طريقنا في موضوع كفاحنا المسلح والعودة إلى فلسطين.

وبعد انتهاء مهمتي العسكرية والتدريبية في القاهرة عدت إلى سورية وقتها كانت الوحدة بين سورية ومصر قد أصبحت واقعاً قائماً.

تجربتي في الجيش العربي السوري

عيناي وهدفي فلسطين

أبلغتني قيادة سلاح المهندسين في دمشق بأنني أصبحت من ملاك الكتيبة الثانية مهندسين المتواجدة في الجبهة السورية العسكرية ومركزها القنيطرة. وكان مركز الكتيبة على السفح الجنوبي لتل "أبو الندى" البركاني والذي يقف كأنه حارس لمدينة القنيطرة، وكنت أعرف هذا التل جيداً منذ أيام إقامتنا في القنيطرة بعد النكبة.

وصلتُ الكتيبة وقدّمت نفسي لقائد الكتيبة الرائد "أديب طرابزنلي" فرحّب بي وأبلغني بمسؤوليتي بأنني معاون لقائد السرية الثالثة في الكتيبة، وهذه السرية يقودها الملازم أول "مروان قطرنجي"، كما شرح لي بأن الكتيبة تضم عدداً من السرايا وتتبع لها أيضاً ثلاث سرايا ملحقة على الألوية بالقطاع الشمالي والأوسط والجنوبي من الجبهة المواجهة للعدو مباشرة، أي أنك ستخدم هنا ثم يمكن أن تُفرز إلى القطاعات العسكرية الأمامية المجاورة للأرض المحتلة بشكل دوري.

غادرت مكتب الرائد أديب وأنا بمنتهى السعادة لأنني سأخدم وأعيش مجاوراً لأرضي فلسطين في القطاع الشمالي والأوسط والجنوبي من الجبهة.

خدمت في مركز الكتيبة الثانية في القنيطرة ثم في كل القطاعات ولكن حزنت على وضع الجيش لأنه لم يكن مجهّزاً بالتجهيزات والأسلحة الملائمة لمواجهة جيش العدو الصهيوني، واكتشفت بعد الممارسة أن الضباط وضباط الصف في وحدتي لا يعرفون شيئاً عن الأراضي المحتلة المجاورة لهم، وكذلك عن المستعمرات والتحصينات المعادية.

بعدها خدمت في القطاع الأوسط من الجبهة السورية كمعاون لقائد سرية يبلغ قوامها 170 فرداً، وكان يترأسها الملازم أول "إسكندر سلامة" رحمه الله، وهو شاب معروف في الجيش العربي السوري.

بعد فترة أخبرت قائد السرية أن علينا، نحن الضباط وضباط الصف، أن نستطلع الخط الأمامي للجبهة حتى نتعرّف عليه عن قرب ونعرف أماكن وجود قواتنا وحقول

ألغامنا، ورصد أماكن وجود العدو وحقول ألغامه، وعلينا كذلك أن نتعرّف عن كثب على المستوطنات الصهيونية التي أمامنا من حيث أسمائها وعددها، ونحدد نقاط الضعف فيها (الثغرات)، ونقاط القوة (التحصينات).

قائد سريتي لم يعارض. كنت وحدي أطّلع على الخرائط العسكرية وخرائط حقول الألغام وأقرؤها جيداً ثم أصطحب مراراً الضباط وضباط الصف إلى الحدود وأعرّفهم على أسماء المستعمرات ومواقعها ثم أطلب من الضباط وصف الضباط أن يكرروا هذه الأسماء.. وكذلك أرشدهم على حقول ألغامنا التي لها خرائط.

في القطاع الأوسط أصبحت أمام موقع "جسر بنات يعقوب" على نهر الأردن الذي يصبّ في بحيرة طبريا وكذلك على جنوبي سهل الحولة من الشمال.

ذهبت مع الضباط وضباط الصف الذين في وحدتي وقمنا بالاستطلاع مراراً، وطلبت مراراً خرائط حقول الألغام لمعرفة أين زُرعت ألغامنا وما هي أنواعها، لكنهم لم يزوّدوني إلا بالبعض منها فقط. سألت قائد السرية: "أهذه هي الخرائط كلها؟ قال: نعم ولكن الألغام المزروعة كثيرة. قلت: إذاً أين باقي الخرائط؟ من المفروض أن تكون موجودة لدى القيادة وبشكل متسلسل!

كان الجواب أن هناك ألغاماً مجهولة زُرعت بعد عدوان عام 1956 وقبله بدون خرائط على الحدود تماماً.

حزنت كثيراً في الواقع وقلت: سأضع نفسي تحت اختبار ثالث، غير الاختبارين الأول والثاني.

كانت أمامي أرض فلسطين وجيش العدو الصهيوني- قسم من سهل الحولة وصولاً إلى بحيرة طبريا .. ماذا أفعل؟ هل أستطيع أن أفعل شيئاً؟، هل أساعد في فتح اشتباكات مع العدو؟ وقد كنت أقوم بذلك بالفعل، فأذهب إلى رفاقي في كتيبة المدفعية وأحرّضهم وأشجعهم للرمي على العدو وعلى مستعمراته أثناء الاشتباكات التي كانت تحصل..

في الحد الأمامي للقطاعات على الجبهة كانت توجد وحدات الحرس الوطني التابع للجيش السوري كمخافر إنذار ومنع أعمال التسلل.

كنا نستعمل في السرية ألغاماً روسية وتشيكية الصنع فقط، وسرية الهندسة تكون متكاملة حيث كان يوجد فيها ورشة حدادة ونجارة. أثناء الإجازات كنت أبقى في السرية وأذهب وحيداً إلى ورشة النجارة تنفيذاً لرغبتي بضرورة العمل خلف خطوط

العدو. كنت أنزل إلى الورشة وأصنع لغماً خشبياً- كي لا يُعرف مصدره- أضع فيه كمية من المتفجرات كافية لإلحاق الضرر بقوات العدو وأنزل برفقة سائقي إلى قرية "علمين"[1] شمال بحيرة طبريا وأحمل معي لغمي الخشبي وبندقيتي وجعبتي، وأدخل مزارع المستوطنات الإسرائيلية بعد عناء الطريق الشّاق ومشاكله، وكان هذا يستغرق معي ساعات طويلة ليلاً، بينما ينتظرني السائق في الأعلى. أقوم بزرع اللغم في مكان مناسب بحيث لا ينفجر من أول يوم، فقد يأتي الأعداء الصهاينة لجني المحاصيل بعد يومين أو أسبوع فيحدث الانفجار. قمت بتكرار العملية ثلاث مرات.

اللجنة المشتركة للهدنة لاتفاقات "رودس" كانت تجتمع مع الضباط السوريين و(الإسرائيليين) بإمرة الأمم المتحدة، لمناقشة الحوادث التي تقع على الحدود. حمّل الصهاينة القيادة السورية مسؤولية الألغام الخشبية التي كانت تنفجر بالمزارعين الصهاينة والآليات العسكرية، وذلك رغم أن القيادة السورية نفت مسؤوليتها عن هذه الحوادث وأكدت أنها لا علم لها بها، وأن ألغامها روسية وتشيكية الصنع (من نوع البيكاليت) وليست خشبية.

مسؤول الاستطلاع والمخابرات في اللواء الملازم أول "توفيق طُبل" رحمه الله، وهو صديق لي أكبر مني بالعمر وأقدم مني، شكّ بأمري ولم يتكلم أمام لجنة التحقيق، لكنه قال لزميله قائد سريتي الملازم أول إسكندر سلامة: أنا أشكّ بشخصٍ واحد وهو الملازم أحمد جبريل.. أعتقد أنه هو من يقوم بزرع الألغام.

جاء المرحوم إسكندر سلامة قائد السرية إلى مكتبي ليلاً وسألني: يا أحمد مَن الذي يقوم بهذه العمليات؟ لقد استفسرت وعرفت بأنك تأخذ مفتاح ورشة النجارة في العطل، ألست أنت من يصنع هذه الألغام ويزرعها؟

كنت أعرف قائد السرية جيداً وأثق به، لذا طلبت منه أن يقسم بشرفه ألا يخبر أحداً وعندما أقسم لي أخبرته بأنني أنا الذي يفعل ذلك. قال: سأنصحك كأخ لك وليس كمسؤول عليك؛ أحذرك من الحرس الوطني الموجود في المنطقة الحدودية، إذا رآك وأنت تخترق الحدود أثناء ذهابك أو عودتك قد يشتبك معك وعندها ستقع الكارثة، وسيُلقى القبض عليك ويتهمونك بأنك جاسوس للصهاينة.

---

[1] - (قرية مشرفة على الوادي السحيق الذي يمر به نهر الأردن)

قلت له: دائماً يرافقني سائقي وينتظرني فوق الجبل. قال: لن يقتنعوا بما تقول.. وحذرني من أن هذا الموضوع بمنتهى الخطورة، ووعدني ألا يقول شيئاً للملازم أول توفيق طُبل، وأضاف: اعلم يا أحمد أن توفيق يشكّ فيك لأنه يعرفك جيداً.

بعد فترة شهر، اخترت شابين شجاعين من ضباط الصف وكانا برتبة رقيب، وأخبرتهم بخططي، فقالا: نحن معك حتى الموت يا سيدي.

قمنا بزراعة الألغام معاً أكثر من مرة. توقعوا في القيادة أن أكون أنا من يقوم بزرع الألغام فتم نقلي من القطاعات الأمامية إلى مركز الكتيبة في القنيطرة.

الوحدة .. وتدمير قرية التوافيق

أثناء خدمتي في جبهة القنيطرة وخلال فترة الوحدة بين سورية ومصر، هاجمنا "الإسرائيليون" بغارة كبيرة يوم 1960، وكان ذلك على منطقة "التوافيق" جنوبي بحيرة طبريا وشرقي سهل سمخ قرب مستعمرتي "ميشمار هجولان" و"تلكتسير". دخلها "الإسرائيليون" ودمروا القرية وقتلوا العديد من أهلها.

بعد جلاء غبار المعركة حزنت كثيراً على الخسائر التي تكبدها الجيش العربي السوري وآلمني كثيراً وضع الجيش المنتشر على الجبهة، لأنه لم يكن مجهزاً تجهيزاً كاملاً، ولم يكن مستعداً لخوض معركة قاسية مع العدو الصهيوني رغم أن مواقع الجيش جبلية وهضبة الجولان مشرفة على المستوطنات (الإسرائيلية) جنوب بحيرة طبريا.

أصيب الأهالي والرأي العام في سورية بالإحباط وخيبة الأمل بعد اعتداء الصهاينة على قرية التوافيق وتدميرها، كما شعرت قيادة الجبهة العسكرية السورية بالإهانة واعتبرت أن هذا العمل العدواني تحدٍ للوحدة المصرية- السورية ويستلزم الرد بحزم، لذلك قررت القيادة اتخاذ كافة التدابير اللازمة للرد على العدوان وإعادة الاعتبار لهيبة جيش الوحدة.

اتصل بي قائد كتيبتي الرائد "أديب طرابزنلي" رحمه الله، وقال: إن العميد "جادو عز الدين" قائد الجبهة الجنوبية بالقنيطرة أرسل يستدعي عدداً من الضباط كنت بينهم- والعميد جادو هو ضابط سوري من جبل العرب لكن أغلب معاونيه كانوا أركان حرب مصريين، أذكر منهم ضابطاً اسمه العقيد "خفاجا" كذلك العقيد محمد

شاهين. وبناءً على أوامر من القيادة العسكرية السورية تم استدعاؤنا إلى قيادة الجبهة الجنوبية، وعندما سألته عن السبب لم يجبني.

عندما وصلت إلى مقر القيادة وجدت النقيب "نصوح نعال" قائد وحدة المغاوير مع مجموعة من الضباط الكبار مثل المقدم عواد باغ. وقد فوجئ بوجودي في مقر القيادة باعتباري أصغر الضباط رتبةً وتربطنا علاقات عائلية وقرابة.

عندها أخبرنا العميد "جادو عز الدين" بأن القيادة العسكرية قد اتخذت قراراً بالرد الحاسم على الصهاينة بعد تدميرهم بلدة التوافيق قبل أيام، وقررت الإغارة على إحدى المستوطنات القريبة من الحدود السورية في سهل الحولة "كفار شامير" بوحدة عسكرية قوامها سرية مغاوير ومظليين وسرية هندسة.

تابع العميد "جادو عز الدين" كلامه، وقد وجّه الكلام لي: لقد رشّحك قائد سلاح المهندسين أنت يا ملازم أحمد، وكذلك رشحك قائد الكتيبة أيضاً لتكون المكلّف من سلاح المهندسين الذي يقود هذه السرية. حيث ستدخل سرية الهندسة مع سرية المغاوير وتدمر أهدافاً داخل المستوطنة رداً على تدمير بلدة التوافيق، وقد اخترنا سرية من وحدات المغاوير والمظليين التابعة للنقيب "نصوح نعال" وسيتم تنفيذ الإغارة تحت إشراف هيئة أركان الجبهة، وبمشاركة وحدة المدفعية والاستطلاع ومختلف الوحدات العسكرية المساندة.

كنت سعيداً بتكليفي بأول عملية إغارة سيقوم بها الجيش السوري بعد عام 1948 على مستوطنة "كفار شامير" بعد الوحدة المصرية السورية مباشرة.

أخبروني أن ضابط المدفعية لديه خرائط، اجتمعت بالنقيب "نصوح نعال" رحمه الله، ولم تكن لديه أية معلومات عن الحدود التي فيها هدف الإغارة (كفار شامير) الموجودة في القطاع الشمالي للجبهة السورية في الجولان، وأنا أيضاً لم تكن لدي أية معلومات!

قلت له: "سنذهب منفردين في عملية استطلاع للجبهة، تذهبون أنتم وحدكم ونحن نذهب وحدنا". وعلى الحدود المجاورة للعدو شكّل الجيش السوري والحرس الوطني (من أهالي القرى) نقاط حراسة وإنذار على التلال المشرفة.

كنت أرتدي زيّ الحرس الوطني ومعي ثلاثة من ضباط الصف الجيدين أثناء استطلاعي للحدود المشرفة على الهدف، ولم أكن أملك أية معلومات عن المستعمرة

التي ننوي الدخول إليها، وكذلك لم يكن لدى غرفة العمليات في الجبهة السورية أية معلومات أيضاً!

مضت أربعة أيام وأنا أستطلع المنطقة ليل نهار، وكنا ننام هناك مع الحرس الوطني وكمائنه المتقدمة، ولم يكن أحد يعلم مكان حقول الألغام التي زرعها الصهاينة. وبدون أمر من القيادة اقتربت ومعي ثلاثة جنود برتبة رقيب من هذه المستعمرة (كفار شامير) ليلاً وفتحنا ثغرة في حقل الألغام المعادي، من أجل فتح طريق لدخول قواتنا المهاجمة.

التقينا في قيادة الجبهة بعد عشرة أيام لتقييم الوضع على الأرض. سألنا العميد "جادو عز الدين" ما هو تقييمكما للوضع؟ ماذا حدث معكما؟

بعد أن أبدئ النقيب "نصوح نعال" وجهة نظره، طلبوا الاستماع إلى وجهة نظري، فقلت: "إن العملية بالشكل الحالي وبالظروف الموضوعية المحيطة بالميدان لن يكون مصيرها النجاح". تفاجأ الجميع، وسألوا ما السبب، أجبتهم: "هناك عدة أسباب؛ أولها الإغارة على المستعمرة ستكون ليلاً والجنود يجهلون القتال الليلي في وحداتنا". وتساءلت عما إذا كانت برامج التدريب لدينا تتضمن مادة القتال الليلي، وعن كيفية تنفيذ عمليات الإغارة ليلاً، وكيفية التعامل مع الكمائن الليلية المعادية، كون جنودنا لا يعرفون شيئاً عن هذا الأمر. واقترحت القيام بتدريبات مشتركة للقوات والوحدات المشاركة بالإغارة وبمشاركة كل صنوف الأسلحة بمشاريع نهارية وليلية.

أما السبب الثاني فإن المعلومات التي قُدّمت لنا عن المستعمرة (كفار شامير) غير دقيقة والخرائط الموجودة قديمة- مصورة في عام 1953- ونحن في عام 1960 وخلال هذه السنوات تغيّر الأمر كثيراً وبالكاد استطعنا خلال هذه الفترة القصيرة معرفة حقل الألغام المعادي وفتح ثغرة فيه.

تضايق العميد "جادو عز الدين" من كلامي ونظر إلى قائد كتيبة المغاوير النقيب "نصوح نعال" قائلاً: ما هذه الأمور التي أسمعها؟

فحاول "نعال" أن يبرر ويتهرّب من الإجابة وعندها قلت للعميد "جادو عز الدين: سيدي. أمنيتي أن أستشهد في سبيل تحقيق هدف سامٍ، وغاية نبيلة، ولكن ما الفائدة من الشهادة إذا كنت عاجزاً عن تحقيق الهدف ونيل الغاية؟! عندما تتخذ قرار الإغارة على مستوطنة العدو، من المفروض أن تكون جاهزاً عملياً ولوجستياً واستخباراتياً وأن تجري التدريبات اللازمة لكل الوحدات المشاركة بالإغارة، فالهدف من الإغارة هو

تدمير العدو ورفع معنويات الجنود والشعب عندنا، وإذا لم تنجح هذه الإغارة ويستشهد المئات من جنودنا فإن النتيجة ستكون عكسية على مستوى الشعب، وعلى مستوى القيادة، وستكون إيجابية على مستوى العدو الصهيوني.

كان رأي القيادة التروّي بشأن الإغارة حتى تتوفر الشروط اللازمة، والظروف المواتية لتحقيق النصر بأقل الخسائر الممكنة. وتمت الموافقة على أن يتم تجميع القوات المكلفة والمشاركة بالمهمة في منطقة "واسط" وأن تجري التدريبات النهارية والليلية، والتعاون بين قوات المغاوير والهندسة وإجراء تنسيق مع سلاح المدفعية، وخلال تلك المدة يُستكمل الاستطلاع وجمع المعلومات وهذا ما تم فعلاً. وتم تجميعنا في منطقة واسط وأجرينا تدريبات نهارية وليلية، ثم قمنا بمناورة عملية مشابهة في منطقة "مسعدة" وأصبحنا جاهزين لتنفيذ العملية.

وفي إحدى الليالي الممطرة أُعطينا الأوامر للتقدم إلى الهدف (مستعمرة كفار شامير) وعندما أصبحنا على التلال المشرفة على المستعمرة أُعطيت الأوامر للتوقف ولا نعرف الأسباب (رغم أنني كتبت رسالة لعائلتي وأعطيتها لأحد الضباط في سريتنا كان يخدم معي اسمه "عصمت أباظة" رحمه الله ويعرف أهلي كونه من سكان القنيطرة، وأبلغته أن يسلمها في حال استشهادي إلى عائلتي، وفي هذه الرسالة قدمت اعتذاري لأسرتي وكتبت لهم أنني أموت شهيداً من أجل فلسطين، كما تضمنت الرسالة بعض الوصايا لأخواتي البنات).

محطات في الطريق- الجيش- التنظيم السري

(في العام 1956 صدر مرسوم تشريعي عن البرلمان السوري نص على معاملة الفلسطينيين في سورية معاملة السوري في الحقوق والواجبات، عدا حق الترشح والانتخاب).

كانت هناك الكتيبة "68" التي وُلدت من رحم الفلسطينيين الذين يعرفون الأرض المحتلة، وكانت في العام 1959 تتبع لوحدة الاستطلاع في الجيش السوري ومهمتها جمع المعلومات عن العدو (الإسرائيلي) خلف خطوط وقف إطلاق النار خاصة في منطقة الجليل. وقام بتشكيلها وقيادتها الرائد "أكرم الصفدي".

أما في عام 1960 فقد تم استدعاء الشباب الفلسطيني من سن 18 إلى سن 30 لتأدية خدمة العلم في صفوف الجيش العربي السوري، حيث لم يكن جيش التحرير الفلسطيني قد تأسس بعد.

بدأت أشعر بالثقة الكاملة بنفسي بعد أن مررت بالتجارب القاسية ونجحت بها، أولها: معارضة عائلتي والهروب والالتحاق بالكلية الحربية بالقاهرة في بداية عام 1957. ثانيها: محاولتي الجادة الالتحاق بالثورة الجزائرية كمقاتل. ثالثها: اختبار قدرتي على التعرض للأخطار بزراعة الألغام- صناعة محلية- في مزارع المستوطنات الصهيونية المجاورة للحدود السورية في القطاع الأوسط جنوب جسر بنات يعقوب، وأثناء خدمتي على الجبهة السورية. رابعها: محاولتي الجادة بعد أن تم اختياري للقيام بعملية في الجيش العربي السوري للرد على العدو الصهيوني الذي قام بتدمير قرية التوافيق.

أثناء وجودي في الجبهة السورية قمت بتطوير مناهج التدريب في وحدتي وتنفيذ التدريبات النهارية والليلية على كل المهمات العسكرية والفرضيات التي يمكن أن نُكلّف بها، وإعداد الجنود الذين كنت أقودهم ليكونوا أشداء ومعنوياتهم مرتفعة. كنت أقضي أوقات الاستراحة أنا والجنود في وضع برنامج لمحو الأمية في الوحدة العسكرية التي كنت أقودها، وعندما كلّفني قائد الكتيبة أن أكون ضابط رياضة للكتيبة بالإضافة إلى عملي، شكلت فرقاً رياضية لمختلف الألعاب وجهزت الملاعب اللازمة لها وحققنا تفوقاً في بعض الألعاب.

كنت أتفقد مهاجع الجنود للحفاظ على نظافتها وترتيبها، وأسهر على تأمين طعامهم. علّمتهم كيفية القتال الليلي من حيث بناء الجسور ليلاً والخروج بدوريات والسير لمسافات طويلة بأسلحتهم الكاملة، مجتازين في فصل الشتاء نهر "الرقّاد"، وعلمتهم كيفية نصب الكمائن. حفرنا الخنادق حول كتيبتنا الثانية قرب "تل أبو الندى" للدفاع الذاتي في حال إنزالات العدو أو لمواجهة القصف الجوي الصهيوني المتوقع.

لا أتذكر أنني شتمت مرؤوسيَّ من ضباط وضباط صف والجنود أو وجهت لهم كلمة نابية، وإذا أردت معاقبة الجنود المخالفين كنت أجعلهم يزحفون على الأرض أو أحرمهم من الإجازات.

أقول بكل صراحة؛ كنت أقوم بهذه الأعمال ساعياً لبناء الإنسان الذي هو أساس تحرير الأرض وخاصةً المجندين الذين أتوا لتأدية خدمة العلم وليس للإذلال، بينما البعض من زملائي الضباط وللأسف كانوا لا يهتمّون بالجنود ولا بمتطلباتهم.. كانت العلاقة بكاملها علاقة قائمة على الودّ والاحترام، ليست فقط بيني وبين جنود سريتي بل مع جنود الكتيبة.

بعد هذه المراحل تم استبدال "الكتيبة الثانية مهندسين" المتواجدة في القنيطرة بـ "الكتيبة 53 مهندسين" الموجودة في معضمية الشام قرب مدينة دمشق. كنت أتمنى أن يستمر وجودي في الجبهة الأمامية ومجاورة حدود فلسطين لمدة أطول، ولكن كنا ضباطاً وعلينا أن ننفذ الأوامر بعملية الانتقال من الجبهة إلى الداخل لجهة دمشق. لكن في بعض الأوقات كنت أشعر بالسعادة لأنني أصبحت قريباً من المخيمات والتجمعات الفلسطينية المتواجدة حول دمشق وخاصة مخيم اليرموك، للمحاولة في بدء وضع اللبنات الأولى في العمل التنظيمي لتنظيمنا وجبهتنا التي أسميناها (جبهة التحرير الفلسطينية) أسوة بجبهة التحرير الجزائرية.

بعد أن وصلت إلى دمشق بدأت بعملية التنظيم وذلك بالتزامن مع انطلاق العملية التنظيمية أيضاً في غزة. أثناء دراستي ووجودي في القاهرة التقيت مع الضباط الموفدين من غزة- يقودهم ضابط أقدم منا تعرّفت عليه واسمه "فايز الترك" وهو مؤمن وذو أخلاق عالية ويعشق فلسطين. وقد اتفقت معه على ضرورة أن نعمل على إنشاء تنظيم فلسطيني يعتمد الكفاح المسلح وحرب الشعب طريقاً لتحرير فلسطين، ثم نبدأ العمل العسكري حين تتوفر الظروف السياسية والذاتية المواتية.

في الدرب الوعر

في أول الأمر بدأت بنقل بعض المتفجرات والألغام وأسلحة أخرى من الكتيبة إلى منزل العائلة حيث كنت أخبئها في سقيفة المنزل. وذات يوم، وبينما كانت أمي ترتّب أغراض المطبخ في السقيفة، وجدت الأسلحة والقنابل فأخبرت والدي بالأمر. سألني والدي: ما هذا؟ قلت له: أسلحة وقنابل من أجل العمل على تحرير فلسطين.

ما زلت أذكر ما قاله لي يومها: "يا بني! هذه طريق صعبة وهذه قضية معقدة، ولا يمكن تحرير فلسطين إذا لم تجتمع الأمتان العربية والإسلامية".

أجبته: "نحن سنكون رأس الحربة في عملية التحرير، أنتم أكلتم الحصرم ونحن نضرّس. علينا تحمّل أعباء ذلك". وشرح لي والدي يومها كل الظروف التي أحاطت بقضية فلسطين. قلت له: نحن ندفع ثمن أخطائكم كجيل فلسطيني وعربي. أجابني: عند توقيع وعد بلفور كان عمري سبع سنوات، وبكل صراحة لم نكن نتوقع ما حصل وسيحصل. كان عدد اليهود في فلسطين حوالي أربعين ألفاً. لم نكن نتوقع أن ينشأ وطن قومي لليهود كما نص وعد بلفور. ثم جاء الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، فهيّأ لليهود الظروف وقدّم لهم كل الدعم لاحتلال فلسطين وقام باستجلاب مئات الآلاف من اليهود المؤمنين بالحركة الصهيونية من كل أنحاء العالم ودرّبهم وسلّحهم، وخاصةً من يهود الاتحاد السوفييتي، وتم الإعلان في عام 1948 عن إنشاء دولة يهودية. قبلها في عام 1947 أُقر في مجلس الأمن وفي الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار التقسيم، حيث قُسمت فلسطين إلى قسمين: قسم لليهود (52%)، وقسم للفلسطينيين (48%). ووضعوا القدس وبيت لحم تحت إشراف دولي.

بعد ذلك سألني: ما الذي تفعله الآن؟ أنا أرى الأشخاص الذين يترددون إلى منزلنا. ما الذي تنوون فعله؟

وكان والدي في البدء يشكّ بأننا نخطط لانقلاب عسكري كوني ضابطاً في الجيش العربي السوري.

في مسيرة البدايات الصعبة بدأت بالتواصل والتقرّب من دورة الضباط الذين سبقوني، ومن ضباط تلك الدورة المرحوم "علي بوشناق"، وكان هدفي أن أعرف منهم تجربتهم منذ التحاقهم وحملهم السلاح في عام 1948 وأن أستفيد من خبرتهم وتجاربهم بحلوها ومرّها، وكذلك كمحاولة لاجتذاب بعضهم.

تأثرت كثيراً بصهري علي بوشناق (أبو باسل) زوج أختي الكبيرة فايزة؛ التي تزوجت وأنا في صف العاشر. كنت أرافقه إلى وحدته العسكرية التي كان يخدم فيها، وكان قد ترك أهله ودراسته ليذهب إلى القتال. وبعد تنفيذ "اتفاقات رودس" استقر به الأمر في الجيش السوري ليخدم كضابط فلسطيني هو وزملاؤه في القنيطرة. كما وثّقت علاقتي بالضباط عثمان حداد، وعبد الكريم عمر، ومصباح البديري، وعبد العزيز الوجيه، وحسن أبو رقبة، وجواد عبد الرحيم، وعزمي نسيبي، وغيرهم ممن كانوا في (دورة 48) دورة الحاج أمين الحسيني. كنت أقول لهم: يا إخوان، ألا تفكرون

بالقضية الفلسطينية! أنتم تمردتم وتركتم دراستكم وأهلكم من أجل فلسطين أم لتضعوا الرتب العسكرية؟!

هكذا بدأت بتحريضهم، نجحت مع البعض، ومنهم علي بوشناق وعثمان حداد رحمهما الله، وقد اقتنعا بفكرة الكفاح المسلّح الفلسطيني وانضمّا إلى المنظمة التي أسميناها كما أسلفت (جبهة التحرير الفلسطينية) في عام 1960، كما اقتنع عبد الكريم عمر وحسن أبو رقبة رحمهما الله، ولكنهما أبلغانا أنهما ملتزمان مع الحاج أمين الحسيني في الهيئة العربية العليا.

هؤلاء الضباط سبقونا بمدة خدمتهم عام 1948 والتحقوا بجيش الإنقاذ. وعندما تم حلّ جيش الإنقاذ كان عددهم خمسين ضابطاً انضموا للجيش السوري وصاروا جزءاً منه، ثم أُعطيت الجنسية السورية لهم.

توجهت أيضاً في مرحلة التنظيم إلى المخيمات الفلسطينية لأتواصل مع زملائي الضباط وضباط الصف وأتعرف عليهم عن قرب وأقيّم أخلاقهم وانضباطهم خارج وحداتهم. وعند البدء بالدعوة الجادة إلى التنظيم بدأت بتنظيم أفكاري وأهدافي وكنت أتابع الأحداث السياسية عن كثب وأتواصل مع الآخرين لأحوز على ثقتهم، ثم أقوم بتوجيههم بالاتجاه الذي يحقق الأهداف الوطنية عبر الحوار الجاد والمناقشة المستفيضة وتقبل الرأي والرأي الآخر. وكنت أركز دائماً على الأخلاق الحميدة وأبحث عن الشخص الشجاع القوي الذي يتمتع بالكفاءة ويُحسن تقدير الأمور ويكون ذكياً وقادراً على إتمام المهام الموكلة إليه، والأهم قدرته على القتال وتمتعه بالأخلاق الحميدة.

حين أصبحت قائداً للسرية حرصت على التواصل مع الضباط وضباط الصف وحتى المجندين الفلسطينيين في الكتيبة، فكنت أستدعيهم أثناء مناوبتي وأتحدث معهم عن نكبة فلسطين وعن العدو الصهيوني ومذابحه واغتصابه لأرضنا وتهجيره لشعبنا وعن المذابح والمجازر التي ارتكبها في مدننا وقرانا، ومساهمة الدول الاستعمارية في إنشاء الكيان الصهيوني، وتخاذل بعض الدول العربية في الدفاع عن فلسطين، وتواطؤ الأمم المتحدة في عام 1947، والموافقة على قيام دولة الاحتلال عام 1948. وكنت حذراً من أجهزة الأمن في الجيش السوري أيام الوحدة فقد كانت هناك رقابة شديدة أيام كان يقود الأجهزة الأمنية العقيد "عبد الحميد السرّاج".

في المرحلة التالية بدأنا بوضع الشباب، الذين تلاقوا معنا أخلاقياً وسياسياً، تحت الاختبار.. قمنا بتنفيذ مشاريع تمهيدية لهم- مثلاً المسير على الأقدام لمسافة طويلة دون طعام وماء، وكانوا أحياناً يمشون من دمشق إلى القطيفة أو من دمشق إلى سعسع، فيما كنا نراقب مسيرهم من خلال رفاق قدماء على طول الطريق دون أن يعلم هؤلاء الشباب، لنرى من يمكنه أن يصمد ومن منهم لا يستمر في الاختبار.

بعد أن تنتهي المشاريع التمهيدية بكل أشكالها للرفاق، وبعد التأكد من تجاوزهم الشروط، كنا نجمع كل أربعة أو خمسة من هؤلاء الرفاق في "زمرة" ونضع لهم قائداً للزمرة دون أن يتعرّف العناصر على أسماء بعضهم البعض، بل كانت تُعطى لهم رموز وأرقام بدل الأسماء.

كنا نجمع المعلومات وندرب الشباب الفلسطيني وفق مراحل ثلاث.. المرحلة الأولى "التمهيد"، والثانية "النصير" والثالثة "الملتزم والقسم".

في مرحلة التمهيد نركّز على مبادئ نضمّنها في نشرات توجيهية، وقد كلفنا بها الرفيق فضل شرورو، وأرسينا المبادئ الستة حول قضية فلسطين وكيفية تحريرها بالكامل. لم نكن نقبل ازدواجية الانتماء، بل نركّز على عروبة فلسطين وأن معركتنا هي واجب الأمة ومسؤوليتها.

كان لزاماً عليّ في هذه المرحلة- مرحلة التنظيم- وقبل كل شيء أن أثقّف نفسي وأطالع الكتب التي تتحدث عن الثورات وعن الانتصارات وعن الشعوب المظلومة ومذكرات القادة الكبار في العالم وكذلك الصحابة الذين كانوا حول الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم. وقد أثّرت في نفسي قصة مهمة تتحدث عن الثورة الكوبية وكيف أطلق شرارتها "فيديل كاسترو" وكيف ركب الثوريون زورقاً وتوجهوا إلى كوبا لبدء الثورة.

استفدت من كتاب "عاصفة على السكر" للكاتب الفرنسي "جان بول سارتر" الذي يتحدث عن الثورة الكوبية، ويتحدث فيه الكاتب عن قادة الثورة الكوبية بالأسماء. وهو برأيي من أهم الكتب عن الثورة الكوبية لما فيه من معلومات هامة.

وتأثرت كثيراً بشخصية "جيفارا" الذي تحدث عنه "جان بول سارتر" بأنه كان طبيباً ووالده ووالدته كانا طبيبين أيضاً، وهو من عائلة أرجنتينية غنية، وكيف ترك المال والطب وزوجته وابنته والتحق بالمناضل الكبير فيديل كاسترو.. الحقيقة أن تجربة جيفارا ونضاله لعبت دوراً كبيراً في حياتي فيما بعد.

هناك الكثير من الأمور التي كان لها تأثير إيجابي على قراري بتأسيس الجبهة، منها الثورة الجزائرية التي حاربت فرنسا. وكنت قد قرأت أيضاً عن (بن بيلا) وتجربته، وكذلك قرأت عن الوحدة السورية مع جمال عبد الناصر.

البعض كان يقول: "الوحدة هي طريق العودة".. بمعنى عندما تتوحد الأمة العربية تتحرر فلسطين. لكن كان لنا وجهة نظر أخرى فعملنا وتنظيمنا يعتبر أن السعي لهذه الوحدة كخيار لا يتعارض مع طريق الكفاح المسلح لتحرير فلسطين، وأن الكفاح المسلح واستعادة فلسطين يصبحان الشغل الشاغل لنا دون أن يكون هناك تعارض بينهما.

ومن سوء الطالع أو من حسنه أن الرئيس عبد الناصر في إحدى خطبه المشهورة عام 1962 بعد الانفصال تحدث عن القضية الفلسطينية وقال بالحرف الواحد: «لا توجد أي خطة لتحرير فلسطين، ومَن يقول ذلك من الدول العربية فهو يكذب ويخادع الشعب الفلسطيني».

أثناء وجودي في الكلية الحربية في مصر، اندلعت ثورة لإنهاء المَلكيّة في العراق عام 1958. وأذكر أنه أثناء زيارة الأستاذ عبد الله الريماوي لدمشق آنذاك، وكان وزير الخارجية في حكومة النابلسي، التقيته برفقة أبناء عمي- كانوا بعثيين- وكانت الحركة القومية قوية جداً في الأردن، وبعض الضباط الأحرار يحضّرون للانقلاب على الملك.. سألتُ الريماوي: "هل الفرصة سانحة للتخلص من النظام الهاشمي؟".

قال: نحن استشرنا الرئيس جمال عبد الناصر، وقد قال لنا إن أي انقلاب على الملك حسين وإزاحته سيدفع الجيش "الإسرائيلي" لاحتلال الضفة الغربية والقدس، وإن العرب والجيش المصري لا يستطيعون الآن أن يدافعوا عن الضفة الغربية، لذا علينا ألا نتحمل تبعات احتلال الضفة الغربية والقدس، خاصةً وأن الوحدة بين مصر وسورية كانت في بدايتها.

في مدرسة الهندسة في "تلكلخ"

في السنة الأخيرة من الوحدة بين مصر وسوريا، بدأت قدراتنا تكبر وأخذ نشاطنا يتّسع. كنت أخدم وقتها في الكتيبة الثانية في "معضمية الشام" بريف دمشق، وبدأت أجهزة الأمن تشعر بأن استمراري في منطقة دمشق سيسبب إشكالات أمنية، بالإضافة إلى أن مدرسة الهندسة العسكرية الموجودة في "تلكلخ" وكان يقودها الرائد هيثم الأيوبي، كانت بحاجة إلى مدرب كفؤ ليدرّس في المدرسة التكتيك العسكري

والتعبوي، فتم نقلي من منطقة "معضمية الشام" إلى مدرسة الهندسة العسكرية في "تلكلخ".

كانت أجهزة الأمن السورية تتساءل عن توجّهاتي السياسية- فأنا لم أكن واضحاً كثيراً بالنسبة للجميع، يعني لم أكن ناصرياً ولا بعثياً، كنت أهتم فقط بالقضية الفلسطينية.

في مدرسة الهندسة في تلكلخ، عُينت قائداً لجناح التكتيك. كنت أدرّب دورة ضباط الصف ودورة المرشحين مادة التكتيك التعبوي، لكنني شعرت بنقص في المنهاج حول التدريب الليلي وقتال المدن والشوارع وكذلك المشاريع العملية، فلجأت إلى الضباط الروس المعيّنين كمستشارين في المدرسة للاستفادة من خبرتهم في هذا الموضوع. كنت أسألهم حول هذه المواضيع. وقد استغرب الضباط الروس من كثرة أسئلتي وعمقها، وسألوني: لماذا لا يطرح غيرك مثل هذه الأسئلة؟ هل تريد أن تحمل هذا العبء وحدك؟

وحاولوا مساعدتي لأن المنهاج التعبوي في ذلك الوقت لم يكن يتضمّن هذه المواضيع التي كنت أسأل عنها.

خلال وجودي في المدرسة تعرّفت على طلاب فلسطينيين يدرسون في دورة مرشحين ودورة ضباط الصف، وكنت أراقبهم بدقة من حيث سلوكهم وانضباطهم واستفادتهم من الدروس، لمعرفة مَن من الممكن أن يصلح لمتابعة مسيرنا الوطني السرّي. ثم أصبح الرائد "ساطع برمدا" مديراً للمدرسة يعاونه كبير المعلمين النقيب "محمد أمين ناجي" رحمه الله. وأذكر جيداً أنه في هذه المرحلة وقع الانفصال أثناء وجودي في تلكلخ.

رغم انشغالي بأعمال هذه الدورة لكنني لم أنقطع عن متابعة الوضع التنظيمي السرّي في منطقة دمشق وما حولها والمخيمات المحيطة بها وذلك من خلال استدعاء بعض الرفاق إلى تلكلخ أيام العطل وخلال إجازاتي لأتناقش معهم في كيفية متابعة العمل بحيث لا يشكل إبعادي عن دمشق فراغاً تنظيمياً سواء كان في عهد الوحدة أو في عهد الانفصال.

قررت أن أقوم بمشروع عملي لقتال المدن والشوارع واخترتُ أن يكون هذا المكان قرب مدينة تلكلخ وهو عبارة عن مبانٍ ضمن حي في طور الإنشاء، وثبّتنا هذا المشروع

في البرنامج لهذه الدورات المعنية بحيث تكون دورة ضباط الصف في وضع الدفاع وتكون دورة المرشحين في وضع الهجوم، وبالعكس.

وقّع على هذا المشروع وعلى هذا البرنامج مدير مدرسة الهندسة في "تلكلخ" الرائد "ساطع برمدا" وكبير المعلمين. ورغم حصول الانفصال تواصل هذا المشروع، لأن المدارس والكليات لا تستنفر في هذه الحالات بل تتابع منهاجها لأن هذا المنهاج له وقت محدد وتاريخ محدد للتخرج.

أثناء تنفيذ المشروع استخدمنا القذائف والقنابل الصوتية والدخانية. وهنا بدأت الإذاعات تتحدث عن انقلاب عسكري يحصل في "تلكلخ" ضد الانفصال، لأن الطريق الواصل بين حمص وطرابلس يمر عبر تلكلخ. وصل الخبر إلى قيادة الجيش بأن مدرسة الهندسة في "تلكلخ" قد تمرّدت. وفي هذه الأثناء وصل أمر من المخابرات السورية في دمشق بضرورة استدعائي إلى دمشق.

عند وصولي إلى مقرّ المخابرات في دمشق سألوني: "ماذا فعلت في مدرسة تلكلخ؟" قلت لهم: كنا ننفّذ مشروعاً تدريبياً بموافقة مدير المدرسة ومسؤول التدريب فيها من خلال برنامج موقّع عليه من قبلهما.

قالوا لي: "ألم تسمع الأخبار؟" قلت: نعم سمعت، وبإمكانكم أن تنفوا هذه الشائعات عن التمرد والانقلاب.

لم يعجبهم كلامي ونقلوني إلى الفوج (88) في منطقة صحنايا، وهو فوج معدات وآليات هندسية ثقيلة كان في طور التشكيل والإنشاء.

في تلكلخ تعرّفت على الضباط المتدرّبين وعلى قسم من طلاب نالوا شهادة الثانوية ليلتحقوا بدورة ضباط مجندين وكان بينهم فلسطينيون. كنت أحتكّ بهم ونظّمت بعضاً منهم. الخلايا لم تكن تعرف بعضها، كنت أزورهم في المخيمات التي يسكنون فيها وأطلب منهم جمع أقربائهم، حيث نجلس ونتحدث عن القضية الفلسطينية دون أن يعرفوا من أكون.

التقيت بعنصر في الدورة اسمه "حمد الموعد" وآخر هو "عبد اللطيف شرورو" كنت أعرفه سابقاً، وقد استشهد فيما بعد على شاطئ بحيرة طبريا في موقع تل النيرب، وهو شقيق الرفيق الشهيد فضل شرورو رحمهما الله.

نظمت من المرشحين كضباط رياض سليم سعيد (أبو سعيد) رحمه الله.

وأذكر أني سألت عبد اللطيف شرورو عن شقيقه "فضل" بعدما أعلمني الرفيق "يوسف طبل" عنه، فقال لي: نعم. شقيقي فضل أديب وشاعر ولكنه أصغر مني وحتى الآن لم يقدّم البكالوريا.

بدأنا بتنشيط وضعنا التنظيمي أكثر فأكثر. نظّمت "نهاد عرفة" و"كمال ناجي" ثم شقيقه "طلال ناجي" و"محمد كايد سليماني"، كما تم تنظيم عدد من الأخوة السوريين أمثال المرحوم "أحمد الطُبل" و"محمود الطُبل".

في جوبر كان يوجد عدد كبير من الفلسطينيين منهم إبراهيم سلامة (أبو عرب) ورشاد أبو شاور وعماد عوكل وإبراهيم القلّا وحافظ الدلقموني (أبو محمد) وشقيقه الشهيد حفظي الدلقموني وغيرهم، وأيضاً في مناطق أخرى من أحياء دمشق حيث يسكن بعض الفلسطينيين أمثال الرفيق عادل قدورة ونادر صيام وشقيقه نعمان صيام وخالد مرشد وعفيف قاسم وكان قائداً للفرقة الكشفية (38) ونائبه "عبد الرحمن قرعيش" ومركزها في مدرسة (الإليانس) في حي الأمين، وكانت تضمّ المئات من الفتية الفلسطينيين وأغلبهم تم تنظيمهم، منهم صائب سويد الذي استشهد في معركة مطار اللد عام 1967، والشهيد فاروق سلمان، فواز بهيج، محمد القعقاع الزعبي، محمد عقلة، خليل الصنجي، تحسين الحلبي، وأبو نضال علي عموري... الخ. وممن تم تنظيمهم أيضاً من أحياء دمشق قسّام شحادة رحمه الله، والرفيق أبو أشرف محمد كريدي وشقيقه، ومأمون حيفاوي رحمه الله وشقيقه ناصر حيفاوي (أبو نورس).

في مخيم اليرموك شكلنا العديد من الزمر والفصائل والمجموعات على رأسها- ممّن أتذكرهم- أبو سعيد رياض وحمد الموعد والشهيد أبو علي الأخضر وأبو كايد فضيل وأبو النصر برغيس وشقيقيه فرج وعبد القادر، محمود كوجيل (أبو علي الدعبول) وشقيقه، وأبو جاسم حديد وشقيقه أبو إسماعيل حديد الذي استشهد في طرابلس، ويونس حديد (أبو حنفي).

في أحياء دمشق تشكلت لنا زمر ضمّت ممن أذكر المرحوم عمر أبو راشد، والمرحوم حسن خطاب، وشقيقيه ديب وسامي خطاب، وابن عمهم راسم خطاب، والشهيد أبو العمرين أمجد، مصباح عمرين وشقيقه محمد (أبو برهان)، وعلي عللوه، وأحمد الخضراء وشقيقه، والشهيد كامل ناصر، ومحمد أبو حسان، وجمعة دلول

وحسام بامية ومحمد جابر شتا ومحمود اللحام، رحمهم الله، وراجح مدردس وصبري حجير.

كنت أزور مخيمات حمص وحماة وحلب برفقة أبو سعيد رياض، فهو كان يعرف هذه المخيمات وعاش فيها في عام 1963. فاتحت السيد محمد زهدي النشاشيبي وكان مدير بنك في حماة بموضوع التنظيم في (جبهة التحرير الفلسطينية)، وكذلك الأستاذ صلاح الزواوي الذي أصبح سفير فلسطين في طهران، وكان يقول دائماً بأنه تنظّم في جبهتنا لأنه لم تكن هناك لا حركة فتح ولا غيرها من التنظيمات.

وقد نظمنا في حمص الشهداء فؤاد زيدان "أبو العمرين" وشقيقه الشهيد أبو الفهد محمد زيدان، والأسير المحرر أبو محمد صلاح، وأبو هشام شلون رحمه الله، ومصطفى رضوان أبو دباح.

كنا نعقد اجتماعاتنا السرية ليلاً في حماة، وكان معنا أبو جهاد يوسف وفضل شرورو وكايد سليماني ونهاد عرفة ود. طلال ناجي وأبو جاسم حديد وأبو حنفي حديد.

في التنظيم السري استلم أبو سعيد رياض جناح التكتيك ثم استلم لجنة التدريب، والمرحوم كمال عبد الكريم وهو ضابط مرشح استلم جناح الطبوغرافيا.

كذلك زرنا مخيمات حلب (النيرب وحندرات) وبدأنا بزراعة قواعد تنظيمية فيها.

كما تشكلت العديد من الزمر النسائية حيث انضمت لها أخوات وزوجات وأحياناً أمهات عناصر التنظيم السري في المرحلة التأسيسية. وكان يتزعم هذا النشاط السيدة "نهى الغزّي"- زوجتي السابقة أم جهاد، ووداد حيفاوي، وسميرة جبريل، وأمل عللوه، وأم حسون، وفتنة الخضراء، ودلال ناجي، وبدور الخضراء، أم علي الأخضر، رباح قدورة، والعديد من الرفيقات.

صدف أنني اشتريت سيارة لأول مرة من زوج شقيقتي المهندس مروان اليحيى، وهي سيارة صغيرة جداً بباب واحد، وكان قد اشتراها بالتقسيط من الوكالة من نوع (أوستين) واضطر لبيعها كونه غادر إلى السعودية للعمل. وصرتُ أدفع الأقساط الشهرية لاستكمال ثمنها. هذه السيارة رغم صغرها دخلت معنا في العناء في هذه المرحلة السرية واستفدنا منها بشكلٍ كبير حتى أن الرفاق أطلقوا عليها اسم (وفاء)، كانت تشاركنا في المشاريع في الجبال البعيدة عن دمشق وتصل إلى الحدود الأمامية في الجبهة السورية وهي تحمل سلاحاً وعتاداً وعناصر.

نقلي إلى الفوج (88) في منطقة الكسوة

كان الفوج في مرحلة الإنشاء وتعداده ما بين 500- 600 مجند من أسوأ السائقين ومن خريجي السجون. قائد الفوج ضابط برتبة رائد من آل البكري من حماة. وقد عُيّنت رئيس عمليات لهذا الفوج. حينها قمت بإعادة تأهيله من جديد بالاتفاق مع قائد الفوج. وفي الوقت الذي كنت أمارس فيه دوري التنظيمي في الجبهة، كنت أقوم بكامل واجباتي العسكرية تجاه الفوج.

كنت أتواجد في الفوج في الساعة السادسة صباحاً وأبقى إلى الساعة الثالثة والنصف عصراً، بعدها أعود إلى المنزل. وفي الساعة الخامسة أكون في مخيم اليرموك وغيره من المخيمات. وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً أنتهي من محاضراتي السرية وأعود سيراً على الأقدام إلى المنزل قبل شرائي السيارة. كنت أصل إلى المنزل حوالي الساعة الثانية والنصف أو الساعة الثالثة فجراً.

كان حقل الرمي المركزي الوحيد للجيش- للرمايات الخاطفة والمتحركة- موجوداً في قطنا. وفي حصة الرمي كان علينا نقل الجنود من صحنايا إلى ما بعد عرطوز، أي بين عرطوز وقطنا على بعد حوالي 50 كيلومتراً عن فوجنا. في الفوج كانت لدي معدات ثقيلة (الباغيرات والبلدوزرات وتركسات وسيارات القلاب.. الخ) استفدتُ منها وصممت حقلاً نموذجياً للرمي الخاطف والمتحرك قرب فوجنا في منطقة صحنايا- الكسوة مشابه لحقل الرمي في قطنا.

لم أنسَ قضيتي

استفاد التنظيم السري الذي بنيناه من حقل الرمي في صحنايا. واتفقت مع فصائلنا السرية في التنظيم أن تكون موجودة في إحدى المزارع القريبة من حقل الرمي في منطقة صحنايا. وفي موعد الرماية وبعد انتهاء جنود الفوج من الرمي كنت أستدعي هذه الفصائل الخاصة بالتنظيم لتقوم بأعمال الرماية في حقل الرمي وبأسلحة وذخائر الفوج.

ذات يوم صباحاً سأل قائد الفوج- وهو من آل البكري- أحد الجنود عني. فقال له: إنه لم يزل في حقل الرمي. فحضر إلى حقل الرمي معتقداً أن الضباط يقومون بالرمي، ولكنه فوجئ بوجود مدنيين يتدربون على الرمي.. قسم منهم منبطح وراء

البندقية، وآخر يمسك الخوذة من أجل الأغلفة الفارغة. ناداني قائلاً ما هذا يا أحمد؟ قلت له: هؤلاء فلسطينيون جاؤوا ليتدربوا على الرماية.

ركب السيارة، وقال لي: إلحق بي.

صرفت الشباب الفلسطيني بعد الانتهاء من الرماية وذهبت إلى مكتب قائد الفوج.

قال لي: يا أحمد.. ألا تعلم بأن هذا مخالف للقوانين؟

قلت له: سيدي هؤلاء فلسطينيون يتدربون على استعمال السلاح (لم يكن جيش التحرير الفلسطيني قد تأسس بعد)، وهم سيتحملون في المستقبل مسؤولية الدفاع عن القضية الفلسطينية.

قال لي: أنت ضابط وتعلم أن هذا ممنوع.

قلت: نعم أعلم.

قال: لقد أخبرت قائد سلاح المهندسين العميد "سمير جبور" بالأمر وطلب مني بأن نذهب أنا وأنت إليه.

ذهبنا إلى مكتبه في منطقة "السبع بحرات" في مركز إدارة المهندسين. سأل العميد سمير: "ما الذي حصل؟" أخبرته بالقصة كاملة. قال لي: ألا تعلم أن هذا ممنوع.

قلت له: أنا أخبرتكم منذ البداية أنني فلسطيني، ولم ألتحق بالجيش لأضع الرتب وحسب، بل التحقت من أجل القضية الفلسطينية، ولست مقصّراً بواجباتي تجاه الفوج. الوحدة التي تسلمتُ رئاسة عملياتها يا سيدي كان يتغيّب عنها 350 فرداً يومياً. الآن لا يتغيّب عنها سوى 5 أفراد، وقائد الفوج على علم بذلك.

هنا قال العميد سمير: أنا أعلم والتقارير موجودة لدي، لكن يجب أن تُعاقب.

وأصدر عقوبة مخفّفة بحقي مدتها 15 يوماً، وأبلغني أنه سيكتفي بذلك وعدم رفعها إلى قيادة الجيش. وبعد شهر من الحادثة أبلغني قائد الفوج بأن العميد سمير جبور سيزورنا برفقة معاونه- من عائلة الهندي- ومجموعة من الضباط تتراوح بين ثلاثين وأربعين ضابطاً، سواء من زملائي أو من رتب أعلى من سلاح المهندسين.

تحدث العميد سمير عبر مكبر الصوت قائلاً: لا أحد يعلم لماذا نحن هنا؟ حتى قائد الفوج. نحن جئنا لنمنح وسام الواجب للملازم أول أحمد جبريل لما قدّمه من خدمات لهذا الفوج.

وحصل التكريم بحضور قائد الفوج، وعلّق لي "وسام الواجب"، وكان رئيس الأركان على علم بذلك.

تابعنا في العمل السري وانتشارنا على كامل الجغرافية السورية، وكنت على تواصل مع بعض رفاقنا في غزة رغم الصعوبات بالاتصال.. كل أسبوع وفي العطل تتحرك زمر المنظمة السرية إلى الجبال في شمال دمشق أو غربها أو جنوبها للتدريب السري العسكري على الدوريات والكمائن والإغارات والإعداد البدني، وكنت شخصياً أشارك وأشرف عليها. ولأجل اجتماعاتنا وبعض التدريبات استأجرنا بيوتاً سرية في غوطة دمشق.

كان تنظيم هؤلاء الرفاق في جبهتنا يمر بمراحل كما أسلفت؛ مرحلة جمع المعلومات عن المرشح للانضمام إلى تنظيمنا، وبعد الموافقة عليه يمر بمرحلة التمهيد وهي مرحلة صعبة وفيها اختبارات قاسية من حيث المسير لمسافات طويلة وبدون طعام أو شراب، والالتزام بمقاطعة المقاهي ودور السينما إلا للأفلام التي تتم الموافقة عليها.. فضلاً عن أمور مماثلة.

بعد انتهاء مرحلة التمهيد يتلقى المنتمي للجبهة المبادئ الأساسية للجبهة ثم يبدأ أداء قسم النضال، بعدها تبدأ عملية التدريب العسكري من خلال دراسة مادة التكتيك والإشارة والطبوغرافيا والإسعاف واللغة العبرية والإعداد البدني والألغام والمتفجرات، وذلك عبر مدربين تم اختيارهم من عناصر التنظيم، وقد ساعدني في إعدادهم الرفيق المرحوم يوسف طُبل كونه ضابطاً باختصاص إشارة، وبذلك شكلنا اللجنة العسكرية التي تشرف على أعمال التدريب العسكري السري وترفع تقاريرها باستمرار إلينا، وبعد انتهاء الزمرة من التدريب يتم إخضاعها لفحص من لجنة خاصة.

كنت أشارك وأعمل لإنجاح هذه اللجنة، سواء في وضع المناهج أو المراجع والبرامج أو وسائل الإيضاح أو التدريبات العملية نهاراً وليلاً، ومتابعة تقارير التدريب فيها.

بعد ذلك أنشأنا لجنة التوجيه المعنوي وكُلّف الرفيق فضل شرورو بمسؤولية هذه اللجنة وعملها في الإعداد الفكري والشخصي للموجّهين الذين يمكن أن يقوموا بهذا العمل، وقام رحمه الله بجهد كبير ومضنٍ حيث صدرت نشرة توجيه معنوي نقدم فيها عرضاً سياسياً موجزاً وتتلى على كل الزمر والفصائل والمجموعات من خلال الموجّهين.

أصبح لدينا تنظيم منتشر ضمن المخيمات المحيطة بدمشق، ليس فقط في اليرموك وإنما أيضاً في جوبر ومنطقة ركن الدين وحي الأمين ومخيم خان الشيح ومخيم خان دنون، وأيضاً انتشرنا باتجاه مخيمات سورية في الشمال؛ مخيم في حمص مخيم خالد بن الوليد، ومخيم حماة وأيضاً في حلب في مخيمي النيرب وحندرات، وأيضاً في مخيم درعا. كانت أغلب هذه الخلايا لا تعرف اسمي الحقيقي أو أني ضابط في الجيش بل كانوا يعرفونني باسم سعيد وهو اسم مستعار.

في إحدى الليالي أيام الانفصال دخل "أبو رياض العركي" وهو مسؤول أمني يتبع لأحد فروع الأمن السورية في دمشق، مع وحدة له إلى مخيم اليرموك بعد إخبارية من أحد الأشخاص، فاعتقل مجموعة من الرفاق وذلك في آب 1962، أهمهم الرفاق: فضل شرورو، عمر الشهابي، حمد الموعد ورياض سعيد وآخرون، كما تمت مصادرة بعض العتاد العسكري. كان مسؤولو الأمن يظنّون أنهم ناصريون سيقومون بأعمال تخريبية بأمر من المخابرات المصرية، وحوّلوهم إلى التحقيق. تم سجنهم في سجن المزة العسكري. حينها كنت ضابطاً برتبة ملازم أول.

لم يكن أحد يعرفني من المجموعة إلا الرفاق فضل شرورو ورياض سعيد وحمد الموعد، وأثناء التحقيق اعترفوا بأن المسؤول عنهم ربما يكون ضابطاً عسكرياً اسمه "سعيد". فسألهم المحقق: كيف عرفتم أنه عسكري؟، فقالوا له: من علامة "البيريه" العسكرية على جبينه ولكن لا نعرف اسمه الحقيقي بل نعرف أن اسمه "سعيد" فقط.

توجهت إلى زميلي ضابط فرع مخابرات منطقة القصور في الأمن السوري "عبد الوهاب البكري". كنت قد تعرفت عليه عن طريق شقيقه وكان من الانفصاليين. قال لي: "يا أحمد.. ألقينا القبض على مجموعة من الفلسطينيين، حوالي 25 شاباً، بحوزتهم متفجرات وأسلحة ويريدون القيام بأعمال تخريبية في البلد، وهؤلاء ناصريون.

قلت له: "دقّقوا أكثر"، قال: لا. هم الآن في سجن المزة يعترفون.

سألت نفسي: ما العمل؟ لم أستشر أحداً، لا علي بوشناق ولا عثمان حداد ولا أبو جهاد يوسف. ارتديت اللباس العسكري وحملت حقيبتي وقلت لأهلي بأنني سأذهب بمهمة ومن الممكن أن أتأخر.

ذهبت إلى مكتب العميد مطيع السمان بوزارة الداخلية وهو الحاكم العسكري العرفي السوري. دخلت إلى مدير مكتبه، وأخبرته أنني أريد التحدث إلى العميد

بموضوع خاص. عندما قابلته قلت له: جئت إليك بموضوع شائك. أنتم منذ فترة ألقيتم القبض على مجموعة من الشباب الفلسطينيين وجدتم معهم أسلحة ومتفجرات واتهمتموهم بأنهم خلايا إرهابية تتبع المخابرات المصرية. قال لي العميد مطيع: صحيح.. لكن ما علاقتك أنت بالموضوع وأنت ضابط بالجيش؟

قلت له: أنا ضابط في الجيش السوري ومعي الجنسية السورية لكني فلسطيني. قال: "ما علاقتك بهم؟". قلت له: اهدأ يا سيدي. أنتم حققتم معهم وعذبتموهم. من المفروض أن تعرفوا أن هناك شاباً اسمه "سعيد" هو المسؤول عن التنظيم.

قال: هذا الكلام صحيح.. من أين تعرف هذه المعلومات؟. قلت: أنا ذهبت إلى النقيب عبد الوهاب البكري، وهو صديقي وقال لي إنهم يتعرضون للتعذيب. يا سيدي العميد أنا (سعيد).

قال مستغرباً: أنت سعيد؟، أجبت: نعم أنا سعيد.

قال العميد: كنت تأخذ الألغام والمتفجرات والأسلحة من الجيش؟

قلت له: نعم.. أنا أخذتها أو سرقتها من الجيش.. فسّرها كما تريد.

اتصل العميد مطيع السمان الحاكم العرفي العام في سورية برئيس فرع المخابرات وبقائد الشرطة العسكرية. وخلال ربع ساعة تواجد حولي ثلاثة ضباط برتب عالية. جلسنا من الساعة التاسعة مساء حتى الثانية ليلاً ونحن نتجادل. قلت لهم: "لم أدخل إلى الجيش كي أضع الرتب العسكرية بل من أجل فلسطين"، وأخبرتهم بأن هذا السلاح والعتاد الذي أخذته من الجيش لم أكن أنوي بيعه أو الإخلال بأمن هذا البلد بل كنت أسعى من ورائه لهدف سامٍ هو فلسطين.

تفاجأ الضباط بكلامي- لقد كنت صاحب حق ولم أكن مرتزقاً كي أخاف- قالوا لي: أتعرف عقوبة ما فعلت؟ سوف تساق إلى المحكمة العسكرية وتسجن من 10 إلى 15 عاماً وتطرد من الجيش.

قلت لهم: أعلم كل هذه الأمور ولا يهمني الأمر. أنا لا أنتمي لأي حزب، ولا أتدخل في شؤون الدولة السورية.

نظر إليّ الضباط وطلبوا مني أن أذهب إلى غرفة مدير المكتب وأنتظر. بعد نصف ساعة طلبوني. دخلت ومعي حقيبتي وقلت لهم: هذه ثياب السجن. قالوا لي: ضابط ويتصرّف بهذا الشكل يُحال إلى المحكمة العسكرية ويُسجن من 10 إلى 15 عاماً ويطرد من الجيش، ولكن كلامك وإحساسك أثّرا بنا كثيراً. سنكتفي بعقوبة السجن

لمدة (45) يوماً فقط وسنقوم بغضّ النظر عمّا فعلته وإغلاق هذا الملف. شكرتهم وذهبت[2].

بعد حوالي أسبوعين من هذا اللقاء أطلق سراح الرفاق من سجن المزة العسكري.

(وفي الثامن من آذار عام 1963 قرر رئيس الأركان الفريق لؤي الأتاسي إلغاء عقوبة السجن المتخذة بحقي بسبب ترأسي تنظيماً فلسطينياً، كما ألغاها من سجلي).

وبعد خروجنا من السجن سألني رفاقي: لماذا فعلت هذا واعترفت بأنك "سعيد"؟، فقلت لهم: هل من المعقول أن يُعتقل رفاقي ويعذّبوا ويتّهموا زوراً وعدواناً بأنهم ناصريون يخطّطون للقيام بتفجيرات ضد الدولة وأصمت ولا أتحمل المسؤولية عنهم؟!

طلب الاستقالة من الجيش

شعرت في أيام الانفصال (الذي وقع في 28 أيلول 1961) أنني تحت مراقبة شديدة وفُرضت بحقي عقوبات متعددة، لذلك قررت أن أستقيل من الجيش، وأرسلت بطلب الرفيق فضل شرورو إلى مقر عملي في الفوج (88) الذي أسميته "معسكرات الجهاد" ومازالت هذه المعسكرات تُعرف بهذا الاسم إلى الآن وتقع ما بين الكسوة وصحنايا.

أمليت على الرفيق فضل صيغة استقالتي التي سأرفعها عن طريق التسلسل لرئيس الأركان اللواء "نامق كمال"، ولم أبحث موضوع الاستقالة مع القيادة المؤقتة لجبهتنا.

تم استدعائي من قبل رئيس فرع الضباط في الأركان العميد "خليل موصلي" الذي قال لي: أتستقيل من الجيش من أجل عقوبة (15) يوماً أو 45 يوماً؟ أجبته: لم أستقل بسبب العقوبات، ولكنني كنت أرغب ألا يتعارض خط خدمتي بالجيش مع خط خدمتي لقضيتي الفلسطينية. وعندما شعرت بأن هنالك تعارضاً بين الخطين أصبح لزاماً عليّ أن أستقيل.

---

[2] - (العميد مطيع السمّان ذكر هذه الواقعة في مذكراته الموجودة في الأسواق).

نظر العميد خليل إليّ بتمعّن وقال: يا بني، لديك صفات رائعة وما زلت برتبة ملازم أول، بإمكانك أن تقود سرية مقاتلة في الميدان، رغم أن هذه المهمة تحتاج إلى رتبة أعلى، وهذا مكتوب في إضبارتك كضابط.

اصطحبني العميد خليل إلى مكتب اللواء "نامق كمال" الذي قال لي: لقد عرفت بأسباب تقديمك الاستقالة لذلك سأطرح عليك فكرة. لدينا الكتيبة (68) وهي مشكّلة من وحدات الاستطلاع الفلسطينية التابعة لإدارة الاستطلاع في الجيش السوري، وهي تجمع المعلومات من داخل فلسطين لصالح الجيش، ما رأيك أن تستلم هذه الكتيبة[3]؟

قلت له: سيدي هذه الكتيبة جزء لا يتجزأ من الجيش السوري. أنا أريد أن أتحرر من الجيش وأتفرّغ لقضيتي. فأبلغني بأنه يرفض طلب الاستقالة وقال: "مع عدم الموافقة على طلبك"، وانصرفت.

(ربما يتساءل البعض لماذا لم أكن أهتم بالبقاء في الجيش، فقد كان وضعي المالي لا بأس به كضابط، وكانت لدي أعباء عائلية، إذ كنت قد تزوجت حديثاً وأحتاج لإنشاء منزل كوني كنت أسكن عند أهلي. السبب لدي أسمى من المال والوضع المريح. وهو باختصار بعنوان واحد: فلسطين).

مغادرة الجيش السوري عام 1963

سُرح المزيد من الضباط الناصريين والبعثيين في عهد الانفصال- كذلك تم تسريح العديد من الضباط أيام الوحدة- وكانت الفوضى تعمّ في داخل الجيش.

فوجئت بنقلي من الفوج (88) في صحنايا إلى مدرسة الهندسة العسكرية في قطنا، وتسلمت مرة أخرى مسؤولية قائد جناح التكتيك التعبوي في المدرسة.

بدأ تحرك في الجيش ضد أجنحة الانفصال والانفصاليين ودبّ الخلاف داخل أجنحة الانفصاليين أيضاً. وكان هناك تحرك خفي بين بعض الضباط البعثيين والناصريين غير المكشوفين لأجهزة الأمن لقلب النظام في سورية، وتم ذلك فعلاً بنجاح في 8 آذار عام 1963 وتزعّم هذه الحركة اللواء زياد الحريري.

---

[3] - (كان المسؤول سابقاً عن الكتيبة المذكورة الضابط الدمشقي أكرم صفدي)

احتدم الصراع بعد ذلك بين الضباط الناصريين الذين كانوا أصحاب رتب عالية في الجيش من جهة، وبين الضباط البعثيين من جهة أخرى، والذين كانوا إما ضباطاً مسرّحين في عهد الوحدة أو الانفصال وأُعيدوا للجيش، بالإضافة إلى ضباط بعثيين غير مكشوفين.

في 18 تموز 1963 تمت الغلبة للضباط البعثيين، وجرى تسريح الضباط الناصريين أو اعتقالهم وازداد العداء بين الرئيس جمال عبد الناصر والبعثيين في ذلك الوقت.

حاول الضباط الناصريون مهاجمة مبنى الأركان لكنهم فشلوا، وأُعدم العشرات منهم بعد إلقاء القبض عليهم، بينهم فلسطينيون من الكتيبة (68) استطلاع.

كنت أتابع عملي كقائد جناح التكتيك التعبوي في مدرسة الهندسة العسكرية والتي كانت تضم دورات للضباط، دورات للمرشحين ودورات لضباط الصف.

كان للتسريحات التي تمت داخل الجيش السوري تأثير كبير على بنية الجيش وخاصة الكليات والمدارس العسكرية، حيث أن هذه الكليات والمدارس العسكرية تُعقد فيها دورات تدريبية لها مواعيد بداية وتاريخ انتهاء. وبعد أن تم تسريح العديد من الضباط من ملاك مدرسة الهندسة العسكرية بدأت أشعر بالعبء الذي سنتحمله في تدريب هذه الدورات لكي ننهي برامجنا التدريبية حسب الموعد المحدد للتخرج.

في أحد الأيام بعد 18 تموز 1963 وبعد الإعدامات التي حصلت حينها وهي لأول مرة تتم في الجيش السوري، أعلمنا قائد المدرسة أن هناك لقاءً مهماً جداً للضباط ملاك المدرسة سيُعقد في معسكرات قطنا مع قيادة ثورة تموز. وفعلاً ذهبنا إلى قاعة الاجتماع الساعة 11 صباحاً، وقد حضر جميع ضباط معسكرات قطنا ومدارسها، كان عددهم بالمئات.

فوجئنا ونحن نجلس في القاعة الكبيرة بأن الذين حضروا هم قيادة الدولة السورية في ذلك الوقت (اللواء أمين الحافظ الحاكم العسكري العام- رئيس الدولة، يرافقه العقيد محمد عمران والعقيد صلاح جديد والمقدم حافظ الأسد، والعديد من ضباط القيادة) - (تموز 1963).

شرح لنا اللواء أمين الحافظ أهداف ثورة البعث بالتفصيل في سورية، وتحدث عن محاولة انقلاب الناصريين في 18 تموز. كان الجو مشحوناً ومرعباً، ثم بعد أن أنهى

كلامه سأل إن كان أحد لديه سؤال. رفعتُ يدي وعرّفته عن نفسي وعن مسؤوليتي في مدرسة الهندسة العسكرية وقلت له: يا سيدي.. لدينا برامج لدورات الضباط والمرشحين وصف الضباط لها وقت محدد لبدايتها ونهايتها، وأنتم تعرفون أنه تم تسريح عدد من الضباط المدربين في المدرسة وأرسلتم لنا عوضاً عنهم ضباطاً من الاحتياط وهم غير قادرين على التدريب في وضعهم الحالي بسبب مدة انقطاعهم عن الجيش، لذلك اتفقت مع قائد المدرسة وبعض زملائي الضباط على أننا مستعدون أن نستنفر ولا نذهب إلى بيوتنا وأن نقوم مساءً كل يوم بإعادة تنشيط ذاكرة هؤلاء الضباط الجدد، وقد وافق قائد المدرسة على ذلك، وأصدر تعليماته بعقد دورات مسائية لهؤلاء الضباط الجدد، ولكن هؤلاء الضباط رفضوا الأمر!

الحقيقة يا سيدي أن ملاكنا الحالي من الضباط العاملين لا يستطيع تغطية تدريب الدورات، وأنت يا سيدي تحدثت عن الثورة وعن المثل والقيم وبأن ثورة 8 آذار ليست انقلاباً عسكرياً بقدر ما هي ثورة اجتماعية وأخلاقية وقومية، فما تفسير مثل هذه التصرفات من قبل الضباط الجدد؟.. لا أحد من ضباط المدرسة يجرؤ على أن يحثهم على العمل لأنهم بعثيون!

انتهى النقاش بأن قال لي الفريق أمين الحافظ: يا ابني.. أريد أن أقول لك بيتاً من الشعر افهمه جيداً:

وما أنا إلا من غزيّة، إن غَوَتْ غويتُ وإن ترشد غزيّة أرشدِ

وأضاف: افهم هذا الكلام بالشكل الصحيح، وانتهى اللقاء.

وعندما غادرنا وعدنا إلى مدرسة الهندسة قال لي مدير المدرسة وبعض الضباط: "يا أحمد.. لماذا تحدثت مثل هذا الكلام، ألا تعرف بأنه غداً ستأتي برقية باسمك لتسريحك وأنت على أبواب الترفيع إلى رتبة نقيب!". قلت لهم: ماذا أفعل إذا كان لدي ضمير ولدي إيمان بالحق ولا أستطيع أن أسكت عن الظلم والضيم والأعمال الخاطئة؟

حقيقة بعد 24 ساعة فقط أتت برقية من القيادة العسكرية بتسريحي مع ضابط آخر اسمه سيف الدين مسكة وهو زميل لي.

استقبلت القرار بالبهجة والسرور، فأنا كنت أتوق إلى هذا اليوم الذي أتحرر فيه من قيد الجيش وأوامره التي كانت تحدّ من اندفاعي تجاه قضيتي وتحول بيني وبين التفرغ لتنظيمنا السري الذي بنيناه بالعرق والجهد والمتابعة الدقيقة وتحمّلنا في

سبيله الغربة وفراق الأهل والأحباب، وبذلنا الغالي والنفيس، تسلقنا الجبال وقطعنا الوديان وخضنا المحال.

كانت مدرسة الهندسة العسكرية في قطنا آخر عهدي بالجيش، وفي منتصف تشرين الأول 1963 تم تسريحي من الجيش السوري. وفي اليوم التالي للتسريح اتصل بي ثلاثة من رفاقي البعثيين من سلاح المهندسين وهم الضباط: اسكندر سلامة، وعبد الكريم حسون، ورشاد أمرداش.. قالوا لي: سنأتي لزيارتك في منزلك غداً مساء.

اعتقدت بداية بأنهم حضروا لمواساتي إلا أنني فوجئت عندما علمت بأنهم قد ذهبوا إلى مقر الأركان واجتمعوا مع القيادة؛ اللواء محمد عمران واللواء صلاح جديد. قالوا لهما: هذا أفضل ضابط في سلاح المهندسين. ولم يكن ناصرياً ولا بعثياً وكان محبوباً ومحترماً من قبل الجنود والدورات.

وأضاف رفاقي: اجتمعنا وتكلمنا بموضوعك وبموضوع زميلنا سيف الدين مسكة من مدينة النبك، كان معنا في سلاح الهندسة، واتفقنا مع القيادة بأن تذهب أنت يا أحمد والضابط الآخر إلى الأركان بعد الغد وتلتقيا بالقيادة حتى تصدر أمراً بسحب تسريحكما وإعادتكما إلى الخدمة. فما رأيك؟

ضحكت وقلت: "هل تقبلون أن أعود للجيش بالواسطة بعد أن سُرّحت منه؟". في تلك اللحظة دخل والدي وسأل عما يجري. حينها طرح رفاقي أمام والدي موضوع عودتي للجيش بعد مقابلة القيادة العسكرية، فقال والدي: "يا ولدي جلّ من لا يُخطئ، وهم أخطؤوا بحقك وهذا كل الأمر". قلت: التحقت بالجيش بإرادتي ولن أعود إليه بالواسطة.

وبالفعل لم أرجع لصفوف الجيش، وكان ترفيعي سيتم إلى رتبة أعلى خلال شهرين.

كنت أشعر أنني أحمل رسالة وقيماً ومبادئ تتطلب أن أتفرّغ بشكل كامل للعمل الفلسطيني. عندما سُرّحتُ حزنت عائلتي كثيراً. قالوا لي: لقد أضعت مستقبلك. قلت لهم: أنتم بوادٍ وأنا بوادٍ. وكنت مسروراً لتحرري من القيود.

قصة اعتقالي مع فضل

كانت القبضة الأمنية مشدّدة عام 1963، لدرجة أنه إذا أردت أن تقيم عرساً تحتاج لتصريح من المخابرات السورية. وكانت الاجتماعات والتجمعات ممنوعة وفي حال اجتمع خمسة أو ستة أشخاص كان يتم الاشتباه بهم.

في تلك الأجواء كان هناك تحضير لمؤامرة تستهدف اللاجئين الفلسطينيين ضمن اللعبة الدولية لمغادرة دول الطوق «سورية- الأردن- لبنان» ودفعهم نحو الكويت والسعودية وباقي دول الخليج.

لذلك آثرنا الاستمرار بالتكتم الشديد في التعامل مع الرفاق حتى بنينا وضعنا التنظيمي (زمر وفصائل ومجموعات ومناطق)، كما قمنا بتعيين كاتم أسرار للتنظيم لا يعرفه أحد، وكذلك أسّسنا جهاز أمن، ودائرة للتوجيه المعنوي، وكانت لدينا مقرات سرية لاجتماعات القيادة، سلمنا على ما أذكر فضل شرورو (أبو فراس) رحمه الله أمانة السر لكتابة محاضر اجتماعاتنا. في إحدى المرات كنا نبحث عن مقر جديد للاجتماعات، اقترحت عليهم أن يكون مقرنا بالقرب من مبنى المخابرات (منطقة الميسات) حتى لا يشكّو في الأمر.

استأجرنا ملحقاً وخبأنا فيه قنابل يدوية وذخائر للأسلحة والأضابير المشفّرة الخاصة بالرفاق ومقراً لبعض اجتماعاتنا، اتفقنا على وضع علامة بالطبشور على الحائط في الشارع إذا كان الوضع آمناً فيتم عندها الدخول للمقر فرادى. وفي حال عدم وجود العلامة يكون الوضع غير آمن.

أحد رفاقنا في الكويت أرسل رسالة للرفيق فضل شرورو كونه صديقه يعلمه بها عن ترشيحه لبعض الأفراد في الكويت من الفلسطينيين ليكونوا في الجبهة، وأرسل الرسالة بالبريد إلى عنوان منزل فضل الذي كان يسكن في قبو في شارع بغداد مقابل مشفى العيون. لكن الرفيق فضل نسي هذه الرسالة والظرف الذي كانت فيه في المقر السري.

عندما داهم رجال الأمن مقرنا أخذوا منه كل شيء بما فيه الرسالة المرسلة من الكويت وعليها عنوان، استدل رجال الأمن منها على منزل فضل شرورو ووضعوه تحت المراقبة وانتظروا عودته. (كان هذا في نهاية عام 1963).

كنا في جولة في المخيمات لنلتقي مع أئمة المساجد ليتحدثوا في خطب العيد عن مخاطر تحويل مجرى نهر الأردن من قبل الصهاينة. وكما أسلفت كنت أملك سيارة

صغيرة. قلت لفضل الذي كان معي: دعنا نذهب إلى مخيمات أخرى. قال فضل: سأذهب أولاً إلى المنزل لأتناول طعاماً سريعاً وأخبر عائلتي أنني سأتأخر وبعد ذلك نذهب حيث تريد.. وكنا نريد أن نتابع لقاءاتنا مع أئمة المساجد.

انتظرته في السيارة حتى خرج من المنزل وعندها أمسكوا بنا فقد كان المنزل مراقباً ومرصوداً من أجهزة الأمن.

جاء إليّ اثنان من رجال المخابرات السورية، فتحوا باب السيارة وقالوا لي: "انزل"، طلبت التأكد أنهم مخابرات سورية لكنهم رفضوا (كان لدينا مشاكل أيضاً مع المخابرات الأردنية). نزلت من السيارة ووجهت ضربة لكل واحد منهم لأنهم رفضوا إبراز أي وثيقة تعرّف عنهم. ثم اندفع باتجاهي الضابط قائد مجموعة المداهمة ومجموعة عناصر أخرى كانوا في الدورية. قال لي الضابط: كيف تفعل ذلك؟، قلت له: أنا ضابط مثلك.

نقلوني أنا وفضل إلى مركز المخابرات في منطقة "الروضة"، وكان رئيس الفرع العقيد "ثابت برّو"، وعلى ما يبدو وصل الخبر أنني ضربت اثنين من عناصر المخابرات.

لم أصل بعد إلى آخر مدخل الفرع وكنت على وشك النزول على الدرج حتى فوجئت بهجوم عليّ من قبل ستة أو سبعة عناصر. والأكيد أن فضل شرورو تعرض للضرب كثيراً. (حدث هذا في عام 1963 وكانت يومها وقفة عيد الأضحى).

أدخلونا إلى قبو فرع المخابرات. أخذتُ زاوية وتعاركت مع العناصر، عندها نزل أحد الضباط ليتبين سبب أصوات العراك، وبالصدفة كان هذا الضابط صديقاً لي حيث كان في كلية الشرطة في مصر في ذات الفترة التي كنت فيها في الكلية الحربية، وكان شقيقه "عبد العزيز عرفة" صديق عزيز عليّ وهم من عائلة عرفة من حماة.. قلت له: هل تظن أن أخلاقي تسمح لي بالاعتداء على رجل أمن؟! هم من تصرفوا معي بسوء.

بقيت في هذا الفرع عشرة أيام ثم نقلنا إلى مركز المخابرات في منطقة "الحلبوني".. رئيس قسم التحقيق هناك كان أيضاً صديقي اسمه النقيب "محمد مادون" من تدمر، وعندما رآني قال: يا أحمد، نريد أن نعرف ما هذا التنظيم الذي تنتمي إليه؟ وما هذه الأضابير؟ وما هذه الأسماء المشفّرة التي وجدناها في المنزل؟ والأسلحة والقنابل التي عثرنا عليها؟

كنت دائم التفكير ﾀ ﾀ ﾀ في فضل شرورو، وضرورة الإفراج عنه فقد نجح بالثانوية العامة، وأصبح وكيل معلم. كنت أرى أن خروج فضل من السجن مهم جداً ليطمئن الشباب حول ما حدث معنا.

أثناء التحقيق قال لي النقيب "مادون": أنا هنا مكلف بالتحقيق معكم، لقد عثرنا في مقركم على "أضابير" وسلاح وعتاد حربي.

قلت: السلاح والعتاد سرقته من الجيش، أما "الأضابير" والأسماء والأرقام فهي منسقة بإتقان ولا يمكن كشفها. والأسماء لها كاتم أسرار هو الوحيد الذي يعرف هذه الرموز، وأنا لن أخبركم باسمه مهما كان الثمن. بعد ذلك تم نقلي أنا وفضل شرورو من سجن "الحلبوني" إلى سجن "القابون" وقد اجتمعت أنا وفضل في نفس السجن.

(بعد ثورة 8 آذار 1963 استلم ضابط اسمه "عبد الكريم الجندي" وكان من أهم رجال المخابرات. كان قاسياً مع البعثيين الذين انشقّوا عن الحزب وعملوا لصالح البعث في العراق أو الناصريين).

وقتها قلت لفضل: إن سألوك أنت لا تعرف شيئاً، واترك الباقي عليّ.

غايتي كانت أن أختبر نفسي على تحمّل العذاب. وبعد عدة أشهر تم إطلاق سراحنا.

الزواج..

شركاء العمل الوطني

حين عرف والدي أني أسير في طريق الكفاح المسلح من أجل عودة فلسطين قال لي ذات مرة: ما دمت تسير في هذا الطريق الصعب لماذا لا تتزوج وأنت وحيدي؟(والدي وحيد أيضاً)، تزوج لترزق بالأولاد مادامت حياتك معرضة للخطر ولا تخشى أن تستشهد في سبيل القضية الفلسطينية.

قلت له: لماذا أتزوج وأنجب أطفالاً إذا كنت سأستشهد. لا أريد لأولادي أن يتربوا أيتاماً.. ماذا سيكون مصيرهم من بعدي؟ أنا ضابط درست في الكلية الحربية وأقاتل لأجل القضية الفلسطينية وأخاطر في دخولي إلى الأراضي المحتلة بالرغم من معرفتي بصعوبة ذلك، ويمكن أن أستشهد في سبيل الله وقضيتي.

كان لي ابنة خالة اسمها "نهى الغزّي" تدرس الحقوق في الجامعة السورية- سنة ثالثة. حالة عائلتها المادية جيدة. كانت معجبة بأفكاري وتساعدنا في العمل السري. هي ابنة الأستاذ نبيه الغزّي الذي استلم منصب وزير عدة مرات، وكان رئيس مجلس الدولة.

قالت لي إذا تزوجنا وأنجبنا الأطفال سأربيهم على الأفكار والقيم والمثل التي زرعتها فيّ وسنكمل بها.

تم الزواج في عام 1962. قلت لزوجتي منذ البداية: سنسكن مع عائلتي لأني وحيد لها.

وافقت على كل الشروط، وقد أمّنتُ عملاً قبل تخرّجها من الجامعة في دائرة المشاريع الكبرى في دمشق- شارع الفردوس- وكنت أستفيد من وجودها في هذه الدائرة لأعمالنا التنظيمية.

في تلك الأيام كانت الآلات الكاتبة محدودة في الدوائر، وفي حال كانت تُباع في المكاتب كانت المخابرات السورية تأخذ أحرفها وتسأل عن الذي سيقوم بشرائها.

كنت أعطي ابنة خالتي الأوامر والمطبوعات، وفي أوقات الفراغ تطبع الأوامر الخاصة بالتنظيم. وكنت أحرص حين أرسل كتاباً لأي عنصر في تنظيمنا أن يكون مطبوعاً على الآلة الكاتبة لأن ذلك أفضل من خط اليد وأكثر أهمية.

اتفقت أنا والسيدة "نهى الغزّي" زوجتي؛ (أم جهاد وخالد) أن تذهب للمخيمات وقلت لها: أنا أذهب إلى المخيمات بعد الظهر وأنت ستذهبين مثلي لتشاهدي حالات البؤس والشقاء.

بدأت "أم جهاد" تزور المخيمات، ثم طلبنا منها ومن بعض الرفيقات اللواتي نظّمتهن أن يؤسّسن جمعية نسائية عن طريق وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل.

كنا نفكر بشكل جدّي كيف يكون للمرأة دور في داخل تنظيمنا وفي طريق الجهاد والنضال من أجل تحرير فلسطين، وقد لعبت المرأة في تاريخ كل الثورات دوراً بارزاً فلماذا لا تأخذ المرأة الفلسطينية أو العربية دورها؟!

تقديراً لإنجازات المرأة ودورها فكّرنا في موضوع تشكيل جمعية نسائية مرخّصة من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، واستطعنا فعلاً أن نأخذ ترخيصاً لهذه الجمعية في عام 1962 باسم "الجمعية النسائية الفلسطينية"[4]، وسلّمت رئاستها في البدء للأخت "وداد حيفاوي".

أردتُ أن تكون الجمعية غطاءً للتحرك داخل المخيمات، وقد افتتحت الجمعية النسائية الفلسطينية أول مرة مقرّها في مخيم اليرموك- شارع فلسطين (روضة وحضانة ومستوصف) كانت مديرة الروضة حينذاك "رياح قدورة" والمدرّسة "فايقة شرورو" وغيرهما.

توسعت نشاطات الجمعية فيما بعد فتم افتتاح مشغل للخياطة ومركز لمحو الأمية وكانت سميرة جبريل مشرفة على المشغل ومدرّسة في صف محو الأمية.

كانت جميع الفعاليات التي تنشط عبرها الجمعية بإشراف وتوجيهات السيدة "نهى الغزّي أم جهاد"، وكانت تدعو هذه الفعاليات إلى ضرورة الدعوة لانطلاق العمل الفدائي من جانب شعبنا الفلسطيني لتحرير وطنه فلسطين. كذلك شاركت عضوات

---

[4] - (بيانات وأوراق هذه الجمعية النسائية الفلسطينية التي أسستها السيدة "نهى الغزّي" في بداية عام 1962، على الأغلب موجودة حتى الآن في القطر العربي السوري. وهي أقدم جمعية نسائية سورية ذات أبعاد فلسطينية)

الجمعية في جمع التبرعات عن طريق بيع (الروزنامات)، وقد تجمّع أول مبلغ يدخل ميزانية الجمعية من بيوت أهالي المخيمات.

كانت المشاركة النسائية في البدايات فردية حيث استلمت الرفيقة "نهى الغزي" مهمة الطباعة (آلة كاتبة) وكانت كاتمة لأسرار تنظيمنا. كذلك كان يتم طباعة كل ما يصدر عن التنظيم السري آنذاك ليتم توزيعه فيما بعد مثل طباعة المبادئ الستة، وهي وثيقة للتوجيه وكانت بمثابة البرنامج السياسي للجبهة وعلى كل عنصر الاطلاع عليها ومناقشتها قبل تأديته للقسم. كذلك كانت تطبع نشرات التوجيه السياسي.

بعد ذلك وبتوجيه من قيادة التنظيم آنذاك تشكلت أول زمرة نسائية، وتكونت من الرفيقات: نهى الغزّي، وداد حيفاوي، سميرة جبريل، أم حسون كنجو، بدور عبد الكريم، دلال ناجي، سميرة مكي. وقد أتمت هذه الزمرة مرحلة التوجيه السياسي وكان الموجّه حينذاك "نهاد عرفة"، وخضعت الزمرة للتدريب العسكري بإشراف أكثر من مدرب منهم الشهيد "أبو حسون كنجو".

هذه التدريبات سواء التوجيه السياسي أو التدريب العسكري كانت تجري في منازل الرفيقات أحياناً، وهناك مشاريع أخرى (مسيرات خارجية عبر الجبال والمرتفعات). وكانت مسؤولية رعاية وزيارة عائلات الشهداء والجرحى من مهمة العمل النسائي في الجبهة، كذلك موضوع متابعة شؤون العائلات التي يستشهد أحد أفرادها.

كان أهم ما يميز مهام الجمعية هو زيارة عائلات الشهداء والجرحى ومواساتهم وتقديم ما تحتاجه هذه العائلات ورفع معنوياتها، كما شكّل التنظيم النسائي صلة الوصل من خلال زيارة أعضاء التنظيم النسائي للفدائيين المتواجدين في قواعدهم في أغوار الأردن والذين كانوا يغيبون عن عائلاتهم لمدة أشهر؛ فيقوم هذا التنظيم النسوي بإيصال الرسائل المتبادلة بين الفدائي وعائلته، كما أن أعضاء التنظيم النسوي كنّ يرفعن لنا تقارير اجتماعية عن المستوى المعيشي لعائلات هؤلاء الفدائيين وخاصة المتزوجين منهم، وكنا نتعمّد أن تكون العلاقة بين عائلات الشهداء محصورة بالتنظيم النسائي في الجبهة لتأمين الحماية الأخلاقية لهذه العلاقة.

توسع نشاط العمل النسوي في الجبهة أولاً في داخل مخيمات القطر السوري، ثم امتد إلى الأردن بعد دخول قواتنا العسكرية إلى الأردن.

كنا نحصل على التمويل وفق النظام الداخلي: كل عنصر يدفع رسم اشتراك شهري، والطالب يدفع نسبة 50% من مصروفه لصندوق الجبهة.

في كل مجموعة وفصيل "صندوق" تتحول إليه هذه المبالغ، وكنا نعتبر الاشتراكات مقياساً من مقاييس الالتزام، فيدفع كل عامل الاشتراك حسب نوع عمله، لأن التمويل كان ذاتياً.

أنا كضابط كنت أتقاضى من الجيش (575) ل.س، ورسم الاشتراك الذي أدفعه (100) ل.س شهرياً، في تلك الأيام كانت هذه المبالغ كبيرة. الجمعية كانت تساهم من أرباح الروضات التي شكّلت غطاء للتخلص من أجهزة الأمن والمخابرات التي تُحصي أنفاسنا وتتابع تحركاتنا بدقة، ليس فقط في سورية ولبنان والأردن بل في كل العالم، فقد كان هناك برنامج دولي يعتبر أن هذا الفلسطيني "لاجئ ونقطة على السطر"، وهناك مؤسسة للاجئين لا أكثر.

كان ممنوع على الفلسطيني الانتقال بين سورية ولبنان أو الأردن وسورية. نحن الوحيدون من عائلتنا الذين لجأنا إلى سورية. باقي العائلة وهي عائلة كبيرة، ذهب أغلبها إلى الضفة الغربية وعمّان، وقسم منها ذهب باتجاه غزة ومصر.

كان الهدف لدى الدول النفطية التي بدأت تنشأ في الكويت والسعودية توظيف الفلسطيني للتقليل من عدد اللاجئين الفلسطينيين في سورية ولبنان والأردن، وإبعادهم إلى المنافي وإشغالهم بالمال.

الدولة الوحيدة التي زرتها من دول الخليج هي الكويت في عام 1964 وأيضاً في عام 1966 لأن فيها أكبر تجمع للفلسطينيين، وأقربائي كان عددهم كبيراً هناك. يوجد أحياء في مدينة الكويت تشبه كثيراً الأحياء الفلسطينية. على سبيل المثال حي (حولّي) وحي (الفروانية) كانا حيّين فلسطينيين، وفيهما كان يجري الزواج والطلاق على الطريقة الفلسطينية، كذلك كانت مراسم الأفراح والأتراح، وكان المرء يسمع اللهجة الفلسطينية في تلك الأماكن، لذلك كنت تشعر كأنك في بيئة فلسطينية.

وهناك التقيت أبناء عمي الذين لم أرهم منذ عام 1948 وهم بنفس عمري تقريباً، ومنهم من كان أكبر مني سناً.. لم ألتقِ بهم ولم يكونوا قادرين أن يلتقوا بنا إلا بعد 15 أو 20 عاماً.

قبل أن ألتحق بالكلية الحربية قررت الذهاب إلى الأردن لأدخل إلى الضفة الغربية وأزور أهلي وعائلتي، وحين وصلت إلى الحدود الأردنية، رفض الأردنيون أن أدخل إلى منطقة الرمثا الأردنية. (أنا أوضّح الفكرة وصعوبتها بكل اتجاهاتها، إنها المحاصرة العربية والتآمر العربي الكبير). منعوا الفلسطينيين بين سورية ولبنان من أن يلتقوا ببعضهم، ومنعوا الموجودين في الأردن وسورية من أن يلتقوا مع بعضهم أيضاً. وفي لبنان كان من الصعب أن ينتقل الفلسطيني من مخيم إلى مخيم آخر لزيارة أقربائه دون تصريح.

كنت أطلب من زوجتي السابقة نهى الغزّي بأن تدعو عائلات الطلبة في الروضة مرّة كل شهر أو شهرين لشرب الشاي والقهوة، والحديث عن أوضاع أبنائهم.

أذكر أنه في نهاية عام 1964 حضرت حوالي 100 عائلة مع أطفالها إلى الروضة، وتم توزيع الجوائز عليهم. وقتها انتهزت الفرصة – كان ابني جهاد وعمره أشهر قليلة مع أمه في الروضة– وهو في عربة. تحدثت مع أهالي الطلاب عن القضية الفلسطينية ومسؤوليتنا نحن تجاه هذه القضية. أذكر أنني قلت لهم: «آباؤنا عاشوا ظروفاً صعبة وقاسية فقد كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني الغاشم المتآمر، ومصر كانت تحت الاستعمار، وكان فيها قواعد بريطانية (قناة السويس).. في الأردن والعراق كان هناك أيضاً قواعد عسكرية بريطانية، وكان يديرها بشكل خفي الجنرال (غلوب باشا) مع مجموعة من الضباط الإنكليز، بينما سورية كانت قد حصلت حديثاً على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية».

وأجد نفسي معنيّاً برفع التهمة الظالمة عن آبائنا وتحميلهم مسؤولية النكبة فأقول: يجب ألا نحمّل آباءنا المسؤولية عن التراخي في الدفاع عن فلسطين لأننا كنا نسمع ونحن صغار عندما يأتي الإنكليز إلى قرية يُقال: (جاءت كبسة "تفتيش")، فقد كانوا يفتشون المنازل شبراً شبراً، وإذا عثروا على سلاح أو ذخيرة، تكون العقوبة السجن من 5 إلى 6 سنوات.

بعد ثورة البراق 1921، ألقى الإنكليز القبض على الشهداء فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير وأعدموهم بعكا لأنهم قاوموا البريطانيين واليهود الذين جاؤوا ليقولوا هذا الحائط اسمه حائط "المبكى"، وهو في الأصل حائط البراق وسور القدس الذي بناه الرومان.

التواطؤ البريطاني كان واضحاً حين عيّنوا أول مندوب سامي على فلسطين اسمه "هيربرت صاموئيل وكان يهودياً. تل أبيب أيضاً تم بناؤها في عامي 1924 و1925 على أراضي ما تسمّى أملاك الدولة.

يوم خروجنا من فلسطين كثرت الأقاويل عن أننا خرجنا بإرادتنا وهربنا. وأذكر جيداً في المدارس التي درسنا فيها في القنيطرة كان زملائي يقولون لي بأننا بعنا أراضينا في فلسطين إلى اليهود. هم كانوا يسمعون هذا الكلام من آبائهم، وهذا الكلام كان يحزّ بأنفسنا كثيراً، كنت أقول لهؤلاء: «اذهبوا إلى هيئة الأمم المتحدة واسألوا عن إحصائيات الأراضي المملوكة للفلسطينيين التي لم يُبع منها إلا 3% ومَن باعها هي عائلات لبنانية وسورية (بيت سلام وبيت سرسق... الخ)».

كنت أشرح لعائلات الأولاد في الروضة قضيتنا وأنه لا يجوز أن نحقد على آبائنا وعلى الجيل السابق لأنه كان جيلاً بسيطاً. لقد تمكنوا في العشرينيات من إشعال ثورة البراق والإضرابات وثورة القسام عام 1935؛ كل هذا يعني أن الشعب الفلسطيني كان مقاوماً مع أنه لم يكن يملك من السلاح إلا القليل وعلى قدر إمكانياته، في واقع عربي مظلم.

كنت بكلامي هذا أقوم بتوعية شعبنا في هذا اللقاء، وأشرح لهم مسؤوليتنا كجيل فلسطيني يعي مخاطر المرحلة وأنه ليس علينا أن نكتفي بالكلام، بل علينا أن نتحمل المسؤولية تجاه فلسطين.

حدثتهم عن الثورة الجزائرية وأنها واجهت الاستعمار 130 سنة، اندلعت خلالها ثورات متعددة، ولكن ظهر جيل جزائري قرر أن يواجه دولة عظمى، وقد كان الدستور الفرنسي يعتبر الجزائر جزءاً من فرنسا، والبرلمان الفرنسي كذلك كان فيه ممثلون عن الجزائر.

كنت أتابع مثل هذا الحديث وفيه نوع من التحريض ورفض الاستكانة، وكان الحاضرون يظنون أنني والد طفل من الأطفال الموجودين في الروضة، ولا يعلمون أن التي قدّمتني هي زوجتي "نهى الغزّي".

أذكر أن والد أحد التلاميذ وقف وقال لي: «أنا من بلدة صفورية، وما سمعناه منك جيد جداً»، فيما قال لي شخص آخر من بلدة لوبية: «نحن كجيل فلسطيني جديد، إذا أخذنا هذا الكلام الذي قلته بجدية وتحملنا المسؤولية، هل نعود إلى فلسطين؟ هل يرى جيلنا الجليل وصفد مرة أخرى؟».

قلت لهم: اسمعوا يا أخوتي، إذا قلت لكم إن طريقنا سهل إلى فلسطين فإني لا أقول الحقيقة، "والرائد لا يكذبُ أهله". طريقنا صعب وشائك، لكن بدلاً من أن نلعن الظلام دعونا نشعل شمعة، وأضفت: جيلنا نحن يمكن ألا يرى صفد وعكا ويافا. ثم أشرتُ إلى طفل[5] عمره أشهر ينام في "عرباية" وقلتُ: أتمنى أن يرى هذا الطفل فلسطين..

استمرت زوجتي السابقة "نهى الغزّي" في عملها التنظيمي وشكلت جمعية نسائية رفدت تنظيمنا بالإمكانيات التي كنا نحتاجها، وانتشر الوضع النسائي في المخيمات الفلسطينية المحيطة بدمشق وتجمعات الفلسطينيين فيها.

[5] - (هذا الطفل كان ابني جهاد الذي استشهد في لبنان عام 2002 على يد الصهاينة، ولم ير فلسطين إلا من خلال دورياته القتالية التي شارك فيها).

تجارب نضالية نهلتُ منها

اللقاءات والاجتماعات مع الجيل الذي سبقنا وقياداته في فلسطين كانت هامة جداً ولم تكن للاستماع إلى القصص والأحداث فقط، بل كان كل همنا من ذلك دراسة تجاربهم واستخلاص الأخطاء لتجنّبها في مسيرتنا. وبدأنا في ذلك رغم انشغالي المضني في عملنا السري داخل جبهتنا في جميع المجالات.

هذه اللقاءات والاجتماعات مع الجيل الفلسطيني المناضل الذي سبقنا بدأت إما مباشرةً أو عن طريق الوسطاء منذ عام 1964، وكان أهمها لقاؤنا المباشر مع المفتي الحاج أمين الحسيني باجتماعات متتالية حتى عام 1974.

وأذكر أنه خلال لقائنا معه في فندق أمية بدمشق عام 1964 بعد مؤتمر القمة العربي الذي اتخذ قراراً بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، لم يخفِ الحاج أمين الحسيني تخوفه من أن تكون هذه الخطوة طريقاً لحل سياسي مضرّ بالقضية الفلسطينية، خاصةً أنه لم يكن على علاقة حسنة مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وكان يشكّ في النوايا العربية بأن هدفها في النهاية تصفية هذه القضية، ولكن هذه المرة بأيدي الفلسطينيين أنفسهم وليس بأيدي الأنظمة العربية.

الحاج أمين الحسيني توفي في العام 1974م رحمه الله، وقمت بواجب العزاء، وفي كل عيد أضع على قبره إكليلاً من الورد وأقول له: "إن شاء الله يا حاج أمين سنحافظ على فلسطين بكاملها.

وخلال هذه الفترة التقيت أيضاً ببعض من قيادات الجيل الذي سبقنا، وتحدثت معهم عن تجربتهم وأفادوني كثيراً، منهم: المناضل المرحوم "بهجت أبو غربية" الذي كان في القدس وحدثني عن معركة القسطل وما قبلها وما بعدها، والظروف التي أحاطت بها. والمناضل "عبد الخالق يغمور" و"أبو إسعاف" الشيخ خليل رحمه الله الذي حدثني عن تجاربه الماضية، خاصةً أنه كان يعتبر نفسه من تلاميذ الشيخ عز الدين القسام، وكذلك المرحوم "أبو إبراهيم الصغير" والمناضل "نمر المصري" الذي كان

مسؤولاً في المجال السياسي والإعلامي، والمناضل المرحوم "فوزي القطب" وكان خبيراً بالمتفجرات ونسف جريدة "جروزاليم بوست" بالقدس، وغيرهم.

في لقاءاتي تلك كنت أحاول أن أستخلص الحكم والدروس ليس فقط لأسمع الأحداث.

التشكيل التنظيمي داخل الجبهة

كنا نتابع عملنا التنظيمي السري داخل جبهتنا ونصل الليل بالنهار في المخيمات والمدن والجبال والوديان والوصول إلى حدود فلسطين من سورية، كانت التجربة التنظيمية صعبة لأننا كنا نريد اختيار رجال أشداء ومؤمنين بالقضية، فهؤلاء هم الذين يبنون الثورة ويصنعونها وينتصرون.

لهذا كان الأمر يتطلب المرور بمرحلة إعداد، قبل البدء بتشكيل الزمرة التنظيمية واكتساب صفة العضوية وهي مرحلة التمهيد، وبعد اجتياز هذه المرحلة بدأنا بتشكيل الزمر والفصائل والمجموعات التأسيسية الأولى، ولكنها لم تكن مستقرة، فكان الرفاق الذين يلتحقون بالزمر يتبدلون؛ فمنهم من يبقى ويستمر، ومنهم مَن يغادر.

المجموعة التأسيسية الأولى لم تمر في حالة تمهيد وتدريب نظامية، وفي عام 1962 بدأت الزمر تنتظم وتتشكل، فقد تشكلت الزمرة 24، والزمرة 99، والزمرة 94، والزمرة 88، والزمرة 82، وتم فتح سجل تدريب عسكري للزمر، وأصبحت كل زمرة تمر بمرحلة تمهيدية ثم تنظيمية ثم القسم. وفي المرحلة التنظيمية يخضع الرفيق للتدريب العسكري السري ثم يخضع لامتحان بما تلقّاه من علوم.

تشكلت الزمرة 99، من الرفاق: (يونس حديد، مأمون حيفاوي، خالد كوسا، فوزي حديد، ورشيد حديد). والزمرة 94، تشكلت من الرفاق: (زكي الزين، نهاد عرفة، عبد الرزاق حديد، محمد حديد). والزمرة 24 تشكلت من الرفاق (أبو علي الأخضر، رشدي عوض، خالد الجودة). وارتبطت الزمر الثلاث بالفصيل الثالث الذي كان يقوده الرفيق رياض سعيد "فؤاد" يعاونه كايد سليماني "لطفي".

أما الزمرة 88، فقد تشكلت من الرفاق: (مصطفى عيسى، ومحمود عبود "أبو غاندي"، ومحمود الوني "أبو ثائر"، أحمد كنجو "أبو حسون"، علي عباس). أما الزمرة

84 فقد ضمت (عادل قدورة، يوسف عجز، محمود باكير، واثنين آخرين). ضمت الزمرة 85 الرفاق (عمر برغيس، خالد الأمين، عارف صالح، عبد الرزاق برغيس). الزمرة 96 كانت تضم (فرج برغيس، جمعة دلول "أبو حسن"، أبو علي الدعبول، توفيق برغيس). وأتبعت الزمر الثلاث 84 و85 و86 للفصيل التاسع، وتولى مأمون حيفاوي قيادة الفصيل، وخالد كوسا كان معاوناً له. في هذه الزمر كان الرفاق يتلقون تدريبات في الإشارة، الطبوغرافيا، الإسعاف، القتال القريب، الأسلحة، التكتيك والإخفاء والتمويه، الألغام والمتفجرات وتدريس اللغة العبرية.

أما الزمرة 82، فقد كانت بقيادة طلال ناجي، الذي أصبح قائداً للفصيل 20، وضمت (أحمد الخضرا، محمود صيام، باسم الزعبي، وزهير الهندي)، وكانت تتبع الفصيل العاشر الذي يقوده كمال عبد الكريم.

أما الزمرة 73، فكانت تضم الرفاق: (أبو كايد فضيل، معين عباس، عمر حميدة، أبو نمر الأخضر، ومحمد أبو خرج). وضمت الزمرة 72 الرفاق: (سامي مكي، أحمد عمرين، وليد اللحام، رمزي حداد). والزمرة 70 ضمت الرفاق من منطقة جوبر: (منذر حيفاوي، أمين كايد، عدنان أبو رجب، أحمد سلام، ورفيق آخر غادر المجموعة). فيما ضمت الزمرة 61 الرفاق: محمد أبو حسان، فايز الأسود، زياد السلطي، أحمد خطاب). وضمت الزمرة 57: (محمد عبود؛ "أبو لؤي"، سمير قدورة، صالح عباس "أبو طارق"، محمد الشلبي "أبو زهير"، صالح أبو راس).

كما ضمت الزمرة 66 الرفاق: (إبراهيم سلامة "أبو عرب"، سعود النجمي، حفظي قاسم، رشاد أبو شاور، عادل قاسم). والزمرة 58 ضمت الرفاق: (وليد بصل، حسين النجمي، فؤاد الزفري، يوسف ضرغام). وضمت الزمرة 34 الرفاق: (ناصر حيفاوي، جمال ناجي، مروان عجز، سمير الخطيب). والزمرة 64 ضمت الرفاق: (يحيى أبو راشد، محمد عمرين، وآخرين). والزمرة 63 ضمت: (وفيق الخضرا، محمد الشيخ خليل، وآخرين). والزمرة 65 ضمت الرفاق: (محمد سلمان، محمد مجدلاوي وآخرين)، أما زمرة الكشافة 68، ضمت الرفاق: (عفيف قاسم، محمد كريدي "عائد" عبد الرحمن قرعيش، عماد عوكل). الزمرة 55 ضمت: (سعدي الوني، حافظ قاسم، ديب خطاب، راسم خطاب). الزمرة 39 ضمت: (خليل عبد الرحمن،

خليل منصور، خليل شريح، جميل حفنة، صبري حجير). والزمرة 38 ضمت: (أكرم أسطة، نبيل هدبة، علي عموري، نبيل عرفة). الزمرة 37 ضمت: (لطفي عبد الرحمن، علي عللوه، محمود اللحام، فاروق سلمان). الزمرة 54 ضمت: (حسن خطاب، محي الدين الدمياطي، أحمد منصور، غسان النقيب). الزمرة 48 ضمت: (عبد الرحمن عتيق "أبو الأمين خالد"، إبراهيم القلاب، موفق صادق، وحسام بامية، وآخرين). الزمرة 90 ضمت: (محمود قدورة، محمد خير أيوب، سامي قدورة)، ثم حُلّت الزمرة وانضم محمود قدورة إلى الزمرة 70 ومحمد خير أيوب إلى زمرة أخرى.

وهنالك زمر وفصائل عديدة لم أعد أتذكرها في سورية والكويت والضفة الغربية، وفقدت سنداتها وأسماؤها مع الأيام والسنين.

في هذه المرحلة أيضاً لم ننسَ أننا بحاجة إلى مركز بحوث صغير نستطيع أن نصنّع فيه سلاحنا وعتادنا. وتعرّفنا على ما أذكر على عائلة مناضلة من عكا (أبو جودت المصري وشقيقه) هؤلاء كان وضعهم المادي لا بأس به ويملكون مخارط في منطقة صحنايا، طرحت عليهم رغباتنا في تصنيع بعض الأسلحة والعتاد اللازم للمرحلة القادمة التي نعد أنفسنا لها. وبعد اجتماعات متعددة مع شقيقين من آل المصري وطرح أفكارنا لانتهاج طريق الكفاح المسلح طلبنا منهما أن يقدما المساعدة لنا في أعمال تصنيع السلاح والعتاد، فلم يترددا ولكنهما طلبا أن يُحاط عملنا بسرية كاملة. واخترت شابين (عماد عوكل) "رحمه الله" والرفيق (سمير قدورة) لمعاونتي في هذه المهمة الصعبة، وبدأنا هذا العمل الذي لا يعرفه إلا خمسة أشخاص، وكنت أحيط هذا العمل بسرية كاملة. (كان ذلك في بداية عام 1963).

هؤلاء الأخوة المناضلون من بيت المصري كانوا عندما تغلق كل المحلات يغلقون أبواب المحلات الخاصة بهم ونكون نحن في الداخل، ونقضي ساعات في الليل ونحن نحاول أن نبتكر ونصنّع الألغام المضادة للأفراد والمضادة للآليات والقنابل اليدوية، مخازن الأسلحة، وبدأنا في تصنيع البنادق، ولولا جهود هؤلاء المناضلين لما استطعنا أن ننجح لأنهم كانوا يسهرون طوال الليل، وفي الشتاء القارس كنا نشعل النار والحطب لنتدفأ لإكمال العمل، ونبقى حتى منتصف الليل، ولم يقبلوا أن يتقاضوا أي شيء إلا تكاليف الصنع.

ويحق لنا أن نفتخر أن الألغام التي زرعناها في بداية أعمالنا العسكرية بعد عام 1965 أو القنابل اليدوية كانت من صناعتنا.

كنا نشتري بعض قطع الأسلحة والذخائر من حماة أو من الحدود التركية بقدر ما نمتلك من إمكانات مادية محدودة. لكن هذه الأسلحة ينقصها المخازن وهو ما قمنا بتصنيعه في هذا المركز الصغير. وقد انتسب إلى الجبهة أولاد وأحفاد هؤلاء المناضلين المرحوم أبو جودت المصري وشقيقه، واستمروا بطريق النضال.

في الساحة السياسية كنا نخوض حراكاً كبيراً وعملنا على تكثيف جهودنا في الجامعات السورية وكانت لنا كتلة كبيرة ومثقفة جداً، تدخل الانتخابات تحت اسم "تحرير الأرض والإنسان"، وحصلنا على مراكز متقدمة، وقد جرت منافسات بيننا وبين بعض الكتل الأخرى في الجامعة.

شكلنا في جامعة دمشق رابطة للطلاب الفلسطينيين في محاولة للقيام بالنشاط التنظيمي هناك، وكانت هذه اللجنة مشكلة من الرفاق: فضل شرورو وزكي الزين وطلال ناجي وعمر الشهابي وآخرين.

للأسف في هذه المرحلة كان الخلاف على أشده في الجامعة بين الطلاب حول بعض القضايا، أهمها قضيتا (الوحدة وفلسطين)، هل العمل من أجل الوحدة هو الأهم أم العمل من أجل فلسطين!؟

وكما قلت سابقاً: هذان الهدفان (الوحدة وفلسطين) لا يتصادمان ولا يتعاكسان بل يكملان بعضهما البعض ويخدمان بعضهما البعض. ورأينا أن هذا لم يكن يروق لبعض الاتجاهات الأخرى، لكن حصل في هذه المرحلة تقارب بين الطلاب الفلسطينيين في الجامعة والطلاب البعثيين في مجال الانتخابات أو غيرها من النشاطات.

منظمة التحرير – النشأة:

منذ بداية الستينات بدأت تتشكل هناك حركات سياسية فلسطينية حتى في الشتات وإن كانت غير متواصلة مع بعضها البعض بسبب العوائق الأمنية التي كانت تحول دون هذا الاتصال، فجيلنا الذي كبر بدأ يتحدث عن فلسطين في كل مكان ويحاول أن يؤسس تجمعات– وإن كانت هلامية– لكنها كانت منتشرة بين لبنان وسورية والأردن وفي دول الخليج.

بدأت بعض الصحف تتحدث عن ضرورة إيجاد حل منصف لقضية فلسطين. مرة يتحدثون عن كيان، ومرة أخرى يتحدثون عن وطن. وكانت هذه الحركات تشكل تحريضاً للشارع العربي خاصة في المناسبات (سايكس بيكو أو وعد بلفور أو 15 أيار 1948)، وأذكر جيداً أننا في الجبهة حرّضنا مئات بل آلاف الأشخاص من الشعب الفلسطيني والسوري للخروج في مظاهرة كبيرة وصلت إلى السرايا الرئيسية في دمشق (حيث الآن وزارة الداخلية) وأُلقيت الكلمات لكن أهم هذه الكلمات هي قصيدة صفّق لها كل المتظاهرين وأبكت الكثيرين منهم، وهي قصيدة قرأتْهَا شقيقتي "أميرة" بصوت جهوري، وقد ذكرتُ من قبل أنها ولدت قبل خروجنا من فلسطين بشهرين.

كانت منطقة الشرق الأوسط عرضة لتأثيرات خارجية كبيرة، كما أسلفت سابقاً، انتفاضة في لبنان 1958 وسقوط كميل شمعون ثم ثورة في العراق 1958 وإنهاء النظام الهاشمي. وبدأ الزعيم عبد الكريم قاسم ينادي بتحرير فلسطين واستعداده لإنشاء جيش للفلسطينيين في العراق.

في 1955 قام الرئيس عبد الناصر بتشكيل وحدات فدائية في غزة، ومنها تنطلق باتجاه الأرض المحتلة وتوقع الخسائر في صفوف العدو. كان لهذه العمليات دور في تحريض الحس الفلسطيني في ذلك الوقت لكن للأسف اضمحلت تحت ضغط الاعتداءات المتكررة على قطاع غزة عام 1955 ونتج عنها استشهاد المئات من النساء والأطفال والرجال، وبعدها حصل العدوان الثلاثي على مصر في عام 1956 الذي اشتركت فيه بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني، ولم يحقق الأهداف التي شُنّ من أجلها (السيطرة على قناة السويس وإزاحة الرئيس جمال عبد الناصر) بل صمد وقاوم الرئيس عبد الناصر، ووقفت إلى جانبه حركة جماهيرية عربية خرجت بمظاهرات في كامل الوطن العربي، وكان الدور السوري الداعم لعبد الناصر منذ بداية العدوان الثلاثي كبيراً من الشعب والجيش والحكومة السورية، فقد فجرت سورية في اليوم الثاني للعدوان الثلاثي على مصر خط أنابيب النفط الذي تسيطر عليه بريطانيا في العراق لنقل البترول إلى أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط، واعتبر عبد الناصر والجيش المصري أن هذه العملية السورية شكلت أحد أسباب النصر على العدوان الثلاثي. بالإضافة إلى ذلك نفذ الضابط البحري السوري (جول جمال) عملية بحرية بزورقه الحربي وفجّره بأكبر مدمرة بحرية فرنسية هي (جان بارت)

كانت متجهة لقصف السواحل المصرية، وأعلنت سورية وضع مواردها تحت تصرف مصر وقطعت العلاقات فوراً مع بريطانيا وفرنسا وحشدت الشعب كله للوقوف مع مصر وأعلنت التعبئة العامة لمشاركة مصر في تصديها للعدوان.

وبعد قصف بريطانيا لإذاعة القاهرة تحولت إذاعة دمشق لتعلن (هنا القاهرة من دمشق) متابعة لحشد الشعب المصري ضد العدوان، وأجبرت المقاومة المصرية والاصطفاف العربي معها المعتدين على الانسحاب. ثم قامت الولايات المتحدة الأمريكية برئاسة آيزنهاور باتخاذ دور مهم في منطقة الشرق الأوسط لأنها بدأت تعتبر أن دور الإمبراطورية البريطانية وفرنسا قد انتهى كدولتين عظميين ويجب أن يحل الوجود الأمريكي مكان الاستعمارين البريطاني والفرنسي الهرمَيّن في الشرق الأوسط، وأطلق آيزنهاور على هذه السياسة اسم "ملء الفراغ" الذي يجب أن تتولاه أمريكا لأنها المؤهلة وإلا فإن الاتحاد السوفييتي سيملأ هذا الفراغ خاصة وأن العراق بدأ يفتح خطوطه مع الاتحاد السوفييتي عبر الشيوعيين العراقيين. وسورية في عهد وزير الدفاع معروف الدواليبي فتحت بوابة لتسليح الجيش السوري، وبدأ عبد الناصر في مصر بتسليح جيشه من الاتحاد السوفييتي واستعادة بناء السد العالي بتمويل سوفياتي.

(علماً بأن الجيش الصهيوني منذ عام 1948 حتى عام 1960 كان يعتمد في تسليحه على السلاح من أوروبا وخاصة من بريطانيا وفرنسا، ولم يكن هناك تدفق للسلاح لجيش هذا العدو من الولايات المتحدة).

كما أن عبد الناصر أزعج الولايات المتحدة الأمريكية في طرح معسكر دولي حيادي سمّاه معسكر "عدم الانحياز" لا باتجاه الشرق ولا الغرب، وأنشأ هذا المعسكر، إلى جانب عبد الناصر، كل من "نهرو" و"تيتو" و"أحمد سوكارنو".

استلم الإدارة الأمريكية بعد آيزنهاور الرئيس جون كنيدي وبدأ يشعر أيضاً بالخوف من أن يمتد النفوذ السوفياتي إلى منطقة الشرق الأوسط كما امتد باتجاه الكاريبي (كوبا) بعد ثورة فيدل كاسترو.

كانت مراكز البحوث في أمريكا تنصح الإدارة الأمريكية من أجل منع وصول النفوذ السوفياتي للشرق الأوسط بإيجاد حل للقضية الفلسطينية، فبدأ الرئيس كيندي يبني علاقة ودية مع الرئيس عبد الناصر كزعيم كبير وأرسل له رسائل.

طرح الرئيس كينيدي على الرئيس عبد الناصر أن يساعده في إيجاد حل للقضية الفلسطينية. كان الرئيس كينيدي يقدم في ذلك الوقت بعض المساعدات المالية إلى مصر، كما أرسل إلى السعودية رسائل مشابهة لتلك التي أرسلها لعبد الناصر. وكان قد طُرح في الكواليس الأمريكية والعربية موضوع تشكيل كيان فلسطيني على أساس قرار التقسيم (181) أو ما شابهه.

كان جواب الرئيس عبد الناصر لكيندي حسب الرسائل الموجودة في مراكز البحوث العالمية، أنه لا يمانع في إيجاد حل، ولكن الذي يقرر هذا الأمر يجب أن يكون الفلسطينيين أنفسهم؛ لذلك اقترح الرئيس عبد الناصر البحث الجدي لإيجاد كيان فلسطيني وقيادة تستطيع أن تتعامل مع هذا الشأن.

على خلفية ذلك بدأ التحرك الأمريكي- العربي من أجل إيجاد مثل هذا الكيان الفلسطيني الذي سيقول كلمته. وفي عام 1964 طلب الرئيس عبد الناصر عقد مؤتمر قمة عربي في مصر تحت شعار (منع الإسرائيليين من تحويل مجرى نهر الأردن)، وعُقد هذا المؤتمر خلال أيام، ولكن لم يكتف مؤتمر القمة ببحث موضوع "تحويل مجرى نهر الأردن باتجاه النقب" بل أيضاً طُرِح موضوع إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية.

بعد أشهر عُقد مؤتمر آخر في الإسكندرية في فندق تم إنشاؤه خصيصاً للقمة أطلقوا عليه اسم "فلسطين". وهناك اتخذ القادة العرب قراراً بمن فيهم الملك حسين بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، وعُيّن الأستاذ أحمد الشقيري رئيساً لها، وكان يحظى بقبول من السعودية ومن مصر.

تخوّف الملك حسين أن يزعزع مثل هذا الكيان مملكته في الأردن والضفة الغربية التي أصبحت جزءاً من الأردن، لذلك عمدت الولايات المتحدة الأمريكية والأنظمة العربية لطمأنته. وأُقرّ أيضاً في الجامعة العربية إنشاء جيش فلسطيني يتبع لمنظمة التحرير، وسُلّمت قيادة هذا الجيش لضابط كان سابقاً في الجيش البريطاني وهو "وجيه المدني".

وضعت الميزانيات المالية لمنظمة التحرير، وعُقد المجلس الوطني الفلسطيني الأول في القدس من 28 أيار إلى 2 حزيران عام 1964، وقتها تم انتخاب أعضاء اللجنة التنفيذية بقيادة أحمد الشقيري، وافتتح هذا المؤتمر الملك حسين بنفسه وألقى كلمة فيه.

كان يفترض أن نشارك في هذا المؤتمر، فذهبنا أنا وعلي بوشناق والسيد حسن أبو رقبة "رحمهما الله". في ليلة افتتاح المؤتمر المذكور أتت المخابرات الأردنية إلى الفندق الذي كنا نقيم فيه بالقدس وقاموا باعتقالنا وإرسالنا إلى سجن في نابلس بتهمة أننا نريد اغتيال حكمت المصري وهو من المقرّبين للملك حسين لتعكير جو المؤتمر. وبقينا في سجن نابلس حوالي 20 يوماً دون تحقيق، ثم طردنا خارج الحدود الأردنية باتجاه سورية. وكان الهدف من ذلك منعنا من حضور المؤتمر، وبسبب مخاوفهم من أن نشوّش على أعمال المؤتمر التي قد لا نرضى عنها.

نحن في جبهتنا (جبهة التحرير الفلسطينية) وخلال لقاءاتنا كنا نشك بكل هذه النوايا، ولكن كنا لا نستطيع أن نفصح عن هذا الأمر لأن أجهزة الإعلام العربية كانت تعتبر أن إنشاء هذه المنظمة بقيادة الشقيري هي خطوة كبيرة باتجاه فلسطين، وخاصة أن شخصيات وطنية فلسطينية متعددة الأطياف انتمت إليها بما فيها حركة القوميين العرب.

بعد هذا الاجتماع التقينا مع المفتي الحاج أمين الحسيني كما أسلفت بدمشق في فندق "أمية" وأبدى هو أيضاً تخوفه من هذه الخطوة. تزامن ذلك مع صدور مجلة شهرية في لبنان اسمها "فلسطيننا"[6] تحدثت أيضاً عن تخوفها من هذه الخطوات العربية ومن مؤتمر القدس الأول.

جرى بعد ذلك ضم الكتائب الفلسطينية المتواجدة في غزة "عين جالوت" إلى جيش التحرير الفلسطيني، وطُلب من سورية أن يتحول المجندون الفلسطينيون الذين يخدمون في الجيش السوري إلى الخدمة في جيش التحرير وسُمّيت هذه القوات باسم "قوات حطين". وكان عبد الكريم قاسم في العراق قد شكّل جيشاً لتحرير فلسطين ولكن بعد انتهاء نظامه، أُلحق جيش التحرير الفلسطيني هناك أيضاً بمنظمة التحرير الفلسطينية تحت اسم قوات القادسية، لكن الملك حسين رفض أن يشكل جيشاً للتحرير في الأردن وكذلك رفض لبنان.

قاد هذه الوحدات، خاصةً في سورية، عدد من الضباط الفلسطينيين المتقاعدين الذين شاركوا في حرب 1948، وكانوا في جيش الإنقاذ ثم التحقوا بقطنا، وتلقوا

[6] - (عرفنا فيما بعد أن هذه المجلة التي كان يرأس تحريرها الأستاذ توفيق الحوري، كان يقف وراءها تنظيم موجود في الخليج وبشكل خاص في الكويت اسمه حركة فتح).

فيها دورة وأصبحوا ضباطاً في الجيش السوري وعددهم (50 إلى60) ضابطاً. تم تمويل هذا الجيش ومؤسسات المنظمة من الصندوق القومي للمنظمة الذي تدعمه الجامعة العربية.

يمكن تلخيص هذه المرحلة بظهور اتجاهين هما: اتجاه جارف لديه إمكانات كبيرة، وهو (منظمة التحرير الفلسطينية) بقيادة أحمد الشقيري وبما تحصل عليه من الدول العربية مادياً وإعلامياً، واتجاه آخر معارض تمثله التيارات التالية:

أولاً: الهيئة العربية العليا بقيادة الحاج أمين الحسيني الذي كان يشك بنية هذه المنظمة وأهدافها ولكن لا يستطيع الإفصاح بسبب قربه من السعودية التي وافقت على قرارات القمة العربية.

ثانياً: تنظيمنا وهو (جبهة التحرير الفلسطينية) حيث حاولنا بوسائل التوعية والتوجيه استنهاض شعبنا ورفاقنا قدر المستطاع والتحذير من مخاطر المرحلة القادمة.

ثالثاً: الأخوة في حركة فتح ويعبّرون عن معارضتهم من خلال مجلة "فلسطيننا"[7] التي كانت تصدر شهرياً في لبنان، وتعلن أنها تعارض وتتوجّس خوفاً من التطورات المقبلة،

رابعاً: النظام في سورية كان نظاماً بعثياً أتى على أنقاض الانفصال والقوى الناصرية، ولم تكن العلاقات حسنة بينه وبين النظام في مصر، لكنه لم يستطع أن يعارض مؤتمر القمة في إنشاء المنظمة، بينما كان داخلياً يعتبر المنظمة وسيلة لتصفية القضية الفلسطينية. وكان يقود سورية في ذلك الوقت الفريق أمين الحافظ الذي دعا فيما بعد الحاج أمين الحسيني لأول مرة لزيارة سورية، وكنت قد أشرت إلى لقائي به آنذاك.

بناء الكادر التنظيمي والعسكري لجبهة التحرير الفلسطينية

وصلنا الليل والنهار في حوارات ساخنة لتحديد موعد الانطلاقة لجبهتنا. كنا نعلم جيداً أننا يجب ألا نبدأ ووضع الأمة ضعيف للغاية، لأننا بذلك يمكن أن نمنح

---

[7] - (علمنا فيما بعد أن الشهيد خليل الوزير كان يوجّه هذه المجلة الشهرية).

العدو أسباباً مباشرة للقيام باعتداءات كبيرة واحتلال أراضٍ جديدة فلسطينية أو عربية.

كنا نقول للرفاق بأننا لابد أن ندرس واقع الأمة جيداً قبل إعلان الانطلاقة، ويجب أن تكون الأمة وجيوشها خاصة في سورية ومصر والعراق قادرة على الصمود أو الرد على أي اعتداء من قبل العدو، أما أن نورط أمتنا وهي ضعيفة فهذا سيكرّس الهزائم العسكرية والمعنوية والسياسية الكبيرة.

كنا نتحدث مع بعضنا كقيادات؛ هل هذه الأجواء (في الظروف التي سادت في بداية الستينيات) ملائمة لعمل مسلح في الجليل أو الضفة؟. وإذا احتل الإسرائيليون الضفة الغربية هل نستطيع تحمّل هذه المسؤولية؟. كنا نقول إن العام 1969 ربما هو المناسب للبدء، لعل الأمور تكون قد تحسنت في مصر واليمن وسورية والعراق، وإلا ستقع كارثة على أمتنا. كنا ندفع إلى تقوية وضعنا وإمكاناتنا وقدراتنا وتنظيمنا بشكل مستمر من حيث انتشاره أو تشكيلاته المقاتلة.



استلم العقيد عثمان جعفر حداد[8] قيادة جيش التحرير الفلسطيني في سورية بدلاً من العميد عبد الرزاق اليحيى

في عام 1964 أرسلنا دورات عن طريق جيش التحرير الفلسطيني إلى الكلية العسكرية في سورية كان منهم الرفاق: مأمون حيفاوي، خالد كوسا، قسّام شحادة وحسن خطاب ومحمد جاسم حديد، كما تخرّج من الكلية الرفيق عبد اللطيف شرورو، ورفاق آخرون.

واستطعنا تشكيل خلايا سرية داخل جيش التحرير على مستوى ضباط الصف والجنود داخل مواقعهم في درعا ثم في قطنا، وترأس هذه المجموعات الشهيد "أبو علي الأخضر" رحمه الله وآخرون، وتخرّج رفاقنا الذين أرسلناهم إلى الكلية العسكرية واستلموا مسؤولياتهم في جيش التحرير الفلسطيني.

في ذلك الوقت بدأت دورياتنا الاستطلاعية إلى الأرض المحتلة يتزايد عددها، وقد استفدنا بشكل كبير من خلال ما كان يمرره لي سراً بعض رفاقي من ضباط الجيش

---

[8] - (كان العقيد عثمان حداد عضواً قيادياً في جبهتنا).

السوري (سلاح المهندسين) من متفجرات وألغام وصواعق وقنابل وفتايل، وعلى رأس هؤلاء إسكندر سلامة وعبد الكريم حسون رحمهما الله.

تنوّعت طرق انتشارنا باتجاه الضفة الغربية والشرقية ولبنان، وكذلك أرسلنا في عام 1964 إلى الكويت- التي كانت تقيم فيها جالية فلسطينية كبيرة يصل تعدادها إلى 500 ألف فلسطيني- من يعمل على تنظيم الشباب هناك. وعلى رأس من أرسلناهم الرفيق "حمد الموعد" ومعه مجموعة من الرفاق؛ وكان ذلك بمثابة أول فرع خارجي للجبهة في بداية الستينات.

التقوا هناك مع نمر خميّس ومحمد صالح (أبو بسام) وآخرين، ليبدؤوا حراكاً تنظيمياً من أجل تنظيم بعض الشباب الفلسطينيين في الكويت خاصة من سكان الضفة الغربية الذين كنا نستقبلهم ونقوم بتدريبهم ثم نرسلهم إلى بلداتهم في الضفة الغربية.

كلفنا حمد الموعد بإجراء اتصالات مع المقربين منه في العمل وفي مكان إقامته، والتحاور مع هؤلاء عن القضية الفلسطينية وضرورة العمل والتعاون الجاد للتصدي للعدو الصهيوني. وبعد سلسلة لقاءات أصبح لدينا واقع منظم من الأنصار والرفاق في تلك المرحلة المبكرة بالكويت، يمثله عدد من المجموعات التي ضمت شخصيات مثل (محمد أبو وراد، راكان خطاب، غالب أبو دبوسة، عبد الله موعد، أحمد الحسن، سميح عايش، محمد أبو سرور، عايش صادق، عبد الله سليمان، يوسف هباب، طاهر الدجاني، عدنان أبو الخير، زكي عبد الله، إسحق الصعيدي، إسماعيل المدرّس (مصري)، أبو سميح عريقات، غسان بشناق، موفق ياسين، أبو أشرف نظام، خضر سرميني، محمد صالح، نمر خميس، أبو نسيم، كريم اليوسف، نواف الأحمد، عبد الكريم أبو حجلة محاسب، أبو زياد رشيد، رياض بيدس، جواد الدويك، صبحي جمانة، عبدو الناطور، عمر عزوم، نسيم صيدلة، عصمت أبو حجلة، مالك الناطور، ناجي عبدو، أبو إبراهيم عبدو، أبو نبيل حجازي، عادل رزق، محمد الحاضر (كويتي)، فاضل القريني (كويتي)، فليطح الموعد (كويتي)، محمد توفيق (مصري)، عادل عبد الدايم (مصري)، راشد خليفة (عُماني)، محمد أبو المجد، غازي رشيد، محسن أبو عمشة، معروف حسن، سعيد بطامي، رضوان التل، صبحي تيّم، جودت عقول (سوري)، جمعة صالح (سوري) وآخرون غيرهم ولكن الذاكرة وضعف الأرشفة لم تسعفني لذكر أسمائهم جميعاً).

وتشكلت لجنة لجمع التبرعات على شكل مجموعات:

- مجموعة سحوبات اليانصيب بمعرفة محمد صالح.
- مجموعة صناديق التبرعات بمعرفة زكي عبد الله.
- مجموعة تصميم الملصقات وتوزيعها بمعرفة الفنان العراقي (قبيسي) وساجدة.
- مجموعة أعضاء منطقة الفروانية بمعرفة عبد الله سليمان.

كما تم تشكيل عدة مجموعات نسائية:

- المجموعة الأولى تضم: (هالة حجازي، جنان هباب، وردة عبد الله، ميسر اللحام، عدلة أم يوسف).
- المجموعة الثانية تضم: (أم بشار أبو حجلة، أم غسان الصعيدي، إيمان زهرا، إيمان عبدو).
- المجموعة الثالثة تضم: (سناء ناصر، أمل لابيدي، أمل قصيباتي، ناديا ظافر).

بعد فترة من الزمن قام رفاقنا في الكويت بالانتشار بشكل جيد في المجتمع الفلسطيني الموجود هناك، **وشكلت القيادة الجبهوية هناك لجان عمل:**

- لجنة التعبئة والتنظيم.
- اللجنة المالية.
- اللجنة الإعلامية.
- لجنة الاتصالات.
- اللجنة النسائية.

شُكلت لجان فرعية حسب المناطق الجغرافية في الكويت، وتم تشكيل قيادة للمنطقة من هذه اللجان، وكان الجهد الأكبر للعمل التنظيمي ينصب على دفع الشباب

من سكان الضفة الغربية إلى السفر إلى دمشق من أجل تدريبهم ثم إرسالهم إلى الضفة الغربية وكذلك على جمع المال لدعم ساحة القتال، وتنوعت المصادر المالية:

- اشتراكات عناصر التنظيم.
- أوراق ودفاتر التبرعات التي يصدرها المركز المالي للجبهة.
- وضع صناديق لجمع التبرعات في أماكن مختلفة في الكويت.

كما قامت قيادة الجبهة في الكويت واللجنة المالية بجولة على دول الخليج وجمعت أيضاً المال، وكانت هذه الأموال ترسل لمساعدتنا في مشوارنا الصعب. ونستطيع أن نقول إن التنظيم في ساحة الكويت ساهم في سدّ جزء من حاجة الجبهة المالية، وتأمين بعض التجهيزات والمستلزمات، وقام بإرسال سيارات ومعدات وأجهزة طبية وأجهزة لاسلكية. وكما أسلفنا قامت اللجنة التنظيمية بإرسال بعض العناصر لساحات القتال من الساحة الكويتية، كما استطاعت هذه اللجنة التنظيمية استقطاب بعض الكفاءات العلمية والاجتماعية.

أما اللجنة الإعلامية فكان دورها هاماً من خلال التوجيه المعنوي لعناصر التنظيم وإعداد نشرات ثقافية وطباعة وتوزيع البيانات العسكرية والسياسية، وتعميم الملصقات وتوزيعها، والاتصال بالصحف المحلية وعقد مؤتمرات صحفية. كما أرسلنا فرقة فنية من سورية قدّمت العروض المسرحية لمدة أسبوعين، قدّمت عروضها باللباس الفلسطيني والسلاح، ولاقت تلك النشاطات الوطنية الفنية إقبالاً جماهيرياً كبيراً، وفي نهاية كل عرض مسرحي كانت تتم عملية التبرع من قبل الجماهير للعمل الفدائي.

أجرت اللجنة التنظيمية في الكويت اتصالات مع الطلبة العرب والفلسطينيين في باكستان، وقد أرسلت إلينا دعوة من قبل رئيس الوزراء (علي بوتو) في عام 1970 لزيارة باكستان والمشاركة في مهرجان أقيم بمناسبة ذكرى هزيمة حزيران 1967، ثم انتدبنا هناك أحد الرفاق ليقيم في باكستان ليتابع هذه البدايات وليكون ممثلاً للجبهة هناك.

كنت في كل زيارة من زياراتي للكويت ألتقي في اجتماع موسع مع غالبية عناصر الجبهة هناك، وأيضاً كانت تتم لقاءات شعبية يحضرها المئات من الجالية

الفلسطينية، نستعرض خلالها صعوبة المرحلة القادمة، وكنت أوضح لهم بأن أمامنا طريقاً صعباً شاقاً مليئاً بالآلام وأن السير عليه يحتاج لتضحيات كبيرة.

أستطيع أن أقول إن نشاط رفاقنا في الكويت كان متميزاً ولعب دوراً هاماً حين تحالفنا كجبهة التحرير الفلسطينية مع الأخوة في حركة فتح في عام 1965، وشُكلت لجنة موحّدة من كلا التنظيمين للتنسيق في العمل الميداني داخل الساحة الكويتية. الإخوة في حركة فتح انتدبوا الأخ سليم الزعنون ومن تنظيمنا انتدبنا الرفيق حمد الموعد وتم التعاون فيما بيننا. لكن بعد الانفكاك ما بيننا وبين حركة فتح وتشكيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فيما بعد من (جبهة التحرير الفلسطينية وشباب الثأر/ حركة القوميين العرب وأبطال العودة) بعد حرب حزيران عام 1967، كان رفاقنا (أي من جسم جبهة التحرير الفلسطينية) في الكويت هم مَن عماد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وواجهتها لأنهم الأكثر نشاطاً والأكثر عملاً والأكثر انتشاراً.

قبل عام 1965 أنشأنا خلايا سرية في الضفة الغربية تتولى القيام بدوريات استطلاع، وتدخل من الضفة الغربية من منطقة بيت لحم ومن مخيم الدهيشة عبر بيت صفافا باتجاه باب الواد غربي القدس المحتلة، كذلك في منطقة الخليل ومنطقة السموع. كما كانت الدوريات الاستطلاعية تتجه نحو الجليل وتدخل من شمال بحيرة طبريا باتجاه سهل الحولة، وجنوبي بحيرة طبريا باتجاه سهل سمخ. كما أنشأنا قواعد انطلاق ورصد لدوريات الاستطلاع ملاصقة للحدود للقيام بالاستطلاع على طول الجبهة السورية:

- في العباسية شمال غرب بانياس، شمال مستعمرة "دان".
- في قرية عين مامون، وهي مشرفة تماماً على سهل الحولة.
- في قرية البطيحة، وهي تشرف على بحيرة طبريا وشمالها الشرقي.
- الحمّة السورية، تشرف على جنوب بحيرة طبريا باتجاه "سمخ" وكذلك باتجاه أغوار الأردن الشمالية.

في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1948 استقطبنا من قرية البروة قرب عكا الشهيد سمير درويش (ابن عم الشاعر محمود درويش)، وبعد تنظيمه بحسب النظام الداخلي للجبهة كلّف بتعليم اللغة العبرية للزمر المكلفة بالاستطلاع والقتال، محادثة وكتابة.

كانت البدايات حقاً صعبة وقاسية، وكنا نجري تدريباتنا على استخدام السلاح خارج دمشق، حيث كنا نقوم بالتدريب على الرماية في شمال جبل قاسيون باتجاه عين الصاحب، وعرنة، جبل الشيخ، وصحراء اللجاة/ منطقة السويداء.

في بعض الأحيان كنا نشعر بالارتياح لأننا بنينا وأعددنا رجالاً مؤمنين وأشداء على طريق الكفاح المسلح ومستقبله رغم ظروفنا المالية الصعبة والقاسية، والظروف الأمنية المعقّدة، إلى أن فوجئنا في بداية عام 1964 بأن اللواء أحمد سويداني مسؤول المخابرات العسكرية في الجيش العربي السوري، يطلب لقاء الرفيقين المقدّم المتقاعد علي بوشناق وأيضاً زميله عثمان حداد، وهما من أعضاء قيادة الجبهة، إلى اجتماع في الأركان استغرق أكثر من ساعة ونصف.

بعد عودة الرفيقين من هذا الاجتماع طلبا اجتماعاً مصغّراً لقيادة الجبهة، وكان هذا اللقاء على ما أذكر في مقر سريّ في قبو أسفل بناء في دمشق/ منطقة الدحداح يسكنه رفيقنا عثمان حداد "رحمه الله" والذي كان قد أصبح فيما بعد قائداً لجيش التحرير الفلسطيني في سورية.

خلال اللقاء عرض علينا الرفيقان بوشناق وحداد ما تقدم به اللواء أحمد سويداني وكان كالتالي، إذ قال لهم: «نحن نعرف أنكم تنظيم سريّ وتم تأسيس هذا التنظيم منذ سنوات طويلة وتبحثون عن السلاح والعتاد تحضيراً لتفجير الثورة المسلحة في فلسطين على غرار ما حدث في الجزائر»، ثم أضاف أحمد سويداني: «أنا مستعد لتقديم السلاح والألغام والمتفجرات بكميات كبيرة ومستعد أن أسهّل لكم تحرككم باتجاه الجبهة السورية- الفلسطينية لتعملوا هناك»، وقال لهما على ما أذكر وبحسب ما ذكرا لنا عبارة بالعامية: «سأجعلكم تسيرون على السلاح والعتاد الذي سيقدّم لكم».

تساءلنا، لماذا يعرض اللواء سويداني على جبهتنا مثل هذا العرض السخي؟ ناقشنا ذلك في الاجتماع القيادي الخاص بجبهتنا وجرت نقاشات وتساؤلات عدة، وتوقفنا أمام هذا العرض السخي المفاجئ في مثل هذا الوقت وسورية تمر بأوضاع حرجة، ولا تزال المشاكل بين أجنحة البعث على أشدها، كذلك كان الخلاف مع الرئيس عبد الناصر كبيراً، كما أن الخلاف بين البعث في سورية والعراق كبير أيضاً، حيث لجأ إلى العراق ميشيل عفلق وشبلي العيسمي.

وبالنتيجة، اتفقنا في هذا الاجتماع على عقد اجتماع آخر بين الرفيقين المرحوم علي بوشناق والمرحوم عثمان حداد مع العقيد أحمد سويداني، وطلبنا منهما أن يسألا ما هو المطلوب منا مقابل ذلك العرض؟

التقى الرفيقان مع أحمد سويداني مرة أخرى والذي أجاب بأن المقصود من عرضه المذكور أن تتحول الجبهة من تنظيم سري إلى تنظيم علني وأن نسارع في بدء الاشتباك مع العدو الصهيوني عبر الجبهة السورية، ولم يوضح التفاصيل والغايات من ذلك.

مرة أخرى اجتمعنا كهيئة قيادية في الجبهة وتوصلنا إلى قرار نرفض فيه تحويلنا من منظمة سرية إلى منظمة علنية أو كشف أعمالنا وأسرارنا، فنحن لا نثق بأجهزة الأمن لاحتمال اختراق الأجنبي لها، كما أننا نرى أن فتح اشتباك مع العدو الصهيوني عبر الحدود الفلسطينية مع سورية الآن سيسبب بالتأكيد عدواناً إسرائيلياً كبيراً على سورية، ونحن نعرف أن سورية غير مستعدة، كما أننا نعرف التفاصيل والخلافات داخل الحزب، وأن الجيش السوري يعاني وضعاً صعباً بعد تسريح آلاف الضباط. وبذلك أجمعنا على رفض عرض العقيد أحمد سويداني.

سبب لنا هذا الرفض إشكالات مع العقيد سويداني، وبدأنا نرى أن بعض دوريات الاستطلاع التي كنا نرسلها يتم القبض عليها ووضعها في السجون، ما اضطرنا أن نرسل بعض الدوريات عبر طرق صعبة وقاسية كالصعود إلى جبال حرمون- جبل الشيخ والمسير على سفوحه لبلوغ منطقة غرب بانياس على الجبهة السورية ثم الوصول إلى نقطة الانطلاق الخاصة بنا في العباسية، وهذا كان يستغرق من دورية الاستطلاع ثلاثة أيام من المسير الشاق للوصول إلى نقطة الارتكاز بالعباسية (كان يقود هذه النقطة الرفيق أبو خالد وعائلته "رحمه الله").

وعلى سبيل المثال، في إحدى الدوريات على ما أذكر، كان فيها الرفيق أبو جهاد طلال ناجي قبل إصابته، ومجموعة معه، جرى تكليفهم بالصعود إلى جبال حرمون- جبل الشيخ فقطعوا شمال قلعة النمرود وجباتا الزيت، وأصبحوا شمال مدينة بانياس إلى أن وصلوا إلى قرية العباسية على الحدود الشمالية لفلسطين.

كانت دورية الاستطلاع هذه تستغرق من ثلاثة إلى أربعة أيام مشياً على الأقدام قبل دخول فلسطين، وبعدها يقومون بالاستراحة في العباسية، ثم تبدأ المرحلة الثانية وهي القيام بالرصد والاستطلاع قرب الأراضي المحتلة في مواجهة مستعمرة "دان" في

إصبع الجليل، ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي الدخول إلى الأرض الفلسطينية المحتلة بعمق ما بين 5 إلى 10 كم.

أُلقي القبض على هذه الدورية من قبل أجهزة الأمن السورية في منطقة زبدين قرب وادي العسل على الحدود السورية- اللبنانية شمال سهل الحولة، أثناء عودتهم من العباسية وأودعهم أحمد سويداني السجن لمدة أشهر. وكأن لسان حال أحمد سويداني يقول لنا: (جبهتكم رفضت عرضي.. فلتتحمّلوا مسؤولية ذلك).

كنا نرسل الدوريات من منطقة درعا- شلالات تل شهاب، فتقطع وادي علّان ثم وادي "الرقّاد" السحيق، وتسير إلى أن تصل إلى منطقة الحمّة، وتستغرق هذه الدورية ثلاثة أيام. تقوم الدورية بالاستراحة في منطقة الحمّة ثم تتابع انطلاقها باتجاه الأراضي الفلسطينية المحتلة باتجاه سهل "سمخ" أو باتجاه الأردن- تلة أم قيس الشونة الشمالية. وهذه أيضاً كما قلت تعد طريقاً صعبة وقاسية.

رغم رفضنا العلاقة مع العقيد أحمد سويداني إلا أننا كنا نفضّل أن نقيم علاقاتنا المتواصلة السياسية مع حزب البعث والقيادات الموجودة، وأيضاً مع الأعضاء الحزبيين من الفلسطينيين، أذكر منهم المرحوم محمد خليفة وعمر خليفة ولطف غنطوس.

أردت من سردي هذا أن أقول: صحيح أننا كنا نفكر بفلسطين وتحريرها ومتى يبدأ كفاحنا المسلح؟، لكن لم يغب عن أذهاننا وفهمنا استراتيجيات وطبيعة الصراع العالمي على هذه المنطقة، ونفهم أن الكيان الصهيوني نشأ وترعرع بالأساس على خيمة عامودها الأساسي هو الأمن ليعطي الطمأنينة لليهود المهاجرين من أنحاء الدنيا إلى فلسطين، خاصةً اليهود الفرنسيين (الأشكناز)، وليشجع المزيد من الهجرات اليهودية إلى فلسطين. لذلك كنا ندرك أن العدو الصهيوني سيقوم برد قاسٍ إذا حاولنا المساس بأمنه هذا، وعلى هذا الأساس ومن أجل المصلحة الوطنية والإعداد الكافي وبعيداً عن الارتجالية كان علينا حساب كل ذلك بدقة.

انطلاق "العاصفة فتح" في 1/1/ 1965

مع بداية العام 1965 فاجأتنا الصحف اللبنانية بعنوان: «حركة فتح (العاصفة) تبدأ الكفاح المسلح الفلسطيني».

وفي البيان الأول الذي أصدرته حركة "فتح" جاء أنها «قامت بما عجزت عنه الأنظمة والجيوش العربية، إذ نفذت عملية عسكرية تمثّلت بنسف نفق (عيلبون) وهذا النفق ينقل مياه بحيرة طبريا في منطقة (الطابغة) عبر مضخات كبيرة إلى بحيرة صناعية في (البطوّف) في سهل مرج ابن عامر ثم الى النقب».

اجتمعت قيادة الجبهة وتحدثنا عن خطورة هذا البيان في هذا التوقيت وأصبحنا في حيرة من أمرنا.

اتصل بنا السيد "محمود الخالدي"[9] بعد إصدار فتح لبيانها الأول، وأخبرنا أن وفداً من قيادة حركة "فتح العاصفة" حضر إلى دمشق ويرغب باللقاء معنا.

التنسيق مع حركة "فتح".. تجربة الوحدة الفلسطينية

في العام 1965 عندما انطلقت حركة "فتح" وأصبحت في سورية، اجتمعنا في بيت السيد محمود الخالدي في منطقة "ركن الدين"، وحضر المرحوم ياسر عرفات "أبو عمار" وكان هذا أول لقاء نتعرف فيه عليهم، وحضر معه المرحوم خليل الوزير وصلاح خلف والأخ فاروق القدومي.

أمضينا أياماً صعبة وليالي طويلة من النقاش، ولم يكن لدى حركة فتح قوة عسكرية فاعلة في منطقتنا، فكانوا حريصين ومضطرين على الشراكة معنا لأن لدينا جسماً عسكرياً قادراً وملتزماً موجوداً في سورية وفي الضفة الغربية.

اجتماعاتنا استمرت لساعات متعددة ولأيام وكان يحضرها معي الشهداء علي بوشناق وعثمان حداد وفضل شرورو. وجدنا تطابقاً كبيراً وتاماً بين منطلقاتنا وبرامجنا السياسية وبرامجهم كـ "فتح"، وهذا شجعنا على العمل الوحدوي فيما بيننا.

الجلسات الأولى كانت عاصفة وجرى النقاش حول البيان الأول لحركة "فتح" وتوقيته والمبالغة في موضوع نسف نفق (عيلبون).

---

[9] - (السيد محمود الخالدي تعرّفت عليه قبل إعلان حركة "فتح" عن بيانها، حيث كان يعمل موظفاً في الجمارك ثم أصبح يعمل في مكتب منظمة التحرير بدمشق، ولاحقاً أصبح سفير فلسطين في سورية. وقد حاول أن ينظم صديقه المهندس مروان اليحيى وهو زوج شقيقتي "فوزية" في حركة "فتح"، عندها رتّب "مروان اليحيى" لقاء بيني وبين السيد "محمود الخالدي" الذي أخبرني عن انتمائه إلى حركة فتح، وفي هذا اللقاء طلب منا أن نقوم بتدريب شباب من فتح يمكن أن يأتوا من الكويت، فوافقت وتم فعلاً تدريبهم).

قلت لهم: ألا تعلمون أنكم ستسببون حرباً مع الإسرائيليين ووضع الأمة صعب ومعقد؟!. إذا كانت غايتكم توريط الأمة العربية فهذا خطأ تاريخي. الجسد العربي في هذه الظروف ضعيف ومنهك ومشتّت وليس باستطاعته أن يتحمّل كارثة كبيرة يمكن أن تقع، خاصةً أن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا حلفاء للعدو الإسرائيلي، وهم أيضاً حريصون على الحدّ من وصول النفوذ السوفياتي إلى المنطقة والذي بدأ يدخل المنطقة من خلال سورية ومصر والعراق.

وسألت الشهيد ياسر عرفات: أنت اختصاصك هندسة مدنية وأنا اختصاصي مهندس عسكري، هل تعلم أن نسف نفق (عيلبون) يحتاج لأطنان من المتفجرات؟ والدورية التي قمتَ بإرسالها لا تستطيع أن تحمل أكثر من 10 كغ من المتفجرات لكل فرد! أنتم تقولون إنكم قمتم بما عجزت عنه الأنظمة العربية!!. نحن ثورة ويجب ألا نقلد النظام العربي بالمبالغة والتهويل والبعد عن الحقيقة.

كان نقاشاً حاداً جداً. قال أحد الموجودين من الأخوة من قيادة "فتح": لماذا لا نورّط هذا النظام العربي؟ الرئيس جمال عبد الناصر يقول: (فلسطين)، وآخرون يقولون: (فلسطين).. دعهم ينكشفون على حقيقتهم.

قلنا لهم: حتى لو كانوا يقولون ذلك علينا ألا نضيّع هذه الأمة. وخلال النقاش قال وفد "فتح": نحن نعرف نشاط جبهتكم ودورها، ويوجد لدينا معلومات قد لا تكون كافية لكن يمكن أن نكمل بعضنا البعض. نحن لدينا المال الكافي وأنتم ليس لديكم المال، لديكم رجال مدرّبون وفي مناطق مختلفة وهذا شيء هام.

وهنا قال خليل الوزير "أبو جهاد" رحمه الله: طلبنا من الجزائريين تدريب بعض شبابنا في الجزائر وقالوا إنهم سيحاولون ذلك، وسيرسلون لنا بعض الأسلحة"[10]. وأضاف الوزير: ما رأيكم بأن نكمل بعضنا؟

بعض الرفاق في الجبهة تجاوب معهم، منهم الشهيد علي بوشناق وعثمان حداد، أما أنا فكنت ضد ذلك ورفيقنا فضل شرورو كان متردداً.

في عام 1965 اجتمعنا في منزل الشهيد علي بوشناق واتفقنا على تشكيل قيادة من ثمانية أشخاص، أي أربعة من كل طرف، أنيط بها قيادة الكفاح المسلح وسميت «قيادة الطوارئ العليا».

---

[10] - (فعلاً أرسلت الجزائر لحركة "فتح" أسلحة عبر سورية من أسلحة الحرب العالمية الثانية)

طرحوا فكرة تدريب دورة عسكرية لبعض كوادرهم وبالفعل قمنا بتدريبها والشهيد (محمود مَسّوَدة) الملقب بصخر من "فتح" وقد استشهد عام 1969 كان في عداد الدورة التي قامت الجبهة بتدريبها عام 1965. وتشكلت لجنة إعلامية من الرفيق فضل شرورو والسيد محمود الخالدي الذي بدأ العمل في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في دمشق وكان مدير مكتب منظمة التحرير بدمشق المقدم مصطفى سحتوت (من دورة الشهيد علي بوشناق)، واتفقنا على أن أي بلاغ عسكري يُراد نشره من قبل اللجنة الإعلامية يجب أن أقوم أنا بالتدقيق به من الناحية العسكرية قبل صدوره.

في أحد الأيام، اتصل بي السيد محمود الخالدي من اللجنة الإعلامية لقيادة الطوارئ وأخبرني أنه قد وصل إليه بلاغ عسكري بعملية عسكرية على طريق بئر السبع- إيلات، عن نسف جسر من خمسة عيون بحيث تعطل السير باتجاه إيلات. وأخبرني أن الأخ ياسر عرفات "أبو عمار" أرسل إليه بلاغ العملية ليتم نشره.

ولما كنت أعرف أن هذه العملية تحتاج إلى خمسة أطنان من المتفجرات لتنجح، طلبت من الأخ أبو عماد "محمود الخالدي" وقف البيان كي لا نفقد مصداقيتنا.

في إحدى المرات اجتمعت الهيئة القيادية بناءً على طلب المرحوم الشهيد خليل الوزير الذي أبلغنا أن الأخ "أبو عمار" قد اختفى ولا يعرفون مكانه ويعتقدون أنه اعتقل من الجيش السوري.

تدارسنا هذا الأمر، اتصل بي الأخ محمود الخالدي وأبلغني أن ياسر عرفات موقوف في الشعبة السياسية وأن الأخ المرحوم منيب المجذوب الذي كان ضابطاً في هذه الشعبة هو الذي أخبره. وقررنا أن نرسل وفداً كبيراً لمقابلة الفريق أمين الحافظ رئيس الدولة السورية في تلك الفترة. تم طلب الموعد عبر الرفيق الشهيد علي بوشناق والمرحوم عثمان حداد كونهما أصدقاء قدامى للفريق أمين الحافظ عندما كانوا ضباطاً في الجيش السوري، وأخبراه أن هناك وفداً من الفلسطينيين يريد أن يقابله.

فعلاً شكّلنا وفداً ضمّ عدداً من الضباط من دورة الشهيد علي بوشناق ومختار مخيم اليرموك، وكنت حاضراً مع الوفد ومعي الشهيد خليل الوزير وآخرين، والتقينا بالفريق أمين الحافظ في القصر الجمهوري القديم في منطقة "المهاجرين". بعد التحية والترحيب بنا تكلم الشهيد علي بوشناق قائلاً: إنكم تعتقلون الأخ ياسر عرفات "أبو عمار" منذ أسبوع، فأجاب الفريق أمين الحافظ: الموجود لدينا هو محمد عبد

الرؤوف القدوة، فأوضحنا له بأن هذا هو اسمه الحقيقي أما الاسم المستعار له فهو (ياسر عرفات أبو عمار).

فقال الفريق أمين الحافظ: سأستدعي رئيس الأركان اللواء شنيوي ومعه ملف التحقيق ليقرأه أمامكم.

سأله أعضاء الوفد عن سبب الاعتقال فقال: محمد عبد الرؤوف القدوة ألقي القبض عليه في منطقة سعسع وهو يسلّم أسلحة وموادّ متفجرة لمجموعة فلسطينية من الفدائيين السابقين (الكتيبة 68 استطلاع) التي كانت تابعة للجيش السوري، ليقوموا بنسف أنبوب (تابلاين) في منطقة بانياس شمال هضبة الجولان والتابع لشركة أرامكو السعودية- الأمريكية، والذي ينقل النفط السعودي عبر الأردن وعبر سورية والجولان إلى جنوب صيدا- منطقة الزهراني على البحر المتوسط.

ثم أضاف الفريق أمين الحافظ: سورية وقفت مع القضية الفلسطينية منذ احتلال فلسطين، ونحن- البعثيون- متمسكون بهذه القضية لذلك تغاضينا عن تحركات بعض القوى الفلسطينية على الأرض السورية ولكن بشرط ألا تؤذي مصالحنا.

عندها حضر اللواء شنيوي رئيس الأركان ومعه الملف وبدأ يقرأ إفادة "أبو عمار" التي قال فيها بأن الهدف كان نسف أنبوب (تابلاين) في منطقة قرب بانياس السورية وعلى بعد أكثر من 1,5 كم عن الحدود الفلسطينية المحتلة عام 1948 مع سورية.

بعد استماعنا إلى الإفادة كاملة طلب الوفد من الفريق أمين الحافظ أن يطلق سراحه، وحينها قال الفريق أمين الحافظ: "أنتم رجال أعزاء علينا ولن أرد طلبكم، ولكن إذا كرر محمد عبد الرؤوف القدوة مثل هذه الأعمال سأتصرف معه تصرّفاً قاسياً وشديداً" وأضاف مخاطباً الشهيد علي بوشناق: "سنطلق سراحه ونرسله إلى منزلك بعد ساعة تقريباً". ثم خاطب رئيس الأركان قائلاً: أرسلوا الموقوف إلى منزل الأخ علي بوشناق.

ذهبت الهيئة القيادية إلى منزل المرحوم علي بوشناق وكان معنا خليل الوزير والأستاذ محمود الخالدي وأعتقد أنه كان معنا أيضاً السيد فاروق القدومي "أبو اللطف". وبعد مرور ساعة من الزمن أُحضر (أبو عمار) إلينا.

دخل الصالون فوقفنا لاستقباله فعبّر لنا عن امتنانه الشديد بطريقة من الصعب أن أوصفها، وجلسنا نتحدث، فقلت له معاتباً: لماذا لم تعلمنا يا أخ "أبو عمار" ونحن

دوماً مع بعضنا في قيادة الطوارئ، بأنك ستقوم بمثل هذا العمل بالاعتماد على عناصر سابقين من الكتيبة (68) والتي نعرف أن البعض منها يعمل مع أجهزة الأمن في الخفاء، ثم إن هذا الهدف الذي كلّفت به هؤلاء الفدائيين هو داخل الأراضي السورية، فهل يمكن أن تشرح لنا أيضاً أسباب اختيارك لهذا الهدف منفرداً دون إعلامنا؟!.

أجاب أبو عمار: هذا أنبوب (تابلاين) عند منطقة بانياس يقوم (الإسرائيليون بسرقته. لقد استطاعوا أن يمرروا أنبوباً من داخل الأراضي المحتلة إلى أنبوب النفط داخل الأراضي السورية لسرقة النفط منه وإيصاله حتى مستعمرة (كريات شمونه). فأجبناه أنا والمرحوم علي بوشناق بأننا خدمنا في الجبهة السورية كضباط في الجيش السوري ونعرف خط أنبوب النفط هذا منذ دخوله الجولان حتى خروجه إلى لبنان في منطقة الغجر، ونعرف أن عليه طريقاً وهو مسيّج من على جانبيه، وهناك سيارات فنية من قبل شركة (آرامكو) تقوم بدوريات شبه يومية على هذا الطريق لمعرفة إذا كان هناك عطل في الأنبوب أو بالمضخات ولو بسيط من أجل إصلاحه، فكيف تريد أن تقنعنا بأن الإسرائيليين يأخذون منه فرعاً إلى مستعمرة (كريات شمونه) في الأراضي المحتلة متجاوزاً الحدود والمواقع العسكرية السورية في منطقة بانياس؟.. إذا كنت تريد أن تقول بأن هناك موافقة أمريكية- سعودية على إعطاء النفط من خلال هذا الأنبوب فلا حاجة لهم لفعل ذلك من خلال الأراضي السورية، بل هم قادرون أن يقدموا النفط من خلال شركة (أرامكو) عبر قناة السويس ويعطوه للإسرائيليين!.

فيما بعد، طلب منا الأخوة في "فتح" أن نزور الكويت لنتعرّف على باقي أعضاء اللجنة المركزية لـ"فتح" هناك. كان معي المرحوم علي بوشناق والمرحوم فضل شرورو، وهناك التقينا بالدكتور عبد الله الدنان والدكتور عادل عبد الكريم وأبو إياد وآخرين من أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح.

برروا قيامهم بالعمل العسكري الأول في عام 1965 بأن الأخ "أبو عمار" ياسر عرفات "رحمه الله" أخبرهم أن الأردن اعتقل مجموعة لحركة فتح- وكان وقتها محمد رسول الكيلاني رئيس المخابرات الأردنية- وهذه المجموعة كانت تجهز للعمل من الضفة الغربية، وكان الكيلاني سيتابع اعتقال باقي المجموعات في الضفة الغربية، لذا تم إعلان الانطلاقة عام 1965.

قلت لهم: أبناء عمي كانوا بعثيين وناصريين وفي مواقع مهمة في الأردن وكنا نلتقي بهم في دمشق وكنت أسألهم: لماذا لا تنفذون انقلاباً ومعكم رئيس الوزراء سليمان النابلسي وهو رجل وطني، ووزير الخارجية عبد الله الريماوي وضباط شرفاء؟. دعونا نتخلص من الملك حسين.

فأجابوا: الرئيس عبد الناصر يرفض ذلك لأن (الإسرائيليين) سيحتلون الضفة الغربية إذا سقط النظام الهاشمي في الأردن، وهو غير قادر أن يقدّم أي شيء لمنع ذلك. والوحدة بين سورية ومصر كانت حديثة ولا يستطيع أن يتحمل مسؤولية تبعات ما سيترتّب على ذلك.

قلنا للأخوة في "فتح" نحن مختلفون معكم في التوقيت لكن ارتضينا لأنه أصبح أمراً واقعاً.

أصبحنا نعرف معلومات أكثر عن "فتح" من خلال علاقتنا بالأخوة في قيادتها الموجودين في الكويت (د.عبد الله الدنان، د.عادل عبد الكريم، فاروق القدومي، صلاح خلف "أبو إياد"، سليم الزعنون الذي لم يكن عضواً باللجنة المركزية لفتح آنذاك)، ولم تكن اللجنة المركزية لفتح قد حسمت أمرها بخصوص القائد أو المؤسس كرئيس للحركة.

بعد عودتنا إلى دمشق من الكويت وفي أحد اجتماعات الهيئة القيادية وفي منزل الشهيد علي بوشناق، قال الأخ "أبو عمار" أمام الجميع إن لديه خطة عسكرية هامة وكبيرة أسماها "الخطة رقم 10".

قال الأخ أبو عمار: الخطة رقمها 10 كـ "كود" وهي احتلال صحراء النقب جنوب فلسطين المحتلة عام 1948 حتى ميناء إيلات "أم الرشراش" على البحر الأحمر من قبل الفدائيين. وعند السيطرة على هذا الميناء سيأتي إلينا آلاف المسلمين من ماليزيا وأفغانستان وبنغلادش وباكستان وأندونيسيا وكل أصقاع العالم، وينضمّون إلينا في معركة الجهاد.

عندها ابتسمنا كهيئة قيادية وقلنا للأخ "أبو عمار" بالطريقة المصرية (أنت بتهزّر!).

قال: لا.. هذا أمر جدّي. وبعد أن ناقشناه أقنعناه بأن هذه العملية مستحيلة حتى لو كنا متواجدين في الأردن، وشرحنا الأسباب؛ لذلك طُويت هذه الخطة رقم 10.

هنا لا أريد أن أقول إن الأخ "أبو عمار" ليس لديه إلا السلبيات، فله إيجابيات أيضاً منها روحه المعنوية العالية دوماً، ودأبه للعمل ليلاً نهاراً، تقشّفه، اعترافه بالأخطاء التي يرتكبها في بعض الأحيان، وكان ممتعاً في حديثه بشكل عام، وودوداً.

كان الأخ أبو عمار يزورني باستمرار في منزلي، وعندما يتأخر في الليل ينام أحياناً في غرفة الضيوف. آنذاك ابني جهاد عمره حوالي سنتين، وكان "أبو عمار" يهتم بإحضار الهدايا له ويلاعبه كثيراً ويقول بأنه يشتاق إليه باستمرار.

كان يستفيد من فترة زيارته إلى بيتي حيث أقوم بإعطائه دروساً عسكرية خاصة في (الطبوغرافيا، الاستطلاع، أمر القتال، الكمائن).

بدأنا نفاجأ في الجبهة بأن الدوريات التي كانت تُرسل في مواجهة الجبهة السورية ضد المواقع الصهيونية من قبل الأخوة في حركة "فتح" تتم بالتنسيق وبتقدم التسهيلات من اللواء أحمد سويداني مسؤول المخابرات العسكرية الذي كان يسهّل لهم الوصول للحد الأمامي في الجبهة السورية. هذا الأمر بدا لنا مستغرباً.

الخلافات داخل الهيئة القيادية المشتركة بين فتح والجبهة

في عام 1965 كانت شراكتنا بالعمل السياسي مازالت مستمرة وكذلك العمل العسكري. (كان رفاقنا يحملون البلاغات العسكرية من دمشق إلى بيروت من أجل توزيعها على أجهزة الإعلام اللبنانية وكُلّف الرفيق "أبو جهاد طلال" هو وبعض الرفاق بالقيام بهذه المهمة).

قمنا باستئجار منزل في "زقاق الصخر" وهو حالياً وراء فندق "الفورسيزون" أصبح بمثابة مقر لنا، وعندما نريد إرسال دوريات إلى الأرض المحتلة كنا نجتمع مع تلك الدوريات هناك ونعطيها أمر القتال.

كنت أعلم أن العناصر التي تنفذ مهامها من "فتح" تتلقى مخصصاً شهرياً، بينما الدوريات التي تذهب من جبهتنا كانت تدفع اشتراكات شهرية من مالها الخاص. وهنا أذكر أن مجموعة من شبابنا كُلّفت بعملية، وبعد الاستطلاع أعطيناها أمر القتال ونقلنا الشباب إلى أقرب نقطة للأراضي المحتلة متجاوزين حواجز المخابرات السورية للقيام بزرع ألغام مضادة للآليات في الجليل وبعمق 10- 15 كم داخل فلسطين.

انطلقت المجموعة وقطعت سهل الحولة بعيداً عن الحدود السورية وزرعت الألغام في الطرق الترابية للمستعمرات الصهيونية كي تنفجر عندما تمر فوقها آلية لجيش العدو بعد أيام.

عاد شباب المجموعة إلى مقرنا بعد أن أنهوا واجبهم وأنا لم أكن موجوداً.

مساءً اتصل معي الرفاق الذين نفّذوا العملية وطلبوا مقابلتي وعندما حضروا إلى المنزل، قالوا: «نريد أن تقبلوا استقالتنا من الجبهة.. أنتم تحدثتم لنا عن القيم والمبادئ الثورية، ولكن عندما عدنا إلى المقر بعد تنفيذ العملية وجدنا الأخ "أبو عمار" في استقبالنا. وبعد أن شرحنا له ما قمنا به عرض على كل مقاتل منا (700) ل.س كهدية! فرفضنا ذلك.. نحن يا رفيق لا نعمل من أجل المال.

بعد يوم من عودة الدورية حضر السيد محمود الخالدي والرفيق فضل شرورو إلى منزلي، وقالا: انظر ماذا فعل "أبو عمار"؛ أصدر بلاغاً عسكرياً أن مجموعة من مقاتلينا قامت بزراعة الألغام ودمرت آليات للعدو الصهيوني وحدّد المكان الذي زرعت فيه الدورية ألغامها، مع أن الألغام التي زُرعت لم تنفجر بعد!! (صدر ذلك البيان العسكري دون موافقتي).

كان "أبو عمار" يستأثر بالمال الذي يوظفه حسب هواه الذي يتناقض مع قناعاتنا في عملية الإعداد والبناء. وزاد في المشاكل بين جبهتنا وحركة "فتح" أن شخصاً يدعى "محمد حشمة" اتصل بعدد من الشباب في جبهتنا والساكنين في مخيم اليرموك وطرح عليهم أن يلتحقوا بحركة "فتح" ووعدهم بالمال، لكن هؤلاء العناصر من رفاقنا أبلغونا بالأمر.

طلبت التريّث للتأكد من هذه المعلومة وتسجيل محادثات محمد حشمة معهم وزوّدتهم بآلة تسجيل. وبعد أن تأكدنا من ذلك، أعطينا التعليمات باعتقاله عندما يحضر إلى مخيم اليرموك وبحوزته المال الذي وعدهم به.

اعتقلنا محمد حشمة ثم نقلناه إلى مقر سري لجبهتنا قريب من مزارع جوبر، وقمنا بتسجيل أقواله وحققت معه أنا والرفيق أبو جهاد "يوسف طبل" والشهيد "أبو علي الدعبول"، وسألته عما دفعه للقيام بمثل هذا التصرف ونحن نعمل سوياً مع "فتح". حينها بدأ بالبكاء وقال: الأخ "أبو عمار" هو الذي طلب مني وأصرّ عليّ أن أفعل ذلك بشكل سري، وكلّفني بهذه المهمة وزوّدني بالنقود!

محمد حشمة من الفلسطينيين الذين أرسلهم المفتي الحاج أمين الحسيني إلى الكلية العسكرية في العراق أيام الرئيس عبد الكريم قاسم عام 1960، تعرّف عليه المرحوم ياسر عرفات فيما بعد وبدأ يعمل معه. ومعنى ذلك أن "أبو عمار" كان يبحث عن أي قائد عسكري ليستفيد منه ويقدمه لنا على أن لديه قادة خبراء في المجال العسكري.

مساء ذلك اليوم ذهبت إلى حيث يسكن "أبو عمار" في شارع بغداد الخلفي، وكان معي الرفيقان يوسف طُبل وأبو علي الدعبول "رحمهما الله". قلت له: يا "أبو عمار"، هل هذه هي الثورة التي ستقوم بها وتتوقّع أن تنتصر؟!

طلبت من "أبو عمار" الاستماع إلى تسجيل صوتي لاعترافات "محمد حشمة"، ورميتُ له بغضب ظرف النقود التي أحضرها لإغراء رفاقنا. وأضفت: ألم تجد إلا عناصر جبهتنا لتنظمهم رغم أننا نعمل سوياً؟!

ارتبك أبو عمار وسكت ثم أجاب: هذا التصرف قام به محمد حشمة شخصياً ولا دخل لي بهذا الموضوع.

حاول أبو عمار أن يقدم صورة مضخّمة عن "فتح" وأنها تضم قيادات لها خبرة في العمل العسكري الثوري بشتى الوسائل، فقدم لنا المرحوم "أبو صبري" (ممدوح صيدم) كأحد القادة العسكريين الخبراء. ولكن بعد المناقشة مع المرحوم "أبو صبري" تبيّن أنه حينها لم يكن ضالعاً في الشأن العسكري.

في أحد الاجتماعات أيضاً أحضر أبو عمار رجلاً يرتدي اللباس الكاكي وينتعل حذاء رياضياً، وعرّف عليه بأنه المسؤول العسكري. سألته عن اسمه، فأجاب أنه أبو صالح (نمر صالح)، فسألت أبو صالح عن مكان عمله السابق فأجاب أنه كان يعمل في الكويت. فأرسلت إلى رفاقنا في الكويت ليفيدونا عنه وعن عمله فتبيّن أنه كان يعمل بميناء الكويت على الرافعات الكبيرة وليست لديه أي خبرة عسكرية.

نتيجة لملاحظاتنا على أسلوب صرف المال من قبل أبو عمار شخصياً، حاول الإيحاء بأن الأمور المالية منظمة ومضبوطة، فأحضر معه الدكتور حسام الخطيب وعرّف عليه بأنه المسؤول المالي لحركة "فتح".. أعتقد أنه لو كان أبو عمار يعلم أننا نعرف الدكتور حسام الخطيب منذ سنوات كثيرة، وهو من البعثيين ويدرس اللغة العربية في الجامعة، لما كان أحضره إلى هذا الاجتماع ليعرّف عليه!

في بداية العام 1966 التقينا مع اللجنة المركزية لحركة فتح في الكويت، واتفقنا على نقل "أبو عمار" إلى الجزائر، واتخذ هذا القرار بشبه إجماع في اللجنة المركزية لـ"فتح" والقيادة المؤقتة، ووقّع عليه حتى خليل الوزير "رحمه الله" الذي كان من المقرر أن يستلم مسؤولية منصب "أبو عمار" بعد تسفيره.

حضر إلى سورية من الكويت الوفد المكلف من "فتح" لإبلاغ "أبو عمار" بذلك، واجتمع الوفد أيضاً مع رئيس المخابرات السورية أحمد سويداني الذي كان جوابه مختصراً جداً حيث قال للوفد:

« فتح هي ياسر عرفات، وياسر عرفات هو فتح. وعندما يغادر ياسر عرفات دمشق لن تكون هناك "فتح" على الأراضي السورية». هذه الحادثة وغيرها تسببت باستقالة عدد من أعضاء اللجنة المركزية لـ "فتح" منهم الدكتور عبد الله الدنان والدكتور عادل عبد الكريم أعضاء اللجنة المركزية من حركة فتح!

بعد ممارسات "عرفات" الكثيرة والمتعبة فكرنا في قيادة الجبهة مليّاً أننا لم نعد نستطيع المتابعة مع بعضنا البعض رغم حضور الأخوة المرحوم صلاح خلف "أبو إياد" والسيد فاروق القدومي لإصلاح ذات البين.

اجتمعنا في منزل الشهيد خليل الوزير كهيئة قيادية وأبلغناهم قرارنا بالانفكاك عنهم لعدم القدرة على الاستمرار في هذه التجربة الوحدوية، وأخبرناهم بأننا كنا أخوة وأحباباً وسنبقى كذلك بعد انفكاكنا. (استمرت هذه التجربة لأكثر من عام).

بعد الانفكاك بين جبهتنا وفتح تابعنا عمليات الكفاح المسلح في عمق الأراضي الفلسطينية المحتلة، سواء في الجليل أو في الضفة الغربية. وأذكر منها بعض العمليات التي دفعنا بها ثمناً غالياً.

بتاريخ 1967/1/21 أعطيت التعليمات لدورية قتالية مؤلفة من خمسة من رفاقنا ويقودها الشهيد خالد الأمين، وكان قائد جناح الإعداد البدني في لجنة التدريب، بالاستعداد للتحرك في دورية قتالية في منطقة الجليل. وتم تكثيف المراجعة في الخرائط العسكرية، وكانت هذه العملية تهدف للوصول إلى مستعمرة في الجليل الأعلى قرب قرية (ديشوم) سابقاً أي شمال صفد، وهذه الدورية ستضع ألغامها في منطقة (ديشوم)، ونقطة انطلاقها من هضبة الجولان من قرية "عين مأمون" ثم عليها اجتياز أحد فرعي نهر الأردن اسمه (الكالي المصري)، هذا النهر ساعد في تجفيف بحيرة الحولة، وعرضه لا يقل عن ثلاثين متراً وعمقه عدة أمتار، وفيه أسماك

متوحشة. وكان على الدورية القتالية أن تتابع مسارها في سهل الحولة الذي يتجاوز عرضه 10 كم، ثم تقطع الفرع الثاني لنهر الأردن ثم تصعد إلى جبال الجليل حتى تصل إلى قرية (ديشوم). وكانت هذه الدورية تستغرق ثلاثة أيام بلياليها عدا أيام الرصد في أرض الصديق، أما طريق العودة فيجب ألا يستغرق أكثر من يومين.

وصلت الدورية إلى هدفها قرب قرية (ديشوم) المهدّمة والتي توجد بجانبها مستعمرة صهيونية كبيرة. قامت الدورية بزراعة الألغام والمتفجرات في محولات الكهرباء والمضخات على أن تنفجر بعد ساعات أي في الصباح الباكر، ثم زرعت ألغاماً في ملعب لكرة القدم خارج المستعمرة.

أثناء عودة الدورية، وهي في جبال الجليل، وجد الشهيد أبو الأمين أنه قد بقي لديه لغم (م/أ)، فاقترح زراعته في بستان عنب قرب مستوطنة (رموت نفتالي) لعلّه يصطاد أحد هؤلاء الصهاينة المغتصبين.

انتشر عناصر الدورية حول مكان زراعة اللغم، وأثناء قيام أبو الأمين بزراعته حدث خطأ أدى لانفجار اللغم بـ "أبو الأمين" فاستشهد.

أصبحت الدورية القتالية في حيرة من أمرها، هل يحملون جثمان الشهيد "أبو الأمين" معهم، وطريق العودة شاق وطويل ومليء بالمخاطر؟

قرر عناصر الدورية ترك "أبو الأمين" هناك بعد وداع جثمانه وجلبوا سلاحه، وأسرعت الدورية في العودة فهبطوا جبال الجليل واجتازوا سهل الحولة وقطعوا في اليوم التالي فرعَي نهر الأردن وصعدوا إلى نقطة الانطلاق في هضبة الجولان في قرية عين مأمون.

بعد معرفتنا باستشهاد رفيقنا البطل خالد الأمين، كان لا بد من إبلاغ عائلته. كان عمري في تلك الأيام حوالي (28 سنة) وقدّرت أن الموقف يتطلب وجود شخصيات أكبر في السن فطلبت من الرفيق علي بوشناق و"أبو إسعاف" (إبراهيم الشيخ خليل) وهو نصير لنا، أن نشكل معاً وفداً لإبلاغ عائلة الشهيد، حيث كان والده يسكن في منطقة "القاعة" القريبة من المخيم.

ذهبنا إلى بيت والد الشهيد "أبو الأمين" بعد صلاة المغرب، عندما دخلنا وجدنا أن والده رجل مسن ووقور. جلسنا عنده وأمامنا "منقل" من الفحم وعليه إبريق "بكرج" القهوة. رحّب بنا وبدأ علي بوشناق وأبو إسعاف بالحديث مع والد الشهيد. تحدثا عن فلسطين وقيم الكفاح في سبيلها خاصة وأنّ "أبو إسعاف" كان من تلامذة الشيخ

الشهيد عز الدين القسام، وعلي بوشناق شارك في جيش الإنقاذ، بينما تحدث والد الشهيد خالد الأمين عن قريته (ندور) قضاء الناصرة وكيف خاضوا المعارك ضد الإنكليز والصهاينة.

بعد أن امتد الحديث وما فيه من كلام حول الشهادة والجهاد في سبيل الله، ذلك الحديث وتلك الإيحاءات جعلت والد "أبو الأمين" يقول: "أهلاً وسهلاً بكم، خالد ابني استشهد؟!". صمتنا، وثم قال أبو إسعاف: نعم رحمه الله، هذا ما يتمناه كل مناضل ومجاهد شريف.

هنا طلب والد الشهيد خالد الأمين أن نقرأ الفاتحة على روحه.

كانت تربطنا بالشهيد خالد الأمين وعلى مدار عدة سنوات علاقة قوية فالرجل كان مثالياً، وكان معلماً لورشات الدهان ولديه ورشة كبيرة، ويقدم اشتراكاته بانتظام شهرياً، ثم أصبح مدرباً لمادة الإعداد البدني في البدايات لأنه كان يتمتع بلياقة بدنية جيدة، ثم أصبح قائداً لجناح الإعداد البدني في اللجنة العسكرية.

في اليوم التالي لزيارتنا لوالد الشهيد، قمنا بواجب العزاء والتبريك، وعندما وصلت إلى بيت الشهيد المتواضع وجدت مجموعة من رفاقنا ورفاق الشهيد من العناصر القديمة في الجبهة، والدموع تملأ عيون بعضهم، وبعض منهم يسحب منديله ليمسح دموعه، فخاطبتهم قائلاً: يا رفاق، وفّروا هذه الدموع.. خالد الأمين قصّ بدمه الشريط، وسيسقط على هذا الطريق مئات بل آلاف الشهداء.

أحزنني فراق (أبو الأمين) لأنني كنت أتوقع أن يكون عطاؤه كبيراً ومستمراً، ولكن حزني كان أكبر عندما علمت أن زوجته كانت في طور الولادة، وقد أنجبت زوجته طفلاً بعد استشهاده بأيام ولكن توفي هذا الوليد للأسف بعد أشهر. وللحقيقة لو كنت أعرف أن زوجة الشهيد خالد الأمين على وشك الولادة لما أرسلناه في هذه الدورية، لأن الرفاق في جبهتنا كانوا يتسابقون للذهاب في هذه الدورية، فخشي الشهيد خالد الأمين ألا يشارك فيها وأخفى عنا وضع زوجته الحامل مخافة أن نستبدله بآخر.

هذه الحالة أحزنتني، لكنني شعرت بالاعتزاز بجيل بنيناه أمثال الشهيد خالد الأمين أول شهداء جبهتنا، وفيه الأمل لمستقبل تحرير فلسطين. وقد أعلن العدو الإسرائيلي عن خسائره في هذه العملية[11].

---

[11] - (المهتمون يمكن أن يعودوا لسجلات العدو الإسرائيلي حول عملية ديشوم وأثرها على الصهاينة).

وقبل أن نصدر بيان العملية باسم جبهة التحرير الفلسطينية/ مجموعة قوات الشهيد عز الدين القسّام- كانت منطقة عملها الجليل- فوجئنا أن "فتح العاصفة" أصدرت بياناً تتبنى هذه العملية بعد أن اعترف بها العدو الصهيوني وبنتائجها التي أسفرت عن مجموعة من القتلى والجرحى في صفوفه!

كلّفنا الأخ (أبو إسعاف- إبراهيم الشيخ خليل) وهو نصير لنا وله علاقات مع الشقيري- أن يلتقي مع الإخوة في حركة فتح ويستفسر منهم عن سبب هذا التزوير في إصدار بيان بهذه العملية التي لم ينفذوها كما ادّعوا.

أذكر أيضاً أننا قررنا أن نقوم بعملية كبيرة وذات معنى داخل المدن الفلسطينية المحتلة في حيفا أو في ذكرى النكبة حيث العدو سيقوم بعرض عسكري في هذه المناسبة. عندها وقع اختيارنا على الرفيق سمير درويش وهو من (البروة) قضاء عكا كما أشرنا سابقاً، وكان قد غادر فلسطين بعد الاحتلال في عام 1957، واستطعنا أن ننظمه في صفوف جبهتنا وتم تدريبه وإعداده إعداداً نوعياً، وامتاز بإتقانه اللغة العبرية قراءةً وكتابة، فكلفناه في اللجنة العسكرية أن يكون مدرباً للزمر والعناصر المقاتلة للغة العبرية محادثةً وكتابة، وأصبح قائد جناح اللغة العبرية.

ناقشنا موضوع العملية الكبيرة ومعانيها الهامة مع الرفيق سمير درويش فأبدى حماسه الشديد، لكنه سأل: كيف سأصل إلى حيفا وعكا؟

بدأنا في ترتيب جواز سفر إنكليزي مزوّر للرفيق سمير درويش ووضعنا عليه تأشيرة الدخول إلى فلسطين المحتلة، ثم أدخلناه من منطقة شمال الجولان إلى سهل الحولة ليصل قرب مستعمرة "كريات شمونه" على سفوح جبال الجليل وجبل عامل، ومن هناك يستقل سيارة ومعه حقيبة فيها مخبأ سريّ يحتوي على المتفجرات ولوازمها. وكان قد تلقّى من ضمن تدريبه دورة عسكرية مكثفة خاصة بالألغام والمتفجرات ودروساً في الطبوغرافيا وقراءة الخرائط العسكرية خاصة خرائط سهل الحولة إلى جانب ما ذكرناه سابقاً من علوم عسكرية.

تحرّك الرفيق سمير درويش حاملاً حقيبته ومعه عملة إسرائيلية (الليرة) ودولارات (لم يكن الشيكل قد ظهر بعد)، ورافقته الدورية القتالية حتى منتصف سهل الحولة ويبقى أمامه حوالي 7- 8 كم حتى يصل إلى الطريق القريب من "كريات شمونه" المؤدي لصفد أو باتجاه حيفا.

تم ذلك فعلاً بنجاح كامل، لكنه عندما أشار لسيارة من السيارات المارّة بالتوقف على الطريق المؤدي إلى حيفا وصعد فيها، كانت هذه السيارة بالصدفة تابعة للأمن الإسرائيلي فشكّوا به خاصة أن لباسه كان قد أصابه بعض التلف والأوساخ جراء الطريق التي سلكها، فتم اقتياده لمركز البوليس وفُتشت حقيبته بدقة فعثروا على المتفجرات، وأعلن العدو الإسرائيلي عن هذه الحادثة وحكم على سمير بالسجن المؤيد[12].

ما أحزنني بعد ذلك أن الرفيق سمير درويش استشهد في الرابع من حزيران 1982 حين قام جيش العدو بقصف المدينة الرياضية في بيروت، وكان الرفيق سمير من أوائل مَن سارعوا إلى ذلك الموقع القريب من مكان عمله في مجلة (إلى الأمام) في كورنيش المزرعة، حيث هبّ للمشاركة في إنقاذ المصابين من قذائف القصف الجوي الصهيوني. وحين عاودت طائرات العدو قصف المكان مرةً ثانية بعد أن تجمّع المسعفون والمتطوعون للإنقاذ، أصيب بجراح خطيرة استشهد على إثرها. وكان قد خلّف وراءه طفلاً بعد أن تزوّج من أرملة رفيقه الشهيد أبو فارس جيفارا "عراقي الجنسية".

لم أقصد من حديثي هذا التطرق إلى الحزن والأسى بل لأقول بأن طريقنا كان شاقاً ولأبرهن بأن هؤلاء الرجال كانوا أشداء وشجعاناً ومخلصين يريدون أن يبنوا تنظيماً قوياً هدفه تحرير فلسطين كل فلسطين.

قبل حرب حزيران 1967 بحوالي عشرين يوماً، أرسلنا مجموعة من سبعة مقاتلين، بدورية استطلاع بدءاً من منطقة "علمين" بهضبة الجولان المشرفة على نهر الأردن مباشرةً مقابل جبال صفد. ذهبت هذه الدورية، والتي استغرق عملها أياماً عدة، وعادت بصور لمكان مناسب على الطريق الذي يصل ما بين الجاعونة وصفد والذي يبعد عن خط وقف إطلاق النار بين الجيش السوري وجيش الاحتلال الصهيوني حوالي 12 كيلومتراً. واتخذنا قراراً بتحريك دورية قتالية ومعها حوالي 50

---

[12] - (قمنا في الجبهة وفي أول عملية لتبادل الأسرى بيننا وبين العدو الصهيوني في عام 1979 بتحرير سمير درويش – الذي أفاد عن حظه السيئ بمصادفة ركوبة سيارة تتبع للبوليس على طريق كريات شمونة باتجاه عكا– مع عدد من الأسرى الآخرين من رفاقنا والرفاق من المنظمات الأخرى ضمن عملية أطلقنا عليها اسم "النورس").

كيلوغراماً من المتفجرات مع الشظايا الحديدية، لتدخل هذه الدورية إلى فلسطين بعمق 12 كيلومتراً متجاوزة طريقاً صعباً وقاسياً في الهبوط نزولاً إلى نهر الأردن واجتيازه ثم الصعود إلى جبال صفد لوضع عبوة ناسفة كبيرة على جانب الطريق وتفجيرها عند مرور سيارة للجيش الإسرائيلي أو حافلة تقل جنوداً صهاينة، ويتم هذا التفجير عن بعد بواسطة سلك مسيطر عليه بعد أن يحصل العنصر الذي سيقوم بالتفجير على الضوء الأخضر من عناصر الإنذار المتمركزة قرب الطريق. وتتم هذه العملية قبل آخر ضوء ثم يتم بعدها الانسحاب.

عند مرور الحافلة (الإسرائيلية) قامت الدورية بعملية التفجير، وانسحبت من المكان مموّهةً أماكن عملها وعلامات أقدامها وواضعةً مادة من الفلفل الحار من أجل منع الكلاب البوليسية أو متتبعي الأثر من اللحاق بها.

في طريق العودة يلجأ عناصر الدورية إلى المنطقة الصخرية من أجل عدم تتبع أثرهم ويسرعون باتجاه نهر الأردن ويجدون مكمناً لهم هناك لقضاء الليل لحين انسحاب كمائن العدو في الصباح الباكر والتي كانت تتوضع على الممرات الإجبارية. لكن دليل الدورية، وكان قائداً لها الشهيد (جويد علي صالح) قال لمقاتليها: «لقد طلبت منا القيادة أن نبقى على شفا نهر الأردن العليا خوفاً من الكمائن الليلية المعادية؛ دعونا ننزل إلى الأسفل لكي لا يطاردوننا»، وأضاف الشهيد جويد: «رغم أنني بذلك أخالف التعليمات ومن المحتمل أن يكون العدو قد نشر كمائنه في الممرات التي سنمر منها»، وبالفعل عندما بدؤوا بالانحدار من سفوح سلسلة جبل صفد باتجاه نهر الأردن توقف جويد وقال: أنا أشكّ أن أمامنا كمين، وعلينا أن ننتبه له، وفعلاً أخذت الدورية وضعاً قتالياً جيداً، وبعد قليل شاهدوا دورية إسرائيلية في المكان ودار اشتباك.

"الإسرائيليون" اعترفوا بمقتل 7 جنود لهم ببيان رسمي، واستشهد البطل جويد علي صالح في هذا الاشتباك، وعاد بقية أفراد الدورية بسلام. هبطوا إلى أسفل مجرى النهر وصعدوا هضبة الجولان السورية إلى البطيحة من حيث انطلقوا. وقد أصدرنا بياناً بهذه العملية التي نفذتها مجموعة الشهيد عبد اللطيف شرورو.

وكانت أيضاً مجموعاتنا المقاتلة في الضفة الغربية قد قامت ببعض العمليات على طريق تل أبيب- القدس، ونسفت خط السكة الحديد أثناء مرور قطار آتٍ من تل أبيب

للقدس. وقد قام بهذه العملية مجموعة من الرفاق الذين تم تدريبهم بشكل سري في سورية على رأسهم المرحوم مصطفى خميّس.

هذه الأمثلة أوردتها لأنها تتحدث عن شهداء سبقونا وكان لا بد أن أذكرهم، وأردت أن أشير أيضاً إلى أن عملياتنا على الجبهة السورية كانت في العمق لكي يصبح العدو الإسرائيلي في حيرة من أمره، عما إذا كان هؤلاء المنفذون من الداخل الفلسطيني المحتل في الجليل أم أتوا من لبنان أم من سورية؟. وبهذا الشكل كنا نتجنب أن نكون سبباً في تأزيم الموقف بين سورية كدولة وقاعدة ارتكاز لنا وبين العدو الإسرائيلي.

قبل حرب الـ 67 بأشهر قامت مجموعة من مناضلينا في جبهة التحرير الفلسطينية- قوات الشهيد عبد القادر الحسيني، بالتحرك من منطقة السموع جنوب الخليل بتاريخ 11/11/ 1966 باتجاه الطريق الذي يصل ما بين بئر السبع وباتجاه تل أبيب وزراعة لغم، فمرّت إحدى العربات التي كانت تقل جنوداً إسرائيليين على هذا الطريق ما أدى لانفجارها ووقع العديد من القتلى والجرحى في صفوف العدو.

اعترف العدو بعد ذلك بمقتل 3 جنود وجرح 6 آخرين، وانسحبت المجموعة المنفذة باتجاه السموع وباتجاه الخليل. وبعد أيام قام العدو الإسرائيلي بهجوم كبير على بلدة السموع مستخدماً طائراته الحربية ودباباته انتقاماً من العملية وخسائره البشرية ما أدى لاستشهاد العديد من المدنيين من أهل البلدة وتدمير بيوتهم.

وكانت مواقع الجيش الأردني في منطقة السموع قد ردّت بمدفعيتها على قوات العدو الصهيوني بدون أوامر.

وبعد هذه المجزرة اتّسعت موجة غضب الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية على هذا العدوان وانتشرت مظاهرات ضد النظام الأردني، في حين قام مسؤول المخابرات الأردنية في ذلك الوقت محمد رسول الكيلاني بحملة شرسة استهدفت كل مَن يشك بأمرهم في القرى والأرياف والمدن، وتوسع في الاعتقالات التي شملت الأحزاب في الضفة الغربية وحتى المتعاطفين وزجّهم في السجون. وبقي هؤلاء المعتقلون من رفاقنا في السجون إلى موعد نشوب حرب حزيران 1967 فأطلق سراحهم. وكان عددهم (35) رجلاً. كذلك اعتقل العديد من حركة "فتح قوات العاصفة".

كنا نعمل نحن في الجبهة بإمكانات محدودة سواء من الناحية المادية أو من حيث امتلاك السلاح ولم نكن نملك إلا القوة والإرادة والتصميم. وخلال علاقتنا مع حركة "فتح" التي استمرت لمدة عام تقريباً لم نتلقَّ منهم قرشاً واحداً.

الانفكاك في العلاقة بين جبهة التحرير الفلسطينية وحركة فتح

حصل فراغ عسكري كبير داخل حركة فتح بعد انفكاكنا عن العلاقة الوحدوية معهم.. عندها فرز اللواء أحمد سويداني النقيب البعثي الفلسطيني المرحوم يوسف عرابي ومجموعة معه على رأسهم عارف الزفري وكثير من البعثيين، للعمل داخل حركة "فتح" بناءً على توجيهات تقضي بعدم ترك "فتح" وتغطية ضعف الفاعلية العسكرية لها بعد انفكاكنا عنها.

بعد استلام النقيب الشهيد يوسف عرابي (وهو زميل لي ومن دورتي في الكلية الحربية) قيادة وحدات "فتح" العسكرية في الساحة السورية، زارني في منزلي وأبلغني بأنهم اتخذوا قراراً بعدم ترك "فتح العاصفة" بعد أن فككنا شراكتنا معها، بل لابد أن يكون للبعثيين دوراً ولو كان عملهم سيكون تحت اسم "حركة فتح".

سألني الشهيد عرابي عن تجربتي في العلاقة مع حركة "فتح" فحدثته باختصار شديد وقلت له: يا صديقي يوسف.. نحن صنعنا رجالاً مدربين مؤمنين بالكفاح المسلح أصحاب مُثُل وقيم. ونحن نرى أن المال عنصر مساعد بينما أراد الآخرون من حلفاء الأمس أن يكون المال هو الذي يصنع الثورة.

وسألته بابتسامة عن المغريات التي قُدّمت له، فقال: أعطوني سيارة خاصة حديثة نوع (فولكس واغن). وانتهى اللقاء.

لم تمضِ ستة أشهر على انضمام الشهيد النقيب يوسف عرابي لحركة "فتح" حتى بدأ التصادم بينه وبين المرحوم ياسر عرفات.

قبل استشهاد يوسف عرابي بـ 24 ساعة، حضر إلى منزلي، وقال لي: لم نعد نتحمل ممارسات ياسر عرفات. قلت له: قدمت لك نصيحة ولم تقبلها. فأجاب: غداً لدينا اجتماع معه وسنضع النقاط على الحروف[١٣].

---

[13] - (كان لديهم مقر خلف الجامع الكويتي حارسه من مخيم اليرموك هو عبد المجيد الزغموت).

حضر المرحوم يوسف عرابي ومعه النقيب عدنان العالم والنقيب عدنان دبور، وبعده بقليل حضر "محمد حشمة". جلس الاثنان ينتظران "أبو عمار". هنا بدأ يوسف عرابي بشتم محمد حشمة وياسر عرفات، وأشهرا السلاح على بعضهما. اقتحم الحارس عليهما المكان وبدأ بإطلاق النار فقتل يوسف عرابي ومحمد حشمة.

اعتقل الزغموت وحكم عليه بالإعدام. لكن لم يُنفّذ به الحكم وتوفي في السجن.

بعد استشهاد النقيب يوسف عرابي أخذت القيادة السورية قراراً بتوقيف قيادة "فتح"، وقسم من أعضاء قيادتنا الموجودين في سورية- أنا والرفيق علي بوشناق- مع أنه لم يكن لنا أي علاقة بالحادث. وكلفت القيادة القطرية آنذاك وزير الدفاع اللواء حافظ الأسد بالتحقيق بهذه الحادثة وليس اللواء أحمد سويداني رئيس المخابرات.

اعتقلتني المخابرات ومعي علي بوشناق، ياسر عرفات، خليل الوزير، ممدوح صيدم وكان قيادياً في فتح، وزكريا عبد الرحيم وعبد الكريم العكلوت "رحمهم الله". اقتادونا جميعاً إلى سجن المزة العسكري، وبقينا في السجن لمدة أسبوعين ثم نقلنا بعدها إلى مطار الضمير العسكري الذي يرأسه العقيد ناجي جميل.

شكّل وزير الدفاع اللواء حافظ الأسد لجنة للتحقيق برئاسة المقدم ناجي جميل والرائد محمود عزام وكان طياراً وهو فلسطيني الجنسية "رحمهم الله".

بدأ التحقيق في الضمير. سألتهم: لماذا تعتقلوننا؟ قالوا: يوسف عرابي صديقك وقبل الحادث بيوم زارك في منزلك؛ هل أنت من قام بتحريضه؟ أجبت: لم أحرّضه، أنا نصحته بالابتعاد عن ياسر عرفات.

أثناء وجودنا في السجن سقط من شرفة منزل خليل الوزير ولده نضال وتوفي، وكان عمره حوالي 3 سنوات، لذلك أُطلق سراح خليل الوزير ونحن بقينا في السجن.

قال اللواء أحمد سويداني لخليل الوزير بعد إطلاق سراحه: خذوا مجموعاتكم ونفذوا عمليات ضد الإسرائيليين من الجبهة السورية فهذا يخفّف عن بعض الموقوفين (بمعنى أن الثورة مستمرة). وبالفعل بدأ الشهيد خليل الوزير بالعمليات وبتسهيل من اللواء سويداني، وقامت مجموعات "فتح" بزرع الألغام بالقرب من الحدود السورية.

بعد حوالي شهر أُطلق سراحنا واتُخذ قرار بإبعاد ياسر عرفات من سورية، ولكن لم يُنفذ.

في بداية عام 1966 جرت أحداث كبيرة في سورية، فقد أبعد الفريق أمين الحافظ عن الحكم ولجأ إلى العراق، واستلمت قيادة قطرية جديدة برئاسة نور الدين الأتاسي وأعضاؤها صلاح جديد ويوسف زعيّن وحافظ الأسد وآخرون.

بعد مدة بدأ الخلاف بينهم يشتد ويكبر نتيجة المؤتمر التاسع للقيادة القطرية، أي أن الوضع كان متأزماً في سورية.

"فتح العاصفة" كانت تزرع الألغام أمام الحدود السورية مباشرةً، ورئيس أركان الجيش الإسرائيلي وقتها إسحاق رابين كان يهدد ويقول للسوريين: «إذا لم تتوقف هذه العمليات سنحتل مدينة دمشق»، لذلك كنا نحن في جبهة التحرير الفلسطينية نشعر بالمسؤولية وفق معطيات الواقع.

بقينا ننفذ عملياتنا لكنها كانت داخل العمق الفلسطيني سواء في الجليل أو في أراضي الضفة الغربية بشكل محدود.

في بداية العام 1967 بدأ الإسرائيليون يهددون سورية، وتصاعد الحديث عن حشود إسرائيلية في صفد وجنوبها ومنها سيشنّ الهجوم على الجولان.

اجتمع الرئيس جمال عبد الناصر مع القيادة المصرية قبل أسابيع من عدوان 1967، وقال: «إن الإسرائيليين يجهّزون أنفسهم للحرب. فهل نقوم نحن بالمبادرة ونهاجم النقب ومطاراتهم؟»، لكن المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المصرية طلب التريث.

السفير السوفياتي طمأن الرئيس عبد الناصر بعدم وجود حشود على الجبهة السورية[14] اعتبرت القيادة المصرية أنها معركة إعلامية فقط. أما نحن في الجبهة فقد كنا نقرأ الأحداث ونحلل المواقف والتطورات ونشعر بأن هناك مؤامرة خطيرة قادمة.

وبالرغم من الجهود القتالية المضنية التي بُذلت من الأخوة في حركة "فتح العاصفة" وكذلك من قبل جبهة التحرير الفلسطينية قبل عام 1967، والتي ابتدأت قبل سنتين ونصف من عدوان 1967، لكننا لم نستطع لا نحن ولا حركة فتح أن نشكل حالة شعبية كبيرة مؤيدة للكفاح المسلح، ويعود ذلك لأسباب عدة:

---

[14] - (هذا ما كان بحوزة الاستخبارات السوفياتية)

السبب الأول: تقلص مسرح العمليات الفدائية التي بدأ يقل عددها لأن الأردن (محمد رسول الكيلاني) استطاع أن يبسط قبضته الحديدية على الضفة الغربية والغور الأردني الشمالي من جنوب بحيرة طبريا، بينما الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية لم تكن عنده ثقافة أو دراية في العمل القتالي وكذلك كان ينقصه السلاح والعتاد.

لم يبقَ أمامنا نحن وحركة فتح إلا مسرح عمليات واحد هو الجبهة السورية في الجولان المواجهة لأراضي فلسطين المحتلة، أي من سفوح جبل الشيخ حتى نهر اليرموك في الجنوب بطول 75 كيلومتراً تقريباً.

هذه هي الجبهة الوحيدة حيث وفرت القيادة في سورية الأمن لنا بعدم ملاحقة نشاطاتنا العسكرية في الداخل رغم أن اللواء أحمد سويداني استمر في التضييق على حركة مجموعاتنا المسلحة /كجبهة/في هذا المسرح. معنى ذلك أن مسرح العمليات أصبح محدوداً وأصبحت للعدو قدرة على إغلاق هذه الحدود.

السبب الثاني: اتهام أجهزة الإعلام العربية منذ بداية أعمالنا العسكرية عام 1965 بأن عملياتنا العسكرية ضد العدو الصهيوني لا تخدم القضية الفلسطينية بل تلحق الضرر بها برغم انخفاضها.

السبب الثالث: إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية في عام 1964 وبقرار قمة عربية، وتشكيل جيش تحرير للفلسطينيين جعل الأضواء الشعبية والفلسطينية ترى أن منظمة التحرير هي المخلّص وستعبّد الطريق إلى فلسطين خاصة أن خطابات المرحوم أحمد الشقيري كانت تصدح في كل مكان حول إيجابية ودور منظمة التحرير في استعادة الحق الفلسطيني.

عدوان حزيران 1967

كان الكيان الصهيوني والولايات المتحدة وبريطانيا يعدّون عدواناً كبيراً منذ بداية عام 1967 على مصر، وكان الملك السعودي فيصل شريكاً بالتمويل بهدف معاقبة عبد الناصر وإسقاط قيادته بسبب تدخله العسكري المباشر في دعم ثورة المشير عبد الله السلال في اليمن، ودعمه لثورة اليمنيين الجنوبيين ضد القوات البريطانية التي كانت تحتل اليمن الجنوبي. كما كانت الولايات المتحدة الأمريكية والملك فيصل

يريدون إسقاط نظام البعث في سورية برئاسة نور الدين الأتاسي والقيادة القطرية الجديدة التي أقامت علاقات متينة مع الاتحاد السوفياتي، واستمرار مناهضتها للمملكة العربية السعودية الخاضعة سياسياً للولايات المتحدة وكانت تصفها وسائل الإعلام السورية بالدولة الرجعية. بالإضافة إلى أن القيادة السورية كانت تقدم الدعم للمنظمات الفلسطينية وتتيح لها القيام بالعمليات العسكرية ضد الكيان الصهيوني رغم محدودية تأثيرها في تلك الظروف.

في ذلك الوقت لم تكن العلاقة بين قيادة البعث الحاكم في سورية والرئيس المصري جمال عبد الناصر في أفضل حالاتها، كما لم تكن في أفضل حال مع العراق.

في 5 حزيران في الساعة التاسعة صباحاً هاجم (الإسرائيليون) المطارات المصرية بغارات متتالية وشلّوا ودمّروا قدرة سلاح الجو المصري وأوقفوا فاعليته في الدفاع عن مصر، وأصبح الجيش المصري موجوداً في سيناء على حدود فلسطين دون غطاء جوي.

تقدمت بعد ذلك قوات العدو الصهيوني إلى عمق سيناء باتجاه الممرات الموجودة في (متلا- الجدي) عن طريق موقع "أبو عجيله"، وهي ممرات إجبارية للوصول لقناة السويس بعد أن تأكد العدو من شلّ وتدمير سلاح الجو المصري.

وفي النهاية أصدر القائد العام عبد الحكيم عامر أمراً بانسحاب الجيش المصري من كل سيناء وكذلك غزة باتجاه قناة السويس، (وهو نفس ما حصل أثناء العدوان الثلاثي في عام 1956)، ودون موافقة من الرئيس عبد الناصر.

وتبين أن المشير عبد الحكيم عامر لم يكن على قدر المسؤولية وكان قد فشل في مهمته التي كلفه بها الرئيس عبد الناصر عام 1961 لحماية وحدة سورية ومصر.

أما على الجبهة الأردنية في الضفة الغربية التي كان ينتشر فيها ثلاثة ألوية من الجيش الأردني في الشمال والوسط والجنوب، فقد دارت اشتباكات محدودة مع القوات "الإسرائيلية" بعد يوم واحد من بدء حرب 67 وتقدمت القوات "الإسرائيلية" إلى منطقة القدس الغربية من منطقة النبي صموئيل ثم رام الله ثم دخلت هذه القوات مدينة القدس الشرقية وكانت بقيادة موشيه دايان وزير الحرب وإسحاق رابين رئيس الأركان، وذلك بعد أن اطمأن العدو إلى تقدم جيشه باتجاه الممرات. وبدأ انهيار الجيش المصري أي بعد ساعات قليلة من بدء المعركة في صبيحة حزيران عام 1967.

كانت طبيعة التصادم بين الجيش الأردني المدافع والقوات "الإسرائيلية" محدودة وبسيطة، وكذلك استطاع الجيش الصهيوني دخول مدينة القدس، ولم يتجاوز عدد الشهداء في هذا المحور (30) شهيداً من الجيش الأردني.

كان العدو الصهيوني يرتكب في الضفة الغربية المجازر أثناء اعتداءاته هذه لتضاف إلى المجازر السابقة. ومن تلك المجازر ما وقع في قرية "قبية" عام 1953 حيث استشهد فيها (69) من أبناء شعبنا الفلسطيني بين رجل وامرأة وطفل، كما قام العدو الصهيوني في عام 1956 بمجزرة في قرية (كفر قاسم) وهي من أراضي فلسطين التي احتُلت عام 1948 وذهب ضحيتها عشرات الشهداء من المدنيين.

أثناء العدوان الكبير في عام 1967 على الضفة الغربية لم يشكل الجيش الأردني أي تأثير أو استفزاز للعدو رغم أنه كان يتشكل من فرقة عسكرية، واكتفى بإطلاق عدد من القذائف المدفعية من منطقة بيت لحم- جبل المكبر ثم توقف عن الإطلاق. وكانت تجمع النظام الهاشمي علاقات صداقة وعلاقات أمنية كبيرة مع الولايات المتحدة والكيان الصهيوني. أمام ذلك لا بد أن يتساءل الإنسان، لماذا يتم احتلال الضفة الغربية والقدس بعد ساعات قليلة من دخول الجيش الإسرائيلي باتجاه سيناء؟!

بعد دخول الجيش الصهيوني ووصوله إلى نهر الأردن على (جسر دامية- اللنبي- الملك عبد الله) أصبحت قوات الجيش الأردني المنتشرة في الضفة الغربية محاصرة في منطقة نابلس ورام الله والخليل. وأُعطيت فجأة تعليمات للجيش الصهيوني المتواجد على الجسور بإخلائها والابتعاد عن الطرق لإعطاء الفرصة لانسحاب الفرقة العسكرية المشكّلة من 3 ألوية من الجيش الأردني مع سلاحها الكامل باتجاه الضفة الشرقية من نهر الأردن. وفعلاً انسحبت ألوية الجيش الأردني عبر الجسور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية!!

بعد انتهاء العدو الصهيوني من عملياته العسكرية على الجبهة المصرية ووصوله لقناة السويس واحتلاله الضفة الغربية والقدس على الجبهة الأردنية، اتخذ مجلس الأمن القرار /235/ بتاريخ 9 حزيران عام 1967 الذي وافق عليه الرئيس جمال عبد الناصر ونصح القيادة السورية (نور الدين الأتاسي) بالموافقة على هذا القرار حفاظاً

على الجيش السوري حتى لا يلاقي مصير الجيش المصري، وبالنتيجة وافقت القيادة السورية على هذا القرار.

انتقال الجبهة لمرحلة العمل العلني والمهام الجديدة

في هذه المرحلة الحساسة منذ بدء حرب عام 1967 بدأنا بالعمل العلني وانتقلنا تنظيمياً من الحالة السرية إلى الحالة العلنية. فتحنا مراكزنا لجميع الخلايا السرية في مدرسة "الأليانس"[15] بدمشق واتسعت لحوالي 500 شاب نحن في الجبهة لم يكن لدينا سوى أسلحة محدودة، لذلك اتصلنا مع إخواننا في سورية، وكان صديقي المقدم سهيل الحسن وهو من سلاح المهندسين سابقاً وكنا في الخدمة في الجيش معاً، ثم أصبح في جهاز المخابرات العسكرية في منصب رفيع.. وقد فتح لنا مستودعات ومخازن السلاح.

استلمنا الأسلحة ونقلناها إلى مقراتنا، وطلبنا من القيادة السورية- كان اللواء أحمد سويداني قد أصبح رئيساً للأركان- أن تطلعنا على ما يمكننا القيام به للتصدي للعدوان. قالوا لنا: «عليكم الذهاب إلى محور سعسع- بيت جن، ثم إلى محور حضر وصولاً لمجدل شمس».

توجهنا إلى مهمتنا بالسلاح والألغام والرشاشات ولأول مرة كان لدينا قاذف (م/د ب2)، وانتشرنا في محور (بيت جن- حضر) وزرعناه بالألغام وتركنا ممراً للجيش السوري كي يعبر في حال الانسحاب.

كان الجيش السوري قد سلّم أسلحة لحركة "فتح"، وكان محورهم باتجاه سعسع- القنيطرة. ، وتحركوا أيضاً[16] باتجاه سعسع وكان عددهم حوالي 50 مقاتلاً.

أصدرنا أمراً لرفاقنا على المحاور التي استلمناها بتشكيل مفارز لحماية حقول الألغام وقمنا بتجميع الخيول والبغال في قرية بيت جن لاستخدامها في نقل ذخائرنا وعتادنا لكي ندخل إلى مدينة القنيطرة لحمايتها والدفاع عنها في حرب المدن والشوارع إذا دخلها جيش العدو.

---

15 - (في ذلك الوقت أُقفلت المدارس وتأجلت الامتحانات).

16 - (حركة القوميين العرب كانت قد ظهرت للعلن، فقدمنا لهم أسلحة منا)

كانت هزيمة حزيران عام 1967 كبيرة وواجهنا أياماً صعبة، خسرنا فيها سيناء، الجولان وبقية فلسطين (الضفة الغربية والقدس وغزة)، ولو أراد جيش العدو أن يتابع لربما وصل عمّان ودمشق لأن الجيوش العربية خاصة الجيشين المصري والسوري أصيبا بانتكاسة إن لم تكن هزيمة كبيرة. أما النظام الهاشمي فقد سحب جيشه من الضفة الغربية لكي ينشره على الحدود بين سورية والأردن، ويحمي نظامه.

اجتمعنا كجبهة مع مئات من رفاقنا في ساحة مدرسة (الإليانس)، وقررنا إجراء عملية فرز داخلية، قلنا للرفاق: من منكم مؤمن أن المعركة لم تنته وهي مستمرة فليبقَ معنا، أما الذي لا يؤمن بهذه الحقيقة فليذهب. وبالفعل خرجت مجموعات قليلة ولكن عاد أغلبها إلى الجبهة لاحقاً.

حصلنا على موافقة من الدولة السورية نحن (جبهة التحرير الفلسطينية) وحركة "فتح" بإنشاء معسكرين للتدريب. نحن اخترنا مكاناً شمال دوما (عين السخنة)، أما حركة فتح فقد اختارت إقامة معسكرها في منطقة بين دمر والهامة.

بدأنا بمهمات التدريب للمعركة القادمة، وعندما افتتحنا أول دورة عسكرية في معسكر التدريب اخترنا الكوادر المهمة في تنظيمنا السري لإتباع هذه الدورة كي نحقق الاستفادة من هذه الكوادر ونعدها للمسؤولية في مرحلة نحن مقدمون عليها.

كان عدد هذه الدورة حوالي 100 رفيق، وأشرفت شخصياً على تدريب هؤلاء الرفاق. وفي درس للأسلحة والقنابل اليدوية بدأنا بتدريب الرفاق على القنبلة الهجومية الروسية (أر جي4) حيث يرميها المقاتل أمامه أثناء الاقتحام لمسافة 20-30 متراً، وقبل ارتطامها بالهدف أو بالأرض ينفلت منها (سوار- زنار الأمان) عندها تصبح جاهزة للانفجار، ويفترض أن يكون المتدرب "الرامي" حين انفجار القنبلة على بعد أمتار بسيطة عنها، فلا تؤثر عليه لأنها لا تسبب شظايا وكمية المتفجرات التي تحتويها ليست كبيرة.

أعطيت الدروس لهذه الدورة وبدأت أرمي أمامهم القنابل وأتابع القنبلة وينفلت سوار الأمان وتنفجر مطلقة صوتاً كبيراً، ولكن لا تؤثر على مَن يلقيها ويسير وراءها. وقد قام الرفاق جميعهم بمثل هذه الرمايات بنجاح.

شارك في هذه الدورة الرفيق طلال ناجي ومأمون حيفاوي وخالد كوسا وجميع الكوادر كما أسلفت. وقبل انتهائنا من الدرس قلت لهم: هذه القنبلة لا تصلح أثناء الاقتحامات في حرب الشوارع والمدن لأنه ليس لديها الفرصة الكافية لكي ينفلت زنار

الأمان منها، ثم أردفت: عندما يصبح المقاتل متمرساً بشكل جيد يستطيع أن يفك حتى زنار الأمان. شرحت لهم طريقة القبض باليد على القنبلة بحيث عندما نرميها لا يحدث اهتزاز لها في اليد، وعندما يتمكن الرفيق من التعامل الدقيق مع هذه القنبلة يمكن استخدامها في قتال المدن والشوارع. قمت أمامهم بإزالة زنار الأمان للقنبلة وأمسكت هذه القنبلة الجاهزة للانفجار عند أي صدمة ورميتها بالشكل الصحيح دون أن تهتز في يدي أثناء الرمي لكي لا تضرب الإبرة الصاعق فتنفجر. قلت لهم: أنتم غير مطالبين الآن بمثل هذه التجربة.

لكن حماس الرفاق كان شديداً للتدرب واكتساب الخبرات، ولديهم ثقة بأنفسهم فأمسك الرفيق أبو جهاد طلال ناجي بإحدى القنابل دون أن أراه وفك سوار الأمان، لكن عند رميه لها اهتزت القنبلة قبل أن تفارق يده فانفجرت، ما أدى لبتر يده اليمنى وإصابته بشظايا في الرأس والعينين والصدر. وبسرعة قمنا بنقله إلى السيارة الوحيدة التي كنا نملكها في الجبهة "وفاء"، وقدّمنا له الإسعافات الأولية داخلها، وأنا جلست في الخلف بجانبه بعد أن قمنا بالتضميد السريع لجروح الرفيق طلال.. وكانت علاقتي به علاقة رفاقية وصداقة قوية ويسود بيننا احترام متبادل حتى أنه اختار لنفسه اسماً مستعاراً هو "أبو جهاد". وتابعنا بسرعة في السيارة حتى وصلنا إلى مشفى المزة العسكري الذي كان يترأسه في ذلك الوقت المرحوم المقدم ماجد العظمة، فأجريت له العمليات اللازمة ونحن جالسون خارجاً ننتظر.

كنت أتوقع فقدانه ليده اليمنى وخشيت أن تكون بعض الشظايا قد دخلت في عينيه ورأسه أو صدره. بعد ساعات أبلغني الأطباء أنهم بتروا يده عند الساعد لأنه يستحيل الإبقاء عليها، كما أبلغوني أنه وللأسف فقد إحدى عينيه.

حزنت عليه واستدعيت أخاه الأصغر سناً "جمال" وصديقه الحميم "أبو إسماعيل مخللاتي" إلى المشفى، وبدأنا نتابع حالته الصحية حتى خرج من المشفى إلى منزله، حتى أنني لم أتركه وهو في المشفى وكنت أزوره بشكل شبه يومي. وعند خروجه إلى منزله الواقع جنوبي حي الأمين قرب سور دمشق من الناحية الجنوبية تابعت زياراتي له.

عند زيارتي له في منزله أول مرة قابلت والدته وجدته "رحمهما الله"، وفوجئت بالروح المعنوية العالية لدى هذه الأسرة.

رغم هذه الحادثة تابعنا تدريباتنا في المعسكر. وبدأت أشرف شخصياً على تكوين أجنحة التدريب والمناهج والمراجع ووسائل الإيضاح لهذا المعسكر واختيار المدربين الذين سيساعدونني في هذه المهمة الصعبة واستعنت برفاقنا المدربين أثناء المرحلة السرية.

كنا في نفس الوقت نتابع إرسال دورياتنا لدخول المواقع السورية المخلاة قرب بحيرة طبريا وغرب القنيطرة- منطقة (كفر نفاخ)، وكذلك منطقتي فيق والعال في الجولان الجنوبي بغرض جلب السلاح والعتاد المتبقي هناك في مستودعات الجيش السوري، فالجيش الصهيوني لم يكن قد دخل بعد هذه المعسكرات في القطاعين الأوسط والجنوبي. كانت هذه المهمة صعبة بسبب طبيعة الأرض الجبلية والوديان وحمْل السلاح والعتاد وأوزانه الثقيلة، مع كل حسابات الحيطة والحذر من أن تكون هذه الأسلحة مفخخة أو لجهة وجود كمائن للعدو.

جلبنا السلاح من معسكرات الجيش السوري في الجولان المحتل، ومن خلال الدوريات التي كنا نرسلها. كنا نخزنه في مدرسة (الأليانس). وأذكر أننا ملأنا غرفاً من المدرسة به، ثم بدأنا نرسل جزءاً منه لوحداتنا السرية في الضفة الغربية عبر الأردن بشكل سرّي من خلال القوات العراقية التي كانت تتمركز بين درعا والمفرق. ودفعنا ثمن ذلك عدداً من الشهداء والجرحى أحدهم شقيق "أبو الفوز الديسك".

في أحد الأيام من بداية عام 1968 ونحن في معهد التدريب المركزي، حضر إلينا أحد الأفراد من لبنان واسمه محمد سلّوم وهو فلسطيني من لبنان وقال لي: أهلي موجودون في منطقة بيت لحم في مخيم الدهيشة، فإذا أرسلتني بسلاح وعتاد سأفعل أشياء مهمة ضد العدو الإسرائيلي.

وعندها تم تدريبه بشكل جيد وتأكدنا من نظافته أمنياً ثم أرسل إلى هدفه مع الأسلحة التي كنا نرسلها إلى الداخل المحتل. وصل الرفيق محمد سلوم إلى بيت لحم واستقر في مخيم الدهيشة، وبدأ هو وبعض من استطاع تنظيمهم بعمليات ضد العدو الإسرائيلي في بيت لحم بعيداً عن مخيم الدهيشة وأوقع خسائر كبيرة في صفوف العدو. وفي إحدى الليالي قام العدو بمداهمة مخيم الدهيشة والبيت الذي كان ينام فيه الشهيد محمد سلوم، وعندها اشتبك مع الجنود الصهاينة اشتباكاً عنيفاً حتى نفدت ذخيرته هو ورفيقه محمد أبو حلوة الذي استطاع التسلل عبر الأزقة ووصل إلى المنطقة الحراجية شمال المخيم. واستشهد محمد سلوم في مخيم الدهيشة. وفي

صباح اليوم التالي تعرّف عدد من الشبان على موقع جثمان الشهيد محمد سلوم، وتمت الصلاة عليه وإشهار قبره وكتب عليه "شهيد مخيم الدهيشة الفلسطيني/ اللبناني".

دربنا في معسكراتنا الشباب الفلسطيني، وأحضرنا شباباً من الضفة الغربية إلى معسكر التدريب. وكذلك الأخوة في معسكر فتح بدؤوا في أعمال التدريب أيضاً. وفي الوقت نفسه أرسلنا مدربين من رفاقنا الجيدين للضفة الغربية للتدريب والقيام بالتحضير من خلال الاستطلاع الجيد للعمليات حين يطلب منهم، كما بدأنا بالتواصل مع المناضلين والمقاومين في قطاع غزة.

كنت دائم التفكير بأننا عندما ننتهي من تخريج عدد من الدورات في معسكرنا بعين السخنة (قرب دوما) سأخبر رفاقي بأنني سأتحرك مع بعض الرفاق الكوادر إلى الأغوار الأردنية لنكون على تماس مع الضفة الغربية، وكذلك في مواجهة العدو من جنوب طبريا حتى بيسان جنوباً، وبعدها نقرر بدء معركتنا مع العدو الصهيوني بالاعتماد على رفاقنا الذين دربناهم في معسكرنا.

نقلنا جزءاً من أسلحتنا إلى الضفة الغربية كما قلت سابقاً ولكن فوجئنا بما قام به وللأسف العقيد "عبد الكريم الجندي" رئيس مكتب الأمن القومي، فهو أرسل عناصر الأمن إلى مستودعاتنا وصادر أسلحتنا الموجودة في أقبية مدرسة "الأليانس" وكانت بكميات كبيرة.

هذه الحادثة شكّلت غصة كبيرة في قلوبنا، فأولاً هذا السلاح كان العدو سيأخذه لو ظل في المواقع المخلاة، وثانياً نحن أحضرناه بعد جهد كبير جداً من المعسكرات الواقعة تحت سيطرة الاحتلال في الجولان المحتل ودفعنا الثمن دماء من شبابنا، وكنا سنرسله إلى فلسطين.

عند لقائنا مع العقيد عبد الكريم الجندي سألته: لماذا صادرتم هذا السلاح الذي أحضرناه نحن بواسطة دورياتنا التي تحمّلت أعباء ومخاطرات كثيرة داخل الجولان؟، فقال لي: «لقد وجدنا بين هذه الذخائر في مستودعاتكم والأسلحة خرائط عسكرية لتموضع قوات الجيش السوري»، فابتسمت وقلت له: يا أخي.. هذه الخرائط وهذه الأسلحة لم نحضرها من مستودعاتكم من الأركان في دمشق! هذه الأسلحة والعتاد والخرائط أحضرت من خلال دوريات قتالية تحملّت المشقّات والأخطار دخلت إلى عمق مواقع الجيش السوري في الجولان المحتل بعد إخلائها نتيجة اتفاق وقف إطلاق

النار. وأضفت: كانت هذه الأسلحة والذخائر ستقع بيد العدو الصهيوني، بينما نحن كنا سنرسلها إلى الضفة الغربية لقتال العدو هناك. أما إذا كنتم تعتقدون أن هذه الأسلحة ستستخدم في أمور داخلية لتعكير الأمن في سورية فأنتم مخطئون لأننا حريصون على حماية سورية وأمنها. فأجاب قائلاً: «قُضي الأمر.. الآن ليس هناك قرار بإعادة هذه الأسلحة إليكم».

الرئيس عبد الرحمن عارف كان حاكم العراق وأرسل فوراً إلى الأردن بعد بدء العدوان جيشاً مؤلفاً من 20 ألف جندي، تمركز قسم منه قريباً من الأغوار وقسم آخر في الداخل، وقرب الحدود السورية في منطقة درعا، وكان انتشاره ينتهي في مدينة المفرق الأردنية.

صدر قرار بوقف إطلاق النار وبقي الجيش العراقي موجوداً على الحدود السورية وفي أماكن مختلفة في الأردن.

كنا كجبهة في بعض الأحيان نستغل وجود بعض وحدات الجيش العراقي المنتشرة على حدود درعا- الرمثا ونمرر من خلاله السلاح إلى الأغوار ثم إلى الضفة الغربية.

تلك المرحلة كانت صعبة نفسياً ومعنوياً، فلم نتخيّل يوماً أن يصل الصهاينة إلى قناة السويس ويحتلوا الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس والجولان. رغم أننا كنا قبل عام 1965 نحذر من وقوع مثل هذا العدوان الكبير وأثره على الأمة ودوافعه وحلفائه ومضاعفاته.

درّبنا أعضاء من حركة القوميين العرب في معسكراتنا وكانوا يطلقون على منظمتهم اسم (شباب الثأر). ودرّبنا أيضاً (أبطال العودة) الذين كانوا على صلة مع منظمة التحرير في معسكر عين السخنة. كنا نخرّج في كل دورة حوالي 450 فدائياً من رفاقنا وآخرين.

شكلنا لجاناً من المخيمات من الأهالي منهم الشيخ أحمد موعد. كانت هذه اللجان تذهب إلى سوق الهال للخضراوات وتشرح للتجار أن هناك فدائيين وهم بحاجة إلى دعمكم. من جانبهم كان التجار يقدمون كميات غذائية كبيرة لمعسكر التدريب.

بعد حدوث كارثة العام 1967 وتوقف الحرب، اجتمعنا في دمشق في اتحاد طلاب فلسطين بالقرب من منطقة "السبع بحرات"، وحضر الاجتماع الأخوة في "فتح" (أبو عمار، وخليل الوزير، صلاح خلف، فاروق القدومي، ومحمود الخالدي).

من طرفنا كجبهة التحرير الفلسطينية حضر معي علي بوشناق وعثمان حداد وفضل شرورو ويوسف طُبَل، كما حضر من حركة القوميين العرب- شباب الثأر- وديع حداد "رحمه الله" على رأس الوفد، و(أبطال العودة) بقيادة الشهيد فايز جابر وصبحي التميمي، وطلائع حرب التحرير الشعبية (الصاعقة).. اجتمعنا وناقشنا الوضع وما آلت إليه الأوضاع بعد احتلال بقية فلسطين والجولان وسيناء.

اتفقنا أن نشكل هيئة قيادية واحدة تجتمع دورياً، وصندوقاً مالياً واحداً، ونجمع التبرعات وتوزع فيما بيننا، كذلك نرسل السلاح والعتاد للضفة الغربية وأيضاً المدربين.

اتفقنا على ألا نقوم بأي عمل عسكري بالضفة الغربية إلى حين استكمال نقل السلاح والعتاد المعقول إليها، وكذلك إرسال مدربين للقيام بتدريب الشباب على استعمال هذا السلاح. كما اتفقنا على إحضار شباب من الضفة الغربية إلى معسكراتنا- معسكر فتح في الهامة ومعسكرنا قرب دوما- وقلنا بأن أي عمل عسكري حالياً في الضفة الغربية سيعطل خطتنا هذه وسيقوم العدو الصهيوني بمحاولة إغلاق الطرق شبه المفتوحة في أغوار الأردن بين الضفة الشرقية والغربية ويكلّف الملك حسين بمزيد من ضبط الحدود.

هكذا اتفقنا في هذه الاجتماعات المتكررة فيما بيننا.. وأذكر أن الأخوة في حركة القوميين العرب (شباب الثأر) بقيادة الدكتور جورج حبش ووديع حداد طلبوا فيما بعد أن نقوم بتدريب عناصر لهم في معسكرنا، كذلك "أبطال العودة" كما ذكرنا، فقلنا لهم: نحن لدينا دورة ويمكن أن نضم رفاقكم الذين سترسلونهم للتدريب إلى هذه الدورة.. فلم يمانعوا، وفعلاً تكررت مثل هذه الدورات مراراً.

بدأ الأخوة في حركة فتح "قوات العاصفة" بعد إقامة معسكر لهم في منطقة الهامة، بتنفيذ برامج تدريب خاصة بهم. وأثناء عمليات التدريب وقع حادث مؤلم حيث انفجرت عبوة ناسفة أدت لاستشهاد عدد من المناضلين وجرح عدد آخر، كان بينهم قائد المعسكر (الشهيد أبو علي إياد[17]) الذي أصيب وفقد عينَيْه، وبعد معالجته عاد وتابع عمله النضالي في معسكر قوات العاصفة "فتح".

---

[17] - (كان الرفيق أبو علي إياد رجلاً مؤمناً بقضيته متحمّساً رغم فقدان بصره، يتابع عمله بين الهامة ومنطقة درعا، ثم انتقل إلى معسكر في عجلون.. استشهد هناك في أيلول عام 1970، إثر اقتحام الجيش الأردني لمعسكرهم).

وفقدنا نحن أيضاً قائد معسكرنا في عين السخنة الرفيق أبو النصر (إبراهيم القلّا[18]) وجرح آخرون أثناء تدريبهم على زراعة الألغام.

بعد احتلال كل فلسطين في عام 1967 اجتمعنا كهيئة قيادية في جبهتنا وطلبت أن نعمل على إدخال جيش التحرير الفلسطيني إلى الأردن (قوات حطين)، وكذلك طلبنا من القيادة العراقية (كان يقود العراق في ذلك الوقت الرئيس عبد الرحمن عارف) أن ينقل جيش التحرير الفلسطيني (قوات القادسية) إلى الأردن طالما توجد في الأردن وحدات عراقية.

في هذا الاجتماع اعترض العقيد عثمان حداد وقال: قوات حطين تتبع لعمليات الجيش السوري، ولا نستطيع أن نحركها إلى الأردن دون قرار. كما حاولنا أيضاً بواسطة بعض الضباط القادة الفلسطينيين من دورة الشهيد علي بوشناق أمثال (العقيد عبد العزيز الوجيه- مصباح البديري) العمل على إرسال "قوات حطين" إلى الأردن، وهناك في الأردن يمكن أن تشكل الفصائل الفلسطينية وجيش التحرير وحدة واحدة باسم (جيش تحرير فلسطين).. هذا ما كنا نطمح إليه بديلاً للشرذمة ورداً على الهزيمة.

نحن في الجبهة- كما قلت- كان همنا في البداية جمع السلاح والعتاد من الجولان المحتل وإرساله للضفة الغربية وعقد الدورات العسكرية للشباب الفلسطيني من سورية وكذلك من الأردن والضفة الغربية.. وأيضاً هناك عدد من المتطوعين السوريين والعراقيين، وعشرات الشباب الفلسطينيين من مخيمات الشتات في لبنان الذين تسللوا وانضموا لدورات التدريب.

كما ذكرت شكلنا قيادة للمعسكر وقادة أجنحة وعيّنا مدرّبين، وانتهينا في مرحلة التدريب من الفوج الأول والثاني. وكنت شخصياً أشعر أن المسؤولية تقع عليّ في إعداد وتدريب هذه الدورات من خلال معسكر تدريب جيد وتطوير المناهج والمراجع ووسائل الإيضاح، وبناء الكادر التدريبي الذي شارك فيه رفاقنا القدامى في التنظيم السري في اللجنة العسكرية وأثبت جدارته في العمل العسكري في داخل الزمر والفصائل والمجموعات أو من خلال دورياتنا العسكرية داخل فلسطين المحتلة في الجليل أو أثناء استنفارنا وذهابنا إلى الجبهة السورية أثناء حرب 1967.

---

[18]- (القلّا شاب من الكوادر القديمة ومن خيرتها وهو من الفلسطينيين القاطنين في منطقة جوبر).

وضعتُ خطة عرضتها على رفاقنا في القيادة. وكان الأخ عثمان حداد قد انقطع عن اجتماعاتها بسبب الخلاف معه حول موضوع نقل جيش التحرير إلى الأردن (سواء قبلت الدولة السورية أم لم تقبل).

وحدات جيش التحرير تلك كانت مواقعها قرب درعا، وبعد احتلال الجولان انتقلت إلى منطقة قطنا، وعُيّن العقيد مصباح البديري قائداً لكتائب جيش التحرير التي سُمّيت "قوات حطين".

كانت خطة عملنا أن نقوم بتدريب 4 أو 5 دورات في معسكرات التدريب في دوما (عين السخنة) وندفعها إلى الأردن وإلى الضفة الغربية، بعدها يمكن أن نتحرك ككادر قيادي ونعبر الحدود الأردنية (التي كان يحاول الملك حسين وأجهزة أمنه ضبطها لمنع دخول الفدائيين إلى الأردن).

في تلك الفترة بلغنا من العراق عن طريق الأخوة حركة القوميين العرب (شباب الثأر) أن مبلغاً مالياً قد جمعته النقابات هناك، ويتمنون حضور ممثلين للفصائل لاستلام هذا المبلغ.

اتفقنا أن يذهب وفد مثّلنا فيه المرحوم فضل شرورو والشهيد وديع حداد عن حركة القوميين العرب، على أن يلتقي الإثنان بمَن يمثل حركة "فتح العاصفة" القادم من الكويت. وتحرك الشهيدان وديع وفضل عبر البادية السورية باتجاه بغداد، لكنهما بعد أن وصلا إلى بغداد والتقيا مع مسؤولي النقابات تم إخبارهما بأن ممثلاً عن "العاصفة" حركة فتح وهو السيد (محمد أبو ميزر) قد أتى واستلم المبلغ من الكويت منذ أكثر من أسبوع، فعاد الوفد المشترك (وديع وفضل) بخفّي حُنين.

طرحنا هذا الموضوع المخالف للاتفاق في اجتماع الهيئة التي تجمعنا كفصائل بما فيها "قوات فتح العاصفة"، إذ كان من المفروض أن يتم إحضار هذا المبلغ كما اتفقنا إلى صندوق واحد للعمل الموحّد، لكن الأخوة في حركة فتح "قوات العاصفة" لم يأبهوا لهذا الأمر.

وفي نقطة خلافية أخرى كنا قد اتفقنا كما أشرت سابقاً ألا نبدأ أي عمليات في الضفة قبل أن ننجز مرحلة جيدة لعمليات التدريب ونرسل السلاح والعتاد.. وأعطينا فرصة بحدود 3 أشهر لإنجاز هذه المهمة كحدّ أقصى، ثم يتم الاتفاق على بدء العمل المسلح.

بعد فترة فوجئنا جميعاً في قيادة الفصائل التي اجتمعت في دمشق بأن الأخوة في حركة فتح العاصفة بدؤوا بإطلاق عمليات في الضفة الغربية قبل المدة المتفق عليها ودون التشاور مع أحد، وأصدروا بيانات باسم "قوات العاصفة"! (هم أرادوا أن يقولوا بأنهم أصحاب الطلقة الأولى عام 1965 وكذلك عام 1967).

كنا نطمح بعد احتلال فلسطين بكاملها أن تكون هناك فرصة لتوحيد الصف الفلسطيني المناضل، وأن تصدر البلاغات العسكرية باسم موحّد، ونرتقي بالقيادة لتصبح قيادة موحدة تضم الجميع. وكما أسلفت كنا نود أن نشرك جيش التحرير الفلسطيني في سورية والعراق في هذه المسؤولية لنقول للعالم إن الشعب الفلسطيني بكل قواه قد توحد وأصبح له قيادة سياسية وعسكرية واحدة تواجه العدو الصهيوني الذي يحتل فلسطين.

للأسف فشلت هذه الأمنية والتجربة، ويتحمل مسؤولية ذلك الأخوة في فتح "قوات العاصفة"، كذلك منظمة التحرير الفلسطينية بقيادتها الجديدة، وأيضاً يتحمّل ذلك جيش التحرير الفلسطيني وكان مسؤوله آنذاك (وجيه المدني).

لو تمت تلك الخطوات الوحدوية وأصبحت واقعاً على الأرض فهذا كان سيعطي قوة معنوية كبيرة لشعبنا، ويقدّم رسالة تقول إننا قادرون على تجاوز العصبيات التنظيمية وتوحيد أنفسنا كما فعلت جبهة التحرير الجزائرية في يوم من الأيام حين بدأت في كفاحها المسلح في عام 1954.

ولادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

بدأت تتوطد العلاقات بين تنظيمنا (جبهة التحرير الفلسطينية) وحركة القوميين العرب (شباب الثأر) وأبطال العودة وخاصة بعدما لمسوا تفانينا في تدريب عناصرهم في معسكرنا في عين السخنة (دوما) مع رفاقنا في هذه الدورات.

اجتمعنا في دمشق وحضر الاجتماع عن (أبطال العودة) الشهيد فايز جابر وصبحي التميمي، ومن حركة القوميين العرب (شباب الثأر) الدكتور جورج حبش والشهيد الدكتور وديع حداد، ومن جبهتنا حضرت أنا وعلي بوشناق وفضل شرورو ويوسف طُبل.

اتفقنا أن نتوحّد مع بعضنا البعض. كنا نتمنى أن تكون قوات حرب التحرير الشعبية "قوات الصاعقة" بيننا ولكن لم تستطع بسبب أوضاعها الخاصة وظروف

الحزب الداخلية. واتفقنا أن يطلق على هذا التنظيم الجديد تسمية (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين)، وكان قد اقترح المرحوم الدكتور وديع حداد أن يكون اسم التنظيم (الجبهة القومية) فرفضنا ذلك، لأنه كان لحركة القوميين العرب حركة في جنوب اليمن ضد الاحتلال الإنكليزي باسم "الجبهة القومية" واكتفينا باسم (الجبهة الشعبية).

في هذا الاجتماع أقرّوا أنه لابد أن أتحمّل المسؤولية العسكرية (للجبهة الشعبية)، ويتسلّم المرحوم أحمد اليماني "أبو ماهر" وهو من حركة القوميين العرب، المسؤولية المالية، أما القيادة السياسية فتكون لها قيادة جماعية وبالتشاور.

كان الأخوة في مصر قد افتتحوا لنا دورة عسكرية في "معسكر أنشاص" وأرسلنا كجبهة شعبية مقاتلين إلى هذا المعسكر، وطلبت من الرفاق الذين أرسلناهم إلى هذه الدورة أن يسجلوا في كرّاساتهم الدروس التي يأخذونها والمناهج. وبعد عودتهم وجدت أنهم اتبعوا دورة صاعقة تم التركيز فيها على الإعداد البدني والكمائن والإغارات فقط، أما موضوع المتفجرات وحرب الشوارع والمدن والجبال أي (حرب العصابات) فلم يتلقوا دروساً حولها في هذه الدورة.

كان الرئيس عبد الناصر قد أرسل لنا كجبهة ولحركة "فتح" السلاح من مصر إلى بغداد ونقله الجيش العراقي أثناء فترة نظام عبد الرحمن عارف إلينا إلى الأردن. وكنا نشعر أن الأخوة المصريين حريصون على أن نستمر في قتالنا مع العدو ونصعّده على كل الجبهات وأن نتعاون نحن والأخوة في حركة "فتح العاصفة".

الدخول إلى الأردن

وتقدير الموقف السياسي والعسكري

الخلايا السرية للجبهة في ساحة الأردن

وتحولها إلى العمل العلني بعد عدوان حزيران 1967

بعد العدوان الصهيوني- الأميركي في حزيران 1967 واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء والجولان، قررنا وبشكل فوري تنشيط تنظيمنا السري الذي كان موجوداً في ساحة الأردن وفي ساحة الضفة الغربية منذ بداية قيامنا بتنظيم الخلايا السرية بين شعبنا باسم جبهة التحرير الفلسطينية. وأصبحت ساحة الضفة الشرقية للأردن من أولويات جدول العمل وبخاصة في موضوع تحويل رفاقنا فيها الى الجمع بين العمل السري والعلني بين صفوف شعبنا هناك وتشكيل المجموعات التي تتناسب بنيتها مع خطة الاستعداد لشنّ العمليات المسلحة داخل الضفة الغربية عن طريق الضفة الشرقية، فقد أصبح هذا الموضوع ناضجاً وملحاً في أعقاب الظروف التي ولّدها العدوان الصهيوني في حزيران في الضفة الغربية وفي الضفة الشرقية، مع سهولة انتقالنا سراً عبر الحدود السورية الأردنية إلى داخل الضفة الشرقية، ووضع برنامج تنظيمي وعسكري لرفاقنا في الساحة الأردنية.

ومن كوادر الأردن أيضاً أحمد سعيد المصري "أبو عصام" الذي أرسلناه للضفة الغربية بعد احتلالها لكي يقوم بمهامه هناك، ثم اعتقل. وقد حررناه في عملية النورس عام 1979.

وبعد أسابيع قليلة شكلنا من خلال رفاقنا في الساحة الأردنية فصيلاً ثانياً ضم 15 رفيقاً. ومع مطلع عام 1968 أصبح لدينا في مخيم الوحدات وحده خمسون رفيقاً وجرى افتتاح مكتب علني هناك.

تنظيمات فلسطينية في الأردن تنضم إلى الجبهة الشعبية (جبهتنا)

التقاني السيد أبو خالد حسين (حسين عرفة) في أحد مواقع الجبهة وكان معي الرفيق نهاد عرفة عضو قيادي في الجبهة. عرفني أبو خالد حسين على نفسه بأنه

هو ومجموعة من الشباب قاموا بتشكيل تنظيم سمي (الشباب الثوري الفلسطيني) بدأ في منطقة الزرقاء ثم انتشر إلى باقي المناطق، وقال لي إنه ورفاقه أرادوا أن ينضموا إلى فصيل أكبر وله ثقل عسكري على الأرض، وأضاف: لقد تم اختيار جبهتكم لأنها تملك السلوك والمسلك ووضوح الهدف.

تكررت الاجتماعات فيما بيننا، وأحضر معه بعض الرفاق من جماعته منهم (عاطف يونس "أبو مزاحم"، وعبد الرؤوف السيد "أبو عماد") وتحدثت معهم عن مناقبية العمل الثوري الذي يكون هدفه واضحاً ومسيرته نظيفة وله إرادة قوية للوصول إلى النصر، وأبلغتهم أن وجودهم معنا سيكون قوة لنا ولهم، وأوضحت لهم بأنهم إذا أرادوا الاندماج معنا في تنظيمنا فالمطلوب منهم اتباع الأسس التنظيمية التي سرنا عليها في السنوات الماضية، وهي التدريب العسكري في معسكر التدريب في دمشق لمدة ثلاثة أشهر، ثم يتم فرزهم إلى المواقع العسكرية للقيام بالأعمال القتالية سواء الاستطلاع أو الاشتباك مع العدو، وبعد اجتيازهم لهذه المراحل يمكن أن تتم إعادة فرزهم إلى المخيمات ليقوموا بأعمال نشر الوضع التنظيمي. كما أخبرتهم أن عليهم دفع اشتراك شهري دون أن يتلقوا راتباً شهرياً مثل باقي الفصائل الفلسطينية آنذاك.

ثم تعرفت إلى العديد غيرهم، وقمت بزيارة إلى مخيم الزرقاء والتقيت مع مجموعة من إخوانهم من أفراد هذا التنظيم. وأذكر أنني نمت في بيت "أبو خالد حسين عرفة" ولم يكن متزوجاً.

وفيما بعد أصبح هؤلاء الشباب من عناصر تنظيمنا وأخذوا مواقع حسب قدرات ونتائج اختبارات كل رفيق منهم.. فبالإضافة لـ "أبو خالد الحسين- حسين عرفة" من مدينة الزرقاء، كان هناك سامي السيد (طالب معهد معلمين/ العباسية) وشقيقه الشهيد حسن السيد (الذي استشهد فيما بعد في تصادم مع الجيش الأردني)، وعبد الهادي النشاش، ووهيب المنير (موظف في وزارة الصحة/ نابلس)، وعبد اللطيف السعدي (صاحب مصبغة/ رنتيه)، وجمال عبد العزيز (ميكانيكي طيران/ صرفند) الذين شكلوا أول فصيل للعمل التنظيمي والسياسي للجبهة. وقد انضمّ إليهم عدد من الرفاق: عبد الحميد الظاهر (معلم/ العباسية)، وصالح عيسى درويش (طالب/ الولجة)، زياد عبد الرحمن نافع (طالب/ قباطية)، محمد جميل حجازي (صاحب مصبغة/ الرملة)، أنطون شومري (مهندس كهرباء (المطار)/ اللد)، غازي عبد الهادي

(مهندس ميكانيك (المطار) / نابلس)، حسين شحادة (موظف في القطاع الخاص/ دير طريف)، جهاد حمو (موظف في وزارة الاتصالات (البريد)/ كوعان)، أمين المنير (موظف في وزارة الصحة/ نابلس)، جمال إسماعيل (موظف في وزارة الصحة/ نابلس)، محمود عسكر (موظف في وزارة الصحة/ السافرية)، طارق المنير (موظف في وزارة الصحة/ نابلس).

كنت دوماً أستغل فترة الراحة والتوقف عن العمليات العسكرية في أثناء الليالي المقمرة من أجل الانتشار التنظيمي، محاولاً التحرك في المخيمات المحيطة بعمان أو المحيطة بالزرقاء أو في مخيم (سُوّف) قرب جرش أو مخيم البقعة أو في إربد ومخيماتها.

ثانياً: ملاحظة لا يوجد أولاً

أتى الرفيق رشاد أبو شاور (وكان عضواً سابقاً في الجبهة أثناء التنظيم السري في سورية في بداية الستينات، وغادر إلى الأردن والضفة الغربية حيث يسكن والده قرب أريحا) وطلب مني أن ألتقي مع مجموعة من الشباب الذين كانوا قد شكلوا منظمة سرية باسم (كتائب العودة).

تكررت الاجتماعات مع الرفيق طلعت يعقوب "رحمه الله" ورشاد أبو شاور وعبد الفتاح غانم وشقيقه محمد غانم. وقد ساعدني الرفيق رشاد أبو شاور في إطلاع الرفاق على خطوات ومراحل الانتساب لتنظيمنا لأنه مرّ بها سابقاً، وأبدى هؤلاء الرفاق نشاطاً ملحوظاً سواء في الضفة الشرقية أو الغربية.

في أحد المؤتمرات نجح طلعت يعقوب ورشاد أبو شاور وعبد الفتاح غانم، أبو خالد حسين، والرفيق سامي السيد، وعاطف يونس، وهينب منير ومحمد جميل حجازي في نيل عضوية اللجنة المركزية.

وأبدى الرفاق الذين كانوا قد التحقوا من تنظيمي (الشباب الثوري الفلسطيني وكتائب العودة) نشاطاً ملحوظاً. يضاف لهم أنه كانت لنا حالة تنظيمية في إربد ومخيمها ومن عائلة أبو علي الدلقموني. وهؤلاء تعرفنا إليهم ونُظموا قبل حرب حزيران عام 1967 من قبل أبو الأمين خالد (أول شهيد في الجبهة) وحافظ قاسم دلقموني.

قبل عام 1976 كانت تتحرك لنا دوريات من الحمّة السورية وتلتقي معهم في منطقة الشونة حيث نزودهم ببعض الأسلحة. وكان أبو علي الدلقموني عنصراً نشيطاً وفعالاً.



في نهاية عام 1967 توجهت سراً من دمشق الى الضفة الشرقية بعد أن أعددت عدداً من رفاقنا الذين أنهوا دورة تدريب متقدمة في شهر آب بنفس العام أي بعد شهرين من حرب حزيران 1967. ونجحنا في نقلهم مع أسلحتهم ومعداتهم عن طريق ممرات سرية إلى الضفة الشرقية عبر الحدود السورية- الأردنية في ذلك الوقت، فالسلطات الأردنية كانت تعتقل كل من تقبض عليه من الفلسطينيين من أبناء المخيمات الفلسطينية في سورية حين كنا نرسلهم لقطع الحدود بأسلحتهم في الليل سرا للالتحاق بالعمل الفدائي في الضفة الغربية، وكانت تعيدهم إلى سورية. وفي بداية شهر تشرين أول عام 1967 اعتقلت لنا دورية من عشرة رفاق كانوا بقيادة الرفيق علي إسحاق وزجّتهم بالحبس لفترة قصيرة وأعادتهم إلى الحدود السورية.

بعد تشكيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من جبهتنا (جبهة التحرير الفلسطينية) ومن (منظمة أبطال العودة وشباب الثأر) التابعتين لحركة القوميين العرب، عقدنا اجتماعات قيادية بهدف تثوير شعبنا داخل الضفة الغربية وقطاع غزة وتنظيم وتدريب وتسليح مجموعات مقاومة مسلحة ضد قوات الاحتلال داخل تلك الأراضي المحتلة وفي قلب فلسطين المحتلة منذ عام 1948.

واستعرضنا ما لدينا ولديهم من الخلايا السرية التي كانت تعمل قبل عدوان حزيران 1967 واحتلال الضفة الغربية.. فحركة القوميين العرب كان لها خلايا ومجموعات سياسية وكان لدينا نحن أيضاً مجموعات تنظيمية سياسية لكن بعضها تلقى تدريباً عسكرياً في ذلك الوقت ونفذت بعض العمليات الفدائية ضد مواقع الاحتلال داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1948 وزرعت ألغاماً قرب الحدود المتاخمة لبلدة السموع في 11 تشرين ثاني 1966 ما أسفر عن مقتل ثلاثة من جنود العدو وإصابة ستة بجراح. كما كانت هناك عملية مماثلة عند سكة قطار قرب

المنطقة الممتدة داخل فلسطين المحتلة من عام 1948 والمتاخمة لحدود الضفة الغربية في ذلك الوقت.

وفي اجتماعاتنا في ذلك الوقت من شهر تشرين أول عرضت على الرفاق في حركة القوميين العرب أن نرسل من طرفنا عدداً من رفاقنا الفدائيين المؤهلين للتدريب وتنفيذ العمليات المسلحة إلى داخل الضفة الغربية عبر نهر الأردن، حيث يقوم رفاق حركة القوميين العرب باستقبالهم ونقلهم إلى أماكن جبلية محصنة للقيام بمهام التدريب والانطلاق أيضاً لشنّ العمليات في قلب الكيان الصهيوني.

وقمنا بإدخال عدد من رفاقنا إلى منطقة الخليل ورام الله وبيت لحم، وطلبنا من رفاقنا الذين كانوا في جبهة التحرير الفلسطينية في الستينات والقاطنين في الضفة الغربية وبخاصة في منطقة الخليل ومخيم العروب ومخيم الدهيشة في بيت لحم، الاستنفار استعداداً لتنفيذ العمليات أيضاً.

وبعد إطلاق العملية الأولى باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في 13-12-1967 باتجاه مطار اللد العسكري فوجئت قوات الاحتلال بالبيان الأول لهذه العملية واستهدافها عمق الكيان الصهيوني، فاستنفرت كل قواتها إلى أن تمكنت بعد ثلاثة أيام من يوم تلك العملية، من شن هجوم مفاجئ على الرفاق الفدائيين في جبال رام الله وإصابة معظمهم بجراح وأسرهم، ثم بدأت بشن حملة تفتيش وتعقب أمني مسعورة لتطويق واعتقال أي مجموعات لها صلة بالجبهة الشعبية وحركة القوميين العرب في منطقة قرى رام الله.

ويذكر أن مجموعات حركة القوميين العرب السرية التي عملت في الضفة الغربية والشرقية الأردنية قبل عدوان 1967 كانت قد تعرضت لحملة اعتقالات في عهد النظام الأردني قبل أشهر من احتلال الضفة الغربية، طالت الكثيرين من كوادرها وقادتها المحليين. وشملت حملة الاعتقالات هذه في ذلك الوقت كوادر البعثيين والناصريين والشيوعيين وبقيت ملفات التحقيق التي أعدتها المخابرات الأردنية لهذه الكوادر القيادية في نفس مركز رام الله الأمني في مدينة رام الله، إلى أن جاءت قوات الاحتلال الصهيونية بعد احتلال الضفة الغربية بعد عدوان حزيران 1967 وحولت

المركـز إلى فـرع للتحقيـق وسـجن مؤقـت لأفـراد المقاومـة الفلسـطينية والفـدائيين، واستفادت من وجود تلك الملفات التي لم تقم سلطات المخابرات الأردنيـة بإتلافها أو بنقلها إلى عمان بعد احتلال الضفة الغربية.

وفي أعقاب حملة الاعتقالات التي نفذتها قوات الاحتلال بعد عملية مطار اللد تبين لنا أنها حملت نتائج قاسية علينا في الجبهة الشعبية وتمكنت من عرقلة وإفشال تجربتنا التمهيدية الأولى لبناء مجموعات مسلحة داخل الأراضي المحتلة وتفجير ثورة واسـعة فيهـا. وذكـرت وسـائل الإعـلام الصـهيونية في بدايـة عـام 1968 أن قـوات الاحتلال تمكنت من اعتقال عدد كبير من الرفاق الفدائيين وبعض قادتهم السياسيين والعسكريين من أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين داخل عدد من مدن وقـرى الضفة الغربية المحتلة ولم ينجُ مـن هـذه الاعتقـالات سـوى رفـاق الجبهـة الشـعبية في قطاع غزة.

وفي بداية شهر تشرين ثاني قمت بجمع كل من نجحنا في إدخالهم، سراً وضم إليهم الرفيق جورج حبش عدداً من ضباط وضباط الصف الذين كانوا قد خدموا في جيش التحرير الفلسطيني في غزة وفي العراق، ومنهم العقيد عبد الله العجرمي الذي قررنا تكليفه بقيادة كل المجموعات الفدائية التي أدخلناها الى الضفة الغربية، وعقدت معه اجتماعاً سرياً في أحد مخيمات النازحين في الضفة الشرقية. وبعد أيام قمت باستدعاء الرفاق المطلوب إدخالهم الى الضفة الغربية وهم عشرون، من بينهم تسعة من رفاقنا الكوادر القدامى الذين دخلوا من الحدود السورية، من خلال القوات العراقية.

كان هؤلاء الكوادر منا وممن أرسلهم رفاق الدكتور جورج حبش من ضباط وصف ضباط من جيش التحرير الفلسطيني، فبلغ العدد عشـرين رفيقـاً مسـلحاً سيشـكلون، بموجب خطتنا في الجبهة الشعبية في ذلـك الوقـت، قـادة ينتشـرون في عـدد مـن قـرى ومدن الضفة الغربية لتصعيد العمليات الفدائيـة داخـل الضفة الغربيـة وقطـاع غـزة، وبخاصة في مناطق رام الله والقدس وغزة. وكنا قد استطلعنا الطريق الآمن لهم لـيلاً قبـل أيـام مـن دخـولهم، وقمـت بتـوديعهم بعـد أن اجتـازوا نهـر الأردن، ونقلنـا عـبرهم، بالإضافة الى أسلحتهم الفردية وذخائرهم، عدداً كبيراً من القنابل اليدوية وكميات من المتفجرات والصواعق الكثيرة والفتائل الخاصة بها بهدف تخزينها في مكان آمن محدد

قبل أن يجري توزيعها على أماكن مختلفة في تلك المنطقة في رام الله. وكان من بينهم من رفاقنا في جبهة التحرير سابقاً إبراهيم سلامة وحسام بامية وصائب سويد وكامل ناصر ومحمود اللحام ومحمد عقلة وتحسين الحلبي ومحمد جابر شتا. وكان العدد الآخر من الرفاق الذين أحضرهم رفاق الدكتور حبش في نفس هذه الدورية يضم العقيد عبد الله العجرمي، الذي انضم للجبهة الشعبية هو والنقيب علي العواودة من ملاك جيش التحرير الفلسطيني في غزة قبل الحرب ثم انضما عن طريق حركة القوميين العرب الى الجبهة الشعبية بعد حرب حزيران 1967. وكان معهما الملازم أول محمد عبد الحسين من إربد والرقيبان ماجد عثمان وفايز عاقلة من ملاك جيش التحرير الفلسطيني سابقاً في العراق وعدد آخر من الرفاق من الضفة الغربية. وقد وصل الجميع قبيل فجر ذلك اليوم إلى قرى رامون وبيتين والطيبة من قرى رام الله وجرى توزيعهم على عدد من الأماكن وأبلغونا بسلامة وصولهم وباستقبال الخلايا السرية في تلك القرى لهم في اليوم التالي. وكانت مهامهم هي القيام بمهام التدريب وتوزيع ما لديهم من متفجرات وصواعق وقنابل يدوية على عدد من الخلايا في الضفة الغربية والاستعداد لرصد واستطلاع أهداف لقوات الاحتلال لتنفيذ العمليات ضدها. وقد قاموا خلال شهر تشرين ثاني 1967 بتنفيذ كل هذه المهام، إلى أن جرى اختيار عدد منهم وهم صائب سويد وكامل ناصر ومحمود اللحام ومحمد جابر شتا وهم من رفاقنا المدربين جيداً في جبهة التحرير الفلسطينية سابقاً ومعهم الرفيق فايز عاقلة من الذين رشحهم رفاق جورج حبش، للقيام بأول عملية فدائية للإعلان عن البيان العسكري الأول لانطلاقة الجبهة الشعبية بصفتها أول تجربة وحدة وطنية تجمع جبهتنا مع منظمة أبطال العودة ومنظمة شباب الثأر وهما الجناح العسكري لحركة القوميين العرب. وجرى اختيار يوم 13 كانون أول عام 1967 الموافق لشهر رمضان الفضيل لتنفيذ هذه العملية في القسم العسكري من مطار اللد وسيقودهم إلى موقعه الدليل جمعة الفارعة من جبال رام الله في تلك المنطقة عبر وادي الملاكي باتجاه القسم العسكري لمطار اللد. وقبيل الوصول بعدة كيلومترات، وبموجب ما ذكر لنا الرفاق بعد ذلك، كانوا قد شعروا بأنهم يسيرون ليلاً قرب صناديق خشبية فارغة تحمل عبارات عبرية وربما كانت تحتوي على ذخيرة حربية. وسارع الدليل إلى تحذير رفاق الدورية بطريقته من خطر وجود جنود للعدو لم يكتشفوا بعد عناصر الدورية، ما جعل الرفاق يتأهبون فوراً لإطلاق النار.. ويبدأ

الاشتباك الأول مع جنود للعدو في نفس المكان الذي يشبه وادياً صخرياً ساعدت طبوغرافيته الرفاق على المناورة ليلاً إلى أن تمكنوا بنيرانهم من الانتقال إلى خارج موقع الاشتباك قبل ظهور ضوء الفجر متجهين فرادى إلى نقطة تجمع (ازدلاف) حددت سابقاً في حال وقوع اشتباك ليلاً في الطريق إلى الهدف. وسقط الرفيق صائب سويد شهيداً بعد أن كان أول من أطلق النار على الجنود وأصاب عدداً بين قتيل وجريح.

وبعد تبادل النيران مع بقية عناصر الدورية الفدائية أصيب قائد الدورية محمد جابر شتا تحت كتفه. وتمكن الجميع- باستثناء صائب الذي تأكد للرفاق استشهاده وبقي جثمانه على أرض المعركة- من الوصول في اليوم الثاني والثالث إلى نقطة (الازدلاف) نقطة التجمع المحددة. لكن قوات العدو كان قد جن جنونها وبقيت ترصد وتتابع الآثار منذ فجر يوم 13 كانون أول إلى أن تمكنت من تحديد منطقة وجود عناصر الدورية في يوم 15 كانون أول 1967 وانتظرت ظهور النهار لتبدأ بقصف المكان الذي اختبأ فيه الرفاق، فوقع اشتباك آخر في وضح النهار وجرى تبادل لإطلاق النار كانت نتيجته استشهاد رفيقين وإصابة بقية أفراد الدورية بجراح ونقلهم إلى زنازين الأسر للتحقيق معهم وليس إلى العلاج. وتبين فيما بعد أن الاشتباك الأول أسفر عن مقتل خمسة جنود وإصابة ستة بجراح حضر بعضهم إلى المحكمة العسكرية كما ذكر الرفاق لإبلاغ المحكمة بأنهم أصيبوا في تلك الليلة أثناء مواجهتهم لعناصر الدورية. وفي النهاية تمكنا عام 1978 من أسر ضابط صف إسرائيلي أثناء توغل الجيش الإسرائيلي في منطقة قريبة من حدود لبنان مع فلسطين وفرضنا عملية تبادل "النورس" التي حررنا فيها 76 من الأسرى الفتيات والشبان، وكان من بينهم جميع المعتقلين من الجبهة الشعبية-

القيادة العامة في هذه العملية وغيرها وعدد كبير من الفدائيين الفلسطينيين من المنظمات الأخرى جميعاً.

استطاع الفدائيون (وأقصد منظمة فتح العاصفة والتحالف الجديد باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) الدخول عبر الحدود الجنوبية لسورية إلى الأردن للتموضع على حدود فلسطين التي احتلت عام 1948 وكذلك التي احتلت في حزيران 1967، وعلى مراحل، وساعدتنا على ذلك عوامل عدة أهمها:

- الإرادة الفلسطينية القوية لهذه المنظمات بعد أن أصبحت فلسطين بأكملها محتلة من العدو الصهيوني.
- وجود قاعدة انطلاق آمنة لنا هي سورية.
- ضعف النظام الأردني بعد هزيمة 1967 وتخاذله أو تواطؤه الذي أدى لاحتلال القدس والضفة الغربية.
- وجود وحدات عسكرية عراقية دخلت إلى الأردن أثناء حرب 1967 ولها انتشار في أماكن متعددة من الأردن خاصةً على الحدود مع سورية جنوب درعا. هذا الوجود ساعدنا أيضاً في اجتياز الحدود، رغم أن النظام الأردني حاول بكل إمكاناته منعنا وعدم السماح لنا بالدخول، إذ حشد كل طاقاته العسكرية والأمنية لهذا الأمر.

بدأ الفدائيون (فتح العاصفة، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) بالوصول إلى أغوار الأردن، من شمالها اعتباراً من (العدسية) حتى البحر الميت كمرحلة أولى. ثم بدأ وجود الفدائيين من جنوب البحر الميت باتجاه وادي عربة جنوباً كمرحلة ثانية. أما في المرحلة الثالثة فقد بدأ انتشار الفدائيين على التلال المشرفة على نهر اليرموك شمال الأردن والمشرفة على الجولان المحتل، أي أن طول حدود المواجهة بيننا وبين العدو أصبح حوالي 350 كيلومتراً. وقد شكل توضّع قواتنا في هذه المساحات الشاسعة والطويلة في مواجهة العدو عاملاً لصالحنا وليس لصالح العدو.

بعد ذلك بدأنا بعملية التعرف على الأرض التي نقف عليها، ثم بدأنا بالتحضير لعملياتنا القتالية ضد العدو الصهيوني ومحاولة اجتياز نهر الأردن في الغور الشمالي والأوسط والجنوبي[19].

المسرح الأول: يمتد من شمال الأغوار اعتباراً من العدسية إلى الباقورة، إلى المشارقة، ثم الشونة الشمالية، ثم الوقّاص حتى معدّي جنوباً، أي في مواجهة الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام 1948.

---

[19] - (لتسهيل وتوضيح الأمر أمام القارئ أقول: كان أمامنا في المرحلة الأولى مسرحان قتاليان مختلفان في أمور كثيرة).

هذا المسرح الذي يحده من الشرق نهر الأردن وقسم من نهر اليرموك كان يشمل منطقة ذات أهمية كبيرة وحيوية وحساسة للعدو الصهيوني لأنها تحوي مجموعة من المستوطنات والبلدات الهامة، وفيها كثافة سكانية معادية وتحوي أيضاً مزارع كبيرة ومعامل هامة، وبعض منها قريب من نهر الأردن من الناحية الغربية أو ملاصق له.. وسأعددها من الشمال إلى الجنوب ولعلّي لا أنسى بعضها وهي: (شعار هجولان في الشمال، شدوت يعقوب، مسّادة، غيشر، نيفيوّر، يردينيا، بيت يوسف، معوزحاييم، كفاررويين)، وكانت توجد في عمق هذه البلدات واعتباراً من جنوب طبريا مستوطنات (تل كَتّسير، أفاغيم، سمخ، ديغانيا "أ"، ديغانيا "ب").

بعد دخولنا لهذا المسرح بدأ العدو وبسرعة فائقة وبإمكانات كبيرة القيام بحماية هذا المسرح لما يحتويه من مستوطنات ومزارع. وكان العدو يعمل ليلاً نهاراً لإنجاز الوسائل التي يمكن أن يدافع بها عن هذا المسرح، وتتلخّص بما يلي:

أولاً: قام بإنشاء طريق معبّد على جانب نهر الأردن من الناحية الغربية وعلى قسم من نهر اليرموك من الناحية الشمالية.

ثانياً: قام ببناء سياج أمني معزز بالأسلاك الشائكة وبارتفاع 3.5 م يحمي به هذا الطريق.

ثالثاً: أنشأ العدو مخافر عسكرية متعددة بحيث تغطي وتحمي حدود هذا المسرح.

رابعاً: قام العدو بنصب أفخاخ على أطراف نهر الأردن الغربية مباشرة.

خامساً: بدأ العدو بتسيير دورياته الصباحية وبشكل يومي ومنتظم لتفقّد السياج والأسلاك والطرق المعلّمة، وبعد التفقّد كان يسمح للمستوطنين في تلك المستوطنات بالحركة والعمل.

سادساً: في بعض الأماكن أنشأ العدو طرقاً معلّمة أي تظهر عليها آثار من أراد أن يدخل في العمق.

سابعاً: كانت طائرات العدو الاستطلاعية تستطلع كل صباح مجرى نهر الأردن وحوله.

ثامناً: قامت طائرات العدو ومدفعيته بتدمير قواعد الفدائيين المكشوفة.

تاسعاً: كان العدو يضع كمائن ليلية متبدلة على حدود هذا المسرح.

عاشراً: كان العدو يقوم بتسيير دوريات ترافقها آليات مدرعة على الطرق الداخلية لهذا المسرح سواء ما بين المستوطنات أو على الطريق بين طبريا وبيسان على عمق من 3- 5 كم عن نهر الأردن، وكانت الدوريات تتوقف في أماكن متبدلة باستمرار.

أحد عشر: طلب العدو من سكان المستوطنات في هذا المسرح القيام بدوريات حراسة ليلاً مع التأكيد على تربية كلاب الحراسة المنتشرة حول المستوطنات.

هذه الأعمال التي قام بها العدو استغرق إنجازها كاملة أشهراً متعددة منذ وصولنا إلى هذا المسرح.

المسرح الثاني: يمتد من الشمال من سفوح جبال طوباس في الضفة الغربية حتى البحر الميت؛ أي كان هذا المسرح في مواجهة الأراضي التي احتُلت عام 1967، وهي متصلة بالضفة الغربية في الشمال، باتجاه جبال طوباس وجنين ونابلس، وفي الوسط باتجاه أريحا والجبال الشرقية للقدس، ورام الله وبيت لحم، وفي الجنوب باتجاه الخليل والسموع.

لم يستطع العدو أثناء تواجدنا في الأردن بناء أي مستوطنة في هذا المسرح، لكن إذا أردنا أن نصف هذا المسرح من الناحية الطبوغرافية نرى أن نهر الأردن هو الفاصل بين الضفة الغربية والضفة الشرقية، ويوجد على جانبي نهر الأردن سهول الأغوار الأوسط والجنوبي، وهذه السهول ليست عريضة فعرض الأراضي التي تصلح للزراعة منها لا يتجاوز 2- 4 كم فقط، ويحدها باتجاه الغرب جبال جنين وطوباس وجبال نابلس وسهل الجفتلك، وجبال رام الله والقدس وعرب التعامرة وهي منطقة جبلية جرداء. وترتفع هذه السلسلة الجبلية بحدود 1000م عن سطح البحر الميت أو نهر الأردن، وهذه الجبال الجرداء لا تتخللها طرق وذلك لصعوبتها، وهي كثيرة الوديان التي تحمل سيول الأمطار من الجبال من الغرب إلى الشرق لتصبّ في نهر الأردن، ما عدا مدينة أريحا والسهول حولها.

مقابل هذا المسرح على الجانب الشرقي الضفة الشرقية كما قلنا من جنوب معدّي والكريمة والكرامة والشونة الجنوبية، وأيضاً هذه البلدات تحدها من الناحية الشرقية جبال عالية هي جبال جرش وجبال السلط، ويوجد فيها كثير من الوديان التي تصب بالنهاية في نهر الأردن.

هذا المسرح تأتي أهميته بالنسبة للعدو الصهيوني من أنه يمكن أن يمنع وصول الفدائيين وعتادهم إلى الضفة الغربية، وكما قلت لا توجد في هذا المسرح أية أهداف صهيونية معادية.

أما الإجراءات التي قام بها العدو الصهيوني في هذا المسرح للحدّ من نشاط الفدائيين المتمركزين شرقي النهر فهي كالتالي:

أولاً: أنشأ مراكز بسعة فصيل مقاتل وبأسلحته المختلفة على الشفة العلوية الغربية من نهر الأردن، وهي محصنة بالإسمنت المسلّح سواء بمراكز إقامته أو الدشم التي تسيطر على نهر الأردن والمناطق المحيطة به، ويحيط بها مجموعة من الألغام.

مثل هذا الإجراء العسكري الذي قام به العدو عمّمه على مستوى المواجهة في هذا المسرح، ففي كل خمسة كيلومترات على الشفة الغربية لنهر الأردن كان يضع مثل هذه العقد العسكرية، ويربط كل هذه المواقع المحصّنة بطرق معبّدة على الشفة العليا للنهر، وأيضاً يربطها مع طريق رئيسي. وأذكر منها (موقع أم الشرط، موقع الشعشاعة، موقع أم نخلة).

ثانياً: قام بزراعة ألغام (عاثورية) وألغام عادية في الممرات التي تصل بين مجرى النهر وصعوداً باتجاه الغرب لإعاقة استخدامها، لكون هذه الممرات قد لا يراها العدو. بعد ذلك أنشأ العدو طريقاً معبّداً عريضاً على طول الغور الأوسط والجنوبي، وأنشأ طرقاً معلّمة على جانب هذا الطريق بعرض 7 أمتار، واستعمل كذلك وسائل تفجير أسميناها نحن الفدائيون "بنغلور" وهي عبارة عن أنبوب يزرعه العدو في الوديان التي يمكن أن يتم التسلل عبرها باتجاه جبال الضفة الغربية، وهذه "البنغلورات" تحتوي متفجرات وشظايا وتكون مربوطة بأسلاك رفيعة جداً على ارتفاع متر، بحيث أن مَن لا يملك خبرة بها يصطدم بالسلك فتنفجر مباشرة وتنشر شظاياها لمسافة حوالي 40م.

ثالثاً: كان العدو يسيّر دوريات على الطريق في العمق الواصل ما بين المنطقة المشرفة على جبال طوباس باتجاه نهر الأردن إلى الجفْتلك، ومن الجفتلك إلى أريحا إلى البحر الميت.

كان العدو يعتمد على الطبيعة وقسوتها في منع الفدائيين من الوصول في ليلة واحدة بعد أن يقطعوا نهر الأردن ليصلوا إلى المدن والقرى في الضفة الغربية. ولأن

هذه الجبال كما أسلفت كانت جرداء ولا تسمح بالاختفاء فلذلك كان العدو يكتفي بإجراء مسح لها كل صباح بواسطة الطائرات.

بعد أن شكلنا الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من هذه الفصائل الثلاث (جبهة التحرير الفلسطينية، حركة القوميين العرب "شباب الثأر"، أبطال العودة) اتصلت بنا شخصيات من الاتجاهات الناصرية الموجودة في الأردن وهي تضم ضباطاً ذوي رتب رفيعة المستوى في الجيش الأردني ممن تم تسريحهم وممن خرج من السجن، ولهم أيضاً تنظيم مدني ذو اتجاه ناصري في الضفة الغربية وفي الأردن. على رأس هذه المجموعات كان المرحوم "أحمد زعرور" وهو ضابط برتبة عالية في الجيش الأردني ومعه مجموعة من الضباط (المرحوم موسى محمود، عدنان القاسم، الشهيد طراد نويصر، أحمد عربيّات "أبو مدين")[20]، وتشكيلات مدنية من بينها أطباء ومهندسون ومثقفون (الدكتور بشير البسطامي، الدكتور حسان بدران، المهندس مقداد عنّاب) وغيرهم.

كان الأخ "أحمد زعرور" قد زار الضفة الغربية تحت الاحتلال، وقام بتنظيم بعض القوى الناصرية التي أصبح لها علاقة وطيدة مع الجبهة.

بعد أن استكملنا إعداد المعسكر وقمنا بتخريج عدد من الدورات، تحركت مع بعض رفاقنا من الكوادر العسكرية باتجاه الحدود الأردنية. وقد وصلوا إليها بصعوبة لأن الجيش الأردني كان يطلق النار من خلال كمائنه على الحدود عند أي محاولة للعبور.

أذكر عند وصولنا إلى مخيم الوحدات في عمّان ونزلنا ضيوفاً على إخواننا في حركة القوميين العرب (شباب الثأر) وكان يقودهم الرفيق المرحوم محمد عيسى الطيراوي "أبو عيسى" في مخيم الوحدات، كنا نختفي في النهار ونتحرك ليلاً ملثّمين تجنّباً لأجهزة الأمن الأردنية.

كان التعاون فيما بيننا تعاوناً مطلقاً وبمسؤولية كبيرة. وكنا نعرف نحن في جبهة التحرير الفلسطينية سابقاً أننا نتحالف مع حركة القوميين العرب (شباب الثأر) وهو تنظيم سياسي كبير وله امتداد، ولكن كان ينقصهم الذراع العسكري الفاعل الذي كنا

[20] - (بعض هؤلاء الناصريين كان من أصول فلسطينية أو من أصول شرق أردنية)

نحن في الجبهة نمثله. أما الأخوة فايز جابر وصبحي التميمي (أبطال العودة) فكان ميدان عملهم في منطقة الخليل، ولهم اتصال مع منظمة التحرير الفلسطينية.

شكلنا قيادة للجبهة الشعبية في الأردن كان منها: أنا وأبو جهاد يوسف طبل وفضل شرورو ونهاد عرفة وأحمد اليماني و"أبو علي" مصطفى الزبري، وحمدي مطر "أبو سمير" وأبو عيسى الطيراوي. وفي تلك الفترة كان المرحوم جورج حبش والمرحوم علي بوشناق قد احتُجزا في السجن داخل سورية، وكان الدكتور وديع حداد قد استقر بين بيروت وبغداد.

بدأنا نعمل في الأردن ليل نهار واستطاع المرحوم أبو عيسى وشقيقه، استئجار مزرعة في أغوار الأردن في منطقة (الكريمة) على الحدود مع الضفة الغربية. واخترت أن تكون جبال السلط جنوب غربي مدينة السلط مركز القيادة العسكرية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وأنشأنا قاعدة عسكرية في العدسية بقيادة أبو سعيد الخليلي والشهيد أبو العمرين أمجد، وفي جنوبها قاعدة في منطقة المشتل ولها موقع تبادلي في منطقة الجلدة مقابل الشونة الشمالية وجنوب الباقورة، وقاعدة في جنوب الشونة الشمالية في منطقة (وقّاص) بقيادة الشهيد فؤاد زيدان ويعاونه الشهيد عارف حسين علي حسن "أبو صالح" وجنوبها في منطقة معدّي يقودها الشهيد أبو هاني، وقاعدة في الكرامة في غور الأردن مقابل مدينة أريحا يقودها الشهيد يونس رمضان، وكذلك قاعدة في الشونة الجنوبية- بقيادة الشيخ صابر. كما أنشأنا قاعدة عسكرية في منطقة الكرك في وادي (ضانا) في غور الأردن جنوب البحر الميت بقيادة الشهيد أبو علي الأخضر، وقاعدة أخرى في منطقة العقبة. وهذه القواعد أغلب عناصرها كانوا مقاتلين مدربين من تنظيمنا ويقودهم الشهيد أبو علي الأخضر- وقاعدة في منطقة سحم الكفارات مقابل أراضي الجولان المحتل ومشرفة على نهر اليرموك يقودها سعيد الوحش "أبو أيمن"، ويعاونه سعيد شرشار "أبو بكر السوس" ومحمد عدنان رسلان- استشهد في أيلول عام 1970. كما أنشأنا قاعدتين عسكريتين في هضبة الجولان، الأولى في منطقة (جبا) شرق خط وقف إطلاق النار مقابل القنيطرة، والثانية في حوران في قرية (معريّة) مشرفة على وادي (الرقّاد) وجنوبي هضبة الجولان ويقودهما الشهيد أبو خالد الجولان (أحمد عبدو حميد ضاهر) يعاونه الشهيد أبو علي الشهابي الزبيدي. وكل عناصر ومسؤولي تلك القواعد كانوا من تشكيلات (جبهة التحرير الفلسطينية).

هذا العمل استغرق منا جهداً كبيراً وكنا أربعة نتابعه ونتعاون في قيادة هذه القواعد، فبالإضافة لي كان الرفيق علي بوشناق مسؤول الشؤون الإدارية والمالية بسبب وضعه الصحي، والرفيق يوسف طُبل، والرفيق قسّام شحادة وهو ضابط خريج الكلية العسكرية.

بعد إنشاء هذه القواعد العسكرية بدأنا بتشكيل قطاعات:

قطاع نهر اليرموك: فيه قاعدتان عسكريتان يقودهما الشهيد حسن خطاب وكان ضابطاً في جيش التحرير الفلسطيني خريج الكلية العسكرية.

القطاع الشمالي: يقوده مأمون حيفاوي ويعاونه المرحوم أبو كايد (فضيل طاهر) وطراد نويصر[21] وأبو علي الدلقموني مسؤول الشؤون الإدارية وله دور كبير بالإضافة لعمله في دعم وجودنا في القطاع الشمالي كونه مقيماً في مدينة إربد، وتتبع لهذا القطاع مجموعة من القواعد العسكرية الأمامية.

القطاع الأوسط: يقوده الشهيد قسّام شحادة وكان ضابطاً في جيش التحرير الفلسطيني خريج الكلية العسكرية، يعاونه "أبو مدين" أحمد عربيات وهو شرق أردني ناصري شجاع كان يرافق الدوريات داخل الأرض المحتلة.

قطاع جنوب البحر الميت: توجد فيه قاعدتان عسكريتان، وكان يقود هذا القطاع الشهيد أبو علي الأخضر، من تلال البحر الميت غور الصافي- غور الكتار حتى العقبة.

أما القيادة العسكرية التي تقود القواعد العسكرية في الأردن أو الجولان أو جنوب لبنان فكانت مشكلة من خمسة رفاق يتحملون هذه المسؤولية وهم أنا والرفيق علي بوشناق وكان مسؤولاً للمالية والشؤون الإدارية بسبب وضعه الصحي كما أسلفت، إضافة للرفاق يوسف طُبل، وأبو جاسم محمد حديد خريج الكلية العسكرية، والشهيد فؤاد زيدان، ومعنا أيضاً الرفيق أبو إبراهيم "أحمد محمود أبو لوحة" أميناً للسر. آنذاك كان الرفيق قسّام شحادة قد غادرنا إلى سورية لأسباب عائلية، بينما كان الرفيقان فضل شرورو ونهاد عرفة يتحمّلان مسؤولية التوجيه السياسي والمعنوي في الجبهة، ويتابعان الأمور التنظيمية في الأردن.

---

21 - (هو ضابط ناصري شرق أردني بدوي يتصف بالرجولة والشجاعة وكان يرافق الدوريات القتالية في الجبهة).

هذا الفريق كان ينتقل من قطاع إلى آخر ومن مسرح للعمليات إلى آخر، ويشرف على عملية فرز العناصر التي أنهت تدريبها في معسكر التدريب المركزي على القواعد القتالية، ومتابعة العناصر المستجدة أثناء قيامها بعمليات الاستطلاع ثم قيامها بالعمليات القتالية للاطمئنان على قدرتها وعدم اختراقها أمنياً.

كنا نتابع مسؤولي القطاعات والقواعد في برامجهم الشهرية سواء في عمليات الاستطلاع أو العمليات القتالية، وكنا نشارك الرفاق في هذه القواعد في أعمالهم الاستطلاعية أو القتالية رغم أن بعض رفاقنا من مسؤولي القواعد كانوا يرفضون مشاركتنا لكن كنا نقول لهم «اتفقنا بأن نكون شركاء مع بعضنا البعض، وليس نظام القائد والأجير». وكانت مشاركتنا في العمليات الكبيرة تعطي دفعة معنوية هائلة وكبيرة للمقاتلين.

أثناء عمل هذه القيادة كانت مقراتنا هي القواعد العسكرية، ننام فيها ونأكل مع رفاقنا المقاتلين ودون أي تمييز، وقد أبلت هذه القيادة بعملها الجاد بلاءً حسناً فأعطت نتائج باهرة من حيث:

أولاً: الحد من عدد الشهداء والجرحى في صفوف مقاتلينا.

ثانياً: إيقاع أكبر قدر من الخسائر في صفوف العدو الصهيوني من خلال جبهات المواجهة الأردنية أو السورية أو اللبنانية.

ثالثاً: متابعة قواعدنا السرية في داخل الضفة الغربية، ومحاولة تأمين السلاح والعتاد والإمكانات لها من خلال عبور نهر الأردن أو عبر البحر الميت بواسطة الزوارق المطاطية سواء بالتجديف أو المحركات لتتابع هذه القواعد عملها.

من حسن حظنا أننا تعرفنا على شاب فلسطيني اسمه "سفيان القدومي" درس في ألمانيا الغربية، وكان يسكن في عمان وحالته المادية لا بأس بها لأن والده كان تاجراً. سفيان القدومي "رحمه الله" كان متحمساً بحيث كنا نكلّفه مراراً بالذهاب إلى الضفة الغربية لإنشاء نقاط تنظيمية للجبهة هناك، وكنا نرسل معه وسائل إيضاح لتدريب بعض الرفاق، وقام بهذه المهام مرات متعددة بجدارة وشجاعة.

كذلك كنا نتابع مركز البحوث العلمية الخاص الذي أنشأناه من مجموعة من الفنيين سواء كانوا فلسطينيين أو شرق أردنيين من الذين التزموا معنا. واستطعنا من خلاله تطوير عملنا العسكري وإيقاع العديد من القتلى والجرحى في صفوف العدو الصهيوني بمساعدة الابتكارات والاختراعات التي استطاع رفاقنا في مركز البحوث

إبداعها، كما قدّم هذا المركز التجهيزات الفنية التي يمكن من خلالها القيام بتفجير العبوات الناسفة عن بُعد لمسافة تصل إلى حدود 3 كم تقريباً، وهذه الأجهزة تعمل إما بالصوت أو بالظل وبأساليب عديدة. وقد استعملنا ما أنتجه مركز البحوث في الجبهة على الحدود ضد العدو.

ساعدتنا شبكة الاتصالات اللاسلكية التي تم شراؤها عن طريق تنظيمنا ورفاقنا في الكويت من نوع "غالاكسي" في ربط كل مراكزنا القيادية الهامة مع بعضها البعض. وهذا الأمر سهّل لنا كثيراً أعمالنا في السيطرة على قواعدنا المنتشرة ومن خلال شيفرات معقدة لا يمكن فكها بسهولة من قبل العدو. كما أننا اشترينا مناظير الرؤية الليلية ومناظير أخرى تستطيع أن تكشف مناظير كمائن العدو الليلية التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء، ومن خلال هذه المناظير استطعنا أن نتجنب الكمائن التي كان العدو يزرعها في أماكن مختلفة ومتبدلة. وقد حقنت هذه المناظير الكثير من دماء رفاقنا. وأقولها بكل تواضع وللأسف أن الفصائل بما فيها حركة "فتح" لم تكن تمتلك مثل هذه التجهيزات الفنية أو وسائل الاتصال رغم إمكاناتهم المادية الكبيرة، وكانت حيازة هذه المعدات يمكن أن تجنّبهم خسائر كبيرة في الأرواح، وتفسير ذلك، والاستنتاج متروك لمَن يقرأ، الجهل أو عدم الجديّة أو إعطاء الأولوية لمواضيع أخرى.

في اجتماعاتنا مع قادة وحداتنا المقاتلة في الجبهة وقياداتهم كنا نتبادل الأحاديث في التسميات: هل نستعمل في المخاطبة بيننا كلمة "رفيق" أم كلمة "أخ"؟. فنتيجة هذه اللقاءات كان هناك اقتراح من رفاقنا، حيث قال بعضهم "لماذا لا نسمي الرفاق بكلمة (أبو شريك) ما دمنا شركاء ولسنا أُجراء!؟" وشاعت هذه التسمية فيما بيننا إلى مرحلة متقدمة من عملنا.

في واقع عملياتنا ضد العدو الإسرائيلي كان سلاحنا وعتادنا متخلفاً عندما دخلنا إلى الأردن، خاصة الأسلحة المضادة للدروع أو للطيران، بينما دوريات العدو التي تسير مجاورة لحدود الأرض المحتلة في مواجهتنا سواء في الأردن أو في لبنان أو في الجولان، تستخدم في تنقلاتها العربات المدرعة والدبابات لحماية جنودها وتملك قوة نارية كبيرة، في حين لا يملك الفدائيون سوى البنادق والرشاشات بجدواها المحدودة ضد تصفيح المدرعات الصهيونية المواجهة لهم.

لذلك اتخذنا قراراً بأن يقوم رفاقنا المنظّمين في جيش التحرير الفلسطيني في قطنا- (قوات حطين) وكان يقودها العميد مصباح البديري- بالاستيلاء على السلاح

المضاد للدبابات والآليات المصفحة (ب7) والذي لم يكن متوفراً لدى الفدائيين من كل الفصائل في ذلك الوقت.

أعطينا أوامرنا لرفاقنا (الملازم مأمون حيفاوي والملازم محمد حديد والملازم حسن خطاب) ومجموعة من ضباط الصف والجنود في عام 1968 بأن يرتبوا عملية استيلاء على مستودع الأسلحة لأخذ قواذف (ب7) المضادة للدروع وذخائرها (18 قاذف- جهاز بوز عدد 1)، وأرسلنا لهم سيارتي (بيك آب) لتنقلهم مع السلاح والعتاد إلى الأردن على أن يكون ذلك في يوم عطلة.

عندما وصل هذا السلاح النوعي كان معه سلاح للتدريب يسمّى (جهاز البوز)، بدأنا فوراً بتدريب مجموعات من رفاقنا المقاتلين في أغوار الأردن على هذا السلاح (الذي اعتبرناه هدية أرسلها الله لنا). وبعد الانتهاء من عملية التدريب بدأت دورياتنا الداخلة إلى الضفة الغربية للاشتباك مع العدو تدمر له الدبابات والعربات المدرعة وتوقع الخسائر في صفوفه.

هذا السلاح غيّر إلى حد ما ميزان القوى لصالحنا وأربك العدو، وبدأت بعض الأبواق في المنظمات تتحدث بأن سورية قد قدمت هذا السلاح لنا، دون أن يعرفوا حقيقة ما جرى، وأن الرفاق الذين استولوا على هذا السلاح صدرت أحكام بالسجن المؤبد بحقهم.

وكنا في منتهى السعادة لوجود كوادر لنا في جيش التحرير الفلسطيني يساعدوننا بمسؤوليات العمليات ضد العدو الإسرائيلي.

الأخوة في حركة فتح حصلوا على صواريخ كاتيوشا ولا نعرف مصدرها ويصل مداها لحدود 15 كيلومتراً ولكنها غير دقيقة أي يمكن استعمالها لضرب أهداف منطقة وليس أهداف نقطية. وكانوا يستعملون هذه الصواريخ عندما كنا في الأردن أو في الجولان المحتل أو في جنوب لبنان. وكانت هذه الصواريخ تسبب رعباً للمستوطنين الصهاينة الذين تستهدفهم. ورداً على قصف الكاتيوشا كان يلجأ العدو إلى شنّ غارات بطائراته ويقصف بمدفعيته الأهداف المدنية الأردنية أو السورية أو اللبنانية، وقد ولّدت عمليات قصف العدو للمدنيين مشاكل معهم.

قد تكون لصواريخ الكاتيوشا هذه فوائد ونتائج جيدة، ولكن بدأنا نشعر بأن أضرارها الجانبية التي ترتدّ علينا وعلى المدنيين وعلى علاقتهم بنا كانت كبيرة. وقد

سادت للأسف حالة بين الفدائيين بحيث أصبح بعضهم يقول: "لماذا أدخل الأرض المحتلة لأقاتل العدو ما دمتُ قادراً على أن أطلق عليه هذا الصاروخ من بعد كيلومترات، ثم أغادر؟". أما رفاقنا في القواعد فكانوا يترجمون ثقافتهم القتالية وتجربتهم العسكرية من خلال قناعتهم بالمبدأ الثوري الذي يقول: (ليس المهم أين تصل قذائفنا بل المهم أين تصل أقدامنا)، وهذا ما كنا نفعله من خلال دورياتنا التي تجتاز نهر الأردن أو اليرموك أو جنوب البحر الميت باتجاه وادي عربة والنقب، أو من خلال الجولان المحتل أو عبر أصبع الجليل في جنوب لبنان، وتلك العمليات كانت تبعث في روح الفدائي الثقة بنفسه بأنه قادر أن يدخل أرض فلسطين المحتلة، فالتراشق بالقذائف هو من عمل الجيوش وليس من عمل الفدائيين وحرب العصابات.

في المقابل فشلنا في بعض المهام.. وأريد أن أثبّت ذلك بسبب أخطاء ارتكبها قائد الدورية (أبو حسن جمعة دلول) "رحمه الله" الذي كلّف مع دورية مؤلفة من 12 رفيقاً باجتياز نهر الأردن باتجاه جبال جنين ليكون مقرها في منطقة جنين وفي أحراش "يعبد". وقد عبرت الدورية نهر الأردن واجتازت المسافة بين جنوب بيسان وشمال طوباس.

كان معهم رفيق لنا اختبرناه مراراً لنتأكد من نقائه الأمني وهو ابن منطقة جنين. وبالفعل اجتازوا بنجاح نهر الأردن وجنوب سهل بيسان صعوداً إلى جبال جنين واستغرقت الدورية في مشوارها يومين. وقد وجدوا مغارتين في الجبال هناك للاختباء فيهما لحين إتمام ترتيبات شؤون استيعابهم من قبل قاعدتنا التنظيمية في جنين. لكن هؤلاء الرفاق الـ 12 فوجئوا في صباح أحد الأيام بتقدم العدو على منطقتهم ومحاصرتهم، بعد أن قصف العدو المنطقة المتمركزين فيها ما أدى لسقوط شهيد وأسر باقي العناصر[٢٢].

كانت هذه العملية أولى النكسات التي صادفتنا كقيادة ولا نعرف إلى اليوم هل كان السبب هو عدم تنفيذ الدورية للتعليمات التي أُعطيت لها؟ أم أن هناك اختراقاً أمنياً؟

كان أغلب قادة وعناصر هذه القواعد من رفاقنا في تشكيلات (جبهة التحرير الفلسطينية) التي أصبح اسمها (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين). وكما قلت سابقاً

---

[22] - (على كل حال تم إطلاق سراح هؤلاء الأسرى من رفاقنا في عملية تبادل مع العدو في عام 1979 في عملية النورس).

فإن الرفاق في حركة القوميين العرب- رغم امتدادهم ونشاطهم السياسي- كان لديهم ضعف في الجناح العسكري، لذلك بذلتُ كل جهدي لمشاركتهم في العمل العسكري. وعند خروج الشهيد أبو علي مصطفى من الضفة الغربية استقبلته في مركز القيادة في منطقة السلط، كذلك استقبلنا المناضل الأخ "أبو أحمد فؤاد"، وشاركا معي في القيادة وكان للأخوة في شباب الثأر رفيق من جيش التحرير الفلسطيني برتبة رقيب في غزة هو (عبد الرحيم ملوح)، فأنشأنا له قاعدة استطلاع أمامية قرب نهر الأردن وأقمنا له بيتاً من الشعر ليبدو كراعي أغنام ويقوم بمراقبة تحركات العدو في قبالة منطقة (فصايل والعوجة) غرباً شمالي أريحا في مواجهة نهر الأردن، وقد أصبح الرفيق ملّوح عضواً في اللجنة التنفيذية للمنظمة وممثلاً للجبهة الشعبية (د. جورج حبش) فيما بعد.

كنت معنياً بجدية بإنشاء جسم عسكري لحركة القوميين العرب قادر على العمل العسكري، ولكن الأمر لم يكن سهلاً ولا يتم بسرعة ولم أشعر بتجاوب جديّ في بعض الأحيان مع الجهد الذي كنت أبذله لإنشاء هذا الجسم العسكري وتقويته، رغم أن لهم وجوداً سياسياً مهماً جداً في الضفة الغربية وفي غزة وفي الأردن أيضاً كان يعطي زخماً للجبهة الشعبية سياسياً وإعلامياً.

أنشأنا بعد ذلك قاعدة في بلدة (الكرامة)[23] شمال الشونة الجنوبية.

أنشأنا قواعد عسكرية في مكان جانبي عند الطرف المقابل لنهر الأردن وجبال رام الله ونابلس. كنا نعمل ليلاً نهاراً من أجل رعاية هذه القواعد وحمايتها من أجهزة الأمن الأردنية ومن الاعتداءات الصهيونية سواء برمايات المدفعية أو الطائرات، لأنها قواعد شبه سرية في غور الأردن أي شمالي البحر الميت حتى جنوبي بحيرة طبريا ووادي اليرموك ومن جنوب البحر الميت حتى العقبة.

كان المقاتلون في هذه القواعد يقومون باستطلاع أرض الصديق بشكل جيد وقد شاركتهم شخصياً، ثم بدأنا نضع مراصد مخفية على نهر الأردن مقابل العدو لرصد تحركاته ومعرفة ما يجري على الأرض وعلى نهر الأردن بشكل جيد نهاراً وليلاً.

---

[23] - (الكرامة عبارة عن قرية كبيرة تعتمد على العمل الزراعي وفيها سوق لبيع المنتجات الزراعية الشتوية من الخضار، حيث يتجمع كل إنتاج الغور شمال البحر الميت حتى الشونة الشمالية "كسوق مركزي للخضار، ويأتي التجار من كل مكان ليشتروا منه للتوزيع الداخلي أو للتصدير الخارجي).

وفي هذه المرحلة اتفقنا داخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على إرسال مدربين وعناصر مقاتلة من تنظيمنا إلى الضفة الغربية ليقوموا بالعمليات القتالية وتدريب كوادر من حركة القوميين العرب (شباب الثأر) هناك، واتفقنا أن يقوم الرفاق في حركة القوميين العرب باستقبال هؤلاء المقاتلين وتأمين أماكن إقامتهم وإخفائهم وتسهيل تحركهم، وإذا كان بالإمكان مشاركتهم مع رفاقنا بالعمل العسكري، إضافة للمهام التدريبية.

أذكر أننا أرسلنا مجموعات باتجاه رام الله وما حولها ومنهم أذكر، الشهيد صائب سويد الذي شارك في عملية مطار اللد واستشهد هناك، واستشهد معه كامل ناصر. وكانت هذه العملية تضم بالإضافة لقائد الدورية خمسة من رفاقنا ورفيقاً من شباب الثأر إضافة للدليل.

كما كلفنا مجموعة أخرى تضم: الرفيق إبراهيم سلامة أبو عرب "رحمه الله"، الرفيق تحسين الحلبي، الرفيق حسام بامية "رحمه الله"، الرفيق محمد عقلة "رحمه الله"، الرفيق محمود اللحام "رحمه الله"، والرفيق عماد عوكل "رحمه الله"، والرفيق محمد جابر شتا (أبو جابر) "رحمه الله" بعملية تدريب خلايا لنا أو خلايا لشباب الثأر، وأيضاً كُلّفوا بعمليات عسكرية على طريق قرية النبي صموئيل باتجاه مطار اللد حيث نفذوا عملية في مطار اللد.

كما قمنا بإرسال مجموعة من الرفاق والكوادر باتجاه الناصرة في عمق الأراضي المحتلة عام 1948 للقيام بعمليات عسكرية هناك قرب قرية (اندور) جنوب الناصرة وكان يقود هذه المجموعة أبو محمد حافظ ويعاونه عمر أبو راشد "رحمه الله".

في إحدى العمليات انطلقت المجموعة من "الجلدة" غربي الشونة الشمالية وهي لا تبعد عن نهر الأردن سوى 200م، واستخدمت خياماً فردية متسللة بين أشجار الحمضيات والموز، إلى أن وصلت إلى هدفها بعد ثلاثة أيام جنوب الناصرة- منطقة أندور. وجراء خلل فني انفجرت عبوة ناسفة أثناء إعدادها لتفجير محوّلات وأعمدة التوتر العالي الإسرائيلية في منطقة الناصرة ما أدى لأسّر الرفيقين (أبو محمد حافظ وعمر أبو راشد)[24] اللذين أصيبا بجراح خطيرة. بينما انسحبت المجموعة التي كانت معهما، وعادت إلى قاعدة الانطلاق على نهر الأردن.

---

[24] - (تم الإفراج عنهما في عملية النورس لتبادل الأسرى عام 1979 بين الجبهة والعدو الإسرائيلي).

ومنذ ذلك الوقت لم يفتني أبداً التفكير بإعداد عمليات لأسر جنود من قوات العدو ونقلهم من داخل حدود فلسطين المحتلة إلى مواقعنا بهدف القيام بعمليات تبادل للأسرى بيننا وبين العدو لتحرير مَن جرى اعتقاله وأسره من رفاقنا الذين صدرت ضدهم أحكام بالحبس المؤبد وبالحبس عشرات السنوات.

كان لدينا أحد الأسرى من جنود الجيش الإسرائيلي اسمه (يوسف حبقة) أسرناه بسلاحه من جنوب لبنان في أصبع الجليل قرب مستوطنة "دان" في نهاية عام 1969، نقلناه سراً إلى الأردن إلى الموقع (707)، لكننا لم ندخل في مساومات سواء إعلامية أو سياسية مع العدو حول عملية التبادل لأن هذا الأسير هو عربي الجنسية (درزي) لذا كان يعز علينا أن نبادل عربياً مجنداً في جيش العدو مقابل الفدائيين.

وفي يوم من الأيام قال لي قائد موقع (707) بأن أحد القيادات الهامة في حركة "فتح العاصفة" قال له سراً: «إذا سلمتموني هذا الجندي الأسير "يوسف حبقة" الموجود لديكم سأقدم لكم ما تحتاجون إليه من مواد غذائية ومال".. وكان الأسير يوسف حبقة قد مضى على أسره لدينا أكثر من عام ولم نساوم عليه (الإسرائيليين) لأنه عربي، وكنا نعامله معاملة حسنة، بل إننا قمنا بعملية إعادة تثقيفه قومياً ووطنياً حسب قناعاتنا وبغض النظر عن مدى قناعته ونواياه. وبعد احتلال الجيش الأردني لكل المواقع غربي جرش وسقوطها، استشهد من استشهد وتمكن الجيش الأردني من القبض على يوسف حبقة وقام بتسليمه للعدو الصهيوني.

ومنذ منتصف عام 1970 وضعت على جدول عملي هذه المهمة، وكنت أبحث عن أفضل موقع تستهدفه دورياتنا القتالية الفدائية سواء في المواقع القريبة في الضفة الغربية المحتلة أو من منطقة الجولان المحتلة على الحدود السورية.

قمت بتوجيه بعض دوريات الاستطلاع لرصد هاتين المنطقتين فنجحنا باستطلاع موقع للجنود الإسرائيليين الذين يعدون منشأة قرب شاطئ بحيرة طبريا. وكانت دوريات الاستطلاع التي تكلف بالذهاب إلى منطقة الهدف تصوّر الطرق الموصلة للهدف بالإضافة للهدف ذاته من خلال كاميرات سينمائية يدوية (8 ملم). وكانت هذه المنشأة كبيرة جداً حيث يقوم العدو باستخدام معدات هندسية ثقيلة كثيرة، ويعمل فيها المئات من عماله ومهندسيه منذ الصباح حتى المساء ثم يغادرون وتبقى في

الموقع مجموعة من الجنود (4 – 6 عناصر) لحراسة الموقع والمعدات. وكشفت دوريات الاستطلاع أنه في يوم السبت لا يتم العمل في هذا الموقع.

قبل الحديث عن الأهمية العسكرية لهذه العملية النوعية وهدفها الميداني، لابد أن أشير إلى غاية سياسية مهمة شكلت من حيث التوقيت قيمة أساسية بالنسبة لنا.

فقد كانت الأجواء والأنظار لدى كثيرين في ذلك الوقت من بداية شهر آب 1970 تتجه نحو المبادرة السياسية لوزير الخارجية الأميركي ويليام روجرز للتوصل إلى وقف للنار في حرب الاستنزاف المصرية المحتدمة ضد الجبهة الإسرائيلية على ضفة القناة المحتلة، وتزامنت مع التوصل إلى اتفاق على مبادرة روجرز بين (إسرائيل) ومصر والأردن.

اخترت تصعيد العمل العسكري- ومنه هذه العملية- لتوجيه الانتباه والتركيز في ساحة وجودنا في الأردن نحو الصراع مع العدو الصهيوني وتجنب توتير الوضع حول مبادرة روجرز لمنع الانجرار نحو خلافات وصراعات على السلطة في الأردن وعدم تغليب الحسابات الضيقة التي لا تصب في خدمة شعبنا واستمرار ثورته ووجودها في ساحة الضفة الشرقية.

أما الأهداف المباشرة للعملية من ناحية عسكرية فكانت:

أولاً: أسر جنود العدو الذين يقيمون في خيمتين لحراسة لهذا المشروع.

ثانياً: تدمير المعدات الهندسية الثقيلة التي تستخدم في هذا المشروع.

(كانت دوريات الاستطلاع قد صورت الموقع المستهدف من مسافة لا تزيد عن 800 م من بين الصخور والأشجار).

وفي التفاصيل، تم اختيار مجموعة من الرفاق لتنفيذ العملية يقودها الرفيق إسماعيل دبج "رحمه الله"- وهو من عشيرة أردنية من الزرقاء- ومعه تسعة رفاق فلسطينيين وعراقيين وسوريين قمنا بتدريبهم بشكل جيد. وأثناء التدريب حرصنا على نقلهم إلى معسكر للجيش السوري سلاح المهندسين اسمه (الفوج 88) في منطقة صحنايا قرب دمشق باتجاه الجنوب السوري، في "معسكر الجهاد" الذي ساهمت في إنشائه وتسميته، والذي كان يقوده الرائد إسكندر سلامة. وقد اتصلت بذلك الرائد والتقيت معه وحدثته عن هذه الدورية دون أن أذكر له أي تفاصيل أخرى.

ولأن رفاقنا لم يشاهدوا المعدات الثقيلة من قبل وأين يجب أن توضع الحشوات الموقوتة لتفجيرها وتدميرها بالكامل، طلبت من إسكندر سلامة أن يتيح لنا المجال لكي يطلع أفراد هذه المجموعة على المعدات الثقيلة وعلى المناطق الحساسة التي يجب أن توضع فيها المتفجرات لتدميرها .

وافق الرائد سلامة على الفور دون أن يستأذن ممّن هو أعلى منه رتبة في التشكيل، وفعلاً أرسلنا الدورية وكانت بقيادة الرفيق إسماعيل دبج مع رفاقه واطلعوا على كل المعدات الثقيلة والأماكن الحساسة التي يجب أن توضع فيها المتفجرات.

انطلقت هذه الدورية من قاعدتنا العسكرية في صيدا/ حوران في الثامن شهر آب عام 1970 وهو اليوم الذي صادف أول يوم على إعلان وقف النار على الجبهة المصرية الإسرائيلية. وسارت عبر الطريق إلى غدير البستان ثم بدأت بالدخول إلى الأرض المحتلة في المنطقة ما بين الرفيد وقرية البطمية وشمالها (تل الفرس) ثم قطعت الطريق الإسفلتي الذاهب إلى (فيق) ونزلت إلى وادي السمك المتجه من جهة الشرق إلى الغرب إلى بحيرة طبريا، وهذا الوادي يصلها بمنطقة (سكوفيا). وكان على الدورية أن تتسلق بعض التلال المشرفة على موقع المستوطنة الجديدة التي كان (الإسرائيليون) يعملون على إنشائها خلال كل أيام الأسبوع ماعدا يوم السبت، ولذلك اخترت مساء يوم الجمعة ليلاً توقيتاً لتنفيذ العملية، ذلك لأن دخول يوم السبت، الذي يتعين على اليهود التوقف فيه عن العمل، يبدأ من مساء الجمعة إلى مساء السبت .

وصلت الدورية بسلاحها وعتادها ومتفجراتها وأقلام التوقيت والقيود المعدة للرسغين (كلابشات) لجلب أسرى من الجنود الصهاينة. وبعد يومين وصلت الدورية، ولم يبقَ أمامها إلا ساعة التنفيذ. وكان رفاقنا يكمنون في وادٍ سحيق جداً يقع شمال بلدة (فيق) ويخفون أنفسهم بين الصخور في الوادي استعداداً للتنفيذ. لكنّ العملية للأسف الشديد فشلت أثناء انتظار ساعة الصفر واستشهد رفيقان لنا فيها وجرح آخرون وأُسر بقية عناصر الدورية.

حزنا كثيراً على الفشل الذي أصابنا في هذه الدورية خاصة بعد الجهد الذي بذل من أجل تنفيذ العملية كجهود الاستطلاعات المتعددة والتدريب، وكذلك الفشل بتحقيق هدفها العسكري في أسر جنود (إسرائيليين) بهدف تحرير كل الفدائيين من كل المنظمات من سجون العدو (الإسرائيلي).

لكن ألمي وحزني ازدادا أكثر حين قيل لي إن تلفزيون العدو سيذيع تفاصيل هذا الاشتباك وأن الناطق باسم الجيش الصهيوني قال أيضاً إنه «في نشرات الأخبار القادمة سنذيع عليكم اعترافات هؤلاء (المخرّبين)».

بدأت أتساءل ماذا سيقول هؤلاء الرفاق وأنا الذي لا يعرف سبب وقوعهم في الأسّر رغم الإعداد الجيد لهم؟.. كان (الإسرائيليون) يهتمون بعرض بعض الأسرى من الفدائيين من مختلف المنظمات على التلفزيون لكي يعربوا عن ندمهم وعن استنكارهم للعمل الفدائي. وطوال تلك الفترة لم يحدث أن ظهر أي من رفاقنا في (الجبهة الشعبية القيادة العامة) على التلفزيون الإسرائيلي نادماً أو مستنكراً، فالعدو لم يستطع في ذلك الوقت أو بعده أن يجعل واحداً من أسرانا يظهر بهذا الشكل المهين على التلفزيون ليتحدث نادماً عن عمله أو مستنكراً للعمل الفدائي، (ونحن نتحدى إن كان أحد يستطيع أن يحضر تسجيلاً يبدي فيه أي من رفاقنا ندمه أو استنكاره للعمل الفدائي). وفي النهاية جاء في النشرات الإسرائيلية التي تلت اعتذار عن بث تلك المقابلات المزعومة وقال التلفزيون الإسرائيلي «نعتذر، لم نستطع أن نعرض مقابلات مع (المخرّبين) الذين أتوا إلى شاطئ طبريا».

كان رفاقنا يعرفون جيداً أن أي كلمة يقولها من يؤسر سيحاسب عليها، إضافة إلى أنه أولاً سيوصف بالجبن والتخاذل وثانياً سيقول ما يرضي العدو، ونحن نعرف أن رفاقنا محصّنون بمبادئهم وقناعاتهم وقيمهم[25].

وبعد تحرير الرفاق التقيناهم وتحدثنا عن أسباب فشل الدورية وعرفنا منهم أن السبب الرئيسي كان عدم التزام أحد عناصر الدورية بالتوجيهات المعطاة لهم، وهي عدم الحركة أثناء النهار مما كشف موقع الدورية وهي في المرحلة الأخيرة قبل التنفيذ، فالوادي كان مرصوداً من نقاط رصد (إسرائيلية) في المرتفعات. وقد رصد العدو حركة ذلك المقاتل فأرسل قوات كبيرة محمولة جواً وبراً ودارت معركة غير متكافئة كون رفاقنا في قعر الوادي والعدو يسيطر على المرتفعات.

بعدما علمنا بفشل العملية غادرت وبسرعة مدينة إربد الأردنية إلى سورية، وزرت الفوج (88) في صحنايا والتقيت مع قائد الفوج الرائد إسكندر سلامة ومعاونه الرائد

---

[25] - (تم الإفراج عن عناصر الدورية المعتقلين في عملية النورس لتبادل الأسرى عام 1979 بين الجبهة والعدو الإسرائيلي).

عبد الكريم حسون، وأبلغتهم بأن العملية التي لم أكشف لهم عن مكانها كانت على شاطئ بحيرة طبريا الشرقي حيث العدو يعد لمشروع كبير من المزمع إنشاؤه على شاطئ طبريا، وقد فشلت ولا نعلم الأسباب التي أدت لفشلها. ونصحتهم بالبدء بنشر المعدات الهندسية والآليات وانتشار الفوج في البساتين حول الفوج لأن العدو من الممكن أن ينفذ غارات جوية على الفوج، خاصة وأنه كانت هناك حرب استنزاف عربية ضد العدو (الإسرائيلي) في كل الجبهات.

بعد لقائي هذا بـ 36 ساعة قام الطيران (الإسرائيلي) بغارة كبيرة على الفوج (88) في صحنايا، ولكن الانتشار واحتياطات الحماية التي اتخذها هذا الفوج بعد إنذارنا أحبط قدرة العدو على تحقيق أي خسائر بشرية أو أضرار بالآليات والمعدات، بل كانت الخسائر مقتصرة على بعض المباني.



طلبنا من رفاقنا في تنظيم جبهة التحرير الفلسطينية سابقاً في بيت لحم والخليل المشاركة في العمل العسكري هناك والمساعدة في أعمال التدريب، وكذلك في منطقة نابلس، وقد أرسلنا إليهم مدربين من فلسطينيي سورية.

كنا كخلية نحل تعمل ليلاً نهاراً. وكان رفاقنا في سورية يقومون بمهام صعبة أيضاً والإشراف على معهد التدريب المركزي الذي كانت تضم دوراته العسكرية مئات من المناضلين؛ فلسطينيين وغير فلسطينيين أغلبهم من تنظيمنا.

كانت عملياتنا العسكرية عبر الأغوار من شمالها إلى جنوبها حتى العقبة وجنوب لبنان ووادي اليرموك وهضبة الجولان. ولم يكن يمر يوم إلا وكانت دورياتنا تخترق الحدود للاستطلاع أو للقتال. وكانت خسائر العدو البشرية ثقيلة جراء عملياتنا، وقد حرصنا في بلاغاتنا العسكرية على الإعلان عن عملياتنا وما حققته ضد العدو بموضوعية دون تحديد أرقام عن خسائره هذه.

في هذه المرحلة طلبنا من بعض رفاقنا من ضباط الصف والجنود في جيش التحرير الفلسطيني "قوات حطين" أن يغادروا هذا الجيش ويلتحقوا بنا في الأردن، فالتزموا وكان لهم دور مهم. كما أننا استطعنا الحصول على قرار بفرز أحد ضباطنا من جيش التحرير الفلسطيني، وقد تحرك بالفعل إلى الأردن واستلم مسؤولية كبيرة، وهو الشهيد الملازم قسّام شحادة قائد القطاع الأوسط ومركزه الكرامة.

هنا أؤكد باعتزاز وفخر أن عملياتنا كانت مؤثرة في العدو، حيث ينطلق المقاتلون لتنفيذ مهامهم بعد الرصد والاستطلاع والأداء الجيد موقعين الخسائر في صفوفه. وكنا ننفذ عمليات عديدة على طول وادي الأردن، ووادي اليرموك، وجنوب البحر الميت حتى العقبة، رغم مراكز المراقبة التي كان يضعها النظام الأردني على الممرات الإجبارية بين الأغوار والداخل باتجاه "إربد- السلط- غور الصافي"، بهدف منع تحركنا أو تقديم المواد التموينية.

ما زلت أذكر تلك القاعدة العسكرية السرية بين الشونة الشمالية ونهر الأردن وتسمى "الجَلَدَة" وهي جنوب الباقورة ومن نهر الأردن ولا تبعد عنه إلا "100م" بين بيارات البرتقال والموز.

في أحد الأيام جاء صاحب هذه المزارع- وهو مواطن أردني من إربد اسمه (راجي الشمايلة) "رحمه الله"- إلى أرضه واكتشف وجود هذه القاعدة التي أعدّت من الخيام الفردية، ووجد أننا لم نعبث بمزرعته، بل كنا حريصين عليها وعلى الاعتناء بها، فما كان منه إلا أن ذهب بسيارته وقام بإحضار المواد التموينية للقاعدة، واستمر بإحضارها كل أسبوع. وقد تعرّفت عليه شخصياً، وكان لموقفه وعمله تأثير كبير فينا وتقدير عظيم منا.

في الجولان من جباتا الخشب على سفح جبل الشيخ حتى نهر اليرموك، لم نكتفِ بهذه القواعد- قواعد الانطلاق التي تحدثت عنها باختصار في هضبة الجولان أو في غور الأردن وعلى حدود الضفة الشرقية مع فلسطين وفي الضفة الغربية، فبدأنا نفكر في كيفية توسيع جبهة المواجهة مع العدو لإرباكه وإنهاكه أكثر من جنوب لبنان. عندها التقينا مع الأخوة في فتح "قوات العاصفة" (أبو عمار والشهيد خليل الوزير) وعرضت فكرة أن نقوم جميعاً بفتح جبهة جنوب لبنان وتوجّهت قوات لنا لتعبر الحدود اللبنانية من محور (دير العشائر) ومن محور آخر من عرنة باتجاه شبعا اللبنانية، لكن الجيش اللبناني حاول ضبط الحدود لمنعنا، ووقعت اشتباكات عدة بين دوريات من رفاقنا والأخوة في "العاصفة" من جهة وبين الجيش اللبناني من جهة أخرى في المثلث، بين الحدود السورية عند السفوح الشمالية لجبل الشيخ، حتى الوصول إلى حاصبيّا وراشيّا

لكننا نجحنا في الجبهة في الوصول عبر عرنة إلى قمم جبل الشيخ، إلى شبعا اللبنانية ثم إلى الهبّارية ثم إلى كفر شوبا ثم إلى (حلتا) التي تبعد عن الحدود الفلسطينية 2 كم، وأنشأنا قاعدة في حلتا.

بعد هذا الصراع والخلاف مع الجيش اللبناني استطاع الرئيس جمال عبد الناصر عقد اتفاق سمّي بـ "اتفاق القاهرة" مع الرئيس اللبناني "شارل الحلو" يتيح للعمل الفدائي التموضع في القطاع الشرقي من (العرقوب) بحيث لا يتجاوز غرباً نهر الحاصباني، وهكذا قمنا بشنّ عمليات عسكرية باتجاه إصبع الجليل وباتجاه بانياس وعين فيت وزعورة المحتلة في الجولان، وأيضاً باتجاه الغجر على نهر الحاصباني، حيث مستعمرتا (دان، كفار يوفال) من المستعمرات المقابلة.

كما أن الإخوة في حركة "فتح العاصفة" بدؤوا يعملون أيضاً من العرقوب مثبّتين قواعدهم فيها غرب ينطا وحلوة وصولاً إلى "خربة روحة"، واستطاعوا أن يحصلوا على صاروخ (الكاتيوشا) الذي بدؤوا يمطرون به المستعمرات الصهيونية في إصبع الجليل (كريات شمونه) وغيرها من مسافات بعيدة.

حتى ذلك الوقت كنا قد أصدرنا بحدود 40 بلاغاً عسكرياً تتضمن عمليات ناجحة ضد العدو الصهيوني سواء من الأردن أو من الجولان أو من جنوب لبنان. وكان الإرباك الإسرائيلي واضحاً وظاهراً للعيان، لأنه ليس من السهل على قوات العدو أن تهضم بسهولة الواقع الجغرافي والديمغرافي الجديد، ولم يكن بمقدورهم إغلاق جبهة بطول مئات الكيلومترات من جنوب لبنان حتى العقبة.

احتلت القوات الصهيونية في عام 1967 أراضٍ مساحتها ثلاثة أضعاف المساحة التي سبق أن احتلتها من فلسطين عام 1948، وهذه الأراضي كانت تضم على الأقل آنذاك ثلاثة ملايين فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة وفلسطين 48، بالإضافة إلى الثقل السكاني في سيناء من العريش ورفح حتى شرم الشيخ، وتضم كذلك عدداً من السوريين في الجولان المحتل على السفوح الشمالية لجبل الشيخ في خمس قرى بالإضافة لقرية الغجر ممن لم يتركوا بيوتهم وأرضهم.

في ذلك الوقت دعينا كجبهة شعبية لتحرير فلسطين إلى اجتماع في دمشق لمقابلة العقيد عبد الكريم الجندي وهو المسؤول الأمني المتنفذ في سورية بعد عام 1967. وحضر هذا اللقاء كل من (جورج حبش وفايز قدورة والشهيد فايز جابر وصبحي

التميمي وعلي بوشناق وأنا، وآخرون).. استقبلنا مدير مكتبه وبعد قليل قال إن العقيد عبد الكريم الجندي يريد أن يلتقي بجورج حبش وعلي بوشناق لبعض الوقت قبل الاجتماع معنا جميعاً.

بعد وقت قليل أحضروا لنا الطعام فسألناهم عن الرفيقين حبش وبوشناق، أخبرونا أنهم يتناولون الطعام مع العقيد الجندي. بعد انتهاء الغداء أبلغونا أن العقيد سيبقي الدكتور جورج حبش وعلي بوشناق ضيوفاً عنده لاستكمال بعض النقاش، ويمكن للبقية أن يذهبوا.

بعد أن خرجنا تساءلنا فيما بيننا: "ما الأمر؟".. فرجّحنا الاعتقاد بأنهما معتقلان.. تدارسنا الموقف بشأن ما سنفعل!.

قررت أن أعود للأردن عبر الوحدات العراقية التي كانت قرب درعا والتي أقلّتني إلى أغوار الأردن لأتابع مجريات العمل القتالي مع العدو الصهيوني، وبقيت أتابع وضع الرفيقين حبش وبوشناق. وقد أرسل لي الرفاق من دمشق رسالة يقولون فيها إن سبب اعتقال الدكتور جورج حبش وعلي بوشناق هو اتهامهما بأنهما يستظلان بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للقيام بأعمال لقلب نظام الحكم في سورية!

بقي المرحوم علي بوشناق (أبو باسل) موقوفاً أكثر من شهرين رغم أنه كان مريضاً، أما الدكتور جورج حبش فبقي موقوفاً أكثر من 7 أشهر إلى أن دبّرت له حركة القوميين العرب أمر فراره من السجن إلى لبنان.

المواجهة الأولى مع نظام الملك في الأردن

بدأ العدو الصهيوني وأمريكا بالضغط على الملك حسين ليتصدى عسكرياً بكل قوة ويحمي حدوده مع فلسطين بحيث يمنع الفدائيين من عبورها باتجاه الضفة الغربية أو باتجاه باقي فلسطين. واشتد القصف الهمجي بالطائرات والمدفعية على غور الأردن الأوسط من الشمال من العدسية حتى جنوب البحر الميت، كما أن العدو بدأ بإقامة سياج أمني على طول هذه الحدود المتاخمة في شمال غور الأردن وفي أوسطه حتى البحر الميت، وزرع الألغام بكل أنواعها ووسائلها وكذلك المفخخات المملوءة بالشظايا (عاثورية) التي تعمل كهربائياً بأسلاك رفيعة جداً لدى اصطدام الفدائيين بها كما أشرتُ سابقاً.

(علماً أنه وبعد الاجتياح الصهيوني للضفة الغربية أُنشئ مخيم للاجئين في منطقة العارضة في غور الأردن غربي مدينة السلط على الطريق الموصل ما بين نابلس والسلط).

تعرض هذا المخيم للقصف وهجّر أغلب سكان الأغوار والمخيمات الفلسطينية إلى الداخل، بمن فيهم الفلسطينيون الذي كانوا موجودين في الغور، وأقيم لهم مخيم (البقعة) شمالي صويلح قرب عمّان، وكذلك مخيم في منطقة جرش، ومخيم آخر ما بين عمّان والزرقاء، كما قامت أجهزة الأمن الأردنية بالإجراءات التالية:

- تشديد الرقابة وقيود الحركة باتجاه الأغوار سواء عبر طريق أربد- الأغوار وهو ممر إجباري، أو الطريق الذي يصل إلى الأغوار عن طريق مدينة السلط (العارضة) وهو أيضاً ممر إجباري بين الوديان، ثم طريق السلط- الشونة الجنوبية (وادي شعيب)، كذلك الطريق المؤدي إلى غور الصافي من الكرك باتجاه وادي ضانا أو من حدود مادبا جنوب البحر الميت.
- قام بتجهيز قوة كبيرة من قوات البادية التابعة له وحركها باتجاه الأغوار، وبدأ يحاصر قواعدنا المنتشرة سواء في وادي اليرموك أو الغور الشمالي. ولم تكن لدى الفدائيين أوامر بقتال الجيش الأردني. واتبع الملك حسين تكتيك الاستفراد بالقواعد العسكرية المتباعدة والمحدودة العدد ثم مصادرة أسلحتها. واستطاع إجبار الفدائيين على مغادرة الأراضي الأردنية باتجاه الأراضي السورية.

اجتمعنا في الكرامة اجتماعاً تاريخياً عند الأخ "أبو عمار" وكان معه خليل الوزير وبحضور أبو إياد وعدد آخر، ومن طرفنا باسم (الجبهة الشعبية) تألّف وفدنا مني والشهيد أبو علي مصطفى ورفيقنا (أبو الفدا عباس) مسؤول موقع الكرامة، وأيضاً "قوات التحرير الشعبية"[٢٦] . وهي تتبع لوجيه المدني.

تحدثت بصراحة: إذا بقيت قواعدنا متناثرة على طول هذه المواجهة سيستفرد بها الملك حسين وجنود باديته ويقتلعونها جميعاً. لذلك أقترح أن نجمّع الفدائيين في ثلاثة مواقع وبسرعة (الكريمة والكرامة وغور الصافي بجانب البحر الميت).

[26] - (قوات تابعة لمنظمة التحرير كان يرأسها في ذلك الحين يحيى حمودة)

بعد نقاش مطوّل أضفت: تكتلنا بجانب بعضنا البعض سيشكل قوة يمكن أن تحبط خطة الملك حسين ضد الفدائيين..

وأذكر جيداً أنه قد انضم للاجتماع فيما بعد المناضل بهجت أبو غربية "رحمه الله"، وقد اتفقنا على القيام بنشاط سياسي وجماهيري وشعبي كبير جداً والاتصال بالزعماء العرب خاصة الرئيس جمال عبد الناصر وسورية والعراق، بحيث تشارك منظمة التحرير لحماية ظاهرة العمل الفدائي التي يريد الملك حسين القضاء عليها، على أن نحرك أيضاً الوضع الجماهيري في مخيمات شعبنا الفلسطينيين في الأردن، وأن يتم أيضاً الاتصال بالوطنيين الشرق أردنيين لإيقاف ولجم الملك حسين وبرنامجه الذي توافق عليه مع الأمريكيين والصهاينة لاقتلاعنا من الجبهة الأردنية-الفلسطينية[27].

بالفعل تم تجميع القواعد الفدائية حسبما اتفقنا، لكن الملك حسين تابع برنامجه للضغط علينا ومحاولة اقتلاعنا. وكان يهمه بالأساس السيطرة على الموقع الرئيسي للفدائيين في بلدة الكرامة وجوارها حيث تتمركز قيادة الفدائيين.

حرك الملك قواته العسكرية من البادية والوحدات التي يثق بها لمحاصرتنا في منطقة الكرامة من الشمال والجنوب، وكان إلى الغرب منا نهر الأردن أي (العدو الصهيوني)، وقد تُركت لنا الجهة الشرقية باتجاه جبال السلط كونها منطقة جبلية وعرة لا طرق فيها، لعلنا نترك هذه المنطقة أو يتم الاستسلام. ودام هذا الحصار عدة أيام متتالية قطعت علينا خلالها الطرق من كل الاتجاهات.. كان الوضع حرجاً.

اجتمعنا مرة أخرى عند المرحوم "أبو عمار" وكان الوضع سيئاً والمعنويات حرجة لأن الضغوط العربية لم تكن قد ظهرت، فقلت للحاضرين: هل يمكن أن تعطوني فرصة لأتصرف.. أنا لا أريد فتح معركة مع الجيش الأردني.. سنقوم بحركة استعراضية ويتم خلالها الاقتراب من الجيش الأردني للحوار معه.

وافق الجميع، فجمعنا 400 مسلح تقريباً من الفصائل الثلاث الموجودة في الكرامة وتحركت بهم باتجاه مدخل الكرامة من الناحية الجنوبية بوضع استعراضي وليس قتالياً، ثم اتفقت مع الرفاق المسلحين من الفصائل الموجودة والذين أقودهم،

---

[27] - (كان تسليح الفدائيين في ذلك الوقت محدوداً وفي جزء كبير منه من بقايا الحرب العالمية الثانية ولا توجد معنا أسلحة مضادة للدروع إلا ما ندر).

بأنني سأقترب أنا ومعي مجموعة صغيرة من الجيش الأردني الموجود هناك، ولكن ليس بوضع قتالي، على أن يرسل الأخوة كل فترة دفعة من الفدائيين.. وصلنا على بعد 150م. كان الجيش الأردني مستنفراً وكنا نحن نحمل سلاحنا على أكتافنا دون أي وضع قتالي. خاطبت الجيش الأردني عبر "مايكرفون" يدوي وقلت لهم: نحن قادمون إليكم للتباحث معكم، وبقيت أقترب منهم حتى وصلت إليهم.

لم أعرّفهم على اسمي الحقيقي لأن اسمي الحقيقي أو صورتي لم يكن يعرفهما أحد. وقلت لهم أيضاً: أريد أن أتناقش معكم لتنقلوا ما أقوله إلى قيادتكم.

وقد تعمّدت إطالة الحديث لكي تستطيع المجموعات الأخرى من الفدائيين اللحاق بي، وفعلاً لحقت بي مجموعة تلو مجموعة وأصبحنا على تماس مباشر مع الجيش الذي يحاصرنا ويطلب منا الاستسلام.

عدت أخاطبهم عبر المايكرفون وبصوت مرتفع: «نحن هنا لسنا لنقاتلكم ولم نأت من بيوتنا بعد أن تركنا عائلاتنا وزوجاتنا وأولادنا لقتالكم. نحن جئنا إلى هنا بعد أن انهارت الجيوش العربية كلها في حرب حزيران 1967 واحتلت فلسطين والضفة الغربية والقدس وسيناء والجولان. انظروا باتجاه الغرب! هذه جبال رام الله ونابلس أمامنا، نحن نريد أن نذهب إلى هناك ونستشهد فوق أرضنا وأنتم تمنعوننا من الموت».

بالمختصر ألقيت عليهم كلمات حماسية لدرجة تأثر معها كثير من جنود الجيش الأردني وكانوا يحملون السلاح بشكل قتالي ولكنهم أنزلوه بعد قولي بأن هذا السلاح لابد وأن يوجه باتجاه العدو الصهيوني الذي طرد الجيش الأردني من الضفة الغربية واحتل القدس. ثم قلت لهم لزرع المزيد من التأثير في نفوسهم: «اسألوا جلالة الملك.. أليس الشريف حسين والد جده مؤسس الأسرة الهاشمية مدفون في القدس حالياً».

في سياق حديثي أذكر أنني طلبت منهم لخلق بعض الألفة: «لماذا لا نجلس على الأرض لنتحدث»، فوافقوا، وفعلاً جلسنا على الأرض. تلك القوات الأردنية تأثرت بكلامي وأدركت بأننا لم نأت لقتالها بل نريد اجتياز نهر الأردن والوصول إلى القدس.

لا أعتقد أن هذا اللقاءات هي الوحيدة التي منعت الملك حسين من الاستمرار في قمعنا وفي استئصالنا من الأراضي الأردنية- الضفة الشرقية- خاصةً في الأغوار، بل كان هناك أثر أيضاً للاتصالات التي أجراها الرئيس جمال عبد الناصر مع الملك حسين، وكذلك الرئيس عبد الرحمن عارف، وكذلك اتصالات سورية، وأيضاً الهيجان

الشعبي في داخل الأردن سواء من الفلسطينيين أو من الشرق أردنيين الشرفاء. وهكذا انسحبت قوات البادية التي كانت تريد إنهاء وجودنا في الأردن، انسحبت من الأغوار باتجاه مراكزها الأساسية.

بعد ذلك بأسابيع قليلة، قام الرفاق في قواعدنا التي كان يقودها الشهيد (أبو علي الأخضر) في جنوب البحر الميت بدوريات استطلاع جنوب البحر الميت تبيّن منها أنه في كل يوم "أحد" من كل أسبوع يمر (باص) لخبراء إسرائيليين إلى مستعمرة جنوب البحر الميت جنوب شرقي قرية السموع واسمها "تمناع"، وفيها مناجم لاستخراج النحاس. وأذكر أن الشهيد "أبو علي الأخضر" جاء إلى الكرامة ليقدم لي تقريراً عن استطلاعاته ورصده لهذا الهدف، فاتفقنا أن يضع لغمين مضادَين للآليات فوق بعضهما البعض على الطريق المؤدي لهذه المناجم، وهو طريق ترابي. وقام الشهيد أبو علي الأخضر بنفسه بقيادة دورية صعبة عبر غور (الكتار) جنوب البحر الميت باتجاه مناجم مستعمرة "تمناع" وزرع هذا اللغم المضاعف ثم عاد إلى قاعدته المشرفة في منطقة وادي "ضانا"، وهذا الوادي يؤدي إلى الكرك باتجاه الشرق، وباتجاه الشمال إلى غور الصافي.

في يوم الأحد المحدد مرّ هذا (الباص) الكبير واجتاز مستعمرة "تمناع" متجهاً إلى المنجم. وعند وصوله إلى المكان الذي زُرع فيه اللغم المضاعف انفجر اللغم ودمّر الباص فقُتل وجرح جميع مَن فيه.

علمنا فيما بعد أن القتلى والجرحى كانوا من أساتذة وطلاب الجامعة العبرية اختصاص جيولوجيا (حسبما قال الناطق الإسرائيلي)، وأن عددهم ثلاثون فرداً. وعلى ما أذكر أن هذه العملية نفذت بداية شهر آذار عام 1968.

بدأ العدو الصهيوني بحشد قواته في منطقة أريحا ومنطقة "جفتلك" المؤدية إلى نابلس بأعداد كبيرة، حتى أن بعض الوحدات كانت تنقل بعض الجسور المتحركة. وكان الفلسطينيون القادمون من الضفة الغربية ينقلون لنا معلومات حول هذه الحشود الكبيرة ويحذروننا.

اجتمعنا في الكرامة على ما أذكر بعد تنفيذ هذه العملية، عند الأخ "أبو عمار" نحن في الجبهة الشعبية وفتح إضافة إلى قوات التحرير الشعبية التابعة لمنظمة التحرير. وكان يحضر معنا في هذا الاجتماع مسؤول موقع الكرامة من جبهتنا الرفيق علي عباس (أبو الفدا).. قلت لهم في ذلك الاجتماع: يا إخوان.. بعد أن عجز الملك

حسين قبل شهرين أو ثلاثة عن اقتلاعنا، ها هم الإسرائيليون قادمون للقيام بهذه المهمة لأنهم يعتقدون أنه فشل في ذلك. وأوضحت لهم أن التكتيك الذي اتبعناه سابقاً في تجميع قواتنا يفرض علينا الآن اتخاذ قرار بنشر هذه القوات لكي لا تصبح هدفاً سهلاً للعدو وحتى لا يقع في صفوفنا خسائر كبيرة، خاصة أن تسليحنا خفيف، وإمكاناتنا لا تزال محدودة. لذلك اقترحت عليهم أن نتخذ قراراً بإعادة نشر هذه القواعد من الكرامة والكريمة وغور الصافي، بحيث يصعد بعضها باتجاه جبال السلط أو جبال عجلون أو جبال مادبا شرقاً، ونحتفظ في الكرامة بقوات رمزية- من فصيلين حوالي (50 عنصراً)، ونجهز لهذين الفصيلين الألغام المضادة للدروع.

لكن للأسف فوجئت بالأخ "أبو عمار" يقول: «يا أبو جهاد .. نحن موجودون هنا في الكرامة وسنبقى هنا وسأجعلها مثل (ستالينغراد) التي هزمت جيش هتلر» فقلت له: «هل قرأت جيداً يا أبو عمار عن (ستالينغراد) وأين هي وأن نهر الفولغا بعرض 150 متراً ويفصل شرقي المدينة عن غربها، وأن أبنيتها عالية، وشوارعها كبيرة، وعدد سكانها يتجاوز المليونين؟!»، وأضفت: «يا أبو عمار مبادئ حرب العصابات تقول أنه عندما يحشد العدو قواته ويتقدم إليك عليك الانسحاب وترك مجموعات إشغال، وعندما ينسحب تعود لملاحقته ومتابعة القتال.. وأنت تعلم أن سلاحنا وعتادنا محدود من حيث النوعية والعدد». (بنادقنا كانت من نصف أوتوماتيك بالإضافة إلى بعض الرشاشات)، ثم تابعت: «إن مباني بلدة الكرامة ليست مباني (ستالينغراد) يا أبو عمار، فبلدة الكرامة أغلب مبانيها من الطوب الترابي (اللبن) وليست من الإسمنت المسلح، ومن النادر أن تجد فيها بناء من الإسمنت المسلح».

استمر الجدل لأكثر من ساعة ونصف وحضر هذا الاجتماع الأخ فاروق القدومي (أبو اللطف) وكذلك الشهيدان خليل الوزير وأبو إياد إلا أنهما بقيا صامتين.

قبل أن ينتهي هذا الاجتماع قلت لـ"أبو عمار": «نحن سنسحب قواتنا باتجاه الوديان وسنترك فصيلاً في الكرامة وفصيلاً آخر على التلال المشرفة على الكرامة من الجهة الشرقية». فقال لي: «تصرفوا أنتم بالذي ترونه مناسباً».

قمنا بسحب المقاتلين من المنطقة التي كان يتمركز فيها الرفيق عبد الرحيم ملّوح[28] قرب نهر الأردن ونقلنا بيت الشعر والأغنام من غرب الكرامة إلى جبال

---

[28] - (أصبح عضواً في اللجنة التنفيذية يمثل الجبهة الشعبية بعد عشرات السنين)

السلط، وسحبنا رفاقنا من الكرامة وأبقينا فصيلاً واحداً فقط حفر عناصره حفراً فردية لهم للاحتماء فيها من القصف المدفعي والطيران، وتركنا لهم 20 لغماً مضاداً للآليات يزرعونها حين اللزوم. كما وضعنا فصيلاً على التلال الشرقية لبلدة الكرامة، ولكن لم أوضّعها على التلال بل في واد قريب وفي مغر صغيرة. وأعطيتهم تعليمات بعدم الخروج من مواقعهم مباشرة عندما يبدأ الهجوم الصهيوني على الكرامة إلا إذا سمعوا أصوات طائرات هليكوبتر وبدا لهم أنها تقوم بإنزال الجنود فوق تلال موقعهم، عندها يخرجون ويشتبكون معهم لأن العدو يريد بذلك محاصرة الكرامة من الشرق باتجاه جبال السلط ليمنع الفدائيين من الإفلات.

أما من بقي من مجموعاتنا فقد سحبناه باتجاه الوديان العميقة الصاعدة باتجاه جبال السلط لنحمي مقاتلينا في "المغر" والمنحنيات. وزودناهم بمواد تموينية وكمية من المياه.

بقيت "فتح العاصفة" وقيادتها (الأخ أبو عمار، خليل الوزير، وأبو إياد) والوحدات الخاصة بهم في الكرامة، بما في ذلك معسكرهم التدريبي في إحدى مدارس الأونروا، حيث كانت "فتح" تعقد فيه دورات تدريبية بقيادة الأخ صلاح التعمري.

وفي صبيحة يوم 1968/3/21 كنت أنا والشهيد وديع حداد على موعد للقاء مع وجيه المدني قائد جيش التحرير الفلسطيني في منظمة التحرير آنذاك في بيروت، فاضطررت أن أغادر وعدت للأردن فوراً، وأصبحت قريباً من الوديان التي تشرف على الكرامة.

بدأ جيش العدو الساعة 5:30 صباحاً من يوم 1968/3/21 بقصف مدفعي مركّز على منطقة الكرامة ثم بدأت الغارات الجوية أيضاً.

كنت قد كلفت الرفيق علي عباس (أبو الفدا) مسؤول الكرامة بحماية التلال شرق الكرامة، وقد التقى (كما أخبرني) في وادٍ يشرف تماماً على الكرامة مع الأخ "أبو عمار" وخليل الوزير، وأبو إياد وهم ينسحبون من هذا الوادي باتجاه السلط فور القصف.

تقدم جيش العدو على محورين، محور من جهة جسر اللمبي باتجاه الشونة الجنوبية، ومحور آخر مدرّع تقدّم من طريق نابلس- الجفتلك- السلط عابراً جسر دامية على نهر الأردن، فالفصل كان شتاء، ونهر الأردن في هذه الفترة يكون عريضاً وغزيراً ويصعب إنشاء الجسور عليه.

كانت للجيش الأردني نقاط دفاعية مشرفة على الشونة الجنوبية على مدخل وادي شعيب الصاعد باتجاه السلط، كما كانت له أيضاً منطقة دفاعية أخرى محصنة مشرفة على جسر دامية باتجاه السلط. وقد قامت هذه القوات الأردنية سواء في العقدة الموجودة شمالاً مقابل جسر دامية، أو مقابل الشونة الجنوبية بفتح نيرانها على القوات "الإسرائيلية" المدرّعة المتقدّمة على المحورين، وأوقعت خسائر مهمة في صفوف جيش العدو ودمرت له عدداً من الدبابات. وكذلك كان قرب مدينة السلط في أحد الوديان بطارية مدفعية للجيش الأردني بعيدة المدى وهي (المدفعية السادسة)، ومنذ بدء الهجوم المعادي فتحت النار على نقاط تجمع العدو غربي النهر وعلى مدخلي معبري الجسرين في الشمال والجنوب، فأوقعت بجيش العدو خسائر كبيرة، وقد حاول طيران العدو أن يسكت المدفعية الأردنية لكنه لم يستطع. ومن المعروف أن قائد هذه الفرقة من الجيش الأردني هو اللواء الوطني الشجاع (مشهور حديثة الجازي) ولم يستأذن قيادته في عمّان حين واجه الصهاينة في هذه المعركة.

أصيب (الإسرائيليون) بخيبة أمل فلم يتوقعوا أن يتدخل الجيش الأردني ويعرقل مهمتهم، خاصة وأن الملك حسين كان قد قطع لهم وعداً بعدم تدخل الجيش الأردني، لكن الدوافع الوطنية لدى الجيش الأردني وضباطه وشعورهم بالإهانة من احتلال القدس والضفة الغربية دون قتال يمليه الواجب الوطني والقومي المقدس، جعلهم يجدون المعركة فرصة لمواجهة العدو (الإسرائيلي) كردّ اعتبار للجيش الأردني وهيبته.

رغم خسائر جيش العدو إلا أنه تابع تقدمه حتى دخل الكرامة بعد أن التفّ من محاور أخرى جانبية بعد اجتيازه الجسور، وفي النهاية تمكن من أسّر 60 فدائياً، بينهم فقط فدائيان اثنان من جبهتنا.

في المساء انسحب جيش العدو تحت رمايات المدفعية السادسة من الجيش الأردني ونقاطه وعقده الدفاعية بعد أن تكبد خسائر بالأرواح وبالدبابات والآليات.

في الصباح الباكر دخلتُ إلى الكرامة، وكنت أتحسّر وأنا أرى جثث الشهداء في مركز التدريب الذي أعدّته "فتح" في الكرامة. وقد بدا واضحاً أنهم قتلوا بطريقة الإعدام على جدار مدرسة (الأونروا) وكانت الرصاصات قد تركت آثارها في الجدار. عندها جاء إليّ الأخ "أبو عمار" وأخذني بالأحضان وقال لي: يا أخي أبو جهاد.. إنها ملحمة، فقلت له: أين الملحمة! إذا كنت تقصد الدبابات التي دمرت على طريق الشونة وطريق العارضة فقد دمرها الجيش الأردني. هل ترى دبابة واحدة أو جنزيراً لدبابة

مدمّرة داخل الكرامة؟، ألا ترى هؤلاء الشهداء كيف قام العدو بإعدامهم؟! كيف تركتم عناصر هذه الدورة ومازالوا يتدربون؟!

حينها شعر أبو عمار أنني في منتهى الغضب فتركني وغادر.

كنت أنتظر أن يصدر الجيش الأردني بياناً حول معركة الكرامة، لكن لم يصدر أي شيء، واستغربت، ثم فسرت السبب في ذلك الوقت بأن الذي أعطى الأوامر للجيش الأردني للمشاركة في القتال كان متمرداً وخرج عن أوامر الملك حسين. ونتيجة لعدم إصدار بيان من الحكومة الأردنية جعل ذلك "فتح العاصفة" تصدر البيان وتقول إنها هي من دمرت الدبابات (الإسرائيلية) وانتصرت في الكرامة.

وأنا أتساءل عما إذا كان عدم إصدار بيان من الحكومة الأردنية حول مجريات هذه المعركة يعود لرغبة الملك بتجنّب الكشف عن أحلامه بالوعد الذي قطعه لجيش العدو بعدم تدخل الجيش الأردني أثناء الهجوم "الإسرائيلي"؟

خلال السنوات التي تلت معركة الكرامة وفي برنامج (شاهد على العصر) الذي بثّته قناة (الجزيرة)، أكد اللواء المرحوم مشهور حديثة الجازي في تعليقه على مقابلتي في قناة الجزيرة[29] أنه اشتبك مع العدو الإسرائيلي دون أوامر من القصر الملكي بل كان هذا التصدي ردّ اعتبار للجيش الأردني الذي هُزم وغادر الضفة الغربية والقدس خلال عدوان عام 1967. وبالطبع كانت نتيجة هذه المعركة بمثابة هزيمة عسكرية للعدو (الإسرائيلي) لأنه لم يستطع أن يحقق أهدافه ولم يستطع أن ينتقم لعملية نسف الباص جنوب البحر الميت في مناجم مستعمرة "تمناع".

بدأت أجهزة الإعلام العربية تبرز هذا الانتصار الذي تحقق في الكرامة لكي ترفع المعنويات التي أصابها الانكسار بعد هزيمة 1967. (لكن من المؤسف أن الإخوة في "فتح العاصفة" قاموا بتأليف كتاب عن معركة الكرامة يسردون فيه على الطريقة التي تناسبهم ما جرى، دون أن يخجلوا من اتهامي بالاسم بالهروب من الكرامة وعدم القتال).

عندما قرأت هذا الكتاب حزنت، علماً أنني كنت لا أريد التطرق إلى هذه التفاصيل لولا اتهامي زوراً وبهتاناً، وبثّوا الشائعات الكاذبة بأنني هربت من الكرامة وتركت الآخرين يقاتلون هناك..

---

29 - (يمكن أن يعود القارئ إليها)

(وأنا أقول "سامحهم الله، هم يحرّفون الحقائق بحسب أهوائهم. وهنا أذكر أنه بعد مرور السنوات جاءني الشهيد ماجد أبو شرار وهو عضو اللجنة المركزية في حركة فتح، عندما كنا في لبنان بداية عام 1981 وكان من المعارضين لنهج القيادة في "فتح" وأسلوبها، فالشهيد ماجد أبو شرار[30] اتصل بي في بيروت قبل ذهابه إلى روما وقال لي: أريد أن أشرب فنجاناً من القهوة معك، فاستقبلته بالرحب والسعة خاصة وأني كنت أشعر أنه من المعارضين للسياسة السائدة والحاكمة في ذلك الوقت لمنظمة التحرير.

عندما التقينا قال لي ماجد أبو شرار "رحمه الله": هل تعرف لماذا أتيت إليك؟ قلت له: أعتقد أنك ستحدثني عن الخلافات والاتجاهات المعارضة داخل حركة "فتح"، أجابني: لا. أنا أريد أن أبرئ ذمتي أمامك.. أنا ارتكبت حماقة، فبعد معركة الكرامة في 1968/3/21 وما حصل فيها، استدعاني الأخ "أبو عمار" وكنت رئيس اللجنة الإعلامية الميدانية في ذلك الحين، وطلب مني قائلاً: «من الضروري أن تقوم أنت وبعض الشباب بتأليف كتاب عن معركة الكرامة وبسرعة وتذكرون البطولات التي جرت في هذه المعركة حتى لو كان من نسج الخيال، ولا تنسوا أن تكتبوا أن أحمد جبريل هرب من معركة الكرامة قبل حدوثها».

وأضاف الشهيد أبو شرار: للحقيقة يا أبو جهاد أتيت إليك لأعتذر إذا كنت تقبل بهذا الاعتذار مني، لأنني كنت في وضع لا يسمح لي برفض ما طلبه مني "أبو عمار".

في أعقاب معركة الكرامة حوّل العدو الصهيوني أغوار الأردن إلى أرض محروقة، وغادرها كل المدنيين من القرى والمزارع الموجودة في الأغوار، ولم يبقَ فيها إلا الفدائيون. ثم انسحبت بعد ذلك القواعد الفدائية من الكرامة، ولم يبقَ منها إلا مواقعنا في الجبهة الشعبية، وانتقلت قواعد الفدائيين التابعة للمنظمات الأخرى إلى الجبال، وبدأ طيران العدو يستهدفها فغادروها للأسف إلى المدن والمخيمات في الداخل.

القواعد الفدائية التابعة لمعظم الفصائل في الأغوار وقرب نهر اليرموك والقطاع الشمالي جرى سحبها إلى إربد المدينة وإلى مخيمها. أما في الغور الأوسط حتى شمال البحر الميت فقد انسحبت أغلب قواعد المقاومة إلى الداخل، ليس إلى الجبال بل أيضاً

---

30 - (اغتاله العدو الصهيوني في روما في عام 1981)

إلى المخيمات ومدينة عمّان والمدن الأخرى. لكننا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لم نسحب قواعدنا من أغوار الأردن منذ ذلك التاريخ، بل كنا نحصّن أوضاعنا وأعددنا قيادات تقودها في جبال السلط وجبال جرش وجبال إربد لأننا كنا نعتبر أن انكفاء المقاتلين إلى المدن والمخيمات سيسبب مشكلات كثيرة سواء بين الفصائل مع بعضها البعض، أو لجهة القيام بتصرفات مسلكية تؤثر سلباً، لأن (المدينة مفسدة الثورة)، وفي المدينة والتجمعات يزداد الاحتكاك اليومي مع النظام الأردني.

في تلك المرحلة حضرت اجتماعاً في عمان التقت فيه كل الفصائل الفلسطينية بما فيها "الصاعقة" لمناقشة الوضع السياسي والميداني بعد معركة الكرامة فقلت في هذا الاجتماع: «إن انكفاء القواعد العسكرية التي كانت في الأغوار إلى المدن والمخيمات القريبة منها هو شيء خطير وصعب ويجب أن يُعاد النظر فيه، ويجب أن تُترك المدن لأن وجودنا قد يسبب إشكالات بيننا وبين النظام الأردني، وله عواقب على المستوى الأخلاقي. أما أن يُقال إن الدوريات ستتحرك من المدن إلى الأغوار وتقوم بعملياتها وتعود إلى المدن فهو أمر غير مُجدٍ!! والأسوأ أيضاً إطلاق الصواريخ (الكاتيوشا) على العدو والآثار السلبية التي ستنتج عن ذلك خاصة على المدنيين الذين تطلق بالقرب منهم.

في تلك الأجواء كان الشريف ناصر خال الملك حسين قد أنشأ جهازاً خاصاً هدفه الإساءة للعمل الفدائي، حتى أنه شكّل منظمات وهمية وأصدر بلاغات عسكرية كاذبة وبدأ يوزعها على الجمهور الأردني والجيش المنتشر في الأغوار، بهدف إسقاط مصداقية العمل الفدائي الشريف ضد العدو الصهيوني.

وأذكر أن الملك حسين من جانب آخر كان يناور حين أطلقت عليه حركة "فتح" لقب (الفدائي الأول) بعد معركة الكرامة، فأحدث تغييرات جوهرية في تشكيلة حكومته إذ قام بإقالة أربعة من صقوره المقربين، حيث عزل خاله الشريف ناصر بن جميل من مسؤوليته كقائد عام للقوات المسلحة، وابن عمه زيد بن شاكر قائد اللواء المدرع الملكي. كما أقال بهجت التلهوني رئيس الوزراء. وكان سابقاً قد أقال محمد رسول الكيلاني مسؤول المخابرات العامة وعيّن مكانه مضر بدران، وعيّن عبد المنعم الرفاعي رئيساً للوزراء. وتم ترفيع مشهور حديثة الجازي من رتبة لواء إلى مشير وعُيّن رئيساً للأركان خلفاً للشريف ناصر بن جميل.

وكنت أحزن عندما كنت أعرف أن بعض القيادات الفلسطينية بدأت تشكل مربعات أمنية[31] في المدن،.. عندما أقول قيادات فأنا لا أستثني أحداً منهم. لم نستطع استيعاب مثل هذه التصرفات الضارة. ومثال على ذلك شاهدنا كيف جرى تجريد جندي أردني أو ضابط من سلاحه في هذه المربعات الأمنية أو حولها، وكذلك كيف كان يسلب بعض عناصر هذه القيادات سيارات الـ "جيب" التابعة للجيش الأردني أو قوى الأمن الأردنية.

كنت أتساءل بألم: «أليست هذه التصرفات بمثابة تقديم خدمة للنظام الأردني في تحريض الجيش علينا وليس جنود البادية فقط؟!».

نحن نؤكد باعتزاز أننا لم نكن من الأطراف التي شاركت في أي تصرف يسيء لدور هذا الفدائي أو مهمته، وقد بقينا موجودين في قواعدنا بالأغوار أو في الجبال المطلة عليها مباشرة. وكنا نستقبل كل أسبوع عائلات بكاملها قادمة من عمان والمدن الأردنية الأخرى وهم يحملون المؤن لتقديمها لقواعدنا.

أصبحنا وحدنا في الكرامة ولم يكن هناك غيرنا، وبدت الكرامة وكأنها بلدة أشباح، كذلك الأمر في الشونة الجنوبية أو الشمالية وأيضاً في الكريمة والوقّاص وفي جنوب البحر الميت. أما الآخرون فكانوا يتحركون بين المدن والمخيمات بسياراتهم وأسلحتهم نحو الغور لإطلاق النار على العدو الصهيوني بمدافع الهاون أو صواريخ الكاتيوشا، وفي الصباح ينسحبون ويعودون إلى المدن. ومن المآسي أن أولئك كانوا يصدرون البلاغات العسكرية ويدّعون فيها تنفيذهم لعمليات كبرى ضد العدو الصهيوني في الأغوار.

كانت معظم تلك العمليات استعراضية وغير مؤثرة على العدو بل كانت القذائف التي يطلقونها تصيب أحياناً جنود الجيش الأردني (سرايا الحجاب) في مراكز وجودها على الجانب الشرقي لنهر الأردن. كما أن بعض تلك الفصائل كانت تدفع بالفدائيين التابعين لها للقيام بعمليات غير مدروسة سواء في محاولات لإدخالها إلى الضفة الغربية أو لاستهداف مواقع العدو المحصنة على الجانب الغربي من نهر الأردن مثل (الشعشاعة- أم الشرط) شمال أريحا، وبسبب هذا العمل الارتجالي كانت تقع خسائر كبيرة بين صفوف الفدائيين من الشهداء والجرحى.

---

[31] - (المربعات الأمنية يعني شوارع مغلقة من قبل هذه المنظمات)

أذكر أنه جرت السيطرة على مدينة عمان من قبل بعض من يسمون أنفسهم (بالفدائيين) أكثر من مرة. ولهذا السبب كان الملك حسين يفضّل البقاء في "قصر الحمّر" خارج عمان. وكان لا يستطيع دخول عمان والوصول إلى قصر رغدان- جبل الحسين. هذه السيطرة على عمان كانت تستمر ساعات ثم تنسحب القوى المسيطرة عليها بعد التوسط لديها من قبل مسؤولين أردنيين منهم رئيس الوزراء عبد المنعم الرفاعي.

ومن المشاهد المؤسفة والتي تشير إلى مخاطر كبرى أن جدران الشوارع في عمان وعموم المدن الأردنية كانت تملؤها شعارات مثل "السلطة كل السلطة للمقاومة". ولا شك أن الملك حسين كما أسلفت وخاله الشريف حسين كانا يستفيدان جداً من تلك الممارسات التي يفبركان إلى جانبها أحداثاً متعددة تسيء وتشوّه تجربتنا في الأردن.

تلك الأحداث لا يستطيع أحد أن ينكرها، لكنني أؤكد- وأجري على الله - أن ما حصل في أيلول عام 1970 لم يكن قدراً محتماً وكان باستطاعتنا أن نتجنب مثل هذا القدر أو أن نؤجل ميقاته، خاصة وأن وجودنا في الأردن كان لا يزال حديثاً، وكان علينا أن نعمل بكل الوسائل لمنع هذه اللعبة القذرة.

خطف طائرة العال (الإسرائيلية) 1968 وتحويلها إلى الجزائر

كنت قد أسلفت أن الدكتور وديع حداد استقر خارج الأردن، وبدأ يفكر وحده في كيفية تقديم المساعدة العملية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فأشرف شخصياً على إعداد فريق يكون مسؤولاً عن بدء خطف الطائرات. وابتدأ بخطف طائرة (إسرائيلية) قادمة من أوروبا إلى فلسطين المحتلة، وعلى متنها 140 (إسرائيلياً). وقد قام بالعملية ثلاثة شباب كانوا في الطائرة بجوازات سفر مزورة، وهم من عناصر وديع ممن أعدّهم بشكل جيد. وقد تم تحويل هذه الطائرة إلى الجزائر بتاريخ 22 تموز عام 1968.

أذكر أنني كنت في القاهرة حين جرت هذه العملية وكان الشهيد الدكتور وديع حداد هناك أيضاً، وقال لي: "انتظر حدثاً هاماً" دون أن يتحدث بالتفاصيل، وبعد أن تم خطف الطائرة وتوجيهها إلى الجزائر طلب مني المساعدة، فتحرّكتُ إلى الجزائر لأتابع هذا الموضوع ميدانياً، وأرسل معي أحد الرفاق الذين يعملون معه.

قبل أن أغادر القاهرة اقترحت أن نلتقي مع السفير الجزائري فيها وكان آنذاك السفير (الأخضر الإبراهيمي).

التقينا مع السفير الأخضر الإبراهيمي في القاهرة وقلت له إنني أرغب بالسفر إلى الجزائر لمتابعة مجريات هذه العملية. لكن لقاء السفير كان بارداً وسألنا: لماذا تقومون بهذا العمل وتورّطوا الجزائر فيه والجزائر حصلت على استقلالها حديثاً في عام 1962؟!

في النهاية قلت له: نرجو أن تبلغ الأخوة في الجزائر أنني ذاهب إليهم.

عندما وصلنا للجزائر كان في استقبالي أحد القياديين في جبهة التحرير الجزائرية الأخ "جلّول الملائكي" رحمه الله. وفي مكان الاستراحة في المطار أبدى امتعاضه من إنزال هذه الطائرة (الإسرائيلية) في الجزائر.

بعد ذلك انتقلنا إلى مكتب في مدينة الجزائر كان فيه بعض القيادات ولا أتذكر أسماءهم. اقترحوا علينا أن يتم إطلاق سراح الأطفال والنساء من الرهائن الموجودين على متن طائرة (العال) الإسرائيلية المحتجزة على أرض الجزائر. وافقنا على الفور، وقلنا إنه يجب أن يتضمن بيان عملية إطلاق الرهائن مفهومنا الإنساني الذي يناقض نهائياً ممارسات عدونا الصهيوني الذي يقتل الأطفال والنساء.

بعدها أردت أن ألتقي بعناصرنا الأبطال الذي نفّذوا هذه العملية. وذهبنا فعلاً إلى مكان إقامتهم وكان مكاناً مريحاً. استقبلنا الفدائيون المنفّذون بالأحضان وسألتهم عن طريقة معاملة الجزائريين لهم، فقالوا إنها جيدة.

ثم طُرح اقتراح، ولا أتذكر إن كان الجزائريون طرحوه أم نحن، يتضمن هذا الاقتراح الدعوة إلى الالتقاء بالرهائن (الإسرائيليين). وقد تمت الموافقة وحدد الموعد لليوم التالي.

ذهبنا في اليوم التالي لنلتقي بطاقم الطائرة والرهائن من الرجال بعدما أطلق سراح النساء والأطفال، وفوجئت بانضمام الأخ "هاني الحسن" من حركة "فتح" إلينا في هذا اللقاء، فهل كان بالصدفة في الجزائر أم جاء بطلب منهم على عجل؟!.

التقينا بالرهائن في قاعة كبيرة فيها أسرّة وكان يحيط بهم الأمن الجزائري، وبدأنا حواراً مطوّلاً معهم.

قلنا لهم: لا تستغربوا مثل هذا التصرّف فلقد قامت الحركة الصهيونية على امتداد السنوات الماضية بأعمال مخزية وضد الإنسانية.. أما نحن فقد أطلقنا سراح

النساء والأطفال الذين كانوا معكم على متن الطائرة، وقد تم ترحيلهم إلى فلسطين المحتلة عبر دولة أوروبية. وعرّفنا عن أنفسنا بأننا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين دون أن نذكر أسماءنا، ولنا أسرى فلسطينيون وعرب في سجونكم، ومطالبنا أن يتم إطلاق سراحهم مقابل إطلاق سراحكم.

بعد انتهاء النقاش الحاد مع بعض المتطرفين من الرهائن، طلب منا الجزائريون في اليوم التالي أن نغادر وقالوا: نحن سنتدبر الأمر، ولن نطلق سراحهم دون مقابل.

ما أردت توضيحه هو أن العمليات العسكرية التي كنا نقوم بها ضد العدو الصهيوني على كل الجبهات، إضافة إلى النشاط السياسي الكبير الذي ترافق مع نشاط إعلامي إلى جانب خطف طائرة "العال"، جعلت الجبهة الشعبية في نظر الناس والجماهير الفلسطينية والعربية مساوية بثقلها وحجمها لمنظمة "فتح العاصفة"، رغم ما لديها من حلفاء خليجيين ودعم أموالهم الكبير.

لقد أصبحت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قوة لا يستهان بها سواء في الميدان أو في العمل السياسي والإعلامي.

خلال هذه المرحلة وأثناء زياراتنا إلى مصر كان بعض المسؤولين المصريين يناقشوننا بموضوع استلام دفة قيادة منظمة التحرير الفلسطينية التي كان قد ترأسها أحمد الشقيري بموجب قرار قمة في عام 1964. والمعروف أن الشقيري استقال بعدها أو أُجبر على الاستقالة بعد مؤتمر قمة الخرطوم العربية عام 1967 واستلم منظمة التحرير يحيى حمودة ومجموعة من الوطنيين الفلسطينيين.

كانت وجهة النظر التي نطرحها نحن في الجبهة أمام الأخوة المصريين في لقاءاتنا تتمثل بعدم رغبتنا بالتورط في العمل السياسي؛ فقيادة منظمة التحرير الحالية هي قيادة وطنية ومشهود لها بذلك ونحن نعتبرها قيادة سياسية. وكنا نقول لهم: تعرفون كيف أن الصهاينة قد أسسوا قيادة سياسية عندما شكلوا (الوكالة اليهودية)، وكانت المنظمات العسكرية الصهيونية تتظلل (بالوكالة اليهودية) التي كانت فروعها في كل أنحاء العالم تجمع التبرعات وتنشط في العمل السياسي لدعم منظماتهم الإرهابية التي كان يقودها بن غوريون أو جابوتنسكي أو مناحيم بيغن.. الخ. لهذا فإننا نفضّل نحن كفدائيين أن نبقى نعمل على الأرض وقتال العدو دون أن نظهر إلى العلن، وكل همنا إنجاح تجربة الكفاح المسلح.

لكن يبدو أن الأخوة المصريين والرئيس عبد الناصر كانوا مصرّين على أن تتسلم المنظمات الفلسطينية منظمة التحرير. وجرت حوارات مطوّلة فيما بيننا كمنظمات فلسطينية في عمّان، وأبدى المرحوم "يحيى حمودة" ورفاقه المناضلون الآخرون استعدادهم للاستقالة. وهكذا عُقد في القاهرة أول مجلس وطني، وكانت وجهة نظرنا هي عدم المشاركة فيه، فقيل وقتها إن ذلك سيجعل الناس يتحدثون عن انشقاق في الصف الفلسطيني.

في النهاية توصلنا إلى حل بمشاركة رمزية، وعقد المجلس في القاهرة في تاريخ 1 شباط عام 1969 بمشاركة حوالي مئة وخمسة وعشرين عضواً. وشاركت الجبهة الشعبية بوفد كنت أمثله أنا والمناضل أحمد اليماني، وقد عرضت في لقاء المجلس الوطني المخاطر المحيطة بنا كفدائيين إذا تحملنا مسؤولية سياسية، مع العلم أنه توجد قيادة سياسية في المنظمة نثق بها.

بعد فشل العدوان (الإسرائيلي) في معركة الكرامة، شعر الملك حسين بأن كل محاولاته لاقتلاعنا من الأغوار الأردنية أو حتى من الداخل باءت بالفشل، فغيّر من سياسته وأُطلق عليه لقب (الفدائي الأول)، وبدأ يزور المواقع التي تقصف من الطائرات الإسرائيلية لحركة "فتح" فقط. وجرت اجتماعات متتالية وودية بين الملك حسين واللجنة التنفيذية برئاسة يحيى حمودة وإخوانه المناضلين في اللجنة التنفيذية والأخوة في حركة فتح. وكان الملك حسين يعلن تعاطفه مع العمل الفدائي (سبحان مغيّر الأحوال).. وكان يحيى حمودة والفصائل يدعونني للمشاركة بهذه الاجتماعات التي كانت تجري مع الملك حسين لكنني كنت أعتذر وأقول لهم: «لا أريد الذهاب.. أنتم تمثلوننا».

كان الملك حسين في كل اللقاءات يسأل مستغرباً: "لماذا لم يحضر الأخ أحمد جبريل معكم؟" فيقدم الأخوة أعذاراً لعدم حضوري.. وهذا الأمر يذكرني بموضوع يتعلق بالملك حسين..

فقبل معركة الكرامة تحرّك من دمشق بعض الأخوة من تنظيمنا إلى الأردن وتمكنوا من الدخول بطرق ملتفة لأن السلطات الأردنية كانت تمنعنا من الدخول بشكل عادي.

وفي إحدى المرات توجه القائد علي بوشناق "رحمه الله" وكان قد أطلق سراحه، مع الرفيق يوسف طُبل إلى الأردن لمساعدتنا، ولكن تم القبض عليهما في منطقة

الرمثا من قبل المخابرات الأردنية، ونُقلا إلى سجن بمنطقة المفرق. كان في داخل هذا السجن ما يزيد عن 15 من رفاقنا، فوجئوا بحضور الرفيقين أبو باسل ويوسف طُبل. وكان الأخ علي بوشناق مريضاً ومصاباً بجلطة سابقاً في القلب منذ نهاية العام 1963، فخاف عليه رفاقنا المعتقلون في سجن المفرق واتصلوا بمسؤول السجن وقالوا له: هذا الشخص مريض بالقلب وأنتم تتحملون مسؤولية حياته، وهو كان مقدّماً في الجيش السوري سابقاً.

بعد ساعات قليلة نُقل المرحوم علي بوشناق إلى مشفى "المعشّر" في عمان وهو أفضل مشفى في الأردن وقدّمت له العناية الطبية اللازمة.

علمت وأنا في أغوار الأردن بهذه الحادثة، كما عرفت أسرتي في دمشق بما جرى. وقد كان لوالدتي "رحمها الله" قريبة تسكن في عمان زوجها مسؤول سياسي كبير كان في السابق رئيساً للوزارة ثم مجلس الأعيان اسمه "سعيد المفتي" وهو شركسي. ذهبت إليه والدتي وشرحت له موضوع زوج ابنتها المرحوم علي بوشناق وطلبت منه التدخل. بعد ذلك زار محمد رسول الكيلاني رئيس المخابرات العامة، وهو الشخصية الأمنية الأساسية في الأردن في ذلك الوقت، المرحوم علي بوشناق في مشفى "المعشّر" وقال له: هناك توصية للعناية بك ونحن نعتبرك ضيفاً وليس موقوفاً والملك حريص أن يقابلك ومعك الأخ أحمد جبريل المختفي في الأردن منذ فترة طويلة.

فأجابه علي بوشناق "رحمه الله": أنا لا أعرف مكان وجوده لكن يمكن لَمن اعتقل معي في سجن المفرق (يقصد المرحوم يوسف طُبل) المساعدة في إيجاده إذا أقنعناه أن يجده لإبلاغه بهذا الاقتراح الذي قدمته عن اللقاء مع الملك حسين.

أمر محمد رسول الكيلاني بنقل رفيقنا المعتقل يوسف طبل من سجن المفرق إلى مشفى "المعشّر"، فقال له أبو باسل: «عليك الذهاب لإيجاد الأخ أبو جهاد وأن تبلغه برغبة الملك حسين في أن يلتقي بنا أنا والأخ أحمد جبريل». فأجابه يوسف طُبل: «أنا عندما اعتقلت كان معي مسدس، أريد استعادته». فطلب محمد رسول من رئيس الحراسات أن يعطيه مسدساً من عنده، فرفضه الرفيق يوسف طبل وقال له: «مسدسي إيطالي من نوع "بريتا" ورقمه كذا كذا، وأنا استلمته من الجبهة». فاضطر محمد رسول الكيلاني أن يحضر هذا المسدس من سجن المفرق وإعادته إلى "أبو جهاد يوسف".

التقيت بعد يومين مع "أبو جهاد يوسف" في الأغوار وحدثني عن الموضوع بكامله، فقلت له: «أنا غير موافق على لقاء الملك حسين، وإذا أرادوا أن يبقوا (أبو باسل) موقوفاً فليكن أما أنا فلن أقابل الملك حسين».

عاد أبو جهاد يوسف إلى مشفى المعشّر وأبلغ (أبو باسل) ومحمد رسول الكيلاني برفضي الطلب، وقال أبو باسل لمحمد رسول الكيلاني: ألم أقل لك أن (أبو جهاد) عنيد ولا يرغب أن تتم مثل هذه المقابلة تحت شروط.

بعد عشرة أيام من اعتقاله ذهب المرحوم علي بوشناق ومحمد رسول الكيلاني للقاء الملك حسين في قصر "الحمّر"، ودار حديث مطوّل، حسبما نقل لي فيما بعد أبو باسل. قال لي إنه أبكى الملك حسين عندما قال له: «ألا ترى من قصرك مآذن القدس ووالد جدك مؤسس الأسرة الهاشمية الشريف حسين قبره هناك؟!»، فقال الملك حسين: «أنا جاهز للتعامل معكم لأنكم كما يظهر لي رجال شرفاء ليس لديكم أهداف سياسية لتعكير أو تغيير النظام في الأردن».

فرحنا بإطلاق سراحه وانضم إلى الهيئة القيادية في الأردن برفقة "أبو جهاد يوسف". كانت الجامعة العربية قد قررت تقديم مبلغ كبير من المال للأردن من أجل اللاجئين الفلسطينيين الذين شُرّدوا من فلسطين بعد حرب حزيران عام 1967 استناداً إلى قمة الخرطوم والمساعدات المالية التي قُدّمت إلى مصر والأردن.

هذه اللجنة بدأت تقدم المساعدات العينية والمالية للاجئين من خلال الحكومة الأردنية. وعلمنا أن الأخوة في حركة "فتح" يتقاضون من هذه اللجنة مبالغ كبيرة.

قبل حل اللجنة التنفيذية التي كان يرأسها يحيى حمودة حدث لقاء أخير مع الفصائل الفدائية، وكنت أشارك في اجتماع الفصائل ومنظمة التحرير. وفي نهاية اللقاء قال المرحوم يحيى حمودة إن الملك حسين ينتظرنا جميعاً في قصره، فقلت لهم: «اذهبوا أنتم وربنا يوفقكم»، فقال الحاضرون لي: «والله لتذهب معنا. لقد كنا نضطر إلى الكذب عند سؤال الملك حسين المتكرر عن عدم حضورك». وفي النهاية أحرجوني فوافقت، ووضعت يدي بيد المناضل بهجت أبو غربية إلى لقاء مع الملك حسين مع الجميع في قصر الحمر.

التقينا به في قصره. في القاعة كانت على كل كرسي بطاقة تحمل اسم الذي سيجلس عليه. وكان الملك يجلس خلف طاولة والحضور عن يمينه ويساره. ويبدو أنه قد تعمّد أن يضعني على يمينه مباشرة وكان يجلس أمامي الأمير الحسن "ولي العهد"

وكذلك باقي أعضاء اللجنة التنفيذية وقادة الفصائل الفدائية على جانبي مكتبه الكبير.

استهل حديثه بالترحاب بالجميع وخصّني بالذكر لأننا نلتقي لأول مرة مع بعضنا. وكان هدف هذه اللقاءات بعد معركة الكرامة بلسمة الجراح وإيجاد قنوات التواصل بين النظام الأردني والعمل الفدائي ومنظمة التحرير.

بعد انتهاء الاجتماع دعانا الملك حسين إلى الغداء وأصرّ أن أكون على يمينه. وكان الطعام المفضل لديهم "المنسف". وكان الملك يضع قطع اللحم أمامي ويسألني بعض الأسئلة الودية "متزوج؟ كم ولداً لديك؟".. وقال لي: "أنا دوماً جاهز إذا أردت لقائي"، ونظر إلى رئيس الحرس وقال له: "اكتب أرقام القصر وأعطها للأخ أحمد جبريل". وكان هذا اللقاء الأول والأخير مع الملك حسين.

تحدثت في لقائنا في المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الخامسة في القاهرة في 1 شباط عام 1969 (الذي أصبح رئيسه السيد عبد المحسن قطان وهو أحد الأغنياء)، حول أسباب عدم مشاركتنا كجبهة شعبية إلا بشكل رمزي. واشتدّ النقاش وجرى اختيار لجنة تنفيذية. أراد الأخ أبو عمار "رحمه الله" أن يتم اختياره أولاً رئيساً لتكون قوته أكثر ثقلاً من اللجنة التنفيذية ثم يتم اختيار باقي أعضاء اللجنة التنفيذية، فتصدى له في هذا الاجتماع الأخوة من حركة فتح الشهيدان كمال عدوان وأبو يوسف النجار وبطريقة مذلة. وبذلك رفض المؤتمر الاقتراح وأصرّ على أن يتم اختيار اللجنة التنفيذية بكاملها أولاً ثم تجتمع هذه اللجنة ليتم اختيار رئيس لها.

بوادر خلافات ائتلاف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

بدأت المشاكل داخل حركة القوميين العرب كما ذكرنا بين الاتجاهات الماركسية اللينينية الماوية وبين الاتجاه القومي، حتى وصلت إلى تصفيات دموية في عمان. وكانت هذه الخلافات تنعكس علينا في الجبهة الشعبية، حتى أنني أذكر جيداً أن الشهيد أبو علي مصطفى والأمين المساعد الحالي أبو أحمد فؤاد كانا موجودين في معسكر تابع لنا قرب جبال السلط وتحدثنا مطوّلاً عن هذه الخلافات وأثرها السلبي على عمل الجبهة الشعبية، وقالا لي: إن هناك شرذمة من بعض المثقفين في حركة القوميين العرب الذين اقتبسوا الماركسية واللينينية الماوية يريدون أن يحرفونا عن نضالنا القومي لذلك نرجو منك أن تعطي تعليماتك لكل القواعد العسكرية بعدم

استقبال هؤلاء خاصة رفيقهم "نايف حواتمة". ولم أكن أعرفه شخصياً ولا سمعت به في ذلك الوقت.

أعتقد أن الأخوة في حركة "فتح العاصفة" شعروا بأن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قوة تساويهم في الميدان العسكري والسياسي فبدؤوا يشجعون على إثارة المشاكل بين هذه الاتجاهات داخل الجبهة الشعبية، بل قدموا المساعدات وقاموا بحماية (الاتجاه الماركسي) داخل حركة القوميين العرب. وكما أسلفت نحن كنا قد انزعجنا في الجبهة من إصدار بيانات سياسية لا تعبر عن آراء الجبهة ينفرد بها البعض ويشنّون حملة فيها على القيادات في سورية ومصر والعراق ويتّهمونها بأنها تمثل أنظمة برجوازية وأنها سقطت بسبب هزيمة حزيران 1967.

كنا نقول لهم إن هذه القيادات تشكل لنا حالياً مظلة تحمينا في الأردن من أهداف النظام الهاشمي، فلماذا مثل هذه البيانات الآن، خاصة أننا لم نكن نعلم بها إلا من خلال الصحف التي تنشرها؟!

إلى جانب ذلك كانت هناك مشاكل في داخل الجبهة.. فنحن كنا نتحمل مسؤولية العمل العسكري في جبهات متعددة ونحتاج إلى إمكانات مالية، وكانت اللجنة المالية يرأسها الشهيد أحمد اليماني وهو من القوميين العرب، وبدأنا نشعر بوجود تقصير مالي تجاهنا.

كنا ننفذ العمليات ويستشهد لنا رفاق، وأذكر أنني طلبت من المناضل "اليماني" رحمه الله تزويدنا ببعض المال من أجل نقل جثامين شهدائنا الذين سقطوا جنوب البحر الميت، وبينهم قائد القطاع الشهيد البطل أبو علي الأخضر إلى أهلهم في سورية، فأجاب بأن المال غير متوفر. ووصل هذا الحال إلى درجة أن رفاقنا في القواعد العسكرية لم تكن تصل إليهم الإمدادات الغذائية.

لذلك كان المرحوم علي بوشناق يذهب إلى التجار في عمّان- كما أسلفت- ليجمع لنا ما نحتاجه من طعام ويرسله لنا إلى الأغوار.

كما بلغني أنهم أنشؤوا قاعدة عسكرية لهم بقيادة المرحوم محمد عيسى الطيراوي "أبو عيسى" ومعاونه حمدي مطر "أبو سمير" دون إطلاعنا. ورغم ذلك كنت أزورهم وأزودهم بالتوجيهات. إلى جانب ذلك أحضروا ضباطاً لمساعدتهم في بناء جهاز عسكري مستقل! وفوجئت بوجود المقدم هيثم الأيوبي الذي خدمت تحت إدارته في تلكلخ عندما كنت في الجيش السوري.

كل ما سبق يدل على أنهم انتقلوا إلى مرحلة جديدة بعد أن استفادوا من خبرتنا وتجاربنا ومن المقاتلين من أعضاء جبهتنا حتى بداية عام 1969. حينها اجتمعنا في الجبهة الشعبية على مستوى القيادة في عمان وطرحنا نقاط الخلاف، وكان الدكتور جورج حبش ما يزال معتقلاً في سورية والشهيد وديع حداد خارج الأردن.

قلنا لهم: يبدو أننا لن نستطيع المتابعة مع بعضنا البعض بهذه المسيرة لأسباب عديدة. لقد دبّت الخلافات في صفوفكم ثم بدأت المشاكل بيننا وبينكم.

وهكذا وقع الانفكاك داخل الجبهة الشعبية وقلنا لهم: نحن سنحتفظ باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وعليكم اختيار أي تسمية أخرى، فاسم الجبهة الذي كبر وأصبح له مكانة قد عمّدناه بدماء شهداء سقطوا لنا على طول الجبهات وهنالك أكثر من 40 بلاغاً عسكرياً، منها 35 بلاغاً لعمليات نفذّها رفاقنا في جبهة التحرير الفلسطينية. كما قلنا لهم: «أنتم كحركة قوميين عرب قادرون أن تطلقوا على أنفسكم أي اسم ولكم انتشار كبير في العراق واليمن والأردن».

تم الانفكاك وانحاز "أبطال العودة" إلى حركة القوميين العرب، بينما انحازت القوى الناصرية بقيادة المرحوم "أحمد زعرور" وإخوانه (التيار الناصري) إلينا. وحصل هذا الانفكاك دون نقطة دم واحدة، وبعد جدال حسمنا موضوع اسم التنظيم واتفقنا أن نصدر بلاغاتنا العسكرية باسم (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة) كما كنا نفعل في السابق قبل الانفكاك.

من المؤسف أن عدداً من أجهزة الإعلام كان يعتقد أو يروّج أننا جزء من حركة القوميين العرب، ثم وقع الانفكاك أو ما يسميه البعض انشقاقاً وهذا الأمر غير صحيح أبداً.

بعد انفكاكنا اشتد الانقسام داخل حركة القوميين العرب نفسها، بين اتجاه قومي واتجاه ماركسي لينيني ماوي يقوده السيد نايف حواتمة. وهذا الخلاف رافقه دم وخلافات فيما بينهم. وانقسمت حركة القوميين العرب إلى قسمين: قسم حافظ على اسم "الجبهة الشعبية"، وآخر انشقّ عنه أطلق على نفسه اسم (الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين)، واحتموا بـ "فتح" التي دعمت انشقاقهم، و"منظمة الصاعقة" حين كان يرأسها (المرحوم ضافي جميعاني). وهكذا حصلوا على السلاح والمال والحماية.

بعد الانفكاك عن حركة القوميين العرب انحاز الاتجاه الناصري إلينا. ولم يستطع الملك حسين أن يستوعب هؤلاء الناصريين بأساليبه الذكية، لكنه استطاع أن يستوعب بعضاً منهم والبعض من الشيوعيين. فالضباط الناصريون الشرفاء الذين لم يستطع أن يستوعبهم الملك حسين توثقت العلاقة بينهم وبيننا، ولعبوا دوراً هاماً في تقريبنا من الرئيس جمال عبد الناصر. ودليل ذلك أنه أثناء اجتماعنا مع الرئيس عبد الناصر في القاهرة كنا ثلاثة (أنا والسيد أحمد زعرور وموسى محمود "رحمهما الله"- وكانا ضابطين في الجيش الأردني سابقاً.. أحمد زعرور برتبة عميد وموسى محمود برتبة مقدم وهو شركسي) وقد استمر الاجتماع مع الرئيس عبد الناصر ثلاث ساعات.

خلال الحديث وجّه الرئيس عبد الناصر كلامه للسيد موسى محمود وقال له: "لماذا لا ترفع رأسك يا موسى؟" وبالفعل كان موسى محمود خافضاً رأسه وينظر إلى الأرض باستمرار- أجاب: "كيف أرفع رأسي أمام قائدي ونحن كضباط أحرار في الأردن فشلنا في الانقلاب على الملك حسين؟!"، فقال عبد الناصر: "عندما تمت الوحدة بين سورية ومصر وكان سليمان النابلسي رئيس وزراء الأردن وعبد الله الريماوي وزيراً للخارجية وكان وطنياً أيضاً، أرسلوا لي خبراً مع عبد الحميد السراج مسؤول الأمن في سورية يقول إنكم جاهزون للانقلاب والثورة في الأردن لكنني لم أوافق. هل تعلمون لماذا لم أوافق؟".

وتابع الرئيس عبد الناصر: كان النظام الهاشمي في بغداد قد سقط. ولو أن الثورة في الأردن نجحت وتمت إبادة الأسرة الحاكمة كما جرى في العراق وانتهى الملك حسين وأعوانه، كان (الإسرائيليون) سيقومون إثر ذلك باحتلال الضفة الغربية والقدس، وأنا لا يمكن أن أتحمّل مسؤولية ضياع الضفة الغربية والقدس ونحن مازلنا في بداية الوحدة بين سورية ومصر، وغير قادرين على أن نحمي فلسطين.

فسكت السيد موسى محمود.

طرحتُ بعد ذلك مع الرئيس عبد الناصر أخطار الموافقة على القرار /242/ وقلت له: «يا سيدي هذا القرار فيه اعتراف بالكيان الصهيوني وينظر للقضية الفلسطينية على أنها مشكلة لاجئين»، قاطعني الرئيس عبد الناصر وقال: «يا أحمد.. نحن وافقنا على هذا القرار من واقع الهزيمة وكان الجيش (الإسرائيلي) على ضفة قناة السويس، وقد احتل الضفة الغربية والقدس وغزة والجولان، وجيوشنا جميعها

شبه مدمرة. قبلنا بهذا ولكن إن شاء الله عندما نبني قوتنا سنضع هذا القرار جانباً».
فقلت: «يا سيادة الرئيس.. هؤلاء الصهاينة مجرمون فقد قصفوا مدرسة (بحر البقر) في الدلتا، وكانت الخسائر كبيرة بين الطلاب الصغار والصبية ولديكم الآن جيش وطيارون ارفعوا معنويات الناس، فلماذا لا تضربونهم؟».

استدعى الرئيس عبد الناصر مدير مكتبه السيد سامي شرف وقال له: «اجلس.. أحمد يقول لماذا لا نرد على مجزرة مدرسة بحر البقر!؟»، فقال سامي شرف: «قلنا لقائد القوات البحرية اضرب تل أبيب أو حيفا، فقال: «القطعات البحرية إذا ذهبت لن تعود وسيحصل معنا كما حصل في عام 1956 عندما أسر (الإسرائيليون) المدمرة إبراهيم باشا قرب حيفا»، ثم تابع سامي شرف: «الرئيس طلب من القوات الجوية، فقال له قائد القوات الجوية: لا توجد طائرات تستطيع الوصول إلى الأراضي المحتلة وسيتم إسقاطها قبل وصولها». وهنا أكمل الرئيس عبد الناصر وقال: «عندما يصبح لدينا قوة وإمكانات سنرد ولن ننسى».

سألنا الرئيس عبد الناصر عن علاقتنا مع العراقيين وخاصة أن لديهم جيشاً من 20 ألف جندي في الأردن، فقلت له: "يا سيادة الرئيس.. قائد القوات العراقية في الأردن العميد حسن النقيب رجل وطني فاضل ومتحمّس، وقصف مدينة طبريا بالمدفعية مرات عدة" فأوضح الرئيس عبد الناصر بأن علاقته جيدة مع النظام الجديد في بغداد.

ثم أضاف الرئيس عبد الناصر: «وصيتي الأولى إليكم أن تصعّدوا العمل المسلح ضد العدو وسنقدم لكم المساعدات قدر المستطاع. أما وصيتي الثانية لكم.. أنتم وفتح العاصفة قوتان أساسيتان في الأردن، أوصيكم بالتعاون وعدم الاختلاف مع بعضكم البعض.. لقد أصدرت توجيهات للواء محمد أحمد صادق قائد المخابرات الحربية في مصر أن يعمل على التقريب بينكم، وأرسلتُ إلى عمان ضابطاً جيداً ليكون ضابط ارتباط في الأردن».

ثم تابع الرئيس عبد الناصر: «أنتم انفككتم عن تحالفكم مع حركة القوميين العرب ونحن نعلم ذلك»، وتحدث أكثر من نصف ساعة عن وجهة الخلاف بينه وبين حركة القوميين العرب وعن مواقفهم السلبية بمرارة وقال: «قدمنا لهم الكثير وقمنا بتأسيس مجلة "الحرية" في لبنان لهم. لكن حين وقع عدوان 1967 كتب محسن إبراهيم مقالاً بعنوان (سقطت أنظمة البرجوازية الصغيرة)، أهكذا يكون ردّ الجميل؟!.

لقد أعطيت في سورية أيام الوحدة التوجيهات للاتحاد الاشتراكي لاستيعاب حركة القوميين العرب وإعطائهم مواقع مهمة، وكذلك قدمنا لهم في اليمن الجنوبي المال والسلاح في مواجهة الاستعمار البريطاني، لكن للأسف كل ذلك لم ينفع».

في النهاية قلت للرئيس جمال عبد الناصر: «إن بعض الصحف المصرية خاصة الهامة منها منحازة لحركة "فتح" وتنقل أخبارهم وتتجاهل عملياتنا».

لاحقاً أخبرنا مدير مكتب الرئيس سامي شرف أنه رتّب لنا لقاء مع وزير الحربية اللواء محمد فوزي الذي كان سابقاً عام 1957 مديراً للكلية الحربية التي كنتُ طالباً فيها. في ذلك اللقاء قلت للواء فوزي: «بالتأكيد أنت لا تتذكرني عندما كنت طالباً في الكلية الحربية لأن دورتنا ودفعتنا كانت كبيرة جداً.. لكنني أريد أن أذكرك بموضوع فيه بعض الفكاهة (وكان اللواء محمد فوزي من الصعب أن يبتسم أو يضحك)، قلت له: قبل تخرجنا من الكلية قمنا بمناورة استمرت لمدة أسبوع، ومن ضمن هذه المناورة القتال بأنواعه والكمائن واجتياز الحواجز المائية، حيث كان الحاجز المائي عبارة عن نهر تصب فيه كل فضلات مصر الجديدة وما قبلها وكانت تنبعث من ذلك النهر رائحة كريهة جداً. وبعدها تدربنا على القتال في الأماكن المشجرة وهي عبارة عن بساتين كبيرة جداً لإقطاعيي مصر مزروعة بكل أنواع الفواكه. ونحن كطلاب دخلنا هذه المزارع التي عرفنا فيما بعد أنها لأحد الإقطاعيين "أبو رجيله" وهو يملك أيضاً باصات النقل الداخلي في شرق القاهرة وغربها، فعبثنا بهذه البساتين وقطفنا الكثير من ثمارها ورميناها على الأرض. وبعد أن عدنا إلى الكلية وانتهت المناورة، جهزنا أنفسنا للخروج في الإجازة الأسبوعية، وكان النظام في الكلية يفرض التدقيق على الطلاب بشأن هندامهم والحقيبة الموحدة التي يحملونها.. وأذكر أنه كان يصادف وقتها عيد المولد النبوي فقال لنا الضباط المشرفون إن اللواء فوزي سيأتي ليراكم. حينها اعتقدنا بأنه يريد أن يلقي فينا كلمة حول المجهود الذي قمنا به في هذه المناورة الصعبة التي دامت عشرة أيام متتالية، لكننا فوجئنا في ساحة الاجتماع (أرض الطابور) بأن هناك أكواماً مغطاة من الصناديق، اعتقدنا أنها نوع من الحلويات سيجري توزيعها علينا بمناسبة عيد المولد النبوي وانتهاء المناورة الصعبة. دخل اللواء فوزي المعروف بهيبته الكبيرة حتى على الضباط من ذوي الرتب العالية، ثم بدأ يلقي كلمته».

قلت له:: هل تتذكر؟ بدأ يبتسم وقال: نعم.. تذكّرت.

أذكر أنني قلت لكم وبكلمات قاسية: «يظهر أنكم أيها الطلاب لم تنالوا تربية صحيحة في منازلكم من عائلاتكم، ما هي أسباب هذه الأعمال؟!.

يومها طلب اللواء فوزي من الضباط أن يرفعوا الأغطية عن الصناديق الموجودة في ساحة الاجتماع، لنرى الفواكه والبرتقال الذي قطفناه ثم رميناه على أرض المزارع، ثم تابع: «أيها الطلاب، أنتم بهذا السلوك القبيح لن تستطيعوا أن تبنوا وطنكم!، لذلك سأسمي دورتكم دورة البرتقال».

نظرت إلى اللواء فوزي ومازالت الابتسامة على وجهه وأخبرته أنني قلت في نفسي وأنا أستمع لكلامه ذلك اليوم في ساحة الاجتماع وهو يوبّخنا كطلاب، وكنت في سنّ العشرين «سأتخرج طالباً وأثبتّ لمدير الكلية في يوم من الأيام بأننا سنكون رجالاً يتحملون مسؤولية تحرير فلسطين.. وها أنا الآن أمامك وطلبت لقاءك من السيد الرئيس لأخبرك بأن من كان في دفعة البرتقال وخرج من رحمها أصبح من المناضلين». فقام اللواء من مقعده واقترب مني وتعانقنا.

ثم رتّب لنا السيد سامي شرف لقاء مع اللواء محمد أحمد صادق قائد المخابرات الحربية، وكان استقباله لنا استقبالاً حاراً وأخوياً. بدأنا نتحدث عن ظروف مواجهاتنا مع العدو الصهيوني وسبل التغلب على هذه العقبات، فأبلغنا اللواء محمد أحمد صادق بأن القيادة فرزت لنا ضابطاً برتبة عقيد اسمه محمد الدخاخني لإدارة العلاقة معنا ومع "فتح" وسيكون مقره في السفارة المصرية بالأردن. وأكد لنا بأنه يجب أن تكون العلاقة بيننا وبين الأخوة في "فتح" ودية، وإذا حدثت أي إشكالات ولم تستطيعوا حلها فيمكن للعقيد الدخاخني الموجود في عمان، وهو شاب واعٍ، المساعدة في حل هذه الإشكالات.

كما رتّب لنا الأخ سامي شرف أيضاً لقاءات مع الكتاب والصحفيين محمد حسنين هيكل وفكري أباظة وأحمد بهاء الدين وآخرين. وأُعطيت لهم التعليمات بألا يكونوا منحازين إعلامياً لوجهة نظر الأخوة في حركة "فتح"، وهذا ما حدث، حيث تحدثنا مع عدد من الإعلاميين عن وجهة نظرنا.

حين بدأنا نستعد للمغادرة باتجاه الأردن طلب منا السيد سامي شرف التريث (ومن الصدف أن شقيقه الأصغر طارق كان زميلي في الكلية الحربية). وبعد يومين التقينا به مرة ثانية، وقال لنا الأخ سامي شرف: «نحن نأسف على تأخيركم. والسبب أننا كنا نجمع نقوداً لكم بالدولار من الرسوم التي نفرضها على دخول السياح إلى

مصر حتى نقدمها مساعدة لكم، فنحن لا يوجد لدينا قطع أجنبي منذ أغلقنا قناة السويس عام 1967.

لقد تأثرنا كثيراً بهذا الكلام وهذا الموقف، وبحالة مصر بعد العدوان، وفقرائها الذين كنا نشاهدهم في الشوارع.

بدأ يتضح أكثر فأكثر أن الجيش المصري نجح بقيادة الرئيس عبد الناصر، بعد إزاحته لعبد الحكيم عامر عن القيادة ومن معه من ضباط اعتبروا أحد أسباب هزيمة 1967، في إعادة ترتيب قدرات الجيش بسرعة وذلك بتعيين اللواء محمد فوزي قائداً عاماً للجيش والقوات المسلحة برتبة فريق، كما تم تعيين اللواء عبد المنعم رياض رئيساً للأركان في 11 حزيران 1967 واللواء محمد أحمد صادق رئيساً للمخابرات الحربية. وقاد عبد المنعم رياض حرب الاستنزاف التي أعلنها الرئيس عبد الناصر ضد العدو (الإسرائيلي) على جبهة قناة السويس وفي البحر وقرب سواحل فلسطين.

وحقق عبد المنعم رياض انتصارات ميدانية في المعارك التي خاضتها القوات المسلحة المصرية خلال حرب الاستنزاف مثل معركة رأس العش التي منعت فيها قوة صغيرة من المشاة سيطرة القوات الإسرائيلية على مدينة بور فؤاد المصرية الواقعة شمال قناة السويس وذلك في آخر شهر حزيران عام 1967، وتدمير المدمرة الإسرائيلية إيلات في 21 تشرين أول عام 1967 وإسقاط بعض الطائرات الحربية الإسرائيلية خلال عامي 1967 و 1968.

وحين كان الجيش المصري يشنّ حرب استنزاف غير مسبوقة ضد جبهة العدو الإسرائيلي ويركز اهتمامه على إيقاع الخسائر البشرية في قوات العدو، ويشكل لنا مثالاً لوحدة القتال المشترك ضد الاحتلال في ذلك الوقت من نهاية عام 1968، فوجئنا في الجبهة وفي الساحة الفلسطينية بصدور بيان عسكري باسم "فتح العاصفة" يزعم أنها هي التي قامت بعملية للضفادع البشرية استهدفت ميناء (إيلات) الإسرائيلي، مع أن الجميع كان يعلم أن الضفادع البشرية المصرية هي التي نفذتها. هذا الحدث دعا العقيد محمد دخاخني ضابط الارتباط المصري في سفارة مصر بعمّان إلى الالتقاء بي وكان معي السيد أحمد زعرور "رحمه الله".

في هذا اللقاء توجّهت للعقيد دخاخني مخاطباً إياه بانزعاج شديد بدا واضحاً في لهجتي وكلامي: « لقد اتفقنا مع الرئيس جمال عبد الناصر ومع وزير الدفاع محمد

فوزي، وكذلك مع اللواء محمد أحمد صادق وقادة أجهزة الإعلام في مصر أن تكونوا في موقع الحياد والداعم لنا جميعاً؛ لكن عندما شاهدنا بيان حركة فتح العاصفة الذي يزعم أنها نفذت عملية إيلات استغربنا، لأن هذه العملية تحتاج إلى قدرات فنية وعسكرية وتدريبية كبيرة ونحن نعرف ماهي إمكانيات وقدرات الأخوة في حركة "فتح"».

حينئذٍ اتصل العقيد محمد دخاخني بالسفير المصري في عمان- وكان في نفس المبنى- وطلب منه المشاركة في هذا اللقاء. عندما حضر استأنف العقيد دخاخني كلامه: «قواتنا المسلحة هي التي نفذت عملية إيلات ولكننا تأخرنا في إصدار البيان العسكري لأن عنصرين من ضباط الصف من الوحدة المنفذة لم يرجعا بعد إلى قاعدة الأمان وكنا ننتظر عودتهما. لكن للأسف أصدر الأخوة في حركة فتح هذا البيان.. وتأكد يا أخ أحمد أنك ستسمع خلال ساعة من الزمان بياناً صادراً عن القيادة العامة للجيش المصري حول عملية إيلات[٣٢].

في ذلك الوقت تذكرت بعض العمليات العسكرية التي قمنا بها ضد العدو وتأخرنا بإصدار بيانات بشأنها لسبب أو آخر، وكيف أن حركة فتح العاصفة كانت تقوم بإصدار بلاغات تدّعي أنها هي مَن نفذها.

بالصدفة، وبعد أيام من عملية "إيلات" كنت أقود السيارة ولم يكن معي أحد في الطريق من الشونة الجنوبية بوادي شعيب باتجاه السلط. وإذا بالأخ "أبو عمار" يقود سيارته أيضاً آتياً من عمان باتجاه السلط. وبما أنّ الطريق ضيق، وكان كل منا يعرف سيارة الآخر، فقد توقفنا وترجلنا لإلقاء السلام، وكنا لم نلتقِ منذ زمن.

كانت الأجواء ودّية بيننا وبين الأخ "أبو عمار". قال لي: «أنا مسافر إلى القاهرة.. هل تريد شيئاً من الإخوان هناك»، فضحكت، قلت له: «يا أخ "أبو عمار".. قبل أيام كنت ادّعيت في بيانك العسكري أنكم نفذتم في فتح عملية "إيلات"، لكنّ المصريين أصدروا بعدكم بياناً تبنوا هم فيه هذه العملية، فكيف تستطيع الآن مقابلتهم بعد ادّعائكم؟!».

---

[32] - (تأكيداً على هذه الحقيقة أنتج المصريون فيلماً عن هذه العملية تضمّن الوقائع الحقيقية لهذا العمل البطولي الذي قامت به الضفادع البشرية المصرية).

فضحك أبو عمار- وكان صاحب نكتة- وقال لي: «يا أبو جهاد .. طوال سنوات كثيرة وهذه الأنظمة العربية تكذب علينا، فلا عتب علينا إذا كذبنا هذه الكذبة، وتأكد أن الأمور ستسوّى دون حدوث أي خلل في العلاقات».

أنشأ الأخوة في مصر منظمة في شبه جزيرة سيناء المحتلة وأطلقوا عليها اسم (منظمة سيناء العربية) وضمّت في صفوفها المصريين للمساهمة باستنزاف العدو الصهيوني في شبه جزيرة سيناء. وكانت البلاغات العسكرية الصادرة عن هذه المنظمة تعلن عن سقوط عشرات القتلى والجرحى من العدو على الجبهة المصرية.

كما شارك الجيش العراقي الذي انتشر في الأردن بقيادة العميد حسن النقيب، وهو رجل وطني وشجاع، بمدفعيته الموجودة في شمال إربد بقصف مواقع العدو في طبريا وجنوبها وفي منطقة صفد وفي هضبة الجولان المحتلة، وكانت هذه العمليات تسبب خسائر كبيرة في صفوف العدو وتنشر الخوف والرعب في صفوفه. وقد استشهد العشرات من الجيش العراقي بسبب الغارات الجوية المعادية التي استهدفت وحدات الجيش العراقي في الأردن.

أما على الجبهة السورية فقد كانت سورية تشكل حاضنة آمنة للمقاومة ولمعسكرات تدريبها ولطرق مواصلاتها . وكان الجيش السوري يشنّ حرب استنزاف عسكرية على العدو الصهيوني في الجولان المحتل، بينما يستهدفه سلاح الجو (الإسرائيلي) بغارات متتالية ضد مواقع الجيش السوري ومواقعنا العسكرية.

أذكر أن العدو قام بشنّ غارة على معسكرنا في "عين السخنة" شمالي دوما وتسبب باستشهاد 12 عنصراً من جبهتنا، وقد تصدت طائرات الـ (ميغ 17) السورية لطائرات الفانتوم الأمريكية الحديثة وأسقطت إحداها حول دمشق.

شكلت حرب الاستنزاف هذه أهمية كبيرة لنا كفدائيين فقد طورنا وجودنا في منطقة العرقوب بموجب اتفاق القاهرة واجتزنا نهر الحاصباني وصولاً إلى مرجعيون وإلى النبطية، ثم من النبطية باتجاه الأراضي المحتلة باتجاه الجنوب؛ وبنت جبيل وعيثرون. ووسعنا من انتشارنا حتى وصلنا إلى إصبع الجليل من شماله إلى غربه.

أطلقتُ في ذلك الوقت على المرحلة من عام 1969 وحتى منتصف عام 1970 اسم اليوبيل الذهبي للمقاومة وللأمة العربية وأنظمتها المناضلة الممثلة بسورية ومصر والعراق. فقد حظي الفدائيون بشعبية وزخم كبيرين في البلدان العربية، وكان الجمهور العربي يجمع لهم التبرعات في كل البلدان، حيث النساء تتبرّع بحليّها لدعم العمل

الفدائي الذي فرض نفسه ومكانته بحيث أصبح الفدائي يستطيع خاصة في "فتح العاصفة" والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة، أن يتحرك من الأردن إلى سورية إلى لبنان بواسطة هويته النضالية الصادرة عن تنظيمه. كما كانت نقاط الحدود ترحّب به. حتى أنني تنقّلت بين الأردن والعراق والكويت بواسطة هوية الجبهة، وكانوا يعاملوننا على الحدود معاملة مميزة لأننا فدائيون.

للأسف الشديد بدأت المؤامرات الدولية تحاك ضدنا وتعمل على إنقاذ الكيان الصهيوني الذي بدأ يفقد يومياً- ولا أبالغ إذا قلت- العشرات والمئات من القتلى والجرحى، فقد استُنزفت قواته البشرية، وهذا الكيان ببنيته لا يستطيع تحمّل الحروب الطويلة.

بعد الضربات المؤثرة والعمليات القوية ضد العدو هرعت الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية لتقديم المساعدة لهذا العدو بشتى الوسائل لترميم ما أصابه، رغم أن العدو كان يطلق العنان لسلاحه الجوي المتفوق لضرب العمق الجغرافي في داخل مصر باتجاه الجنوب (نجع حمادي) وخطوط الكهرباء القادمة من السد العالي، ويشن غارات على المواقع المصرية العسكرية والمعامل في دلتا مصر.

وكان العدو الصهيوني قد قصف في سورية مراكز مصافي تكرير النفط في حمص وبانياس، وضرب بعض المواقع المدنية في منطقة درعا، ما اضطر الرئيس جمال عبد الناصر أن يطلب من حلفائه السوفييت في ذلك الوقت المساندة العملية المباشرة وليس الاكتفاء بإرسال السلاح والعتاد. وبالفعل قام الاتحاد السوفياتي بإرسال آلاف الخبراء ولواء جوي من طائراته لحماية الدلتا وأعماق مصر، كما أرسل بعض وحدات الدفاع الجوي. وبدا آنذاك أن وضع العدو قد أصبح حرجاً ويتعرض لانهيارات معنوية كبيرة ما اضطره في بعض الأوقات للقيام بعمليات عسكرية استعراضية لرفع الحالة المعنوية لجيشه ولمستوطنيه. وفي هذا السياق نفّذ إنزالاً على جزيرة الشدوان جنوب خليج السويس واستطاع الاستيلاء على أحد الرادارات الروسية الحديثة.

ومن الجدير ذكره التأكيد هنا على أن المؤامرات بدأت في ذلك الوقت تهدف إلى إيقاع الخلاف مرة أخرى بين منظمات الفدائيين والنظام الهاشمي في الأردن من أجل زعزعة الأرض التي تقف عليها المقاومة. واتبع النظام الأردني كل الوسائل التي كانت تحددها له الولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني. ومع ذلك لا بد من الإشارة أيضاً إلى العوامل الذاتية السلبية الخاصة ببعض الأطراف من المقاومة الفلسطينية

التي لم تحسن تقدير المسؤولية السياسية والمحافظة على الظروف التي أتيحت لنا في الضفة الشرقية من الأردن والأهمية الاستراتيجية.

لقد كان الكثيرون من قادة المنظمات في ذلك الوقت يرون أن النظام في الأردن آيل للسقوط، وبدأت بعض القوى تتسابق للإعداد لوراثة هذا النظام كما أشرنا.

وأذكر جيداً أن المرحوم الصديق أحمد زعرور حليفنا في الجبهة الشعبية القيادة العامة وكان من قادة الاتجاهات الناصرية في الأردن، قد اتصل معي وقال: «هناك ضابط فلسطيني له موقع مهم مسؤول عن العمليات في أحد الألوية الأردنية ويريد مقابلتك». فسألت الأخ أحمد زعرور عن اسمه، فقال إنه المقدم موسى محمود العملة أبو خالد فقلت له: هل اللقاء به ضروري في هذا الوقت الحساس الذي يتطلب منا دراسة بشكل دقيق خشية عواقب مثل هذه اللقاءات التي ستثير لنا مشاكل مع النظام في الأردن نحن في غنى عنها؟، لكنه ألحّ عليّ، فحددت له موعداً في أحد مواقعنا جنوب السلط وفي إحدى (المغر)، وطلبت منه أن لا يحضر بلباسه العسكري وأن يضع "شماخاً" على وجهه عندما يقترب من الموقع.

بدأ موسى محمود العملة "أبو خالد" حين التقينا بالتعريف عن نفسه وقال إنه مع مجموعة من الضباط الأحرار يخططون لقلب النظام في الأردن. وعندما انتهى من شرحه قلت له: نحن الثلاثة (أحمد زعرور وأنت وأنا) كنا ضباطاً في الجيش ولنا خبرة واطلاع على كيفية مثل هذه الانقلابات وما يترتّب عليها، فلماذا جئت لإطلاعي على رغبتكم هذه!؟.. أنتم في الجيش وجنودكم بين أيديكم وسلاحكم معكم، وما تريدون أن تقوموا به قادرون على فعله ولستم بحاجة لنا أو لغيرنا، لذلك نرجوكم ألا تورطونا في هذا الموضوع خاصة أن وضعنا كمقاومة في شرقي الأردن حساس ونحن نعتبر الأردن قاعدة الانطلاق الأساسية لتحرير فلسطين لسببين أساسيين:

الأول: الجبهة الكبيرة مع العدو التي يصل طولها إلى أكثر من 350 كم والملاصقة للأرض الفلسطينية التاريخية، وثانياً لأن الأردن خزان بشري كبير لفلسطينيي الشتات وهم بالملايين.. نرجوكم ألا تزجّونا في هذه اللعبة السياسية، نحن لا نستطيع أن نقدم لكم المساعدة ولا يمكن أن نتدخل في هذا الأمر».

أثناء توديعه قلت له: آمل منك أن لا تفتح هذا الموضوع مع أحد من المقاومة وخاصة الأخوة في حركة فتح العاصفة.

ولكن للأسف علمنا فيما بعد أنه ذهب والتقى مع بعض القيادات- لا أريد ذكر الأسماء هنا- وقد أدت هذه المسألة إلى قيام الملك حسين بنقل حوالي 30 ضابطاً من أماكنهم الحساسة في الجيش إلى مراكز إدارية ومكتبية.

مرحلة 1968 – 1971
ودور الجبهة الشعبية – القيادة العامة في الكفاح المسلح

فوجئ العالم العربي والإسلامي بإقدام أحد الصهاينة على حرق المسجد الأقصى المبارك بتاريخ 21 آب عام 1969. وقد سبب هذا العمل الإجرامي تعاطف المسلمين في أنحاء العالم مع فلسطين، وسبّب أيضاً إحراجاً للنظام الرسمي العربي والإسلامي لما يمثله المسجد الأقصى في فلسطين لأنه مسرى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومعراجه وقبلة المسلمين الأولى، فإحراق المسجد الأقصى حدث جلل ومصاب كبير يمس العقيدة والمقدسات.

قررنا في الجبهة الرد على (الإسرائيليين) رداً موجعاً على قدر استطاعتنا. أرسلنا رسائل إلى رفاقنا داخل الضفة الغربية نحثهم فيها على تصعيد العمل العسكري المقاوم ضد العدو الصهيوني انتقاماً لجريمة حرق المسجد الأقصى.

رفاقنا في منطقة الخليل أرسلوا لنا فوراً رسالة يقولون فيها: رغم أن إمكاناتنا محدودة من حيث التسليح والعتاد ولكن سنبذل كل ما نستطيع لتنفيذ عملية توجع (الإسرائيليين)، وحدث تعاون بين مجموعة من رفاقنا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة في الخليل، ومجموعة أخرى من رفاقنا في بيت لحم رغم أن أسلحتهم محدودة.

قاد المجموعتين الرفيق (أبو نضال يوسف)، وقد أبلغنا عبر رسالة بعث بها لنا بأنه سيتحرك مع رفيق لنا هو (عبد الهادي الخطيب) من قرية بيت كاحل، وسيتجمعون خارج القرية في أحد كروم العنب.

اجتمع الرفاق عبد الهادي الخطيب، وطلب العصافرة وهو رجل حازم وشجاع، والثالث محمد جابر العصافرة "أبو جابر" وكان ورعاً تقيا وشجاعاً، وسميح عايد العصافرة "أبو عدنان" أصغر المجموعة سناً وكان شجاعاً.

هؤلاء الرفاق كانوا قد شاركوا بعدة عمليات ناجحة ضد العدو الصهيوني في الضفة الغربية داخل فلسطين 1948، وقد اتفقت المجموعة أن تقوم بعملية عسكرية في وضح النهار ترفع معنويات أهل الخليل وتتحدث عنها وسائل الإعلام العربية

والمحلية، ولا يستطيع العدو إخفاء حقائقها، وذلك لتعزيز صمود أهلنا والعرب والمسلمين.

استقر الرأي على الهجوم على سيارة عسكرية بالقنابل اليدوية في مركز مدينة الخليل وفي وضح النهار. كان هناك تسابق لدى أفراد المجموعة حول من سيكون له شرف التنفيذ.

في صباح يوم 22 آب عام 1969 وداخل مدينة الخليل مرّت سيارة عسكرية كبيرة من نوع "لوري" تحمل جنوداً للعدو، وعندما وصلت إلى المكان المحدد تم إلقاء القنابل اليدوية عليها وأطلق رفاقنا رشقات من الرصاص باتجاهها، وشوهدت طائرات مروحية تأتي إلى مكان العملية لتنقل الجرحى.

في نشرة أخبار الساعة 11:30 صباحاً، أذاع العدو الصهيوني خبر الهجوم على سيارة وادّعى أنها تقلّ متنزهين في منطقة الخليل ما أدى إلى مقتل اثنين من المتنزهين وجرح ستة آخرين.

وذكر شهود عيان من المنطقة التي وقعت فيها العملية أن دماء الجنود الصهاينة كانت تسيل من سيارة الـ"لوري" المتوجهة إلى منزل الحاكم العسكري. ويروي الرفاق أنهم نفذوا هذه العملية بعد صلاة الصبح حيث تحركوا باتجاه مدينة الخليل وانتظروا وصول عدوهم، وقدموا أقصى ما يمكن في الهجوم عليه ومفاجأته.

وترك رفاقنا رسالة جاء فيها: «هذا ردنا على حرق المسجد الأقصى»، وأذيعت أغنية في إذاعة صوت العرب المصرية تتحدث عن العملية، والأغنية تقول:

خليلية جاية من الخليل وأبونا هو الخليل

واللي شفتو يا صهيوني لسا والله قليل

بعد عدد من العمليات ألقى العدو القبض على هاتين المجموعتين وقدّم رفاقنا للمحاكمة. وفي المحكمة اعترف العدو بأن هذه المجموعة ضربت سيارة للمجندين كانت قادمة من (رحوبوت) وأدت إلى مقتل ثلاثة جنود وجرح ستة آخرين، وقد عُرض ثلاثة منهم للشهادة.

بعد أن وصلتنا رسالة مشفرة قصيرة بتنفيذ هذه العملية طلبنا من رفاقنا تفاصيلها لكي نصدر بياناً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة لتبني هذه العملية. لكن للأسف عندما أعلن العدو عن هذه العملية في صباح 22 آب أعلنت

حركة (فتح العاصفة) أنها قامت بهذه العملية، ولا تزال لدينا الوثائق الكاملة لمحاكمة رفاقنا لدى المحاكم العسكرية الصهيونية الذين نفذوا هذه العملية.

الرفاق أبو نضال (يوسف العجوري) وعبد الهادي الخطيب وطلب العصافرة وسميح العصافرة وأبو جابرة العصافرة تم أسرهم[33] من قبل العدو الصهيوني، وحكم عليهم بأحكام قاسية مؤبدة، وعوقبوا بنسف بيوتهم.

بعد تحريرهم أحضرناهم إلى سورية وقضوا حياتهم فيها، رحم الله مَن توفي منهم والصحة والعافية لِمَن بقي حيّاً.

في مدينة الخليل أيضاً قام أحد رفاقنا وهو "حسن العجوري أبو جهاد" وكان رجلاً شجاعاً معتزاً بنفسه وذا لياقة بدنية عالية، بتنفيذ مجموعة من العمليات هو ومجموعته.

بعد جريمة إحراق المسجد الأقصى، جرى إبلاغ حسن العجوري (وهو شقيق "أبو نضال يوسف العجوري") بأن مسؤول المخابرات العسكري الصهيوني يتجول مع زوجته في مدينة الخليل، فاقترب منه (أبو جهاد) حسن العجوري لمسافة قريبة جداً وأطلق عليه النار من مسدسه، ولم يطلق النار على زوجته، ثم غادر منطقة العملية إلى الجبال غربي الخليل ليتابع عمله باتجاه الأراضي المحتلة عام 1948، ولكن بعد فترة استطاع أن ينال منه العدو الصهيوني ونال الشهادة، وتم أيضاً نسف منزله.

وبعد استشهاد البطل أبو جهاد حسن العجوري قام شعبنا داخل الضفة الغربية بدفنه بجوار الشهيد محمد سلوم المكتوب على شاهدة قبره «الفلسطيني/ اللبناني» إلى وقتنا الحالي.

أما في بيت لحم فكانت لدينا مجموعة كبيرة من الرفاق يقومون بأعمال قتالية ضد العدو الصهيوني في المدينة أو إلى الغرب منها باتجاه أراضي 1948. وهنا لا بد لي أن أعطي مثالاً عن إحدى العمليات التي تمت هناك..

فبالقرب من بيت لحم مكان اسمه "قبة راحيل" على مدخل بيت لحم الشرقي، وفي الجهة المقابلة له تقع كازية (عابدين) لا يفصلها المكان سوى الشارع. العام.

---

33 - (تم تحريرهم في عملية تبادل الأسرى مع العدو الصهيوني في عام 1979 أي أنهم مكثوا داخل السجن 10 سنوات).

كُلّف أحد رفاقنا وهو "موسى أبو عكر" بمراقبة دورية الحراسة في القبة (عددها- سلاحها- موعد تبديل الحراسات- طبيعة حراستهم)، وبعد الاستطلاع قرر رفاقنا في بيت لحم مهاجمة حراسة القبّة.

قائد المجموعة الرفيق "فايز أبو ناصر" وهو في العقد الثالث من عمره، شجاع وجريء ومقدام ويعرف المكان الذي ستنفّذ فيه العملية بشكل جيد. وقد أصر أن ينفّذ هذه العملية بنفسه. أخذ مسدسه وقنبلة يدوية وذهب إلى الكازية مساءً وتوارى عن الأنظار، وراقب تبديل الحراسات الساعة 12 ليلاً. بعد ذلك تسلل إلى المبنى حاملاً مسدسه في يد والقنبلة اليدوية في اليد الأخرى حتى وصل إلى شبّاك المبنى. عندها انتبه إليه أحد الحراس فعاجله الرفيق (فايز) بإطلاق النار عليه ثم قذف القنبلة اليدوية داخل غرفة الحراسة وتوجه إلى أشجار الزيتون المحيطة بالمبنى.

أدت العملية إلى مقتل كل عناصر الحراسة الصهاينة. وكالعادة قامت حركة فتح بتبني هذه العملية قبل أن نصدر نحن بياننا.

وهنا لا بد أن أذكر أيضاً أن إحدى رفيقاتنا وهي عفيفة بنورة "رحمها الله"- مسيحية من بيت لحم- قامت بمساعدة قريب لها يدعى (عيسى حننيا) بوضع عبوة ناسفة في موقف سيارات تابع للصهاينة في منطقة قريبة من بيت لحم.

عندما وصل (الإسرائيليون) إلى المكان تم تفجير العبوة عن بعد، ما أدى لوقوع خسائر في صفوف جنود العدو. للأسف ألقي القبض على الرفيقة عفيفة بنورة وحكم عليها بالمؤبد، وقد تم تحريرها في عملية النورس لتبادل الأسرى عام 1979.

هنا أذكر فقط أسماء من غادروا هذه الحياة أو غير موجودين في الأراضي المحتلة حالياً: (موسى أبو عكر، مصطفى خميّس، سليمان علان، القائد صبري الياسيني، جمال أبو هنية وخليل أبو هنية وعبد الله هنية، أبو عبد الله عليّان، وعودة الله أبو غياضة، داوود العرندس، محمد زياد عليان- من مخيم الدهيشة في بيت لحم) جميعهم رحمهم الله كانوا مناضلين.

هؤلاء الرفاق قاموا بمجموعة من العمليات ضد العدو المحتل في الضفة الغربية وأيضاً داخل أراضي فلسطين المحتلة عام 1948، وفي أماكن متعددة. هذه العمليات وغيرها قامت بها بعض المجموعات في داخل الأرض المحتلة في بيت لحم والخليل، وسنورد بعدها العمليات التي لها معنى كبير في الأماكن الأخرى في منطقة رام الله أو في نابلس أو جنين أو طولكرم.

مسرح العمليات في لبنان منذ 1968 -1971

قررنا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة وبالاتفاق مع حركة "فتح" توسيع نطاق المواجهة مع العدو الصهيوني، وألا نكتفي بشن العمليات فقط في الضفة الغربية أو في غزة أو على طول الحدود بين الأردن وفلسطين أو من الجولان، بل أن نتوسع باتجاه شمال فلسطين عبر لبنان وبذلك نعقّد إجراءات العدو ودفاعاته في مواجهتنا بسبب ازدياد مساحات مسارح القتال.

في ذلك الوقت كانت مخيمات الفلسطينيين في لبنان تعاني من الإذلال على يد أجهزة الأمن بعد عام 1948، وكان عدد اللاجئين لا يقل عن 300 ألف.

بدأنا نحن والأخوة في حركة "فتح" بالتقدم على محورين داخل لبنان من خلال الحدود السورية: المحور الأول من دير العشائر "ينطا- حلوة" وباتجاه راشيا الوادي وحاصبيا، والمحور الثاني من سفوح جبل الشيخ إلى شبعا اللبنانية والكفير وحاصبيا، على أن نتوسّع باتجاه الهبّارية وكفر شوبا وكفر حمام وصولاً إلى الحاصباني.

رغم أن الجيش اللبناني كان يواجهنا على هذه الجبهة إلا أن ضغوطنا العسكرية المتتالية باتجاه هذا المسرح الجديد في لبنان، إضافة لضعف الجيش اللبناني جعلنا نحقق بعض المكاسب على الأرض. حينئذٍ طلب المسؤولون في لبنان لقاءنا، وعقد رئيس الأركان في الجيش اللبناني العماد (إميل بستاني) اجتماعاً معنا.

التقيت بالأخ "أبو عمار" والأخ خليل الوزير لهذا الغرض، فقالا إنهما سينتدبان "أبو الزعيم" وهو قائد عسكري كبير لديهم، وإنهما لا يرغبان في الذهاب حالياً، فقررتُ عندها أن أشارك في هذا اللقاء.

اغتنمتُ فرصة أن أجهزة الإعلام والمسؤولين العرب لا يعرفون صورتي وأخبرتُ "أبو الزعيم" أنني سأذهب معه لهذا الاجتماع الصعب مع رئيس الأركان اللبناني.

تحدد مكان الاجتماع في قلعة راشيّا وكان همّي دراسة أفكار اللبنانيين وما سيطرحونه، وخاصة أنني لا أثق بالسيد "أبو الزعيم". وكانت قواتنا في ذلك الوقت نحن وحركة "فتح" في منطقة "حلوة" وينطا. ولكي أخفي هويتي قلت لـ "أبو الزعيم": «أنت رئيس الوفد وأنا سأكون كأحد المرافقين لك»، وتعمّدت ارتداء زي عسكري بسيط، ووضعت قبعة على رأسي خوفاً من أعمال التصوير، فقد كنت دوماً أحتاط لمثل هذه الاجتماعات بحمل جريدة أضعها أمام وجهي عند تصوير أجهزة الإعلام.

بعد السلام والتحية بيننا وبين الأخوة اللبنانيين، والتعبير عن أسفنا الشديد على الاشتباكات التي حصلت والدماء التي أريقت من الطرفين، بدأ رئيس الأركان حديثه قائلاً: «نحن أخوة، فلماذا القتال فيما بيننا؟!، وهذا لبنان الذي أمامكم الذي تريدون زجّه بصراع مع العدو الإسرائيلي غير قادر عليه، فجيشنا ضعيف ولبنان يعتمد في حياته على السياحة والبنوك والمستشفيات والجامعات وأماكن التسلية والسياحة. هذا رأسمالنا، لا يوجد لدينا نفط ولا معادن، فنرجوكم أن تقلعوا عن نيتكم بزجنا في هذا الصراع مع العدو الإسرائيلي».

وتابع قائلاً: «ما رأيكم في أن يصبح لبنان مركزاً لمعالجة الجرحى والاستشفاء والنقاهة للمقاتلين الذين يصابون منكم سواء في الأردن أو سورية، وسنسهل لكم الأمر».

عندها اضطررت أن أتحدث، فقلت له: «يا سيادة العماد.. ليس رأسمال لبنان بعض السياح أو بعض البنوك أو بعض دور اللهو، فتاريخ لبنان يعود إلى زمن الفينيقيين.. هنيبعل وإليسار حاصرا روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت، وكان منه الأمير بشير الشهابي، وقبل ذلك وبعده كان لبنان قوياً». وانتهى الاجتماع دون الوصول إلى أي اتفاق.

تابعنا التقدم على المحاور التي ذكرناها ووصلنا إلى منطقة شبعا والجبال المحيطة بها وقرب قرية الكفير حاصبيا.

في ذلك الوقت تدخل الرئيس عبد الناصر والتقى مع رئيس الجمهورية اللبنانية "شارل الحلو"، ووقّع في القاهرة اتفاقاً في تشرين الثاني 1969 سُمّي "اتفاق القاهرة" يُسمح بموجبه للفدائيين أن يتموضعوا في القطاع الشرقي أي منطقة العرقوب ولا يتجاوزوا نهر الحاصباني باتجاه الغرب. وهكذا أصبح الوصول للحد الأمامي من شمال فلسطين سهلاً أمنياً بعد جهد كبير وعناء شديد للطبيعة الجبلية.

ومنطقة العرقوب يوجد فيها فسيفساء طائفية؛ فهناك المسلم السنّي والمسيحي والدرزي. نحن لم نشعر بوجود صعوبة في التعامل مع الطائفة الدرزية الموجودة بالقرب من الحدود السورية عند قرية "حلوة" وينطا.

ولم نجد صعوبة أيضاً في التعامل مع المسيحيين الأرثوذكس خاصة الموجودين في الكفير وفي راشيّا الفخار وراشيا الوادي، كما وجدنا أيضاً ترحيباً بنا من القرى والأرياف المسلمة السنّية في منطقة الرفيد وكفر بطنا وشبعا وكفر شوبا وكفر حمام.

بينما كانت هناك بعض القرى الدرزية مثل حاصبيا وبعض القرى حولها والفراديس والماري التي لم نشعر بالترحاب بنا فيها.

قمنا في الجبهة بإنشاء قواعد حول "كفر شوبا" ثم اتجهنا نحو الجنوب باتجاه الأراضي الفلسطينية المحتلة والجولان المحتل حيث الوديان السحيقة، ونحو حلتا التي تبعد عن قرية المجيدية حوالي 1 كم، علماً أن المجيدية تبعد عن الأراضي السورية المحتلة من الجولان مئات الأمتار. ثم صعدنا لإنشاء قواعد لنا قرب تلة كفر شوبا، تلة الرمثا وقفوة وفشكول. كما انتشر الأخوة في حركة "فتح" في أماكن كثيرة في منطقة حول حاصبيا وحول راشيا وفي كفر شوبا وفي تلة العلم غربي كفر شوبا وكفر حمام، وفي راشيا الفخار.

ثم لحقت بنا قوات الصاعقة وبدأت تقيم قواعد لها في منطقة الكفير وشبعا، وكذلك الجبهة الشعبية- حركة القوميين العرب أقامت في كفر حمام قاعدة لها، كما أقامت الجبهة الديمقراطية فيما بعد قاعدة لها في العرقوب في منطقة خلفية.

وبدأنا في الجبهة بإرسال دوريات الاستطلاع باتجاه الأراضي السورية المحتلة غربي بانياس وباتجاه بلدة الغجر المحتلة، وبالدخول إلى إصبع الجليل. وكانت دورياتنا المكلفة بالاستطلاع تنطلق من تلال الرمثا باتجاه بانياس ومن كفر شوبا باتجاه جباتا الزيت وقلعة النمرود وعين قنية في الجولان المحتل، وهي مناطق وعرة جداً تملؤها الأحراش والصخور الكبيرة والوديان السحيقة، لذلك كان تحرك الدوريات صعباً للغاية في اجتياز هذه الوديان. وكان هناك وادٍ يسمّى وادي العسل يبتدئ من شبعا اللبنانية ويتجه جنوباً حتى يصبّ داخل الأراضي المحتلة في نهر الأردن، كان اجتياز هذه الوديان وهذه القمم فيه صعوبة ولم يكن العدو الإسرائيلي يتموضع هناك. لكننا ثبّتنا في هذه المنطقة من سفوح جبل الشيخ الغربية من شبعا إلى كفر شوبا إلى تلة الرمثا وقفوة وفشكول قواعد لنا وهي مشرفة تماماً على إصبع الجليل والعديد من المستعمرات إلى وادي العسل، دون أن نجد فيها أثراً لوجود إسرائيلي بسبب انعدام وجود طرق إليها، حتى أننا لم نكن نعرف إن كانت هذه المنطقة أرض لبنانية أم سورية.

بعد ذلك بدأنا بشنّ العمليات القتالية التي سأتحدث عنها بالتفصيل.. لكننا رأينا أن وجود العمل الفدائي في العرقوب بعد انسحاب الجيش اللبناني من تلك المنطقة

وتموضعه على الطريق ما بين المصنع وجسر سوق الخان باتجاه النبطية بموجب اتفاق القاهرة، لن يتيح لنا تجاوز طريق المصنع- العرقوب إلى النبطية.

وبقينا في هذه المنطقة نشنّ العمليات القتالية وكان العدو الإسرائيلي قد اكتفى في البداية بشنّ غارات جوية على مواقع الفدائيين في هذه المنطقة، لذلك سرعان ما بدأنا بحفر (المغر) والأنفاق الصغيرة في الوديان لحماية أنفسنا من تأثير القصف الجوي الإسرائيلي.

ثم تبيّن أن الأخوة في حركة "فتح" استطاعوا الحصول على صواريخ "كاتيوشا" وحدهم، فكانوا يقصفون المستوطنات الإسرائيلية في أصبع الجليل ("دان" و"كريات شمونه" و"كفاريوفال") وغيرها، وقد أزعج القصف الذي قام به الإخوة في حركة "فتح" الإسرائيليين وبدأ سكان المستوطنات يخلون مستوطناتهم وينتقلون باتجاه العمق وبدأ العدو الإسرائيلي يبني الملاجئ للاحتماء من صواريخ "الكاتيوشا".

أما نحن فكنا نعتمد على تسيير دوريات قتالية تقوم بأعمال الكمائن والإغارة وزراعة الألغام على الطرق، أو استخدام القذائف المفخخة الصغيرة أو العبوات المسيطر عليها لاسلكياً (عن بُعد)، حيث كنا في الجبهة متقدمين بالمقارنة مع الآخرين في هذه التقنية (التفجير عن بُعد).

ونتيجة الغارات الجوية الإسرائيلية خسرنا الكثير من الرجال وتجاوز العدد عشرين شهيداً، لكن خسائرنا انخفضت كثيراً بعد قيامنا بأعمال التحصين في الوديان والمغر وحفر الأنفاق الصغيرة وبناء خنادق مغطاة.

لم نكن نفقد شهداء في دورياتنا القتالية لأن عملياتنا كانت محكمة من حيث الرصد والاستطلاع الجيد واكتشاف نقاط ضعف العدو والتنفيذ الناجح، فكبدنا العدو خسائر شبه يومية. خسائرنا كانت فقط بسبب الطيران المعادي الذي كان يستعمل كل أنواع القذائف بما فيها المحرمة دولياً، مثل القنابل العنقودية وكان يقصفنا بالآلاف منها بما ينفجر منها وبما يبقى في الأرض فيشكل ذلك خطراً على الفدائي إذا تعثر بأحدها.

ثم قام العدو الإسرائيلي بأول عملية إغارة مدرعة مستخدماً المشاة المحمولة وتقدم من محور سهل الغجر باتجاه التلال المؤدية إلى راشيا الفخار، وبعدد قوات بلغ لواء مشاة محمول معززاً بالمدرعات، وأراد الوصول إلى القرى التي توجد حولها القواعد الفدائية بهدف تطهيرها من الفدائيين خاصة في راشيا الفخار وفي كفر حمام

وكفر شوبا والهبارية. وأطلقنا على هذا التقدم- وهو أول عملية تتوغل فيها القوات الإسرائيلية في الأراضي اللبنانية لمسافة 15 كيلومتراً تقريباً- اسم "العرقوب الأولى" في بداية عام 1970.

أسند هذه التشكيلات الطائرات الحربية وقصف مدفعي شديد، وكانت أسلحة الفدائيين في ذلك الوقت محدودة ودون مدافع مؤثرة فقد اقتصرت الأسلحة على قذائف (ب2) و(ب7)، ولم يكن لدينا مدافع مضادة للطائرات للتصدي للطائرات العامودية والطائرات الحربية القاذفة.

أثناء عملية العرقوب هذه كنت موجوداً هناك وفي كفر شوبا. وكنت قد وصلت قبل العدوان بأيام وأطلقنا مجموعة من الدوريات باتجاه الأراضي المحتلة نحو أهدافها، لعلنا نستطيع تخفيف الاحتقان بين الفدائيين والملك حسين في الأردن، خاصة وأن مشروع روجرز كان قد ظهر في الأفق السياسي.

بدأ هجوم العدو باكراً، وقامت القيادة السورية في ذلك الوقت (كان يرأس الدولة السورية في ذلك الوقت نور الدين الأتاسي ووزير الدفاع حافظ الأسد)، بإرسال طائراتها (ميغ17) لاعتراض الطائرات الإسرائيلية المغيرة وضرب أرتال العدو المتقدم. ودارت معارك جوية هامة. عندها قررت ومعي مجموعة من الرفاق أن نمنع الإسرائيليين من الصعود إلى كفر شوبا التي كان لدينا فيها دار للنقاهة من أجل الجرحى ومستودعات للشؤون الإدارية والعتاد، وكذلك كفر حمام (أما قواعدنا المقاتلة فكانت خارج كفر شوبا). وكان العامل المساعد لنا في تلك المواجهة وجود ممر إجباري وحيد لبلدتي كفر شوبا وكفر حمام وكان يفصلنا عن راشيا الفخار جسر صغير. وكانت لدي سيارة (فولكس فاغن) آنذاك.

كان من الصعب عليّ استدعاء الدوريات القتالية التي أرسلناها لضرب أهداف للعدو في السفوح الغربية لجبل الشيخ وكذلك شمال فلسطين لأنها تحتاج لفترة طويلة والطيران الإسرائيلي لا يترك سماء المنطقة، فقررت أنا وسائق السيارة أن ننقل من المستودعات كمية كبيرة من المتفجرات ونضعها تحت الجسر ونقوم بنسف الجسر عندما نشعر أن الإسرائيليين اجتازوا راشيا الفخار.. وبدؤوا يتقدمون باتجاه كفر شوبا وكفر حمام.

وقمنا حقاً بنقل المتفجرات على عدة مرات ووضعناها تحت الجسر، وزرعنا ألغامنا كذلك في المنطقة الترابية المجاورة للجسر بالألغام المضادة للآليات والدبابات

بعد إدراكي بأن الدبابات الإسرائيلية يمكن أن تتخذ منها ممراً للعبور إلى كفر شوبا وكفر حمام بعد تدمير الجسر.

وبعد انتهائنا من عملية زراعة الألغام ووضع كميات كبيرة من المتفجرات أسفل وداخل الجسر من أجل نسفه مع تقدم العدو (وكان العدو بدأ فعلاً يخرج من بلدة راشيا الفخار باتجاه كفر حمام وكفر شوبا، وكنت قد خبأت سيارتي على الطريق لـ كفر شوبا قرب جرف)، أشعلتُ فتيلاً بطيئاً وجلست أنا والمرافق الذي يقود سيارتي ننتظر انفجار الجسر، لكن الانفجار لم يحدث، فعدتُ أنا ومرافقي مرة أخرى تحت القصف الجوي والمدفعي الذي يطال المنطقة برمتها وأشعلنا فتيلاً آخر لنتأكد من وقوع التفجير وفعلاً حدث الانفجار ودُمِّر الجسر.

عندما انفجر الجسر قدنا السيارة بأقصى سرعة رغم وجود منعطفات قاسية على الطريق بين الجبال متجهين إلى كفر شوبا، ولكن الطائرات الإسرائيلية لاحظت وجودنا وبدأت باستهدافنا. وبسبب كثافة القصف الجوي علينا وعلى الطريق أوقف المرافق السيارة وتركها، واتجه نحو الوادي مما اضطرني أيضاً أن أترك السيارة لأنني أصبحت هدفاً ثابتاً. اختبأنا على جانب الطريق الرئيسي على مسافة 60م في المنطقة الصخرية التي كان ارتفاع صخورها حوالي المتر، وعندها دمر القصف الجوي السيارة واستمر استهدافنا بغارات متتالية.

بعد انتهاء القصف الجوي علينا بدأ قصف المنطقة التي كنت موجوداً فيها مع المرافق بالهاونات الثقيلة، وعندما هدأ القصف الإسرائيلي تسللنا بين الصخور وقطعنا الطريق الإسفلتي الصاعد باتجاه كفر شوبا، وتوجهنا إلى تلة "محمود" المشجّرة وفيها صخور كبيرة جداً. ثم كلّفت المرافق "ثائر الكركي" أن يذهب إلى كفر شوبا لإحضار بندقيتين ومطرتين مملوءتين بالماء ويعود بسرعة. وبالفعل ذهب إلى هناك وعاد، قلت له: سنذهب لنشرف على الجسر المدمر الذي سيتابع منه الإسرائيليون تقدمهم باتجاه كفر حمام وكفر شوبا.

استطاعت إحدى دبابات العدو من نوع "سنتوريون" تجاوز الألغام التي زرعناها على الأرض الترابية المجاورة للجسر أثناء مرورها لأنها كانت عريضة. لكن أحد الألغام المضاعفة انفجر بناقلة الجند نصف المجنزرة التي كانت تحمل مكبرات الصوت وترافقها كلاب بوليسية وقد رأيناها بالعين المجردة ونحن على بعد مئات الأمتار حين انفجر بها اللغم ما أدى لتدميرها. وشاهدت أنا ومرافقي كيف طار الجنود

الإسرائيليون وكلابهم من شدة الانفجار، عندها حاولت الدبابة التي كانت قد عبرت النهر الصغير العودة من حيث أتت فانفجر بها لغم آخر، وانسحبت القوات الإسرائيلية إلى قرية راشيا الفخار ومنها إلى الأراضي المحتلة وأخلت المنطقة. وفي الوقت الذي فشلت فيه القوات الإسرائيلية على هذا المحور في دخول كفر حمام وكفر شوبا، نجحت على المحور الآخر وهو الأبعد والذي تقدمت فيه من بلدة راشيا الفخار إلى الفراديس إلى أن دخلت إلى بلدة الهبّارية القريبة إلى شبعا وحاصبيا والتي كانت تضم مركز قيادة "فتح". وكان الفدائيون قد غادروها مسبقاً.

وصل خبر للقيادة السورية بأنني استشهدت بعد أن دمرت الغارات الجوية الإسرائيلية سيارتي، فوجّهت القيادة السورية أمراً لسلاح الجو بالتدخل بطائرات الـ "ميغ 17" لمجابهة الطائرات الإسرائيلية وضرب أرتال العدو المتقدمة. وهنا أقف بإجلال واحترام للشهيد الطيار فايز منصور الذي استشهد في هذه المعركة وهو يدافع عن الثورة الفلسطينية.

غادرت بعد ذلك أنا ومرافقي "ثائر الكركي" ووصلنا إلى بلدة شبعا. وكان في الشمال الشرقي لشبعا مقر قيادة لقوات الصاعقة في مبنى كبير يقوده في لبنان الصديق الأخ مصطفى سعد الدين، وهو ضابط فلسطيني وصديق لي أثناء الدراسة. أخذني بالأحضان وقال لي بأن القيادة في دمشق بلغها خبر استشهادك وأخبرني بأنه جهز سيارة لنقلي إلى دمشق. فقلت له: «صحيح أنني بحاجة سيارة ولكنني لن أذهب إلى دمشق بل سأعود من شبعا إلى حاصبيا ومنها باتجاه كفر شوبا لأتفقد دورياتنا المسلحة التي كانت مكلفة بواجبات في الأراضي المحتلة».

مؤشرات المواجهة مع النظام الأردني – تفاقم الصورة

كانت المؤامرة كما أسلفت تحاك ويجري إعدادها ضد المقاومة الفلسطينية منذ انتشارها في الأردن. وكان الكيان الصهيوني والدول الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية وبتواطؤ مع النظام الأردني، يقولون للنظام بأن هذه المقاومة ستعمل على إسقاطه والحلول مكانه.

كنت أطرح في الجبهة الشعبية قبل تفككها في اجتماعاتنا باستمرار وأحذر من الانجرار إلى أي عمل يخدم هذه المؤامرة أو يستعجلها ولو بشكل عفوي وغير مقصود. لذلك بعد معركة الكرامة انسحبت معظم فصائل المقاومة ما عدا الجبهة الشعبية

(التي كنا فيها معاً) من منطقة الأغوار ومن جبال السلط وجرش إلى الداخل الأردني بسبب القصف المدفعي والجوي الصهيوني.

كنت قد أسلفت أنني حذرت كل فصائل المقاومة والشخصيات الوطنية عندما كنا نلتقي في عمان من نتيجة كهذه بل قلت لهم: «أنا لا أفهم كيف نعتبر أنفسنا مقاومة ونحن نترك حدود فلسطين وندخل إلى مدن جرش واربد وعمان والزرقاء ونبني مكاتبنا هناك! أليست "المدينة مفسدة للثوار؟". وقد بدأت تظهر بوادر هذه التصرفات الشاذة من تلك الفصائل وتعجّل في عملية المواجهة مع النظام الأردني.

وكنت أحاول أن أقنعهم أن هذا العمل سيخلق بيننا وبين النظام الأردني احتكاكاً يومياً قد يؤدي إلى مصادمات نحن بغنى عنها، لذلك من الأفضل أن تغادروا المدن وتعودوا إلى الأغوار والجبال المطلة على فلسطين، وهناك نرتّب أوضاعنا وتحصيناتنا، أما في المدن فعلينا الاعتماد على الحركة الوطنية الأردنية خاصة القوى الناصرية والبعثية إضافة إلى دور منظمة التحرير الفلسطينية التي كان يرأسها آنذاك يحيى حمودة، لحماية ظهرنا سياسياً وجماهيرياً. أما في المخيمات، إذا ما احتاج الأمر، فمن الممكن أن نشكل مليشيات في المخيمات دون ظهور للسلاح.

(أستشهد هنا بحادث وقع في شهر كانون الثاني عام 1969 أي قبل دخول الفدائيين إلى منظمة التحرير الفلسطينية الذي جرى في شباط عام 1969).

اجتمعنا كحركة مقاومة في عمان عند الأخ "أبو عمار" في جبل اللويبدة وقال لنا: « هناك وفد أمريكي موجود في فندق الأردن وهذا الوفد من مركز بحوث أمريكي مقرّب من الرئيس الأمريكي نيكسون، ويطلق على نفسه اسم (لجنة فيشر) وطلب اللقاء معنا ».

وأضاف أبو عمار بأنه من الضروري الاجتماع مع هذا الوفد، فقلنا: «اذهبوا أنتم وقابلوه». وأذكر أن الأخ "أبو إياد" و"أبو اللطف" ذهبا وقابلا لجنة فيشر، وبعد اللقاء في اليوم التالي اجتمعنا مرة أخرى عند الأخ "أبو عمار" فأخذ أبو إياد يشرح لنا ما تحمله لجنة فيشر قائلاً بأن هناك عدة أسئلة طرحتها وتريد منا الإجابة عليها، وكان موضوعها الأساسي هو أن الصهاينة أبلغوا الأمريكان عن رغبتهم بالانسحاب من المناطق التي تم احتلالها في عام 1967 ومن ضمنها القدس والضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء، فلمَن ستعود هذه الأرض؟».

أجاب أبو إياد لجنة فيشر الأمريكية: هناك أراضٍ في سيناء ستعود للمصريين وأراضي الجولان ستعود للسوريين أما الأراضي الفلسطينية (الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة) فهي لنا؛ لمنظمة التحرير الفلسطينية وللفلسطينيين.

(كانت الضفة الغربية في ذلك الوقت تعتبر جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية ولم تكن قد انفكت عن الضفة الشرقية).

قلت لهم: «لماذا قدمتم هذه الإجابة؟، كان يجب أن تقولوا للجنة فيشر الأمريكية عندما ينسحب (الإسرائيليون) من الضفة الغربية والقدس وغزة المحتلة عام 1967 سنتفاهم مع إخوتنا العرب على مستقبلها. وبصراحة إجابتكم هذه أعتبرها قصّاً للشريط الذي سيؤذن ببدء الاشتباك السياسي الحاد بيننا وبين الملك حسين».

كررت نفس الرأي للإخوة في فصائل المقاومة أثناء الاجتماع الذي عقدناه وقلت: «دعونا نستفيد من الغطاء العربي الذي يحمينا، ونقوّي أنفسنا وجذورنا ليثق الشعب بنا، لماذا يتم إطلاق هذه الشعارات "السلطة كل السلطة للمقاومة"؟».

لجنة فيشر قابلت الملك حسين فيما بعد، وطرحت عليه هذا السؤال فأجابها إن الضفة الغربية أرض أردنية وهي جزء من المملكة الأردنية الهاشمية وستعود إليها هي ومدينة القدس).

أردت التطرق إلى ما جرى لكي يرى الآخرون بعض الأمثلة التي أدت إلى المواجهة مع النظام في الأردن.



انتصار ثورة الفاتح في ليبيا عام 1969 وأثرها على القضية الفلسطينية

في أيلول 1969 قام عدد من الضباط الأحرار (رتبهم صغيرة في الجيش) بثورة (انقلاب) وأعلنوا إنهاء النظام الملكي السنوسي في ليبيا.

عمّت الفرحة عند كل الأحرار في الوطن العربي بمن فيهم نحن الفلسطينيين بهذه الثورة خاصة عندما علمنا أن كلمة السر لهذه الثورة بين الضباط كانت (القدس). كان يقود هؤلاء الضباط الأحرار الملازم أول معمّر القذافي ومعه مجموعة من رفاقه من الضباط الأحرار.

بعد أشهر قليلة من انتصار الثورة في ليبيا تصادف وجود أحد الأخوة من الثوار الجزائريين السابقين واسمه (محمد عاشور) في قواعدنا القتالية في أغوار الأردن،

فقال لنا الأخ محمد عاشور: ما رأيكم أن أسافر إلى ليبيا فلي معارف هناك لعلّي أتعرّف على قيادة الثورة وأرتّب لكم اجتماعاً مع قيادتها الجديدة؟ إذا اقتنعوا بنا وبعملنا فهم بالتأكيد سوف يقدمون لنا الإمكانات المادية خاصة وأن ليبيا تملك إمكانات مالية كبيرة.

بعد عودة الأخ محمد عاشور من ليبيا إلى عمان وإلى الأغوار، قال لي: علينا أن نشدّ الرحال ونذهب إلى ليبيا الثورة. ففعلنا وشكلنا وفداً وكان معي الرفيقان علي بوشناق وفضل شرورو في الاجتماعات الأولى.

وصلنا إلى طرابلس وبتنا مع صديقنا محمد عاشور في فندق متواضع داخل طرابلس اسمه "إكسليسيور". قال محمد عاشور: نحن ننزل في هذا الفندق الذي نزل به أحمد بن بله؛ قائد الثورة الجزائرية حين بدأت، وقام الفرنسيون بمحاولة اغتياله في هذا الفندق.

شاهدنا النافذة التي قذف (أحمد بن بله) نفسه منها هارباً من رصاص الوحدة الفرنسية القادمة لقتله. وبعد أيام من وجودنا في الفندق حضر ضابط برتبة ملازم ومعه سيارة "جيب" ودخل الفندق وتعرّف علينا وطلب منا مرافقته، وعرّفنا على نفسه واسمه؛ كان الملازم أبو بكر يونس الذي أصبح فيما بعد رئيساً للأركان في الجيش الليبي.

ذهبنا إلى معسكر العزيزية حيث التقينا مع قيادة ثورة الفاتح وعلى رأسهم معمر القذافي. وفي نهاية الاجتماع قدّم لنا العشاء وتحدثنا مطوّلاً. قال لنا الأخ معمر القذافي: «نحن سنقدم لكم المساعدة المالية فقط لأننا لا نملك سلاحاً نعطيه لكم، فسلاحنا قديم من الحرب العالمية الثانية»، وكُلّف أحد قياديي مجلس الثورة واسمه السيد (عبد المنعم الهوني) وقد استلم فيما بعد وزيراً للداخلية، بأن يكون مسؤولاً عن العلاقة فيما بيننا وسيبلغنا قرارات مجلس قيادة الثورة الليبية.

أذكر جيداً أنني لم أتناول العشاء المتواضع لأني كنت مشغولاً بالحديث مع هؤلاء الشبان الأصغر منا سنّاً، فقد كنت أحاول إقناعهم بمسؤوليتنا ومسؤوليتهم تجاه هذه الأمة. وفي اليوم التالي التقينا مع الأخ عبد المنعم الهوني عضو مجلس قيادة الثورة، وأبلغنا بأنه تقرر تقديم مبلغ (3 ملايين دولار) لتنظيمنا من أجل شراء السلاح وقدّم لنا مباشرة مبلغاً مالياً حوالي (100 ألف دولار) على ما أذكر، وأضاف بأنهم سيعينون ضابط ارتباط لهم من الضباط الأحرار في عمان يثقون به. وسألنا عبد

المنعم: «ماذا ستفعلون بهذا المبلغ؟». قلنا له: «بالتأكيد سنشتري به سلاحاً متطوراً ونعزز أيضاً مراكز بحوثنا العلمية، ونحن نطمح لشراء 3 طائرات هليكوبتر سعة 3 أشخاص يكون مقرها في مناطق السلسلة الجبلية المقابلة للضفة الغربية مباشرة، حيث يمكن أن تتحرك ليلاً وخلال أقل من نصف ساعة تكون قد أصبحت على جبال نابلس أو رام الله أو الخليل نلقي بواسطتها السلاح والعتاد ونلتقط بعض العناصر الجيدة لإحضارهم للضفة الشرقية للتدريب وإعادتهم مرة أخرى». فأعجب السيد عبد المنعم الهوني بهذه الأفكار.

غادرنا طرابلس وكنا فرحين، وتكررت زياراتنا لطرابلس لرؤية الأخ عبد المنعم الهوني. وأذكر جيداً أنه كان معي في إحدى هذه اللقاءات الأخ طلال ناجي ونهاد عرفة. وكان الليبيون يقدمون لنا كل فترة مبلغاً من المال يساعدنا على تطوير أداتنا العسكري.

بعد فترة بسيطة اتصل بنا عنصر الارتباط الليبي الذي تم تعيينه في عمان وهو ضابط من الضباط الأحرار الليبيين، وعندما اجتمعنا به قال لنا: «لدي "شيك" بـ 3 ملايين دولار لكم، كيف تريدون استلامه؟». وكنا في منتهى السعادة عندما سمعنا هذا النبأ، لكننا قلنا لضابط الارتباط: انتظر يومين حتى نستطيع أن نجيبك حول كيفية تحويل هذا المبلغ لمصلحتنا.

لم يكن أحد في ذلك الوقت في تنظيمنا لديه رقم حساب في أي بنك من البنوك في الأردن أو في سورية أو في لبنان، فتشاورنا ثم اتفقنا أن نلتقي مع مدير البنك العربي في عمان السيد عبد المجيد شومان وكان عضواً في اللجنة التنفيذية ومسؤول الصندوق القومي الفلسطيني وتحت إمرة الأخ "أبو عمار". اتصلنا بعبد المجيد شومان وزرناه في منزله وقلنا له إن هناك مبلغاً ونريد أن نفتح حساباً سرياً لا يعلم به أحد، واتفقنا على ذلك؛ فأعطانا في اليوم التالي رقم الحساب الذي أوصلناه إلى ضابط الارتباط الخاص بالثورة الليبية، وقد حوّل المبلغ فعلاً، وأُبلغنا من السيد عبد المجيد شومان أنه قد وصلنا مبلغ 3 ملايين دولار على رقم الحساب الذي فتحناه في البنك العربي.

كان وضعنا المالي ضعيفاً رغم متطلباتنا الكبيرة، ولكن رغم ذلك صنعنا معجزات سواء في مراكز التدريب المثالية أو القواعد أو المراكز القيادية في الأردن وفي سورية وفي جنوب لبنان وفي داخل الضفة الغربية، وازدادت عملياتنا ضد جنود الجيش

الصهيوني. وكنا قد اشترينا أول شبكة اتصال لاسلكية من خلال رفاقنا في تنظيم الكويت وربطنا بها كل القواعد العسكرية بحيث أصبحت القيادة لها سيطرة مستمرة على كل هذه القواعد من جنوب لبنان إلى سورية إلى الأردن. وبدأنا باختيار بعض الكوادر ذات التحصيل العلمي العالي لترشيحهم إلى دورة طيارين لطائرات الهليكوبتر بعد أن أجرينا فحوصاً طبية لهم، كما بدأنا نبحث عن مصادر السلاح، وكنا قبل ذلك نشتريه من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا، أما المناظير الليلية والمناظير التي تكشف الأشعة تحت الحمراء فكنا قد اشتريناها من شرق آسيا من هونغ كونغ وكوريا الجنوبية من خلال الدفعات المالية الصغيرة التي كنا نستلمها من ثورة الفاتح عن طريق الأخ عبد المنعم الهوني، وتلك المناظير الليلية خففت علينا الكثير من وقوع خسائر أو شهداء في صفوفنا.

وقد قام السيد عبد المجيد شومان صاحب ومدير البنك العربي بإبلاغ "أبو عمار" بالمبلغ المرسل لنا، فما كان إلا أن تحرك الإخوة في حركة فتح وأبلغوا السيد محمد حسنين هيكل وطلبوا منه أن يذهب ويلتقي معمر القذافي للتعطيل علينا والإساءة لسمعتنا عند القيادة الليبية!!.

بعد أسبوعين من ذلك التاريخ اتصل بنا ضابط الاتصال المقيم في عمان التابع للثورة الليبية، وأخبرنا بما قاله السيد عبد المنعم الهوني بأن العقيد معمر القذافي وفي اجتماع القيادة قال: « لقد تسرعنا باتخاذ قرار بدعم هؤلاء الشباب بالمال، وأحمد جبريل من أكبر تجار الأسلحة!».

عندها أصبنا بخيبة أمل من هذا السلوك السيئ للتنافس بيننا وبين الأخوة في فتح وبهذه الطريقة غير الشريفة. وفي اجتماع لقيادتنا في عمان طرحت ما جاءنا من ضابط الارتباط الليبي فقال بعض الرفاق: لماذا نقلق كثيراً فالمبلغ موجود في حسابنا.

بقيتُ صامتاً. فقال لي أحد الرفاق: لماذا لا تتكلم؟. قلت له: ربما لن يعجب كلامي البعض منكم، ولكن أقول لكم إن قراري هو إعادة هذا المبلغ إلى مصدره للثورة الليبية وللسيد عبد المنعم الهوني عن طريق ضابط الارتباط. رفض بعض الرفاق هذه الأفكار، فقلت لهم: لقد تعبت ما فيه الكفاية وأرجو إعفائي من مسؤوليتي وأنا ذاهب إلى بيتي. إذا لم نفعل ذلك فلن أرضى أن يُقال عنا بعد كل هذه التضحيات والشهداء أننا تجار سلاح، إلى متى سيظل الإخوة في (فتح) يتصرفون معنا تصرفات غير مسؤولة؟، ألم يكتفوا بإغراءاتهم المالية لعناصرنا ليتركوا تنظيمنا ويلتحقوا بهم؟!، ألم

يحاولوا أن يقودوا انشقاقاً في معسكرنا المركزي من خلال شخص أغروه بالمال- هو سيء السمعة والصيت ولا أريد أن أذكر اسمه- ألا يكفيهم هذا؟ ألا يكفيهم المال الذي كان يُغدق عليهم من دول الخليج أضعاف أضعاف ما قُدّم لنا؟! وهممت بمغادرة الاجتماع.

في النهاية طلبوا مني البقاء وقالوا: «ماذا تريد أن تفعل؟». قلت: «نذهب عند عبد المجيد شومان نشكره ونقول له بأننا نريد إعادة المال الذي أودع بحسابنا إلى مصدره الأساسي.

وفعلاً ذهبنا وقمنا بهذا العمل. وأبلغ ضابط الارتباط الليبي في عمان بما قمنا به، فقام بدوره بإعادة المبلغ إلى ليبيا حسب الأصول، وانقطع الاتصال بعدها بيننا وبين الثورة الليبية الجديدة. وتأثرنا كثيراً لفقداننا هذا المبلغ، وكان انزعاجنا أكبر من تصرّف محمد حسنين هيكل بسبب الإغراءات المالية التي كانت تقدمها حركة فتح له شخصياً في القاهرة.

بعد شهر من هذه الحادثة التقى معنا ضابط الارتباط وقال بأن الأخ عبد المنعم الهوني طلب منه إبلاغنا بالرسالة التالية: بعد مناقشة هذا الموضوع في اجتماع القيادة (أي موضوع إعادتنا المبلغ للثورة الليبية) قال الجميع بمن فيهم معمر القذافي: «إن هؤلاء الشباب وهذا التنظيم الذي ينتمون إليه شرفاء.. هاهم يعيدون إلينا المبلغ الذي قدمناه لهم بعد أن اتهموا بأنهم تجار أسلحة»، وأخبرنا ضابط الارتباط بأن الإخوة في قيادة الثورة الليبية ينتظروننا للالتقاء بهم.

لم نستجب لهذه الدعوة فقد كنا بحالة انزعاج كبير فليس من المعقول أن يتعاملوا معنا بهذه الطريقة (بالأمس نكون "تجار أسلحة" واليوم نصبح شرفاء!). وكنا قد عيّنا الرفيق نهاد عرفة ليداوم في طرابلس كعنصر ارتباط ويتابع أمورنا هناك..

حاولوا مرات متعددة لكننا لم نلبِّ هذه الدعوة.

(إلى حين خروجنا من الأردن بعد أيلول 1971 وفي مقابلة للعقيد معمر القذافي قائد الثورة الليبية مع الصحفي اللبناني فؤاد مطر في جريدة النهار- يمكن للمهتمين أن يعودوا لهذا اللقاء- قال معمر القذافي في تلك المقابلة التي نُشرت على الصفحة الأولى وفي الصفحة الداخلية عندما تحدث عن القضية الفلسطينية بالحرف الواحد: «هناك شرفاء في الساحة الفلسطينية قدمنا لهم مبلغاً كبيراً من أجل أن يشتروا

السلاح ويطوروا أنفسهم ولكن لم يستطيعوا شراء هذا السلاح فأعادوا لنا المبلغ كاملاً غير منقوص، وأقصد بكلامي الأخ أحمد جبريل».

بعد قراءتنا لما جاء في هذه المقابلة قررنا الذهاب إلى طرابلس ليبيا للالتقاء مع الأخوة الثوار فيها بقيادة معمر القذافي واعتبرنا أن مقابلته بجريدة النهار هي نوع من الرد على محمد حسنين هيكل ورد اعتبار لنا.

وصلنا إلى طرابلس والتقينا مع عبد المنعم الهوني كوفد ثم التقينا مع قيادة الثورة وقال الأخ معمر القذافي: عندما أتى محمد حسنين هيكل وتحدث عنكم بالسوء اعتقدنا أنه مرسل من قبل الرئيس عبد الناصر على اعتبار أنه من المقربين منه، ولكن لم نكن نعرف أنها مبادرة شخصية منه بدوافع من حركة فتح. وبدأت مرحلة جديدة بيننا وبين ثورة الفاتح في ليبيا).

كنا نعتمد في الجبهة في البداية على أنفسنا في تغطية نفقاتنا المالية من الاشتراكات وجمع التبرعات من بعض الميسورين الفلسطينيين والعرب، وكان تنظيمنا النسائي الفلسطيني يبذل جهداً كبيراً في هذا المجال، واعتمدنا أيضاً على بعض الأموال القليلة من الحاج أمين الحسيني "رحمه الله" وكذلك رفاقنا في الكويت. وعندما تسلم العميد حسن النقيب مسؤولية القوات العراقية في الأردن سعى لدعمنا عند الحكومة في بغداد فبدأت تقدم لنا بعض المساعدات. وأثناء تشكيلنا الجبهة الشعبية كان الأخوة في حركة القوميين العرب يقدمون بعض المال مما يتم جمعه من تبرعات وذلك لتغطية بعض عملياتنا العسكرية.

أما الآن فقد أصبح لدينا بعد عام 1972 مصدر هام وكبير يمكن أن نعتمد عليه من ثورة الفاتح في ليبيا وما ستقدمه لنا من إمكانات مالية بعد أن قطعت عنا قبل أحداث أيلول عام 1970، وهذا ما ساعدنا كثيراً، فقبل خروجنا من الأردن قطعت عنا المساعدات من العراق وأيضاً قطعت عنا المساعدات من حركة القوميين العرب (بعد انفكاكنا عن بعضنا في الجبهة الشعبية)، فأصبحت إمكاناتنا المالية تعتمد على باقي المصادر القليلة التي تحدثتُ عنها، وجاءنا الفرج من خلال الدعم الكبير من ثورة الفاتح في ليبيا عام 1972.

أحداث مهمة قبل أيلول الأسود 1970 وأحلام السلطة لدى حركة فتح

كان الوضع في منطقة الشرق الأوسط حرجاً للغاية قبيل أحداث أيلول الأسود عام 1970، فقد قامت حرب استنزاف مستمرة ضد العدو الصهيوني شنّها بنجاح وقسوة الرئيس عبد الناصر على الجيش الصهيوني المنتشر شرق قناة السويس وفي سيناء وصولاً إلى ميناء إيلات وشكّل منظمة (سيناء العربية). أما الجيش العراقي فكان موجوداً في الأردن ولعب دوراً في قصف المدن والمستوطنات الصهيونية في هضبة الجولان المحتل وسمخ وطبريا وصفد مراراً. وكان الجيش السوري يشغل جبهات المواجهة بينه وبين العدو على الحدود في ظل غارات جوية كبيرة من الطيران المعادي.

بينما كانت العمليات العسكرية القتالية الفلسطينية تتواصل من جنوب لبنان كما ذكرت، واتسعت المواجهة من العرقوب باتجاه شمال فلسطين بل توسعت هذه العمليات من خلال اجتياز الفدائيين نهر الحاصباني، وعبر النبطية باتجاه إصبع الجليل، أي أن إصبع الجليل ومستعمراته ومستوطناته وأكبرها (كريات شمونه)- "الخالصة" استُهدفت بعمليات فدائية كنا نقوم بها في الجبهة وكذلك الأخوة في حركة فتح العاصفة قاموا بتوجيه (صواريخ الكاتيوشا) من شمال إصبع الجليل ومن سفوح جبال الشيخ وصولاً إلى مارون الراس وعيثرون. وكانت العمليات من الفصائل الأخرى قليلة حيث كانت تميل للعمل الإعلامي أكثر من العمل العسكري، ويرافقها رشقات من صواريخ الكاتيوشا على المستوطنات الصهيونية، فيقوم العدو بقصف شديد بطائراته على أهداف مدنية أردنية أو سورية أو لبنانية، أي أن هذه الصواريخ كانت سلاحاً ذا حدّين.

لقد أوقعت هذه العمليات كما ذكرت خسائر كبيرة في صفوف العدو واستنزفت قواته على المساحات الكبيرة التي لا يستطيع أن يتحملها كيانه، كما أن الكثير من الصهاينة الذين كانوا يسكنون في الجليل أو حول بحيرة طبريا أو في منطقة سمخ وبيسان أخذوا يرحلون إلى الداخل ويتركون مستوطناتهم ومدنهم. واستمرت العمليات اليومية داخل الضفة الغربية المحتلة وفي قطاع غزة؛ هذا القطاع المقاوم الذي كان ليلاً تحت سيطرة الفدائيين بالكامل، ونهاراً تتحرك دوريات جيش العدو معززة في الشوارع الرئيسية.

هنا لا بد من أن أبيّن بأن العدو الصهيوني حتى ذلك التاريخ لم يستطع أن يبني أي مستوطنة في الضفة الغربية أو قطاع غزة أو الجولان بسبب حجم وضراوة

العمليات والضربات التي كان يتلقاها من الفدائيين والجيش المصري والسوري والعراقي الموجود في الأردن، والرعب الذي كان يملأ قلوب جنود الاحتلال. وركّز العدو على حماية الضفة الغربية حيث تمركزت قواته على الحدود كما أسلفت على نهر الأردن من أجل منع دخول الفدائيين بين الضفة الشرقية والغربية، وفي حال وُجدت للعدو مراكز في الضفة الغربية فهي مقرات وثكنات سابقة كانت للجيش الأردني.

لقد كان عام 1969 والربع الأول من عام 1970 يبشّران بالخير بفقدان العدو عنصر المبادرة والروح الهجومية التي كان يتمتع بها، بالإضافة إلى أن أعداداً كبيرة من الصهاينة الذين تم إحلالهم في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1948 بدؤوا يعودون إلى بلدانهم الأصلية في أمريكا وأوروبا، أي بدأت هجرة معاكسة. وكما أسلفت كان هذا الأمر مبشراً بالخير وسميتها آنذاك (أشهر اليوبيل الذهبي) للمقاومة الفلسطينية التي شهدت تدفّق أفواج من المتطوعين من مختلف الأقطار العربية.

ولا شك أن حرب الاستنزاف التي شنتها مصر عبد الناصر على طول قناة السويس وفي سيناء أيضاً وفي البحر قد أرهقت جيش العدو وأوقعت فيه خسائر كبيرة. وكما هو معروف جيش العدو لا يحتمل حرباً طويلة الأمد.

عندها وجدت أمريكا أن الكيان الصهيوني بدا مستنزفاً ومربكاً فقد استدعى العدو قوات جيشه الاحتياطية ولمدة طويلة خلال حرب استنزاف استمرت منذ تموز عام 1967 حتى عام 1970، وأوضاعه صعبة، فقد كانت أمامه حدود ومساحة جغرافية كبيرة يصعب الدفاع عنها وفي ظل وجود كتلة سكانية عربية كبيرة تحت الاحتلال، وتوقفت معامله ومزارعه عن العمل، لذلك بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تبحث عن حل يوقف حالة التدهور ويساعد حليفها العدو الصهيوني.

بدأت الاجتماعات المكثفة تُعقد بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني والدول الغربية لتقدير الموقف لما يدور في الأردن، والخلافات بين الملك حسين والفدائيين، وحرب الاستنزاف الدائرة في المنطقة ضد العدو الصهيوني.

في هذه الأجواء بادر الرئيس الأميركي (نيكسون) بإرسال وزير خارجيته "وليم روجرز" بجولة إلى الشرق الأوسط لإيجاد حل لهذا الصراع الدامي في المنطقة.. والمقصود بالصراع الدامي هو حرب الاستنزاف التي كانت تدور بين العدو الصهيوني والأطراف الأخرى (مصر والأردن والعراق وسورية والفدائيين)، بالإضافة إلى الحروب

بين العرب و(الإسرائيليين)، أي أن الرئيس نيكسون كان يريد أن لا تتحول عملية الاستنزاف إلى حروب جديدة، خاصة أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت مازالت منشغلة بحربها في فيتنام ولا تريد أن تفتح بوابات حروب في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى أن (حليفها الإسرائيلي) في وضع لا يحسد عليه، كما أن الاتحاد السوفياتي دخل مباشرة إلى المنطقة وإلى المياه الدافئة من خلال مصر وسورية، وقام بتزويد الجيشين المصري والسوري بالسلاح والعتاد اعتباراً من تشرين الثاني عام 1955. كما قام الاتحاد السوفياتي بدعم مشاريع اقتصادية مهمة جداً في مصر كالسد العالي بعد أن سحبت الولايات المتحدة تمويلها لهذا السد في 19 تموز عام 1956 نتيجة موقف عبد الناصر من شروط ذلك التمويل، وكذلك دعم مشاريع اقتصادية في سورية.

زار "روجرز" مصر والأردن والسعودية والكيان الصهيوني وطرح مبادرة سمّيت بعد ذلك بـ "مشروع روجرز" وتتلخص تلك المبادرة بالشكل التالي:

أولاً: وقف إطلاق النار على كل الجبهات لمدة تسعين يوماً بين الأطراف المتصارعة في المنطقة.

ثانياً: عدم السماح لأي طرف- المصري أو الإسرائيلي - باستغلال وقف إطلاق النار لتعزيز الجبهة على قناة السويس بعمق 50 كم بأسلحة نوعية خاصة الصواريخ المضادة للطائرات (سام2 و سام3)- أي المقصود منع الجيش المصري من دفع بطاريات صواريخ مضادة للطائرات إلى قناة السويس.

ثالثاً: البحث في انسحاب (إسرائيلي) من الأراضي المصرية والأردنية والسورية بما فيها الضفة الغربية والقدس وغزة والجولان وسيناء استناداً لقرار مجلس الأمن /242/.

وكلّف مساعد الأمين العام للأمم المتحدة "يارنغ" بأن يقوم بالاتصال بالأطراف المعنية (مصر، الأردن، الكيان الصهيوني) لتنفيذ القرار /242/.

نحن نعتقد أن الرئيس عبد الناصر عرض هذه المبادرة على الاتحاد السوفياتي الذي وجد أن وقف إطلاق النار يتيح للجيش المصري إعادة تنظيم نفسه بكل الوسائل التي تمكنه من أن يصبح جيشاً قوياً، وهذا ما كان يسعى إليه الرئيس عبد الناصر ومن حوله من الضباط الوطنيين. وفي اعتقاد السوفييت أن الأحداث والمواجهات إذا

استمرت وتصاعدت يمكن أن تؤدي إلى تصادم بين (حلف وارسو) و(حلف الأطلسي)، لذلك وافق على مشروع روجرز في تموز عام 1970. كما أن وقف إطلاق النار سيمنع (الإسرائيليين) من استهداف العمق المصري بطيرانهم باتجاه الدلتا أو باتجاه الجنوب، وباتجاه الأقصر ونجع حمادي.

نحن في الجبهة الشعبية القيادة العامة وجدنا - عوضاً عن الاحتجاج بالمظاهرات والسبّ وكيل الشتائم ضد الرئيس عبد الناصر لموافقته على مشروع روجرز - أن نرفع وتيرة التصادم مع العدو من خلال العمليات سواء داخل الضفة الغربية أو على طول الحدود الأردنية - الفلسطينية أو باتجاه جنوب لبنان (العرقوب) أو باتجاه الجولان المحتل.

هنا أذكّر بالعمليات العسكرية التي تزامنت مع طرح مشروع روجرز وما قبله، ومنها العملية كبيرة باتجاه شاطئ بحيرة طبريا، وقبلها تلك العمليات المميزة من العرقوب باتجاه فلسطين أو تلك التي نفذناها عبر أغوار الأردن، بهدف شد الأنظار وتوجيه البوصلة باتجاه الصراع مع العدو الصهيوني، خاصة وأن الوضع في الأردن كان على صفيح ساخن بين فتح والمنظمات الأخرى من جهة والنظام الأردني من جهة أخرى.

تغيير هام وسلبي مفاجئ للنظام في العراق

في تلك الأيام العصيبة والحساسة التي كنا نعيشها في منتصف عام 1970، اتصل بنا السفير العراقي في عمان، حيث التقينا به وأبلغنا أن الرئيس أحمد حسن البكر ينتظرنا غداً في بغداد لأمر ضروري.

في الصباح الباكر توجهنا براً ومعي وفد مؤلف من الرفيقين علي بوشناق وفضل شرورو "رحمهما الله". وصلنا إلى بغداد بحدود الساعة 10 ليلاً فالطريق إلى بغداد طويل وصعب. ونزلنا في فندق "الأمباسادور"، ثم اتصلنا بالقيادة العراقية - مكتب الرئيس - نخبرهم عن وصولنا فقاموا مباشرة بنقلنا إلى بيت الرئيس أحمد حسن البكر الذي استهل حديثه بالقول:

«الوضع في الأردن مقدم على أحداث كبيرة وعليكم أخذ الحيطة والحذر، لقد أرسلنا إليكم أسلحة وعتاداً موجود الآن عند الجيش العراقي في منطقة المفرق ويمكن أن تستلموها هناك». ثم سألنا: ألستم قلقين من هذه الأوضاع؟

قلنا له: نعم نحن قلقون ولكن ليس لدرجة الخوف؛ قلقون لأن الوضع الفلسطيني مشتّت تنظيمياً وسياسياً وهناك تصرفات تحدث في الأردن تعجّل في عملية المواجهة والتصادم بيننا وبين نظام الملك.. ثم قلت: «لكننا لسنا خائفين طالما يوجد أكثر من 20 ألفاً من الجنود العراقيين في الأردن منتشرين من إربد إلى المفرق إلى الزرقاء، ومتموضعين هناك وسلاحهم جيد، فبالتأكيد سيكون هؤلاء معنا وسيحسب لهم الملك حسين ألف حساب قبل أي مواجهة عسكرية معنا».

وأضفت: «إن قائد القوات العراقية في الأردن الآن هو العميد محمود عريم ضابط احتواه الملك حسين، لذلك نرجوكم بسرعة أن تعيدوا لنا العميد حسن النقيب ليقود هذه القوات»، فأجابنا الرئيس: «اللواء حسن النقيب يتولى الآن مسؤولية معاون رئيس الأركان، وإذا أعدناه كقائد قوات سنكون قد قللنا من شأنه»، فقلت له مرة أخرى: «لكن الضابط محمود عريم لن يقف إلى جانبنا يا سيادة الرئيس».

لم يعقّب الرئيس البكر وتناولنا العشاء سوياً، ثم عدنا إلى الفندق، فطلب الرفيق علي بوشناق أن نتمشى وكانت الساعة الواحدة ليلاً، وكنا في منتهى التعب من عناء الطريق، لكنه أراد أن يلفت انتباهنا لأمر آخر فقال: «لا أريد أن أبقى في الفندق» وأشار بيده لنا بأن في الفندق آلات تسجيل.

غادرنا الفندق وجلسنا عند نهر دجلة وقال الرفيق بوشناق: «أنا أكبر منكم عمراً ولي تجربة في عام 1948، حيث أذكر أن الجيش العراقي دخل الأردن في عهد الملكية- نوري السعيد وعبد الإله- ثم دخل إلى فلسطين وكان أحد قادة الألوية هو عبد الكريم قاسم وقد سيطر هذا الجيش على أغلب سهل مرج ابن عامر والعفولة ومناطق من بيسان، وكنا نحن متطوعين في جيش (الجهاد المقدس) ثم في جيش الإنقاذ. وفجأة ودون قتال انسحب الجيش العراقي من سهل مرج ابن عامر والعفولة ونقل معه الآلاف من الفلسطينيين من القرى الموجودة هناك بعد إبلاغهم بأن الصهاينة سيقتلونهم كما فعلوا في مجزرة دير ياسين».

وأضاف أبو باسل: في ذلك الوقت كان لدينا مقولة نرددها عن الجيش العراقي: لماذا تنسحب ومن دون قتال فكانوا يقولون: "ماكو أوامر"، وقال أبو باسل: «أنا فهمت من الاجتماع أن الرئيس أحمد حسن البكر رجل طيب ويريد أن يبرئ نفسه مما سيحدث في الأردن، وأن الجيش العراقي الموجود هناك لن يقف مع الفدائيين في مجابهة أي عمل يقوم به النظام الأردني».

عدنا إلى الأردن وأرسلنا بعض الرفاق إلى معسكرات الجيش العراقي في منطقة المفرق لاستلام السلاح والعتاد الذي وعدنا به، ولكن للأسف وجدنا أن هذا السلاح هو من بقايا الحرب العالمية الثانية!

الاختلاف والفراق بين عرفات والرئيس عبد الناصر وردود الفعل

بعد موافقة الرئيس عبد الناصر على مشروع روجرز في 1970/7/23 سافر ياسر عرفات إلى القاهرة في 20 آب للقاء الرئيس عبد الناصر ومناقشة الأوضاع السياسية بعد موافقة عبد الناصر على مشروع روجرز .

اصطحب ياسر عرفات معه (ضافي جميعاني) مسؤول الصاعقة وعضو قيادة في حزب البعث بهدف إيصال رسالة إلى عبد الناصر- بطريقة غير مباشرة- أن سورية أصبحت حليفة لياسر عرفات، وكما هو معروف لم تكن العلاقات بين القاهرة ودمشق في أحسن أحوالها .

بعد ذلك دعا ياسر عرفات إلى عقد المجلس الوطني الفلسطيني لدورة استثنائية في مخيم الوحدات 27 - 28 آب عام 1970، وقد قاطعت جبهتنا هذه الجلسة الاستثنائية.

صدرت عن هذا الاجتماع قرارات منها: الرفض القاطع لمبادرة روجرز، والمطالبة بأن تكون منظمة التحرير هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني واعتبار أن أي شخص يحاول أن يتحدث باسم الفلسطينيين خائناً لقضيته وثورته. كما نددت قرارات هذا المجلس بالأفكار التي تدعو إلى الحكم الذاتي، ودعا المجلس إلى تحويل الأردن معقلاً للثورة الشعبية الشاملة. وطلب من الحكومات العربية أن تحرر جيش التحرير الفلسطيني وتضعه بتصرف المنظمة.

بدأت الأجواء في الأردن تتحول إلى أجواء عاصفة، وكان السبب الرئيسي لرفض الأخوة في حركة فتح مشروع روجرز هو أنه يدعو بعد نجاح المفاوضات إلى إعادة الضفة الغربية والقدس إلى الملك حسين بصفتها جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية. وهنا ازدادت وتوسّعت حملة الشعارات في الشوارع وعلى الجدران ورفعت الأعلام الحمراء على المساجد، وبدأ توجيه بيانات متضمنة شتائم للرئيس عبد الناصر، واتهام كل من يوافق على مشروع روجرز بالخيانة.

وفي كل الشوارع انتشرت المظاهرات المنددة بمشروع روجرز. وللأسف علقت صور الرئيس عبد الناصر في بعض هذه المظاهرات على ظهر (حمار)! وزاد الطين بلة بأن رفاقنا في حركة القوميين العرب احتلوا فندقين هامين في عمان واحتجزوا فيهما 58 رهينة أجنبية، كما قاموا بخطف مجموعة من الطائرات الأجنبية التي تحمل مئات الركاب من جنسيات مختلفة من العالم، حيث تم اقتيادها وإنزالها في صحراء شمال شرقي الأزرق. وأرسلت الجبهة الشعبية بقيادة (جورج حبش) عدداً من المقاتلين لحماية مكان نزول هذه الطائرات، وبدؤوا يهددون بتفجيرها إذا لم تنفذ شروطهم بالإفراج عن الأسرى وتقديم مساعدات مالية. بل أكثر من ذلك خُتم على جوازات سفر أولئك الرهائن بختم خاص باسم مطار الثورة. (أي أن الثورة قد أصبح لها مطار خاص بها في الأردن!!).

لمرات متعددة جرت السيطرة على عمان من قبل بعض من يطلقون على أنفسهم "فدائيين"، وكان النظام في الأردن يستغل كل هذه التصرفات ليقنع الشرق أردنيين والقبائل بأن الفلسطينيين يحتلون عمان ويكتبون الشعارات اليسارية المسيئة للإسلام. أما نحن في الجبهة الشعبية القيادة العامة، ومعنا القوى الناصرية من الضباط المتقاعدين والمدنيين في الأردن، فقد كانت لنا وجهة نظر أخرى تدعو إلى عدم التصادم والاشتباك مع الدول العربية خاصة مصر والعراق وسورية لأن هذه الدول هي التي شكلت مظلة لنا في الأردن. وكنا نحرص على تبنّي سياسة دقيقة وحساسة كي لا نفقد هذه المظلة، ولا نعطي مجالاً للملك حسين لاستغلال التصرفات لتحقيق هدفه بشنّ حرب علينا.

في تلك الفترة عُقد مؤتمر قمة عربية استثنائية وطرح الملك حسين مشاكله مع المقاومة وقال إنه الآن لا يستطيع دخول عمان، وإن أجهزة الدولة معطلة. وتحدث في تلك القمة عن الشعارات التي تُكتب في الشوارع. وعرف كيف يستغل عمليات خطف الطائرات التي زادت من تعقيد الوضع.

في تلك القمة استغل الملك حسين ردّة فعل الرئيس الليبي معمر القذافي صديقنا وصديق فلسطين والقدس والمقاومة على تلك الأعمال حين قال غاضباً إن ذلك لو حدث عنده لقطع رأس مَن يقوم بتلك الأعمال والتصرفات، التي لا تخدم العمل الفدائي في الأردن.

أصدرنا في الجبهة الشعبية القيادة العامة بياناً قلنا فيه: نحن نرى خطورة كبيرة في الموافقة على مشروع روجرز تتمثل في وقف إطلاق النار الشامل وعلى كل الجبهات، لأننا لن نوقف النار (مقاومة وفدائيين) من أي جبهة. فنحن نرفض منح فرصة للعدو الصهيوني تتيح له التقاط أنفاسه. واقترحنا أن يتم وقف إطلاق النار مع مصر والأردن والعراق وسورية دون ذكر المقاومة الفلسطينية (العمل الفدائي). كما أننا لم نهاجم الدول التي وافقت على مشروع روجرز أو ننجر إلى مهاجمة الرئيس عبد الناصر بل كنا على العكس، فقد رفضنا هذه المظاهرات التي ندّدت بالرئيس عبد الناصر وسياسته، كما أدنّا كل مظاهر الاستفزاز والمشاحنات مع نظام الملك حسين فقد كنا نحرص أن نجنّب المقاومة امتحاناً صعباً وهو إطلاق يد الملك حسين للاستفراد بالمقاومة وضربها بعد أن استفاد من مواقف بعض الدول العربية والغربية وبالتواطؤ مع الصهاينة، إضافة إلى استفادته من صمت مصر وقيادة الثورة الليبية.

ولا شك أن الملك قد استفاد من الخلاف الذي حصل بين المقاومة وعبد الناصر إثر مشروع روجرز، واستغل غضب عبد الناصر ومعمّر القذافي من تلك الممارسات التي لا تتفق وأخلاق الثورة.

كما استفاد الملك حسين من سلبية الموقف العراقي الذي نأى بنفسه وبجيشه الموجود على الأرض الأردنية إذا قام بسحب وحدات الجيش وتجميعها في منطقة المفرق.

كنا نحذر ولا أحد يسمع أو يعي ما يدبّر للمقاومة في الأردن؛ فخسارة هذه الأرض التي تعد قاعدة ارتكاز أساسية من أجل تحرير وطننا فلسطين ستحمل كارثة لنا. كيف يمكن أن نتابع نضالنا إذا فقدنا أهم قواعد ارتكاز الثورة؟!، وكنا نؤكد أن فقدان تلك القاعدة الاستراتيجية سيقدم هدية ثمينة لعدونا الصهيوني الذي نواجهه.

استمر التصعيد الإعلامي والسياسي والعملي ضد النظام في الأردن من قبل "فتح" على حساب كفاحنا وعملنا المسلح ضد العدو الصهيوني. وقامت الجبهة الشعبية كما أسلفنا باقتحام بعض الفنادق في عمان واحتجاز رهائن أجانب فيها، كما قامت بتفجير الطائرات التي تم خطفها ونقلت الرهائن تحت حراسة عناصرها من المقاتلين إلى عمان. والدكتور جورج حبش قال في مذكراته بأنه زار الرهائن وطالب الدول الغربية بتلبية المطالب التي عرضها عليهم. وكنا نعتقد أن المنظمات "فتح- الشعبية-

الصاعقة- الجبهة الديمقراطية" قد يكونون رتبوا أمورهم للمواجهة التي يمكن أن تسفر عن التصادم مع النظام وتغييره لصالحهم.

نحن في الجبهة لم ننشئ مراكز قيادية أو قواعد عسكرية في عمان ومخيماتها أو في باقي المدن الأردنية مثلما فعل الآخرون، بل قمنا بإنشاء مستوصف صغير للغاية في حي المحطّة الفلسطيني في عمان قبل معركة الكرامة لاستقبال الجرحى وليكون داراً للنقاهة لأن دخول جرحانا إلى مستشفيات الدولة قد يؤدي إلى اعتقالهم من قبل السلطة. وأشرف على هذا المستوصف مجموعة من الأطباء باختصاصات متعددة وكانوا متطوعين بمساعدة من ابن عمي الدكتور علي، كما كان من بينهم أطباء شرق أردنيين متحمسين.

كذلك استأجرنا بيتاً صغيراً في جبل الحسين ليكون مركزاً إعلامياً من أجل إصدار البيانات العسكرية للعمليات التي كنا نقوم بها، وكان هذا المركز يقوم بمهمة توزيع مجلة (إلى الأمام) اللبنانية التي أصبحت مجلتنا بعد نقل امتيازها إلى جبهتنا بعد شرائها من الحزب الشيوعي اللبناني وصاحبها (نسيب نمر). وكلف حينها الرفيق فضل شرورو أن يتحرك إلى بيروت ليدير هذه المجلة من هناك على أن يكون لها مقر في البيت المستأجر في جبل الحسين. كذلك استخدمنا جهاز إذاعة يستطيع تغطية عمان والمخيمات التي حولها لبثّ البيانات العسكرية والسياسية التي كنا نتجنب فيها أي تعرض للنظام في الأردن أو أي نظام عربي آخر. كما كان لنا مقر آخر في جبل الحسين اتخذناه مستوصفاً ومكاناً للنقاهة الطبية يوضع فيه الجرحى بعد خروجهم من المستشفيات ويستفاد منه أيضاً كمركز للشؤون الاجتماعية.

للأسف كانت بعض الفصائل تشكك في وطنيتنا وتروّج وتسيء لموقفنا المعارض لتلك التصرفات التي رفضناها. وكان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى تهديد وجودنا في الساحة الأردنية، بل بدأت تلك الفصائل بتوجيه اتهاماتها لنا بأننا موالون للنظام الأردني.

وما يثير الحزن عدم وجود أي كتاب يتناول التجربة وينقدها أو مذكرات تتحدث وبكل صراحة عن المرحلة التي امتدت منذ دخولنا إلى الأردن عام 1967 حتى بدء الاشتباكات في أيلول عام 1970 وصولاً إلى خروجنا النهائي من الأردن في منتصف عام 1971 لتحديد المسؤولية التاريخية عن تلك الفترة وما آلت إليه القضية، ومن المسؤول عن ذلك؟!

لم يتجرأ أحد من الأطراف الفلسطينية حتى ذلك التاريخ على الحديث عن أي تسوية مع العدو الصهيوني ما عدا أصوات كانت تغطي نفسها أحياناً بأفكار يسارية وتتحدث عن الدولة الديمقراطية!!.

فقدان ساحة الأردن كقاعدة ارتكاز لتحرير فلسطين كان خسارة من الصعب تعويضها، وقد دفع الشعب الفلسطيني وأمتنا العربية ثمن فقداننا لهذه الساحة، ومازلتُ أنتظر الجرأة من بعض الكتّاب للقيام بتقييم وتشخيص لهذه المرحلة الحساسة، والكشف بصدق وشفافية عن الذي تسبب بنتائجها الوخيمة.

بدأ الوضع في الأردن يتفاقم وبدأ الملك يعدّ نفسه مع سلطته لمواجهة الفدائيين للقضاء عليهم وإبعادهم عن ساحة الأردن بعد عملية خطف الطائرات، وبعد استغلاله لتدهور العلاقة الفلسطينية مع الرئيس جمال عبد الناصر بسبب الإهانات الموجهة إليه التي كانت تصدر بشكل خاص عن فتح والقوميين العرب والجبهة الديمقراطية والصاعقة.. في تلك الأجواء قرر الملك اختيار تلك اللحظة للانقضاض على المقاومة الفلسطينية.

(من المؤكد أن عبد الناصر لم يكن ليقبل بمثل هذا الاستغلال من الملك لو كان يعرف مخطط الملك وأبعاده، وهو الذي فقد حياته في أحلك الظروف التي كنا نمر بها نحن وقضيتنا الفلسطينية).

فجأة أعلن الملك حسين إقالة وزارة عبد المنعم الرفاعي في 15 أيلول عام 1970، وقبل استقالة مشهور حديثة الجازي رئيس الأركان في 9 أيلول عام 1970، وعيّن الملك مكانه المشير حابس المجالي رئيساً للأركان وحاكماً عاماً، كما عيّن زيد بن شاكر نائباً له، وعيّن أيضاً نذير رشيد مديراً للمخابرات، وشكّل وزارة عسكرية برئاسة اللواء محمد داود مركزها قصر (الحُمَّر) استعداداً للمواجهة. وإزاء ذلك لم يعد لدى ياسر عرفات أي قدرة على وقف هذا الانهيار السريع رغم اجتماعه بقيادة المقاومة في عمان بمَن حضر، واتخاذه قرار تجميد عضوية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (جورج حبش) من العمل الفلسطيني ومنظمة التحرير مستغلاً حادثة خطف الطائرات في الأردن كذريعة لذلك. وكان الجيش وقوات الأمن الأردنية قد بدؤوا يتحركون ويتجمعون حول عمان وحول مدينة إربد في المنطقة الشمالية، وكذلك في منطقة الزرقاء.

أحداث أيلول الأسود

في 17 أيلول عام 1970 بدأ الجيش عملياته العسكرية بالسيطرة على مدينة الزرقاء والطرق المؤدية من الزرقاء إلى عمان من الناحية الشمالية والشرقية رغم المقاومة من عناصر (الميليشيا) الفلسطينية في مخيم الزرقا التي واجهت الجيش الأردني والتي كانت تراهن على دور مساند من القوات العراقية الموجودة في المنطقة، لكن ذلك كان بدون جدوى. كما قام الملك حسين بتحشيد قواته في منطقة صويلح والمدينة الرياضية وما حولها على مشارف عمان مباشرة، ثم بدأ بمحاولة اقتحام جبل الحسين حيث تقع غرفة العمليات المركزية لفتح ولمنظمة التحرير التي كانت بقيادة فتح.

أما قواعدنا نحن في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة، وبعد مضي أشهر على انفكاكنا كجبهة شعبية عن بعضنا، كانت قواعدنا العسكرية في مواجهة العدو الصهيوني في الأغوار وعلى نهر اليرموك تقوم بواجباتها القتالية بشكل مستمر ومتصاعد فيما يحدونا الأمل بأن نجرّ الآخرين لموقفنا هذا. لكن بعد إعلان الملك حكومته العسكرية برئاسة محمد داوود طلبنا من قواعدنا العسكرية الموجودة في الأغوار وعلى نهر اليرموك الانسحاب وترك مواقعها والتوجه باتجاه المراكز القيادية الموجودة في جبال السلط (معسكر رقم 15 الذي يقع شمال شرقي السلط)، كما طلبنا من عناصرنا في الغور الأوسط الانسحاب إلى مراكزنا العسكرية في أحراش جرش الغربية (الموقع 707) وهذا المعسكر محصّن ومشرف على الطريق ما بين عجلون وجرش، كما طلبنا من عناصرنا في الغور الشمالي واليرموك الانسحاب باتجاه جبال إربد ومدينة إربد وذلك لأهمية هذه المنطقة التي سيحاول النظام الأردني السيطرة عليها لمنع التواصل بين سورية والأردن.

في منطقة الرمثا بشرقها وغربها حاول جيش النظام الأردني أن يعزل الأردن عن سورية تماماً، فأرسل إلى هذه المناطق بالإضافة إلى قواته الموجودة فيها، أحد الألوية الأردنية من النخبة (اللواء أربعين)، وتمركز على الحدود ليمنع التواصل بين سورية والأردن. كما تقدمت قوات من الجيش الأردني من منطقة عجلون باتجاه إربد من الجهة الجنوبية عبر منطقة ميدون جنوب إربد تماماً، وفي طريقها استطاعت أن تحتل مركزاً قيادياً لحركة (فتح) دارت فيه معركة استشهد على إثرها قائد المعسكر وهو القائد أبو علي إياد رحمه الله. كما حاولت وحدات الجيش الأردني أن تتقدم من

منطقة المفرق باتجاه مدينة جرش كعقدة مواصلات مهمة جداً لقطع الطريق بين إربد وعمان. تقدمت قوات الملك حسين من منطقة الزرقاء باتجاه (ماركا) وباتجاه مطار عمان الدولي. أي أن الملك أراد بذلك أن يطبق على المدن الرئيسية الأساسية أو بعض المواقع المهمة ابتداءً من مدينة عمان إلى عجلون ثم إلى إربد وإلى جرش والسلط وصويلح. كما تقدمت قوات له من الجنوب باتجاه عمان ومخيم الوحدات الملاصق لمدينة عمان.

ولمواجهة تلك التحركات قمنا نحن في الجبهة الشعبية القيادة العامة بتجميع قواتنا لحماية إربد والحدود السورية وحماية مراكزنا في الجبال. وبنفس الوقت طلبنا من رفاقنا في القطر العربي السوري ومعهد التدريب المركزي وبسرعة إرسال وحدات عسكرية مع سلاحها بقيادة كوادر عبر الحدود السورية- الأردنية وصولاً إلى إربد عبر الجبال ومنها نرسلها إلى عمان عن طريق مخيم البقعة. ونجحنا بإيصال قوة يصل قوامها إلى فصيلين بالسرعة اللازمة لحماية مركز الإعلام في جبل الحسين حيث يتواجد فيه رفيقنا أبو جهاد طلال وكان عضواً في قيادة الجبهة، كما كان المسؤول العسكري للجبهة الرفيق أبو جاسم حديد موجوداً في ذلك المركز. وفعلاً وصلت هذه القوة بقيادة الرفيق الشهيد حفظي قاسم، ونقلنا فصيلاً وصل بسرعة من سورية إلى مخيم الوحدات بقيادة الشهيد طارق مراد "أبو رياض" قائد جناح الألغام والمتفجرات في معسكر التدريب المركزي العسكري في دمشق، لتعزيز رفاقنا من المليشيات في مخيم الوحدات حيث كان مسؤولنا الرفيق "سامي السيد" يتواجد فيه أيضاً.، كما أرسلنا أيضاً تعزيزات إلى مخيم الحسين وهو قريب من جبل الحسين. لكن حدثاً محزناً وقع لإحدى هذه الوحدات العسكرية من جبهتنا التي حضرت من سورية- وهي بحدود فصيلين مقاتلين- وكان واجبها تعزيز قواتنا في جبل الحسين ومخيم جبل الحسين المجاور له. فقد حوصرت من الجيش الأردني لأنها وصلت متأخرة من سورية أثناء تجاوزها مخيم البقعة وهي متوجهة عبر الجبال للاقتراب من جبل الحسين، ووقعت خسائر في صفوفها- تلك القوة كانت بقيادة الرفيق عضو اللجنة المركزية المرحوم أبو سعيد رياض وهو من العناصر القدامى في الجبهة وكان قبل انتسابه للجبهة ضابطاً سابقاً في الجيش- وتم اعتقال باقي الرفاق.

كنا في حالة سباق مع الوقت نحن من جهة والملك حسين من جهة أخرى، حيث كنا نريد تقوية وجودنا العسكري في عمان خاصة في جبل الحسين لأهميته، إضافة

إلى أن رفيقينا "أبو جهاد طلال" و"أبو جاسم حديد" كانا هناك. ولكن بنفس الوقت كنا نعتقد أنه يمكن الاعتماد على حجم القوة العسكرية لـ (فتح) التي كانت حول جبل الحسين لردع جيش النظام، فغرفة العمليات المركزية لفتح كانت في تلك المنطقة، وكانت القوة المنتشرة هناك موجودة في مدينة عمان منذ فترة من الزمن.

كان من المؤلم جداً أن يقوم الجيش العراقي المنتشر في الأردن في أماكن متعددة- في شمال إربد وفي المفرق وفي الزرقاء- بإجراءات الخروج من مواقع وجوده، فقد بدأ قبل أسبوعين من أحداث 17 أيلول عام 1970 بتجميع هذه القوات في معسكرات في المفرق والزرقاء بدلاً من أن تقدم لنا هذه القوات المساعدات في مواجهة الهجوم الذي يمكن أن يقوم به جيش نظام الملك حسين.

كان النظام في العراق قد أرسل وزير دفاعه حردان التكريتي ليكون موجوداً في معسكرات المفرق والزرقاء لمنع أي تحرك للجيش العراقي لمساندتنا، بل على العكس بدأ هذا الجيش بتقديم مساعدات للجيش الأردني في المجال اللوجستي خاصة عندما جرى ضرب مصفاة النفط في الزرقاء، كما قدم له الخدمات الطبية.

لقد كان الجيش العراقي والمؤلف من حوالي 20 ألف جندي بموقفه هذا سنداً غير مباشر للجيش الأردني وهذا ما استغربناه!!.

آنذاك كان الرفيق علي بوشناق في غرفة عمليات أنشأها الجيش السوري في درعا. وكان يرسل لنا البرقيات حول الأحداث والتطورات. وفي إحدى تلك البرقيات كتب لي مذكّراً: «ألا تذكر بعد مقابلتنا الرئيس أحمد حسن البكر.. حين خرجنا بعد منتصف الليل وجلسنا على ضفة نهر دجلة وقلت لكم إن الجيش العراقي عندما كان بقيادة العهد الملكي في عام 1948 انسحب من سهل مرج ابن عامر والعفولة فجأة دون قتال، واصطحب معه أيضاً آلاف الفلسطينيين المدنيين إلى العراق. يومها ذكرتكم بالعبارة المشهورة "ماكو أوامر"». فأرسلت له جواباً للبرقية، قلت فيها: «نعم.. صدقت.. أنت أكبر عمراً منا وخضت تجارب قبلنا، وعرفت ألاعيب هؤلاء. لقد فوجئنا وخاب ظننا حين اعتقدنا أن الجيش العراقي سيقف معنا».

تقدمت قوات الملك حسين بدباباتها وآلياتها وجنودها من المدينة الرياضية باتجاه دوار جبل الحسين "دوار مكسيم"، وفي طريقها احتلت القيادة وغرفة العمليات المركزية التي كانت لفتح ولمنظمة التحرير، وكان يقودها كبار القادة والضباط، وأذكر منهم الشهيد خليل الوزير، والعميد عبد الرزاق اليحيى والعديد من الضباط الذين

تركوا هذه القيادة دون مقاومة تُذكر ولجؤوا إلى المنازل في جبل الحسين، ولم يجدوا ملجأ لهم إلا مكتبنا الإعلامي الصغير المستأجر الذي تحدثت عنه سابقاً. وكان موجوداً في موقعنا الإعلامي هذا الرفيق أبو جهاد طلال عضو المكتب السياسي، وأيضاً الرفيق أبو جاسم حديد مسؤول الدائرة العسكرية، ومعهما فصيلان من فدائيي الجبهة يقودهما الشهيد حفظي قاسم (أبو بكر)، وكنا قد أرسلناهما لحماية المكتب.

فوجئ رفاقنا في المركز الإعلامي في جبل الحسين بقدوم الأخ ياسر عرفات بعدما سقط موقعه القيادي في جبل اللويبدة ومعه بعض الكوادر، ومن ثم وصل إلى هذا المكتب الإعلامي الصغير الرفيق نايف حواتمة مع بعض مرافقيه، وعدد من القيادات منهم منيف الرزاز، والشهيد خليل الوزير، والعميد عبد الرزاق اليحيى، وسليمان النابلسي- وهو رئيس وزراء سابق في الأردن عام 1957- وآخرون. عندها سألت رفاقنا في جبل عمان "أين الدكتور وديع حداد؟" فأعلمني الرفيق أبو جهاد طلال بأنهما طلبا قبل أيام من بدء المعارك أي 15 أيلول 1970 أن نعد لهما هويات باسم تنظيمنا ثم غادروا الأردن، فاستغربت كيف يمكن ألا يكونا في الأردن والمعركة قادمة مع الملك بين ساعة وأخرى، لماذا غادروا قبل أيام؟

عندما وصلت الدبابات إلى دوار مكسيم، وهو لا يبعد عن مكتبنا الإعلامي إلا مئتي متر، أصدر الرفيقان أبو جهاد طلال وأبو جاسم حديد الأوامر بتحريك فصيل من الفصيلين وكان ضمن سلاحهم قواذف الـ ب7 المضاد للدروع، وهذه القواذف استحوذنا عليها من جيش التحرير الفلسطيني في سورية.

تحرك الشهيد حفظي قاسم مع فصيله إلى دوار مكسيم ودارت هناك معركة قاسية تم خلالها تدمير 7 دبابات وناقلات جند لجيش الملك حسين، ما اضطر الجيش الأردني إلى التراجع غرباً باتجاه المدينة الرياضية.

مركزنا الإعلامي المذكور رغم صغر مساحته كان يكتظ بقيادات الصف الأول من المنظمات الفلسطينية. وأثناء احتدام المعركة كان الجيش الأردني قد تمكن في مكان آخر يختبئ فيه بعض القيادات، من اعتقال كل من صلاح خلف (أبو إياد)، وإبراهيم بكر، وفاروق القدومي، وبهجت أبو غربية، وعبد الرحمن العرموطي، ومحمود المعايطة".

(أمر الملك حسين بإحضار كل من أبو إياد وفاروق القدومي أبو اللطف إلى قصر الحمّر وهناك جرت معهما مقابلة تلفزيونية، استجدى فيها أبو إياد الملك حسين لإيقاف هذه العملية العسكرية الكبيرة، وقال أبو إياد للملك في هذه المقابلة: «نحن إخوتك الصغار وأنت أخونا الكبير، والكبير يغفر للصغير. كما طلب من الفدائيين عدم الاستمرار بالمقاومة» بعدها أرسلهما الملك حسين إلى القاهرة لحضور مؤتمر القمة الذي دعاه إليه الرئيس جمال عبد الناصر).

بعد صد هذا الهجوم من قبل رفاقنا في دوّار مكسيم طلب الأخ أبو عمار، وكان موجوداً داخل مقرنا الإعلامي الصغير، مقابلة رفيقنا الذي قاد معركة تدمير دبابات الجيش الأردني عند دوار مكسيم، وقال له أمام القادة الموجودين والذين كانوا يجلسون على الأرض لعدم وجود الكراسي الكافية: «يا رفيق.. ما هي رتبتك؟، فأجابه رفيقنا حفظي قاسم- الذي استشهد فيما بعد: "نحن في الجبهة لا توجد لدينا رتب مثل تنظيمكم.. نحن لدينا مسؤوليات". فقال له أبو عمار: أنا أبلغك أنني أمنحك رتبة مقدم.

بعد ذلك انسحبت مجموعة من القادة من هذا المكان باتجاه منزل أكثر أمناً وهو بيت لرفيقة لنا اسمها (فاطمة منيّر) رحمها الله، وأيضاً منزل شقيقها رفيقنا (وهيب منيّر) "رحمه الله" والذي كان في نفس الحي ويبعد عن المقر الإعلامي بحدود 200م.

بعد ذلك بساعات انسحب الأخ أبو عمار إلى مكان مجهول هو وخليل الوزير، وعرفنا فيما بعد أنه التجأ إلى السفارة الكويتية في الأردن، بينما أخذ بقية القادة الذين لجؤوا إلى مركزنا الإعلامي يتفرقون بعد صد الهجوم عند دوار مكسيم.

أعاد الجيش الأردني تنظيم قواته وقام بهجوم آخر على هذا المحور "جبل الحسين"، وعلمتُ حين كنت في مدينة إربد من رفاقنا أنهم سيغادرون مكتب الإعلام إلى أماكن أكثر أمناً. وبالفعل تحرك الرفيقان أبو جهاد طلال وأبو جاسم حديد ومعهما مجموعة من الرفاق إلى أماكن أخرى- لقد كانت ذخائر الرفاق والقذائف المضادة للآليات (ب7) قد نفدت تقريباً. وكنت قلقاً على الرفيق "أبو جهاد طلال" بسبب وضعه الصحي حتى مغادرة المقر الإعلامي[٣٤].

---

34 - (يمكن للقارئ الاطلاع على مزيد من التفاصيل حول ما جرى في جبل الحسين في مذكرات الرفيق أبو جهاد طلال ناجي الصادرة تحت عنوان (في الخيمة الأخرى)).

أما في منطقة السلط فقامت كتيبة للجيش الأردني بمهاجمة مركز قيادي لنا هو الموقع (15) الذي يقوده بشجاعة واقتدار الرفيق الشهيد أبو رمضان- الذي استشهد فيما بعد في المكان ذاته- رغم أنه فقد إحدى ساقيه جراء انفجار لغم إسرائيلي أثناء قيامه بإحدى الدوريات. وكان اسم تلك الكتيبة الأردنية المهاجمة (الكتيبة الرابعة) ومركزها شمال مدينة السلط تماماً وتبعد عن مركز قيادتنا المحصّن "رقم 15" حوالي 2كم، حيث شنّت هجوماً عنيفاً على هذا الموقع إلا أن رفاقنا وقائدهم "أبو رمضان" صدوا الهجوم ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بهجوم معاكس وتابعوا تقدمهم حتى وصلوا إلى مركز الكتيبة الرابعة ودخلوه وغنموا منه السلاح والعتاد وأسروا بعض أفراد الكتيبة من الجنود والضباط، وقد وجّهت تعليماتي للرفيق "أبو رمضان" أن يطلق سراحهم ويعاملهم معاملة حسنة ويقول لهم: (لا تكرروا هجومكم). وقد أطلق سراحهم بالفعل.

كنت في إربد على تواصل مستمر مع كل مواقعنا عبر شبكة اتصال متقدمة وعلى تواصل مع الرفاق في جبل الحسين ومخيم الوحدات وجرش، كل هذه القواعد كانت مربوطة بشبكة اتصالات لاسلكية نعطي للرفاق فيها التوجيهات والتعليمات ونطلع منهم على الموقف وتقدير الموقف.

كانت مدينة جرش مهمة جداً وتعدّ مركزاً قيادياً لحركة فتح.. (سأروي فيما بعد كيف دخلها الجيش الأردني دون قتال).

في شرق المدينة تلة حاكمة تتوضع عليها منظمة (الجبهة العربية) الموالية للعراق وتقطع هذه التلة الطريق القادم من المفرق إلى جرش واسمها "ثغرة عصفور". كان يقود هذه المنطقة في جرش وما حولها المدعو (أبو الزعيم) فلسطيني من الضفة الغربية وهو قائد فتحاوي كان ضابطاً في الجيش الأردني سابقاً.

كان رفاقنا من فدائيي الجبهة موجودين في أحراش جرش الغربية، وهذا الموقع رقمه 707 وفيه أنفاق ومُغر ودشم مسيطرة، وهو مشرف على الطريق ما بين عجلون وجرش. وأذكر أن العميد سعد صايل كان معاوناً لقائد اللواء المتمركز في منطقة عجلون. وقد حاول الضغط على مواقعنا وفتح الطريق إلى جرش، لكنه لم يستطع تحقيق ذلك واكتفى بالتوجه إلى الشمال باتجاه مدينة إربد محاولاً دخولها من منطقة إيدون.

بعد فشل الجيش الأردني في الوصول إلى جرش بسبب قتالنا في موقعنا (707) توجه من الجنوب إلى الشمال باتجاه إربد إلى (إيدون) وفي طريقه اشتبك مع مواقع لحركة (فتح) في جبال عجلون الشمالية، وكان يقود هذه المواقع الشهيد أبو علي إياد. ويعد قتال مرير استطاع الجيش الأردني أن يحتل مواقع حركة فتح شمال عجلون واستشهد قائد هذه المواقع (أبو علي إياد)، ثم تقدم هذا اللواء ليحتل قرية إيدون ثم يصل إلى المشارف الجنوبية لمدينة إربد، وتوقف هناك نتيجة المقاومة الباسلة.

فوجئنا بعدها بتحرك آليتين عسكريتين على الطريق المؤدية من عجلون باتجاه جرش فقام رفاقنا بإيقافهما واقتياد من فيهما، وأبلغوني بذلك. كان في إحدى هاتين الآليتين العميد سعد صايل، ففي ذلك الوقت قرر ترك الجيش الأردني والالتحاق بالثورة الفلسطينية لدى فتح.

عندها اتصل الرفاق بي وقالوا إن "أبو الزعيم" قائد فتح في مدينة جرش يريد التحدث إليّ. قال لي أبو الزعيم: «إن العميد سعد صايل من جماعتنا وهو انشق عن الجيش الأردني». فطلبنا من الرفاق معاملته معاملة حسنة وتسليمه لـ "أبو الزعيم".

أرسل لي الرفيق علي بوشناق المشارك في غرفة العمليات الخاصة بالجيش السوري الموجود في درعا برقية يقول فيها: "الجيش السوري قرر الدخول إلى الأردن لنجدتكم.. لذلك نطلب استطلاع الطريق من الرمثا حتى صويلح ومنع أي محاولة لنسف الجسور على هذا الطريق لأن الجيش السوري سيصل إلى صويلح قرب عمان".

أدخل الجيش السوري في البداية من منطقة درعا إلى منطقة المفرق (فوجاً)، لكنه لم يستطع أن يحقق شيئاً في مواجهة الجيش الأردني، وقامت الطائرات الأردنية بضرب هذا الفوج. عندها قررت القيادة السورية أن تدفع بفرقة من الجيش السوري، إضافة لفرقة احتياطية.. هذا ما كان قد أبلغني به المرحوم علي بوشناق.

وفعلاً تقدمت القوات السورية ووصلت إلى المثلث الذي يتجه نحو عمان جنوباً وإلى الشرق باتجاه المفرق وإلى الغرب باتجاه إربد. واستطاعت هذه الفرقة أن تخرج اللواء المدرع للجيش الأردني (اللواء الأربعين) من المعركة. ثم توجه قسم من الجيش السوري باتجاه إربد ولم يدخلها. والتقيت مع قائد اللواء السوري المتجه باتجاه المدينة في منطقة تبعد عن غربي إربد المدينة 3 كم وهي معروفة باسم مبنى مطاحن، ووضعته في صورة الموقف العسكري كله، علماً بأن غرفة العمليات السورية في درعا

كانت قد أرسلت أيضاً سرية من الوحدات الخاصة (المظليين) تمكنت من الدخول إلى مدينة إربد عبر الطرق الجبلية شمال إربد فوضعت نفسها تحت تصرف قيادة حزب البعث والصاعقة.

تحرك أيضاً لواء باتجاه جرش ولكن لم يبتعد كثيراً عن مفرق الطرق (المقاولين العرب) المؤدي إلى جرش- عمان. كما كان هناك لواء ثالث يحمي الميسرة باتجاه مدينة المفرق.

أخبرت قائد اللواء وكذلك الرفيق علي بوشناق الموجود في غرفة العمليات في درعا أن الطريق ممهدة للوصول إلى مدينة جرش، وأن الجيش الأردني لم يحتل المدينة حتى الآن، وهو متعثر على التلال الشرقية لمدينة جرش، وأيضاً على الطريق بين المفرق وجرش.

طلبت من المرحوم علي بوشناق إبلاغ القيادة السورية بأن الطريق مفتوح أمامهم إلى جرش وصولاً إلى البقعة التي تبعد عن مفرق صويلح بضعة كيلومترات، وهي ملتقى طرق باتجاه السلط غرباً وباتجاه الجنوب إلى قصر الحُمّر مركز إقامة الملك حسين، وشرقاً إلى عمان.

لكن الجيش السوري توقف عند مفرق (المقاولين العرب) ولم يتقدّم لأسباب تعددت الروايات بشأنها، واكتفى بإخراج القوات الأردنية الموجودة في منطقة إربد خارج المعركة.

قبل دخول الجيش السوري الأراضي الأردنية حاول الجيش الأردني محاصرة قواعدنا الموجودة غربي الرمثا ولكن هذه القواعد دافعت عن نفسها دفاع الأبطال ولم يستطع الجيش الأردني أن يحقق شيئاً، بينما تركت المنظمات الأخرى مواقعها المجاورة لنا ولجأت إلى سورية دون إبلاغنا أو التنسيق معنا. أذكر جيداً أننا اضطررنا إلى استدعاء قوات الشبيبة المدرّبة في جبهتنا وكان يقودها (محمد أبو العباس) لتعزيز قواعدنا التي أصبح الجيش الأردني يهددها بشكل أكبر غربي الرمثا بعد انسحاب التنظيمات الأخرى. وكان يقود قواعدنا هذه على ما أذكر الشهيد (زهير الهندي).

بعد وصول الجيش السوري إلى مشارف إربد انسحبت بقايا الجيش الأردني إما باتجاه مدينة المفرق أو باتجاه الشونة الشمالية إلى الأغوار. وفي هذه المعركة غنمنا بعض الدبابات والمصفحات؛ كانت قيادة المصفحات سهلة لكن قيادة الدبابات تعتبر معقدة بالنسبة لنا فهي بريطانية نوع "سنتوريون" فأرسلت برقية إلى رفاقنا في دمشق

أطلب منهم أن يرسلوا الرفيق عدنان داغستاني "رحمه الله"، وهو عنصر قديم في الجبهة اختصاصه دبابات وكان لا يزال في الجيش. حضر فعلاً إلى إربد وبدأنا نستخدم بعض هذه الدبابات ونضعها حول إربد.

قبل دخول الجيش السوري إلى داخل الأراضي الأردنية حاول الجيش الأردني مراراً أن يدخل مدينة إربد من جنوبها من منطقة إيدون والحرش ومهّد لتقدمه برمايات كثيفة من المدفعية طالت حتى الشوارع في إربد ومخيم إربد.

كنا في إربد نعتبر أنفسنا أخوة مقاتلين من جميع المنظمات الفلسطينية، وكان القادة يلتقون ببعضهم البعض. وأذكر من بين هؤلاء مسؤول فتح العاصفة هناك الأخ العزيز محمد غنيم "أبو ماهر" وهو قيادي وعضو لجنة مركزية، والرفيق حاكم الفايز مسؤول الصاعقة والبعث، وكذلك المسؤول العسكري للجبهة الديمقراطية المرحوم "ممدوح نوفل"، وكانت قوات القادسية الفلسطينية قد دخلت إربد بقيادة العقيد أسعد دبور. وكنا غالباً نجتمع ببعضنا البعض مساءً وقد وضعنا خطة للدفاع عن إربد كي لا يتكرر ما حدث في عمان، وتقاسمنا محيط إربد على شكل قطاعات حيث حددنا لكل تنظيم قيادة قطاع- مساحته ومواجهته- تتلاءم مع قوته وقدرته.

وصلت طلائع الجيش الأردني من جنوب إربد إلى منطقة المشتل، فبدأنا في الجبهة بزراعة الألغام (م/د) على كل طرق التقدم المحتملة للجيش الأردني، حتى أننا زرعنا الألغام في بعض الشوارع الرئيسة المؤدية إلى المدينة وأحطناها بأسلاك، وجهزنا الصواريخ التي تعمل كهربائياً بواسطة المسطرة.

عندما كنت في إربد نويت التوجه إلى عمان لأهميتها في تقرير مصير المعركة، لكن رفاقنا هناك أبلغوني من خلال أجهزة الاتصال وحذروني بأن الحواجز الخاصة بالجيش الأردني كثيفة بشكل كبير في منطقة صويلح والمدينة الرياضية وهناك تعميم لديهم بانتظاري وإطلاق النار عليّ مباشرة عند رؤيتي. ولكن كنت أعتبر أيضاً منطقة إربد ذات أهمية عسكرية، إضافة إلى أن بقائي في منطقة إربد مهم عسكرياً لأن النظام الأردني سيحاول السيطرة عليها لقطع التواصل بين الأردن وسورية.

تنفسنا الصعداء بعد أن دخلت القوات السورية وانهار جيش الملك حسين حول إربد وهرب باتجاه الأغوار أو باتجاه المفرق وترك آلياته وأسلحته ودباباته. وكان الجيش الأردني قد قام بمحاولة لاقتحام مخيم الوحدات ودارت معركة صعبة وقاسية جداً، استشهد فيها قائد قواتنا التي أتت من سورية وتولت حماية المخيم. وكان قائد

هذه الوحدة الشهيد طارق مراد "أبو رياض" وهو قائد سلاح الألغام في معسكر التدريب وقد استشهد في تاريخ 1970/10/5، واستشهد معه العديد من الرفاق بعد أيام من المعارك المتواصلة خلال دفاعهم المستميت عن مخيم الوحدات.

استمرت الاشتباكات منذ 17 أيلول لمدة 12 يوماً تقريباً، دعا خلالها الرئيس جمال عبد الناصر إلى قمة عربية في القاهرة انتهت يوم إعلان وقف إطلاق النار في 28 أيلول. وكان قد أرسل وفداً يضم الرئيس السوداني جعفر النميري ورئيس الوزراء الكويتي سعد العبد الله إلى عمان لمقابلة الملك حسين من أجل إقناعه بحضور هذه القمة. وأثناء خروج الوفد من عمان اصطحب سعد العبد الله (ياسر عرفات) معه إلى القاهرة في نفس الطائرة بشكل سري وكان متخفياً بلباس كويتي. عُقدت القمة واتخذ قرار بالإجماع بوقف إطلاق النار.

قبل مؤتمر القمة بيوم هدد الصهاينة وأمريكا سورية بأن جيشها سواء في الأردن أو في غير الأردن سيتعرض للقصف إذا لم ينسحب من الأردن، وقد أبلغت القيادة السوفياتية القيادة السورية بضرورة الالتزام بوقف النار وسحب الجيش السوري من الأردن.

كان الرئيس جمال عبد الناصر يستقبل رؤساء الوفود التي ستحضر مؤتمر القمة في مطار القاهرة الدولي، وعندما وصل الدكتور نور الدين الأتاسي رئيس الجمهورية السورية اصطحبه الرئيس عبد الناصر إلى غرفة جانبية وقال له: «لدينا معلومات أنه خلال ساعات ستتعرض سورية وجيشها في سورية أو في الأردن لاعتداء كبير من (الإسرائيليين) المدعومين من أمريكا إذا لم ينسحب الجيش السوري من الأردن». فأجابه الدكتور نور الدين الأتاسي: «لقد اتخذنا قراراً بسحب الجيش من الأردن قبل ساعات».

في مؤتمر القمة الذي ترأسه عبد الناصر وحضره معمر القذافي والخصمان المتقاتلان الملك حسين وياسر عرفات وجميع القادة من الأنظمة العربية، تم التوقيع على الاتفاق الذي يشمل إلى جانب وقف إطلاق النار تشكيل لجنة عربية برئاسة (الباهي الأدغم)، مع فريق يعاونه للتحرك إلى الأردن لتثبيت وقف إطلاق النار. واتُفق على أن يجري بعد ذلك العمل على إنهاء هذا القتال الدموي بين المقاومة الفلسطينية ومنظمة التحرير ممثلة برئيسها ياسر عرفات من جهة والملك الأردني من جهة ثانية.

كان من المؤلم جداً أن يصاب الرئيس عبد الناصر بعد وداعه لقادة الأطراف العربية المشاركة بجلطة قلبية أدت إلى وفاته[35] في 30 أيلول عام 1970.

حزنا كثيراً على فقدان الرئيس عبد الناصر بوزنه وتأثيره على الملك حسين في تنفيذ الاتفاق الذي أُنجز رغم التصرفات التي أساءت لعبد الناصر قبل أحداث أيلول الـ 70 من قبل البعض.

(وهنا أؤكد مرة أخرى أن الرئيس عبد الناصر لم يكن يريد أن تصل الأمور لهذا الحد من العنف والاشتباكات الكبيرة والمريرة، بل كان يريد هو ومعمر القذافي أن يكبحا جماح الانفلات المسلكي والإعلامي، والغرور والشخصنة لبعض القيادات الفلسطينية وعناصر تنظيماتها في الأردن، خاصة بعد خطف الطائرات واقتحام الفنادق في عمان).

انتقلت لجنة القمة العربية برئاسة رئيس الوزراء التونسي (الباهي الأدغم) ومعه فريق كبير إلى الأردن وبدأت تتصل بالأطراف المعنية وتهدئ الخواطر. وفي بداية أحداث أيلول كان رئيس الوزراء في الأردن كما ذكرت اللواء محمد داوود، وكان قد زار القاهرة كمبعوث من الملك حسين لإطلاع الرئيس عبد الناصر على صورة الأوضاع. ولكن اللواء داوود لم يعد إلى الأردن وطلب اللجوء السياسي في القاهرة. عندها شكل الملك حسين خلال أحداث أيلول وزارة برئاسة طوقان وهو من أصل فلسطيني، على أن يكون مقر الحكومة في قصر "الحُمّر". وبعد أقل من شهر على توقيع اتفاق القاهرة أي في 28 تشرين الأول عام 1970 أقال الملك طوقان وعيّن وصفي التل رئيساً للحكومة وهو شخصية شرق أردنية متزوج من امرأة سورية من بيت الجابري، ومعروف بعناده واعتزازه بشخصيته وشراسته.

من أهم بنود اتفاق القاهرة الذي انعقد في 27 أيلول عام 1970:

- إنهاء كل العمليات العسكرية من جانب القوات المسلحة الأردنية وقوات المقاومة الفلسطينية فوراً، مع إنهاء كل التحركات العسكرية التي لا تحتّمها مقتضيات النشاط المعتاد، وإيقاف كل الحملات الإعلامية التي تتنافى مع أغراض هذا الاتفاق.

---

[35] - (ولم يعرف ما إذا كانت الجلطة هي السبب الرئيسي لوفاته أو أنه توفي بسبب ظروف أمنية غامضة)

- الانسحاب السريع لكل القوات المسلحة الأردنية من عمان، وإرجاعها إلى قواعدها الطبيعية مع سحب جميع القوات الفدائية من عمان والمدن وتركيزها في أماكن تلائم العمل الفدائي.

لقد قاد وصفي التل المعارك بعد أيلول الـ 70 بشراسة ضد الفلسطينيين، حتى ضد المدنيين، وبلغ عدد الضحايا في المخيمات الفلسطينية سواء في الزرقاء أو مخيمات عمان أو في إربد أو في (مادبا) المئات بل الآلاف من الشهداء والجرحى من النساء والأطفال. كما قامت عناصر البادية الأردنية باتخاذ إجراءات لإذلال الشعب الفلسطيني.

بعد فترة من توقف القتال في أيلول 1970 وانسحاب الفدائيين من عمان باتجاه جرش، غادر الملك حسين الأردن إلى لندن للاستراحة لمدة طويلة، وسلّم مسؤولية متابعة مهمة اقتلاع الوجود الفلسطيني المسلح من الأردن لوليّ عهده شقيقه (الأمير الحسن) ورئيس الوزراء وصفي التل.

حاول ياسر عرفات بعد وفاة الرئيس عبد الناصر أن يعطي السعودية والملك فيصل دوراً في حل المشكلات بين الملك والفدائيين في الأردن ولكن دون جدوى.

خلاصة المعارك والاشتباكات بين الفدائيين والجيش الأردني حتى وقف إطلاق النار في أيلول 1970

يمكن القول إن الوضع الميداني كان قبل مغادرة الملك حسين إلى لندن عشية الإعلان عن وقف إطلاق النار استناداً لقرار القمة العربية في 28 أيلول عام 1970، لا يدل على أن النظام في الأردن قد انتصر، كما لا ندّعي أن الفدائيين ومنظمة التحرير قد انتصروا. لكن يمكن القول إننا استطعنا كبح هدف المؤامرة التي أُعدّت لإنهاء وجود الفدائيين في الأردن إلى حد ما. وكان الوضع الميداني قد أصبح على الشكل التالي:

- كانت إربد وما حولها تحت سيطرة الفدائيين، والحدود مع سورية مفتوحة تقريباً.
- في منطقة جبال جرش لم يستطع الملك حسين أو جيشه اقتلاع مراكزنا العسكرية رغم المحاولات المتكررة وبقيت مواقعنا في (707) كما هي. وكانت مدينة جرش مازالت مع الفدائيين والطريق مفتوحاً بين جرش وإربد شمالاً،

وكذلك باتجاه الجنوب حتى مخيم البقعة. ولم يستطع الجيش الأردني تحقيق أي هدف ضد مواقعنا في الجبال جنوب شرقي السلط وهذه المواقع تعرف باسم (15)..

- لم يستطع الملك أن يقتلع وجود حركة فتح وجيش التحرير من وادي رميميم على التلال المشرفة على مخيم البقعة في الجبهة الغربية.
- مخيم البقعة بقي خارج سيطرة الجيش الأردني، وكذلك مخيم الوحدات مع بعض الأحياء القريبة منه والتي بقيت معنا. ومخيم الحسين ظل صامداً ولم يستطع الجيش الأردني دخوله.
- حقق الجيش الأردني مكاسب ميدانية فقد احتل مجموعة من الجبال في عمان وخاصة اللويبدة وأحياء جبل عمان وقسم من جبل الحسين، لم يكن منتشراً فيها في السابق، وأصبح 50% من عمان حسب وجهة نظري تحت سيطرة الجيش الأردني، و50% تحت سيطرة الفدائيين.
- استطاع الجيش الأردني السيطرة على مدينة الزرقاء أما مدينة جرش فقد سُلّمت إلى السلطة بلعبة أمنية وسياسية فيما بعد وليس بواسطة قدرة الجيش الأردني. كذلك سيطر على مادبا ومخيمها، أما مدينة المفرق- وكانت مركز الجيش العراقي- فبقيت منطقة محايدة لا يدخلها الجيش الأردني وظلت تحت سيطرة الجيش العراقي.

بعد توقف إطلاق النار وعودة الأخ ياسر عرفات من القاهرة ووفاة الرئيس جمال عبد الناصر ووداعه من قبل الرؤساء العرب، بدأت المرحلة الثانية من المؤامرة؛ فقد تبيّن لنا أن الأمير الحسن ووصفي التل رئيس الوزراء يخيّران الضباط وصف الضباط والجنود الفلسطينيين بين استمرار البقاء في الجيش الأردني أو الاستقالة منه. وقد جرى اتفاق نحن لا ندري به بين ياسر عرفات والسلطة الأردنية على السماح للضباط وصف الضباط والجنود الفلسطينيين في الجيش الأردني الذين لا يرغبون بالبقاء في الجيش الأردني، التجمّع والمغادرة بالباصات إلى سورية دون أن تعترضهم حواجز الجيش الموجودة في منطقة المدينة الرياضية وصويلح.

وهكذا ترك الآلاف من الضباط وصف الضباط والجنود الفلسطينيين الجيش الأردني وتحركوا مع حركة فتح بالباصات إلى سورية، حيث تم وضعهم في معسكر

كبير وأطلق عليهم اسم "قوات اليرموك". وأصبح قائد هذه القوات العميد سعد صايل، أي أن الجيش الأردني أصبح خالياً نسبياً من العنصر الفلسطيني حسب الاتفاق مع منظمة التحرير (أي مع ياسر عرفات) ولم يناقش هذا الأمر في اجتماع القيادة الفلسطينية.

في السنوات والأشهر السابقة لأحداث أيلول عام 1970 كنت أتنقّل بين قواعدنا في الأغوار أو قواعدنا التي على نهر اليرموك، أو في غور الصافي، أو في مراكزنا العسكرية في الجبال المطلة على فلسطين (في موقع 15 أو موقع 707)، أو في جبال إربد الجنوبية أو على الجبهة السورية أو اللبنانية لمتابعة العمليات ضد العدو الصهيوني لعلنا نستطيع إعادة توجيه البوصلة باتجاه مقاتلة العدو الصهيوني.

زياراتي إلى عمان كانت قليلة جداً ونادرة، أذهب إليها إذا دُعيت إلى اجتماع ضروري وهام جداً.

ما أردت تسليط الضوء عليه في هذا السرد المختصر هو أننا واجهنا وضعاً لا نحسد عليه، لذلك التقينا مع بعضنا البعض عند الأخ "أبو عمار" رئيس اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير في مقره الجديد في عمان. وعقدت اجتماعات متعددة؛ علماً أن القوى الناصرية المتحالفة معنا أخبرتنا أنها تريد أن تفك تحالفها معنا بسبب مشروع روجرز، لأنها كانت تطلب منا إصدار بيان نؤيد فيه هذا المشروع وكنا نجيبها أننا نقدّر الظروف الدولية وظروف الرئيس جمال عبد الناصر ولكن لا يمكن أن نقبل هذا الأسلوب الوقح من بعض الفصائل التي تهاجم الرئيس عبد الناصر في الشارع وفي المظاهرات. وأوضحنا لهم أن احتجاجنا على مشروع روجرز سببه مخاوفنا أن يعطي وقف إطلاق النار فرصة للعدو الصهيوني لإعادة تنظيم قواهم المشتتة والمنهكة. وهذا يذكرنا بالهدن التي حدثت عام 1948 وصولاً لاتفاقية الهدنة في رودس.

المشكلة الكبرى في لقاءاتنا مع هذه المنظمات أن الجميع كان يرفض الحديث أو البحث في أسباب ما آلت إليه الظروف الصعبة التي نمر بها، فلم تقم أي منظمة فدائية بتقييم الوضع الذي حصل واستعراض الأخطاء التي وقعت وأدت إلى هذه الحالة المأساوية، وكأن الجميع يريد أن يقول: "لا ضرورة لدراسة ما مضى".

كنا في الاجتماعات نؤكد دوماً أننا لا نريد تعليق المشانق لبعض الأطراف التي تصرفت تصرفات هوجاء وأدت إلى تعجيل التصادم بيننا وبين الملك حسين ونظامه،

لكننا نريد الاستفادة من ذلك من أجل المستقبل. ومع ذلك كانوا يصرّون على طيّ صفحة الماضي دون تقييم أو نقد ذاتي لأنهم كانوا يشعرون أنهم شركاء ويتحملون جانباً أساسياً مما وصلت أوضاع المقاومة إليه، فقد ساهم كل منهم بقدر معيّن.

رغم كل الروايات المضللة ومحاولة تشويه الوقائع والقفز عن الأسباب والمقدمات التي أدت بالمقاومة إلى الخروج من الأردن، إلا أنني واثق من أن التاريخ سيشهد أننا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة لم نساهم بتلك السلبيات والأسباب القاتلة، بل كنا نقول إن التصادم بيننا وبين الملك حسين ليس قدراً حُدِّد تاريخه في أيلول عام 1970. لقد كانت جذورنا في الأرض لاتزال ضعيفة، وكنا في اجتماعاتنا مع الفصائل برئاسة ياسر عرفات نقول لهم ونشدد على ضرورة تقييم الأحداث التي تسببت لنا بهذا المأزق التاريخي. هذا يستوجب أن يقوم كل تنظيم من تنظيمات الثورة الفلسطينية (الفدائيين) بعملية تقييم داخلية بين كوادره وعناصره لتحديد من قام بدور إيجابي وجيد في الدفاع أو من تخاذل ولم يلتزم بمسؤوليته وهرب من المعركة وغادر إلى سورية ولم يدافع عن الثورة أو تآمر أو ترك الساحة الفدائية وانضم إلى الملك حسين.

أوضحت في هذا الاجتماع أننا بدأنا نحن في الجبهة بعملية التقييم الداخلي لكل الرفاق خاصة الكوادر القيادية خلال أحداث أيلول الأسود 1970، وقمنا فعلاً بتجميد أو تخفيض مسؤولية بعض أعضاء المكتب السياسي، وأعضاء من اللجنة المركزية ومن مسؤولي المناطق التنظيمية في الساحة الأردنية أو الساحة السورية أو الليبية. وقرأت لهم في الاجتماع وبالأسماء نتائج عملية التقييم الداخلي لجبهتنا، ودعوت كل الفصائل إلى ضرورة القيام بمثل هذا التقييم لأنه لا يصح لأي ثورة أن تتغاضى عن هذه المهمة الضرورية، وكعادتهم قالوا لي: "الله يعطيكم العافية"، ولكن دون أن يقوموا بأي إجراء مماثل.

وفي الاجتماعات التي أعقبت ذلك طرحتُ أمام المجتمعين موضوعاً هاماً، حيث ذكّرت قادة الفصائل بأنني كنت ضد انكفاء القواعد المقاتلة وقياداتها بعد مرحلة معركة الكرامة من الأغوار إلى المدن، وكنت ضد الجزر الأمنية التي صنعها البعض في

عمان وفي المخيمات الملاصقة لها، كذلك حاولت وقف سياسة الاستفزاز والتحرش وكتابة الشعارات التي كانت تُكتب ضد النظام في الأردن والجميع يعرف ذلك[٣٦].

كنت أقول لهم في تلك الاجتماعات: أريد أن أوضح للجميع أنه لابد من تغيير تكتيكات المعركة على الأرض الأردنية بعد أن فرض الواقع الجديد معادلة ميدانية حاولنا أن لا نصل إليها؛ لذلك أدعوكم إلى التمسك بالحفاظ على وجودنا في الأردن، التمسك بالوجود في المدن؛ في عمان والسلط ومادبا وإربد والزرقاء، والمخيمات في الداخل خشية أن يتابع النظام الأردني مخططه خاصة في غياب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والضعف العربي الذي تولّد عنه.. فالمعركة شرسة بعد أن تم تنظيف الجيش الأردني من العنصر الفلسطيني، ومن المؤكد أن الملك سيعيد الكرّة مرة أخرى لاقتلاعنا نهائياً من الأردن[٣٧].

قدمت اقتراحاً في ذلك الاجتماع حول أولوية مدينة عمان، التي كان وضع السيطرة فيها بعد وقف إطلاق النار متساوياً عسكرياً بيننا وبين النظام الأردني على أرضها وجبالها. واقترحت تحصين وضعنا في عمان والمخيمات القريبة منها، وأيضاً في مدينة إربد وما حولها لأنها مجاورة للحدود السورية، بالإضافة إلى تحصين مواقعنا في الجبال التي لم يستطع الملك حسين وجيشه دخولها؛ (وهي جبال غربي جرش وغربي مخيم البقعة وشمال شرقي السلط وشمال إربد)، وأن نقوم بكل الاستعدادات اللازمة كي لا يشعر النظام في الأردن أننا ضعفاء فيتشجع على متابعة مهمته باقتلاعنا نهائياً من الأردن.

بعد هذا الاجتماع المذكور تلت مناقشات أدت إلى صدور قرار بتشكيل لجنة عسكرية عليا لتحصين عمان ومخيماتها مشكّلة مني ومن الأخ أحمد زعرور وهو ضابط سابق في الجيش الأردني، والعميد أبو المعتصم "عفاني" وهو أيضاً ضابط فلسطيني سابق.

بدأنا نحن الثلاثة بعقد اجتماعاتنا لهذه الغاية، وكنا نتحرك بجولات ميدانية من (ماركا) إلى جبل التاج، إلى الوحدات إلى جبل الحسين. وقد علمنا صدفة أن الأخوة

---

36 - (للأسف الشديد كان البعض يقول في غيابي إن "أبو جهاد أحمد جبريل" يتعاطف مع الملك حسين!!).

37 - (كان الملك قد أعطى الصلاحيات الواسعة لوليّ العهد الأمير حسن، وكلّف وصفي التل برئاسة الوزراء).

المصريين أرسلوا ضابطاً لمثل هذه المهمة (التحصين) فقمنا بضمه إلى هذه اللجنة وكنا نصل الليل بالنهار من أجل الإسراع في إنجاز مهمتنا.

في أحد الاجتماعات اعتذر ياسر عرفات وانسحب فجأةً من الاجتماع ونحن تابعنا عملنا.. كانت النوافذ مفتوحة ويبدو أن حديثنا كان مسموعاً للموجودين في الممر. وحين خرجت من قاعة الاجتماع تقدم مني رجل وعرفني عن نفسه قائلاً: "أنا أبو داوود مسؤول مليشيا حركة فتح في عمان"، وهمس لي بحيث لا يسمعه أحد: "لقد سمعتُ كل اقتراحاتك ومواقفك لكن أريد أن أقول لك بأن هؤلاء يخادعونك. أبو عمار وأبو إياد انسحبا من الاجتماع وذهبا إلى قصر الملك لأن الجميع متفقون على مغادرة المدن والمخيمات إلى جبال جرش بموجب مشروع سعودي.. فلا تجهدوا أنفسكم لأنه خلال أيام سيتم تنفيذ هذا الأمر!"

بعد أيام وذات ليلة، وكنا في عمان وقتها، أيقظني أحد رفاقنا ليخبرني أن الباصات تنقل الفدائيين بسلاحهم إلى الجبال حسب المشروع السعودي!.. أذكر أن ذلك الرفيق كان اسمه "محمد غانم" وقد غادرنا بعد انتهاء وجودنا في الأردن وانضم لحركة فتح.

وقد فوجئت أن (أبو المعتصم) "عفاني" عضو لجنة تحصين عمان ومخيماتها كان مكلفاً من أبو عمار بترحيل المقاتلين إلى خارج المدن مع سلاحهم وعتادهم.

طلبنا لقاء أبو عمار لنفهم منه ما الذي يحدث؟، فأجابنا بعض من حوله بأن مركز قيادة "أبو عمار" قد انتقل إلى أحراش جرش الغربية، فغادرت عمان وتوجهت إلى هناك؛ حيث توجد قرية سياحية في قلب أحراش الصنوبر لم أعد أذكر اسمها تضم مجموعة من الفيلات. وقد وجدت الأخ "أبو عمار" وخليل الوزير "رحمهما الله" في إحدى الفيلات، فسألتهما عما يحصل وقلت لهما: «ليس هذا ما اتفقنا عليه فقد اتفقنا على تحصين عمان ومخيماتها والمدن الأخرى». فأجاب عرفات: «يا أبو جهاد هناك مشروع سعودي وافقنا عليه في المنظمة- يقصد نفسه لأنه رئيس المنظمة- ويقضي المشروع بانسحاب كل المسلحين بمن فيهم المليشيات من المدن إلى الجبال»، وتابع ضاحكاً: «أليس هذا ما كنت تريده في السابق بعد معركة الكرامة!»، فأجبته: «أنا اقترحت عليكم ذلك في وقت كان مناسباً لهذا الغرض ويخدم الثورة واستمرارها، ولكنكم تنفّذون هذا الآن في وقت غير مناسب بل سيئ وضار. الآن هذه الجبال يمكن أن يحاصرنا فيها النظام الأردني بسهولة، فالطرق محدودة ولا يوجد لنا نصير هنا أو

غطاء عربي، بالإضافة لوجود مشكلة في هذه الجبال وهذه الأحراش حيث لا توجد فيها ينابيع للمياه». فقال: «المملكة العربية السعودية والملك فيصل تحديداً تعهّد بحماية الفدائيين في هذه الجبال المشرفة على الأغوار لنتابع برنامجنا العسكري!».

غادرت مقر قيادة "أبو عمار" في أحراش جرش الغربية وأنا غاضب وتوجهت بسرعة إلى مركزنا هناك المعروف باسم (707)، حيث حفرنا فيه أنفاقاً ومغراً وبنينا دشماً تساعد في الدفاع عن هذا الموقع من كل الاتجاهات، وأيضاً يمكن من خلالها السيطرة على الطريق الوحيد الذي يصل بين عجلون وجرش التي دخلها الجيش الأردني مؤخراً دون قتال[٣٨].

كنا في الجبهة الشعبية القيادة العامة في وضع لا نحسد عليه، فقد خسرنا السند العربي الذي كان يحمينا في الأردن بعد رحيل جمال عبد الناصر الذي كان يحسب له الملك حسين ألف حساب. ويذكر أن مصر قد دخلت في عملية صراع داخلي بعد أن استلم أنور السادات الرئاسة كونه نائب الرئيس عبد الناصر، ولم يعد يعني المتصارعين على الحكم فيها لا مشروع روجرز ولا الفدائيين ومصيرهم في الأردن. كما أن النظام في العراق بدأ يسحب جيشه من الأردن باتجاه قواعده في العراق، بقرار من صدام حسين الذي كان القائد الفعلي للعراق في حين أن أحمد حسن البكر وكان رئيساً للجمهورية لا حول له ولا قوة. وآنذاك كانت معاناتنا المادية متفاقمة وصعبة، فكما ذكرت سابقاً توقفت عنا المساعدات المالية من ثورة الفاتح في ليبيا لفترة سنتين تقريباً، أما وضع حركة فتح فكان جيداً على المستوى المادي فالسعودية ودول الخليج كانوا يغدقون عليهم الأموال الطائلة. وعندما انتقل ياسر عرفات إلى الجبال ملأ فيلات الاستجمام بجبال جرش بكل أنواع المواد التموينية.

غادر الملك حسين الأردن إلى لندن للاستجمام بعد وقف إطلاق النار وقد اطمأن على إخراج الفدائيين من المدن والمخيمات. وجرى كما ذكرت إفراغ الجيش الأردني من العنصر الفلسطيني الذي كان يشكل قسماً كبيراً من حيث الرتب الوسطى الفعالة.

---

[38] - (بعد عمان سلمت مدينة جرش التي كان يقودها أبو الزعيم وتعتبر المركز الرئيسي لحركة فتح، وتسانده فصائل خاصة في (الجبهة العربية) التابعة للعراق. وكان من المؤلم أن يسلّم هذا الموقع الهام والاستراتيجي دون قتال، كما أن هناك رموزاً معروفة وأسماء لا أريد أن أذكرها لعبت دوراً كبيراً في المنظمات قبل أيلول عام 1970 لكنها عادت وانطوت تحت عباءة الملك حسين أو هربت وغادرت).

ومع غياب الظهير العربي، والانعكاسات السلبية علينا للخلافات الداخلية المحتدمة في سورية بين أركان النظام، ترك الملك المسؤولية لوليّ عهده شقيقه الأمير الحسن ورئيس حكومته وصفي التل وهو مطمئن على أن مشروعه في اقتلاع الوجود الفدائي من الأردن نهائياً سيتابع بهدوء وبالتدريج.

بدأ النظام الأردني يغلق جميع الطرق الصاعدة إلى الجبال التي ينتشر فيها الفدائيون حيث منع الحركة التموينية عن تلك المناطق. وقامت بعض الفصائل باتخاذ مقرات لها في أحراش جرش الغربية (الجبهة الشعبية- اتخذ الدكتور جورج حبش مقراً له هناك في بعض الخيام التي نصبوها، وكذلك الديمقراطية والنضال الشعبي، وذلك عوضاً عن المربعات الأمنية التي قاموا بإنشائها في عمان والمخيمات المحيطة بها).

كما ذكرت، كان لنا مقر مهم محصّن في شمال غربي السلط، وله طريق يصله بطريق السلط- عمان. وهذا الطريق يمتد باتجاه وادي رميميم إلى البقعة. وقد طلبت من الشهيد (أبو رمضان) قائد معسكر (15) أن يزرع الألغام (م/أ) حول هذا الموقع بشكل يجعله محمياً بواسطة الدشم التي بنيناها، وأيضاً من خلال حقول ألغام (م/د) على الطريق الإسفلتي الضيق الوحيد الذي يخترق معسكرنا باتجاه وادي رميميم. وقد قطعنا هذا الطريق عند التقائه مع طريق السلط- عمان بحيث لا نسمح وبشكل متقن لآليات الجيش الأردني أن تمر (فقد كان الجيش الأردني لا يملك كاسحات للألغام في ذلك الوقت).

كان في وادي رميميم مركزان مهمان لمنظمة التحرير وهما قوات التحرير الشعبية بقيادة العقيد محمود أبو مرزوق، وكذلك الوحدة العسكرية لحركة فتح التي تتمركز على هذا الطريق وعلى التلال المشرفة على مخيم البقعة وكان يقودها موسى عرفات.

كنا نعتبر أن هذين الموقعين الهامين في وادي رميميم وحول مخيم البقعة سيشكلان سنداً لنا في موقعنا (رقم 15) من الجهة الشمالية وأيضاً لحماية مخيم البقعة من الجهة الغربية. لكن للأسف الشديد فوجئنا بقيام كل من موسى عرفات وأبو مرزوق بسحب قواتهما من هناك دون إبلاغنا!

نتيجة لذلك أصبحت جبهتنا الشمالية لموقع (15) التي كانت مغلقة من قبل فدائيي فتح ومنظمة التحرير خالية ومكشوفة أمام جيش النظام الأردني. وزاد الطين بلة أن موسى عرفات ومحمود أبو مرزوق خدعا الرفيق الشهيد أبو رمضان قائد

موقعنا بالقول إنه قد تم اتفاق سلمي مع الجيش الأردني وأن الأمور جيدة. وأشاروا عليه بأن يقوم بنزع الألغام (م/د) عن الطريق الوحيدة القادمة من مفرق السلط باتجاه عمان ثم إلى الموقع الخاص بنا رقم (15) إلى وادي رميميم.

واقتنع الشهيد أبو رمضان بالمبررات التي قدمها إليه موسى عرفات وأبو مرزوق ونزع الألغام.. فما كان إلا أن تقدم الجيش الأردني على الطريق الإسفلتي لهذا الموقع من جهة الجنوب ومن جهة الشمال، ودارت معركة هناك لساعات طويلة استشهد خلالها العديد من رفاقنا وعلى رأسهم قائد الموقع (أبو رمضان) "رحمه الله" وكان قد فقد سابقاً ساقه في إحدى العمليات في الأرض المحتلة، وهو من قرية جنوب نابلس اسمها قريوط. وقد تأثرت كثيراً لما حدث معه من خديعة وأكبرتُ فيه من جانب آخر تضحيته وشجاعته، فهو قائد ميداني عملي عُرف عنه متابعة عمله بكل إخلاص.

لقد استطاع الأمير الحسن ووصفي التل استعادة السيطرة على عمان كاملة بما فيها مخيماتها وكذلك على منطقة السلط وعلى مركزنا العسكري الكبير هناك (رقم 15) الذي بناه رفاقنا داخل الجبال بالجهد والعرق والدم، وسقط لنا العديد من الشهداء. كما استطاع الجيش الأردني السيطرة على وادي رميميم ومخيم البقعة وعلى الجبال التي انتشر فيها موسى عرفات، بعد أن هربت تلك القيادات والتجأت إلى أحراش جرش الغربية.

وفي الشمال استطاع النظام في الأردن من خلال وليّ العهد ووصفي التل أن يغلق الحدود الأردنية- السورية والمناطق المحيطة بها. ولم يبقَ من هذه الحدود إلا ثغرة صغيرة كنا نعبر منها باتجاه نهر اليرموك وباتجاه شلالات تل شهاب، أي أصبح الفدائيون محصورين كلهم في أحراش جرش بمساحة بحدود 100 كم^2 تقريباً.

في لقائي الأخير مع الأخ "أبو عمار" في أحراش جرش، قلت له: «أين هي اللجنة العربية بقيادة الباهي الأدغم والتي انبثقت بقرار القمة العربية؟ وكيف يمكنها أن تمنع هذا التغيير الذي يتم كل يوم؟ الجيش الأردني يقضم الأرض قطعة وراء قطعة فأين تعهد السعودية ومشروعها لحماية الفدائيين وحمايتك في هذه الجبال وعدم محاصرتها وإبقاء الحدود لقتال العدو الإسرائيلي غرباً؟». فاكتفى بالقول: «يا أبو جهاد .. هناك مؤامرة كبيرة علينا» قلت له: نعيماً.

كنت أحزن عندما أرى وأنا أقوم بجولة في قواعد فتح المنتشرة في الجبال، الإمكانيات الكبيرة ولكن المبعثرة لهذه القواعد. وكان أسوأ ما رأيت حالة انتشار

عناصرهم تحت الأشجار وكأنهم في معسكر كشفي وأسلحتهم المتوسطة والثقيلة مكشوفة للعيان، ولا يبدو أنهم مقبلون على معركة مصيرية!!.

كنت أتعمّد أن أجلس معهم وأحذّرهم، كما أنني لم أخفِ ذلك عن ياسر عرفات ولا عن الأخ خليل الوزير. وكنت ألفت انتباههم إلى أن أسلحتهم مكشوفة لرمايات المدفعية الأردنية وأطلب منهم أن يأتوا إلى مواقعنا وينظروا إلى دشمنا ومدى تحصينها الجيد لكي نضمن الحماية لأنفسنا من المدفعية والطيران الأردني وحتى نتمكن بهذه الأسلحة من القتال دون أن تدمّر. ولكن للأسف وكالعادة لا حياة لمَن تنادي، وبدل أن تجتمع هذه القيادات الفلسطينية الموجودة في أحراش جرش وقادة القواعد لوضع خطة لعملية الدفاع فإنهم على العكس تماماً لم يكن لديهم روح التعاون والمحبة.

هنا أؤكد مرة أخرى على أهمية طرح السؤال الكبير عن هذه المرحلة: متى ستوضع النقاط على الحروف ويتم توضيح ما جرى بشكل موضوعي وحقيقة ما حدث لنا بجرأة وشجاعة؟

مازلت أتذكر ما كنت أقوله دوماً لعدد من القادة وقيادات الفدائيين قبل أيلول 1970: إذا خرجنا من الأردن لن نبكي دموعاً بل سنبكي دماءً.. كيف نريد أن نحرر فلسطين ونحن بعيدون كل البعد عن بوابات فلسطين وهي الضفة الشرقية الملاصقة للضفة الغربية وباتجاه الجليل ونابلس والقدس والخليل وباتجاه النقب!؟.

لا أعرف ما إذا كنت سأرى وأقرأ مؤلفات تروي عن هذه التجربة المرّة حتى وإن جاءت متأخرة.. كتابات تتحدث بصراحة وكل وضوح وبعيداً عن العواطف والعصبيات التنظيمية. سنترك هذه المهمة للأجيال القادمة لعلها تستخلص العبر من هذا الدرس القاسي الذي مرّت به المقاومة فتتلافى الأخطاء والخطايا والمؤامرات حيث انتقلت الحال من هدف تحرير فلسطين إلى السقوط في مشاريع تسوية تصفوية يُراد منها بيع فلسطين.

ربما يقول أحدهم أنني كنت قاسياً على البعض وأنه كان يجب ألا أشير إلى تلك الوقائع السوداء والحقيقية، وعلى مبدأ المثل القائل (لا داعي لنشر الغسيل الوسخ)، بحجة أن نشر هذه الحقائق قد يؤدي إلى الإحباط وتشفّي العدو بنا. لكن الجرأة الثورية والشفافية في مصارحة شعبنا وكل مَن يعنيه واقع المقاومة الفلسطينية حاضراً ومستقبلاً يملي عليّ وعلى صاحب كل ضمير أن يكون صريحاً.

فأنا لا أحمل حقداً شخصياً على أحد، ولا أتجنّى على زيد أو عبيد، ولم أكن أريد مزاحمة أي كان على القيادة. فحتى بعد خروجنا من الأردن بسنوات كنت أمتنع كعادتي منذ البداية عن الظهور في كل وسائل الإعلام وبقيت صورتي إلى وقت طويل غير معروفة، وكنت حريصاً كما تفرض المرحلة أن أبقى في الظل وليس كما كان يلهث الآخرون وراء الإعلام وكانوا يتسابقون للظهور في وسائل الإعلام بصورهم وتصريحاتهم ومواقفهم التي تبرزهم، ويبالغون فيها ويكذبون في وصف الأعمال التي أنجزوها.

كان همنا تقوية الوضع الفلسطيني بدليل التجارب المبكرة لعقد صيغ وحدوية مع (فتح) والقوميين العرب (شباب الثأر)، ولم ننخرط في سياسة المحاور العربية ولعبة المصالح الشخصية والتنظيمية في الهوية والعقيدة.

في الهوية السياسية والفكرية

تأثري في عمر مبكّر بأفكار الحزب القومي السوري الاجتماعي بسبب موقفه الحاسم من الصراع مع الصهاينة، ثم إعجابي بالثورة الجزائرية والكوبية، والنضال التحرري للفيتناميين، جعلني لا أسير مع أي تيارات سياسية أو فكرية، وهذا يشمل التيارات السياسية القومية والناصرية واليسارية وحتى الدينية، رغم تحالفنا في جبهة التحرير الفلسطينية مع (شباب الثأر) حركة القوميين العرب. ولم يكن التحالف الذي شكلناه باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على خلفية حركتهم بل كان على أرضية وحدة قوى مقاومة وهدف تحرير فلسطين. بل إن إصرار حركة القوميين العرب (جورج حبش) على تجيير عمل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لصالح حركة القوميين العرب والزجّ بالجبهة الشعبية في صراعات سياسية مع الرئيس عبد الناصر كان أحد أسباب الخلاف داخل الجبهة وانفكاك العلاقة ما بين طرفيها.

كنا في (جبهة التحرير الفلسطينية) ومنذ البداية نؤمن أن قضية فلسطين هي قضية الأمة العربية والإسلامية جمعاء، وقضية كل حر في العالم، وأن تحرير فلسطين هي مسؤولية الأمة العربية والإسلامية، وأن واجب الفلسطيني أن يكون رأس حربة فيها. والجبهة تضم بين صفوفها كل من يؤمن بتحرير فلسطين، فكان بين صفوفنا مناضلون أعضاء في المكتب السياسي للجبهة وفي اللجنة المركزية عرب وغير

فلسطينيين. وقدّمت الجبهة على طريق معركة التحرير شهداء من غالبية البلدان العربية، ومن بعض الدول الإسلامية.

وبما أننا حركة تحرر ولسنا حزباً سياسياً فقد حافظنا منذ التأسيس والانطلاقة على هويتنا الوطنية في مواجهة مخطط أعدائنا مسح الهوية الفلسطينية وشطبها من الجغرافيا والتاريخ. ولكن لم نكن متعصّبين منغلقين، فنحن ننتمي لأمتنا العربية والإسلامية. وكان بين صفوفنا أيضاً رفاق من الأخوة المسيحيين، وبذلك كنا نمثل الحالة الوطنية والقومية دون الغرق في العصبوية العقائدية والتمحور حول الصيغ المنغلقة والتأطير الحزبي.

لقد انشغلت بعض التنظيمات بصراعات فكرية وتنوعت عقائدها. وكانت قناعتنا بأن الانفتاح على الفكر الإنساني لا يعني أن نستنسخ هذا الفكر ونقفز عن ثقافتنا وخصوصية هويتنا وتاريخنا، فنحن بحاجة لدعم طاقات أمتنا كلها، والخطر الصهيوني لا يستهدف فئة دون أخرى أو شعبنا الفلسطيني فقط بل هو خطر يستهدف الأمة ومستقبلها. وعندما طرح بعض الرفاق في وقت لاحق مسألة الاشتراكية لم تصبح تلك المسألة (ديناً) أو عقيدة كما فعل آخرون على حساب هويتنا الوطنية وانتمائنا العربي والإسلامي.

وكان المبدأ الذي حرصت أن يكون معياراً للعلاقة مع أي طرف عربي أو إسلامي أو دولي قائم على مدى قربه أو بعده من الالتزام بقضية فلسطين وتحريرها.

خلاصة القول وما يجب التوقف أمامه هو ضرورة دراسة هذه المرحلة دراسة دقيقة، وليس القول بأن (عفا الله عما مضى)، وكأن ما جرى قدر فُرض علينا.

يجب إجراء تقييم وتحديد المسؤولين عما وصلنا إليه من ضياع أدى إلى خروجنا من الأردن، قاعدة الانطلاق لتحرير الضفة وفلسطين.

المهم أنه ورغم تلك الانهيارات التي أصابت المقاومة الفلسطينية وأثرت في مكانة القضية الفلسطينية إلا أننا الآن مازلنا نحمل الراية لنسلمها مرفوعة لجيل بعدنا، وهذا الجيل مطالب بالإمساك بها وبدراسة التجارب والعبر المستخلصة.

لقد سقط آلاف الشهداء خلال هذه المرحلة التي ابتدأت منذ 1965/1/1 حتى خروجنا من الأردن في تشرين الأول من خلال مؤامرة أيلول عام 1970.

مَن بقي منا حياً ومتمسكاً بالمبادئ والقيم والأخلاق والمثل والتاريخ عليه أن يعاهد دماء هؤلاء الشهداء. وأنا هنا لا أريد أن أتحدث عن قضية عاطفية حين أقول أنني،

وأثناء بعض زياراتي لمواقع جبهتنا، كنت حين أنظر إلى صور الشهداء المعلقة، أقسم أنني كنت أرى هؤلاء الشهداء يبتسمون، وخاصةً حين نكون قد حققنا إنجازات إيجابية. وبالمقابل كنت أرى عيونهم تدمع وينظرون إلينا نظرة العتب، في الأوقات التي كان يظهر فيها أن فلسطين تباع في المزاد العلني كعقار يملكه فلان أو فلان.

وهنا عندما أتحدث عن الشهداء لا أتحدث فقط عن شهداء جبهتنا بل أتحدث عن شهداء كل التنظيمات الفلسطينية وشهداء الشعب الفلسطيني المظلوم وأمتنا العربية الذين شاركونا حلم تحرير فلسطين، كل فلسطين.

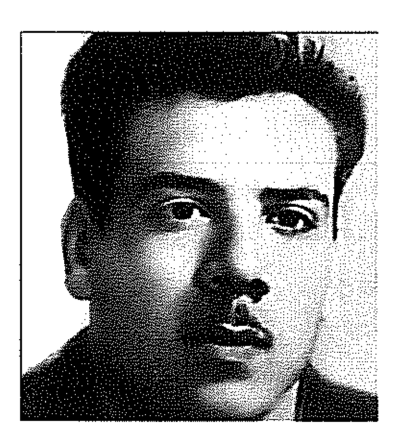
ويمكن من خلال عرض لمحة عن الشهيدين أبو الأمين خالد وسمير درويش أن أقدم صورة عن المبادئ والقيم والشجاعة التي أُعدّ على أساسها رفاقنا وكوادرنا في الجبهة.

المثل الثوري الذي يجب أن يظل نموذجاً وحالة ملهمة للأجيال نقدمه من خلال سيرة شهيدين هما: الشهيد الأول في الجبهة خالد الأمين، والأسير المحرر سمير درويش كي تبقى الصورة حية في الأجيال، وكي يبقى المثال، وكيف كانت الجبهة تبني وتؤسس من أجل تحرير الأرض والإنسان دون أي ارتجالية أو بهرجة دعائية.

الشهيد الأول للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة

وأول شهداء الثورة الفلسطينية المعاصرة داخل فلسطين.

الشهيد القائد البطل خالد محمد الأمين "أبو الأمين"



ولد الشهيد البطل خالد محمد الأمين في فلسطين بمدينة الناصرة عام 1939. ينتمي لأسرة فلسطينية مناضلة، وقد شارك العديد من أفراد أسرته في الثورات الفلسطينية.

آثر الشهيد البطل خالد الأمين الالتحاق بالجبهة، وكان حينها يدير لصالحه ورشة دهان يعمل فيها حوالي عشرين عاملاً. ومثل بقية الرفاق كان يساهم مادياً ويدفع اشتراكاً لصندوق الجبهة.

التحق في صفوف جبهة التحرير الفلسطينية- القيادة العامة حالياً عام 1961 في مرحلة العمل السري.

خضع الشهيد لدورة تمهيد تنظيمي، كما خضع لمشروع. ثم خضع لعدة دورات سرية ومنها (دورة تكتيك عسكري- هندسة- إسعافات أولية- إشارة- أسلحة- طبوغرافيا- الإعداد البدني)، وتدرج إلى أن أصبح قائد جناح الإعداد البدني.

شارك في العديد من المهمات القتالية والاستطلاعية ضد العدو الصهيوني، وكان أول من قاد أولى العمليات العسكرية داخل أراضينا المحتلة في عملية ديشوم.

حين انطلق في عمليته كانت زوجته حاملاً، لكنه لم يبلغ قيادة الجبهة خشية أن يؤجّل تكليفه بالمهمة- وفقاً لما ذكره الرفيق الأمين العام للجبهة.

متزوج وله ثلاث بنات.

امتاز الشهيد البطل بالتزامه الأخلاقي والديني وحاز على احترام رفاقه وقيادته وعناصر التنظيم. وقد كرمته الجبهة ورفاقه بأن أطلق اسمه على العديد من الدورات العسكرية والقواعد المركزية الجبهوية، فقد كان مقداماً وراغباً بالشهادة وطالباً لها .

في تاريخ 1967/1/21 ارتقى إلى العلا شهيداً في معركة مستوطنة ديشوم قرب مدينة صفد داخل أراضينا المحتلة عام 1948. وقد استشهد صائماً، إذ أن العملية تزامنت مع شهر رمضان المبارك.

وكان العهد والوعد لشهيدنا الأول على متابعة ومواصلة الكفاح والنضال حتى تحرير الأرض والإنسان.

تفاصيل العملية

وصلت المجموعة التي كان يقودها الشهيد أبو الأمين إلى مكان العملية داخل مدينة صفد في فلسطين في (مستعمرة ديشوم).. موقع العملية جبال الجليل شمال صفد. وبعد أن صلى ركعتين شكراً لله، باشر هو وأفراد المجموعة تنفيذ العملية فأنجزوا الأهداف المحددة وهي:

1. نسف و تدمير خزان ومحطة مياه مستعمرة ديشوم.
2. نسف وتدمير محطة الكهرباء التي تغذي المنطقة.
3. زرعُ ألغام ضد الأفراد في ملعب المستعمرة بحيث تؤدي إلى وقوع خسائر مادية وبشرية كبيرة في صفوف العدو حين يهرع إلى مكان العملية.

كانت المجموعة الفدائية مؤلفة من الشهيد القائد فضيل طاهر أبو كايد, الرفيق القائد أبو علي الدعبول، والرفيق عادل قدورة، والرفيق الشهيد القائد أبو عرب سلامة، والشهيد خالد الأمين (أبو الأمين) والشهيد زهير الهندي أبو الزوز.

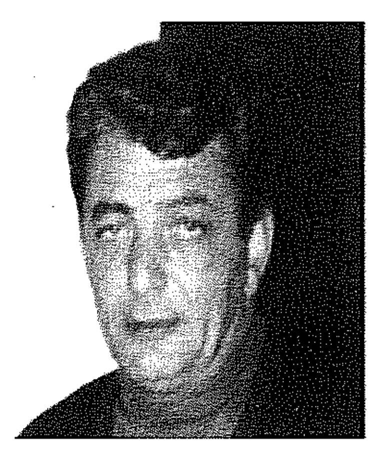
وفي طريق العودة وبعد إنجاز المهمة بقي مع الشهيد خالد الأمين لغم مضاد للأفراد، ونتيجة لسبب فني ما انفجر اللغم به.

أصيب الرفيق أبو الأمين خالد بجراح بالغة مع تنفيذ المرحلة الثالثة من أهداف العملية، فسارع رفاقه إلى إسعافه لكنه رفض لأنه قد يعيق انسحابهم، وطلب منهم وضعه باتجاه القبلة. وقد استشهد متأثراً بجراحه فكان نموذجاً للفدائي بكل مناقبية الأخلاق في حياته، ونموذجاً للفدائي الاستشهادي في شهادته وبطولته.

عهداً للرفاق الشهداء أن نبقى مستمرين في مسيرة الكفاح المسلح حتى تحرير الأرض والإنسان.

الشهيد القائد سمير شفيق درويش عضو اللجنة المركزية

أول أسير من الجبهة في سجون الاحتلال



الشهيد سمير درويش من مدينة عكا الفلسطينية، المدينة التاريخية وثغر فلسطين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، المدينة المكللة بأمجاد البطولة والتضحية وعبق التاريخ.

ولد الشهيد في قرية (البروة) عام 1940 لأسرة فلسطينية معروفة بالوسط العكاوي بحب العلم والمعرفة، ولا عجب من ذلك لأن والده شفيق درويش الذي كان مديراً للمدرسة الإصلاحية (الأحداث).

في هذا الوسط المشبع بروح العلم والمعرفة وحب الوطن تربى على حب الحرية والدفاع عن الوطن. وقد رثاه قريبه الشاعر محمود درويش بعد استشهاده بقصيدة مؤثرة.

وفي النكبة 1948 حين نزح معظم الشعب الفلسطيني عن بيوته ومدنه تحت وطأة المجازر الصهيونية، لم تغادر أسرته أرضها ومدينتها بل بقيت منزرعة فيها .

أنهى الشهيد سمير تعليمه الابتدائي والثانوي والجامعي في مدينة عكا، وأتقن إلى جانب لغته العربية اللغات (العبرية، الإنكليزية، والفرنسية).

خضع الرفيق الشهيد سمير درويش لدورة تمهيدية ثم لدورة عسكرية سرية وأصبح لاحقاً مسؤول تدريس اللغة العبرية في اللجنة العسكرية السرية.

الانتماء للجبهة عام 1960 حيث خرج من فلسطين إلى الأردن ومنها إلى سورية وبالتحديد إلى دمشق، وانخرط في صفوف (جبهة التحرير الفلسطينية) كما كانت تسمى آنذاك وقبل أن تسمى لاحقاً (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين — القيادة العامة).

كان الشهيد سمير درويش محبوباً من كل مَن عرفه من الرفاق لما امتاز به من سلوك حسن ودماثة أخلاق. ولكونه يجيد العبرية أصبح- كما سبقت الإشارة- مسؤولاً لجناح اللغة العبرية الذي كان له شرف تأسيسه، وأصبح عضواً في لجنة التدريب العسكري.

انطلاقاً من العقيدة العسكرية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة التي تنص على ضرب عمق العدو الصهيوني وليس الضرب على القشرة (على الحدود)، قررت الجبهة في أيار عام 1967 القيام بعملية عسكرية كبيرة داخل الأرض المحتلة سنة 1948 وهي نسف سينما رويال في مدينة حيفا في ذكرى النكبة وفي موقع الاحتفال الذي يقيمه العدو بما يسمى تأسيس الدولة، أو أن تتم العملية في المدينة الرياضية وذلك حسب ما تفرضه الضرورة.

اختارت الجبهة الرفيق الشهيد سمير درويش لتنفيذ العملية لأنه يجيد اللغة العبرية ويستطيع التحرك في الداخل ويعرف مسالك فلسطين ويستطيع التحرك بها بشكل طبيعي إضافة إلى أن أهله يقيمون في مدينة عكا.

توجه الشهيد سمير درويش إلى فلسطين عبر الجولان برفقة الرفيقين أبو علي الدعبول وأبو عرب سلامة. وكانت مهمة الرفيقين تأمين دخوله إلى الوطن المحتل من منطقة الحولة.

اجتاز سمير سهل الحولة وبعد ذلك انقطعت أخباره. ثم علمت الجبهة بأمر اعتقاله قبل أن يصل إلى (سينما رويال) وضبطت قوات الاحتلال في حوزته المتفجرات وحكم عليه بالسجن المؤبد.

في تاريخ 1979/3/14 تم تحريره من المعتقل في عملية (النورس) التي قامت بها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) والتي تعتبر أول عملية تبادل في الثورة الفلسطينية يتم من خلالها تحرير الأسرى المحكوم عليهم بأحكام عالية في سجون العدو الصهيوني، وبلغ عددهم 76 أسيراً وأسيرة من مختلف الفصائل الفلسطينية.

بعد تحريره عاد للعمل في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) وتولى مسؤولية رئيس تحرير مجلة (الفور وورد) مجلة (إلى الأمام) باللغة الإنكليزية.

تاريخ الاستشهاد 1982/6/11.. عندما بدأ الاجتياح الصهيوني للبنان. كانت بداية الاجتياح قصف المدينة الرياضية في بيروت. وقد سارع الشهيد سمير إلى المدينة الرياضية لإنقاذ الجرحى وإطفاء الحرائق المشتعلة في المدينة، وعندها وقعت الغارة

الثانية فأصيب الرفيق سمير بإصابات بالغة. وفي يوم (1982/6/11) انضم إلى قافلة شهداء الحرية والتحرير.

عهداً للشهيد البطل القائد أن نستمر بالثورة حتى تحرير فلسطين من بحرها إلى نهرها.

العودة إلى سورية وانطلاقة جديدة

أعدنا الحياة إلى نشاطنا العسكري في سورية في معسكري عين السخنة وعين الصاحب، كما أعادت حركة فتح تنظيم نفسها في سورية، وكان مقرها المسمى بـ (23) جانب السبع بحرات.

إمكانياتنا المادية كانت محدودة للغاية، فالعراق قطع عنا المساعدات، ولم يعد بيننا أي اتصال، وتجمدت علاقاتنا مع العقيد معمر القذافي بعد مؤتمر القاهرة، ولم يكن لدينا إلا التبرعات.

تحمس طلال ناجي وفضل شرور وعمر الشهابي والتقوا مع محمود عباس، وكان أبو ماهر غنيم مسؤول البعثة، وطلبوا مساعدة مالية، فقال لهم: اذهبوا إلى "أبو عمار" وإذا وافق على مساعدتكم نحن نوافق.

في اجتماع القيادة طرحوا علي الفكرة. عارضت رغم ظروفنا الصعبة. قلت لهم: لا أعتقد أن "أبو عمار" سيقدم لنا أي مساعدة.

في نهاية المطاف وافقت لكن بشرط أن يكون المبلغ قرضاً، ونوقع على ذلك، وعندما تتوفر الإمكانات نعيد لهم المبلغ.

التقينا مع "أبو عمار" في مقر (23) وطلبنا 20 ألف دينار وفق اتفاق مع قيادة الجبهة، فرفض وقال إنهم لا يملكون هذا المبلغ. وللأسف استغلوا وضعنا المادي واتصلوا مع نهاد عرفة الذي جمدناه من الجبهة هو ومجموعة، ودعموهم مالياً وبالسلاح. واتفق معهم خليل الوزير أن يتوجهوا إلى لبنان- منطقة العرقوب. ومن هناك أعلنوا عن انشقاق في الجبهة الشعبية- القيادة العامة- وبدأت حركة فتح تروج أن هناك انشقاقاً داخل الجبهة.

توجهنا إلى القواعد في العرقوب وسيطرنا عليها كافة وجردناهم من سلاحهم وعتادهم وطردناهم إلى منازلهم.

بدأنا نبني حياتنا التنظيمية في سورية ولبنان. ورغم ظروفنا الصعبة، عقدنا مؤتمراً لنا بعد عام 1971 في دمشق، وتم تصعيد قيادات شابة للمكتب السياسي (أبو العباس وطلعت يعقوب)، وقد كانا "متكتلين" سراً. واستطاع هذا التكتل أن يسقط في المؤتمر بعض القيادات التاريخية مثل فضل شرورو وعمر الشهابي. أنا حزنت جداً لهذا السلوك واستناداً إلى مبادئ ونظام الجبهة في رفض التكتلات التنظيمية أعدنا الانتخابات والاعتبار لكل الشخصيات.

تصعيد العمل المسلّح ما بعد أيلول

التواجد الفلسطيني في لبنان

نتائج مجازر أيلول سنة 1970 ومغادرة الأردن انعكست على كل المنظمات الفلسطينية. لكن هذه التطورات دفعتنا إلى إرادة أكبر، وكنت أقول: إن قتالنا مع العدو "الإسرائيلي" هو من يثبت أن فلسطين لا تزال حاضرة.

قبل عام 1967 كانت المخيمات الفلسطينية في لبنان معسكرات للاعتقال ليست للعيش وتحاط بالأسلاك الشائكة، ولا يستطيع الشقيق أن يزور شقيقه في المخيم الآخر إلا بإذن من السلطات.

كان أهلنا يشعرون بحالة من القهر والجوع، وكان الفلسطيني ينتظر الإنقاذ. وعندما دخلنا إلى لبنان عام 1968، تنفس الفلسطينيون الصعداء وانضمّوا للمقاومة بالمئات.. والمشهد السياسي كان قلقاً حتى عام 1980.

شُكّلت عشرات الوزارات وكان صائب سلام يجري تغييرات كثيرة- وكان جميعهم من السنّة- وهؤلاء الزعماء أحياناً يتفقون مع الزعماء من المارونية السياسية، وأحياناً أخرى مع زعماء من الطائفة الدرزية. واعتبرت بعض القوى أنه من الممكن أن تستفيد منا في عملية الإنقاذ. وذهب ياسر عرفات إلى إثبات وجوده من خلال تحالفات قوية مع لبنانيين. وهذه كانت نقطة خلاف بيننا، فقد كان يمكن أن نحمي ظهورنا بتدعيم الأحزاب، وقلت له: دعنا نلتفت إلى وضعنا في الجنوب.

نحن كتنظيم لا نرغب في هذه التكتلات وكنا الوحيدين في طرحنا، لكن كنا القوة الثانية على الأرض بعد حركة فتح، أما باقي المنظمات ففعلها سياسي، أو لها نشاط سياسي وقوات عسكرية محدودة. وقد عززنا وجهة نظرنا بالأفعال وذلك بالبقاء في الجنوب اللبناني والتأكيد بأن فلسطين هدفنا وحسب. وبهذا نقول لقوى المسيحية- المارونية أن لا أهداف لنا عندكم، وبنفس الوقت نعزز العلاقة مع الحركة الوطنية أو الوطنيين الذين يقودهم كمال جنبلاط.

أصبح ياسر عرفات يتصدر الاجتماعات ويمول بشكل علني هذه الأحزاب، ويعطي كل حزب حصته الشهرية من المال والسلاح، إلى درجة أن الحزب الواحد كان ينقسم إلى قسمين.

كمال جنبلاط كانت له علاقة وطيدة مع الروس، وكانوا يرسلون له أسلحة عن طريق "أبو عمار" فيستبدلها أبو عمار بأسلحة قديمة ويرسلها له. وقد أحزنه هذا الأمر. ورغم أن كمال جنبلاط والأخوة الدروز كانوا معنا سياسياً لكن كان ممنوعاً علينا تواجد أي قاعدة عسكرية فلسطينية في منطقة الشوف وإقليم الخروب. وأذكر جيداً أنني أنشأت معسكراً في منطقة "شحيم" في إقليم الخروب، فاحتج كمال جنبلاط على هذا الموضوع.

وفي قرية "كيفون" أقمنا دار نقاهة، وفيها أطباء وممرضات وممرضون. وكان لدينا الكثير من الجرحى. ولم يَرُق ذلك لكمال جنبلاط وتوسط عند "أبو عمار" كي يخرجنا من دار النقاهة.

نحن كنا نشعر أن الانخراط في الشأن اللبناني الداخلي خطأ فادح. وأصبح "أبو عمار" زعيم للبنان وصادر دور كمال جنبلاط الذي تضرر من هذا السلوك.

عملياتنا أرعبت "الإسرائيليين" لأن أسلوبنا جديد في العمل الفدائي، وكذلك أزعجت الولايات المتحدة الأمريكية خوفاً من أن يتسلم اليسار اللبناني لبنان، وإذا سيطر اليسار اللبناني فمعنى ذلك الاقتراب من الاتحاد السوفييتي وخاصة من جانب كمال جنبلاط.

انتقالنا إلى لبنان جاء في مرحلة حساسة وهامة من تاريخنا وخاصة لنا كجيل ما بعد النكبة.

أنا لا أستطيع أن أفصل القضية الفلسطينية عن واقعنا العربي. هناك من ينادي "بالقرار الفلسطيني المستقل"، ونحن جزء من أمة وتفاعلاتها بأحزابها، دولها، أنظمتها، كيانها، وشعوبها.

عندما رُفع عنا الغطاء المصري والغطاء العراقي في الأردن تأثرنا كثيراً، وحاولت سورية أن تنقذنا. وبعد أن أُخرجنا من الأردن أصبح لبنان هي ساحة الصراع العربي-"الإسرائيلي"، ولبنان تاريخياً كما هو معروف على صفيح ساخن.

منذ دخولنا إلى لبنان لم يكن لنا إلا مقر إعلامي وهو مجلة (إلى الأمام) مجلة أسبوعية. اشترينا الامتياز من الحزب الشيوعي اللبناني في عام 1969-1970. وكان مقرها كورنيش المزرعة، فوق مبنى منظمة التحرير، وكلفنا الرفيق فضل شرورو أن يشرف عليها. وكنا موجودين في الأردن عندما أصدرناها، وكنت أنشر فيها وأنتقد العمليات التي يذهب ضحيتها 50-60 شهيداً.

نفذنا عمليات كبيرة انطلاقاً من الجولان ومن جنوب لبنان، ورداً على عملياتنا قصف العدو "الإسرائيلي" معسكراً لنا بمنطقة السخنة.

كان ممنوعاً علينا وفق اتفاق القاهرة أن نتجاوز نهر الحاصباني تجاه الغرب- مرجعيون- النبطية. ورغم المنع تسللنا أنا ومجموعة من المقاتلين إلى بنت جبيل ومارون الراس. وكنت أتذكر طيلة الوقت مجزرة مدرسة بحر البقر التي قتل فيها الصهاينة ثلاثين طفلاً نتيجة قصف الطائرات المعادية لمدرستهم.

كان لدينا قاعدة عسكرية في منطقة (عيناتا) بالقرب من بنت جبيل، والجيش اللبناني قريب منا. وبعد الرصد علمنا أن هناك باصاً ينقل الطلاب "الإسرائيليين" من المستعمرات/ مستعمرة أفيفيم/ إلى المدارس. زرعنا الطرق المؤدية إلى الباص بالألغام (م د- م أ)، وعند وصول الباص أعطينا الإشارة وتم تفجير الباص.

عندما علم أهالي القتلى بانفجار الباص حضروا إلى مكان التفجير، وبدأت الألغام تنفجر بهم.

اتصل بي "أبوعمار" وقال: لا تصدروا بياناً. قولوا إن المستهدفين خبراء عسكريون، ولم أتجاوب معه. وجاء في بياننا أن العملية رد على مجزرة مدرسة بحر البقر في مصر وقد أخذنا بثأر شقيقتنا.

أردنا أن نرسل رسالة إلى "الإسرائيليين" أن أبناءكم ليسوا أغلى من أبنائنا.

وقالت جولدا مائير عن العملية: "إن أحمد جبريل والجبهة الشعبية- القيادة العامة- قتلوا هؤلاء بأعصاب باردة".

بعد هذه العملية نفذ "الإسرائيليون" عدواناً على بنت جبيل.

أما عن وضعنا في العراق، فقد كان لدينا مكتب واحد فقط. وبعد أحداث أيلول طلبت من مدير المكتب أن يغادر. وبعد عام 1971 حضر إلي السفير العراقي وقال

لي: "الأخوة ينتظرونك في بغداد"، فقلت له: لن أذهب.. وأنا أعتبر صدام حسين متواطئاً علينا في أيلول السبعين.

استقر الوضع في سورية وأصبح أحمد الخطيب رئيساً للجمهورية العربية السورية، ومن بعده الرئيس حافظ الأسد.

حرب تشرين 1973 وانعكاساتها على قضية فلسطين

بدأت التحضيرات لحرب تشرين التحريرية في رمضان 1973. ومن خلال أصدقائي في الجيش العربي السوري ومنهم علي حيدر- مفتخر الشرع- علي مدني- إبراهيم العمر- سليمان حداد/ اطلعت على بعض ترتيبات الحرب وكيف تتم عملية رصد جبل الشيخ، وترتيبات الجيش.

شعرت بقرب الحرب وقلت لأصدقائي: صحيح أن الجولان الذي احتله "الإسرائيليون" عمقه 30 كيلومتراً وبخط مواجهة امتداده 70 كيلومتراً بين اليرموك وجبل الشيخ، لكن لن تكون الحرب عملية سهلة، عندما تتقدم الفرقة يومياً تتقدم 7 كم. أنتم تقولون بأنكم ستبقون ثلاثة أيام على شاطئ نهر الأردن وبحيرة طبريا، و"الإسرائيلي" يعتبر عودة الجيش السوري إلى بحيرة طبريا ونهر الأردن أمر خطير، والسادات لا يمكن الثقة به.

قلت لهم : أنتم والمصريون شركاء، هم يدخلون من الجنوب وأنتم من الشمال.

سألتهم: كم فرقة لديكم، قالوا : "حوالي 15 فرقة غير الألوية المتفرقة" ورأيي كان أن هذا لا يكفي، فقالوا إنهم متفقون مع المصريين.

أخذت الخرائط كلها المتعلقة بالمنطقة بما فيها قناة السويس وسيناء والضفة الغربية والجولان.

سافرت إلى ليبيا بعد أن تمت المصالحة بيننا أواخر 1972 وأوائل 1973، والتقيت مع العقيد معمر القذافي وكان معه أبو بكر يونس وعبد السلام جلود. سهرنا ليلاً وفردت الخرائط وقلت له: هذه حرب خطيرة جداً وهي حرب تحريك، ويمكن أن ينتج عنها قضايا سياسية خطيرة، وما لم يستطع العدو "الإسرائيلي" تحقيقه في الحرب والسلم عام 1967 الآن سيحصل عليه.

قالوا لي: كيف؟ "الإسرائيليون" على قناة السويس، وقناة السويس وصحراء النقب حتى حدود فلسطين بامتداد 270 كم وهناك ممرات إجبارية.. هل سيكون السادات صادقاً فيدخل إلى الممرات ومن ثم يدخل باتجاه النقب؟

كان رأيي أنه لن يكون صادقاً، والعدو "الإسرائيلي" سيضع كل ثقله ضد الجيش السوري.

كنت جازماً أن السادات سيقوم بعملية تحريك الجبهة وسيكون الثقل على سورية وستدفع الثمن غالياً، وجيشها وتشكيلاتها لا تكفي لمواجهة الجيش الإسرائيلي.

طلب مني العقيد القذافي أن أعطيه الخرائط، وسألني ما الاقتراح؟ قلت له: أن تتجه (4- 5) تشكيلات عسكرية من الجيش المصري إلى الجبهة السورية، وأن تدخل القوات المصرية قناة السويس من الجهة المصرية وتحطم خط بارليف، والجيش السوري يدخل إلى بحيرة طبريا ونهر الأردن.

في اليوم الثاني، سافر معمر القذافي واجتمع مع أنور السادات، ومن ثم عاد إلى ليبيا وكنت في انتظاره، وقال: جمعني الرئيس السادات مع القيادة العسكرية وأخبرتهم وجهة نظرنا بتعزيز الجبهة السورية بتشكيلات عسكرية مصرية، ورفضت القيادة العسكرية المصرية كل الفكرة وقالت إن الجيش المصري سيدخل ويأخذ كل الممرات.

عندما بدأت الحرب اجتاز الجيش المصري قناة السويس (خط بارليف) وتقدم باتجاه الممرات واتجه شرق قناة السويس بخمسة عشر كيلومتراً في أرض صحراوية وتمركز فيها، وكانت مفتوحة على كل الجهات بالنسبة للعدو، وهذا خطأ عسكري.

الجيش السوري تقدم على ثلاثة محاور: المحور الشمالي من جبل الشيخ إلى القنيطرة، والمحور الأوسط من القنيطرة إلى منطقة اسمها "كودنه"، والمحور الثالث في الجنوب باتجاه "العال" حتى بحيرة طبريا. وقاتلت مع الجيش السوري كتيبة عربية مغربية.

في المحور الشمالي تعثر الجيش السوري واستهدف أول لواء والثاني، وأول فرقة والثانية والثالثة.

كان "الإسرائيليون" محصنين بشكل جيد بالإضافة إلى صواريخ فرنسية ss12، واستبسل الجيش السوري في القتال. في البداية أسقطت للإسرائيليين طائرات، لكن

حجم الثقل العسكري "الإسرائيلي" وسلاح الطيران "الإسرائيلي" كان أكبر. وتدخلت أمريكا وزودت العدو بمنظومة تشويش على صواريخ الأرض- جو، وأصبح الجيش السوري دون غطاء جوي، وانسحب من جميع المحاور. وفي الجولان تراجع إلى القرب من سعسع، هنا تدخلت قوات سورية وعراقية وأرسل الملك حسين اللواء أربعين وقال الملك وقتها: "اللواء أربعين أتى لنجدتكم".. ووصل اللواء إلى حوران- إلى منطقة "الحارة".

انتهت الحرب وحدث وقف إطلاق نار على الجبهتين السورية والمصرية. لأول مرة يأخذ العرب قراراً ومبادرة على عكس الحروب الماضية. وكنا فرحين بدخول الجيش العراقي رغم الخلاف مع سورية واعتبرنا ما حصل خطوة جيدة.

لم تكن هذه الحرب مفاجئة للإسرائيليين لأن الملك حسين كان قد زار تل أبيب وأخبرهم بتوقيتها. وكان الرئيس حافظ الأسد قد شرع ببناء علاقة مع الملك حسين وقال: "إذا دخلنا معركة في الجولان لن يسمح الأردن للإسرائيليين بالالتفاف علينا". لكن أنور السادات لم يخف تفاصيل خطة الحرب عن أمريكا فكانت النتائج وخيمة على الوطن العربي.

قدم "أبو عمار" نفسه على أنه شريك بهذه الحرب، فقد أرسل له الرئيس المصري أنور السادات وقال له: "نحن على وشك حرب قادمة"، وقد أخفى عنا هذا الموضوع، وأطلقت حركة فتح عدة صواريخ من جنوبي لبنان لتثبت أنها شريكة في هذه الحرب.

جبهة الرفض الفلسطينية 1974

بعد حرب تشرين التقينا بالرئيس حافظ الأسد وشعرنا أن السادات خان سورية. وقال الرئيس الأسد: "سنخوض حرب استنزاف". وفي الحقيقة حدث وقف إطلاق النار وأبدى الأسد تخوفه من التقارب العراقي- المصري. ومصر كانت قد عقدت اتفاقية سيناء الثانية في 1975 وبداية 1976، والعراق اتفق مع شاه إيران وبدل أن يحشد قواته على حدود فلسطين بدأت الاستفزازات ضد سورية. وكان الأسد تواقاً لعلاقة سليمة مع العراق.

قيادة حركة فتح "أبو عمار" والصاعقة بقيادة زهير محسن والجبهة الديمقراطية بأمينها العام نايف حواتمة قالوا بعد حرب تشرين: لقد اختل توازن "الشرق الأوسط" وهزم "الإسرائيليون" وسينسحبون من الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء والجولان. وأكدوا أنهم متأكدون من هذا الطرح، فقلنا لهم: أنتم تتخيلون.. لجنة "أغراناد" يريد منها "الإسرائيلي" أن يحاسب من قصر في هذه الحرب. فأجابوني بالقول إنه ما من شك أن الإسرائيليين سينسحبون وإن ما يشغل بال الأمريكان فقط هو مستقبل الأراضي التي سينسحب منها "الإسرائيليون" ولمن ستؤول.. للملك حسين أم لنا أم تكون دولية.

طبعاً منذ ذلك الوقت كان لقيادة فتح اتصالات مع أمريكا عبر سفارتها في بيروت وتناقشنا بشكل حاد ولأيام طويلة، وفي النهاية وصلنا لبرنامج النقاط العشر... أنت تفسره بطريقتك وهو يفسره بطريقته الأخرى. نحن قلنا نقيم سلطة وطنية على أي أرض ينسحب منها الإسرائيلي وبدون أي مصالحة ونعتبرها قاعدة انطلاق لتحرير فلسطين. لكن هناك بعض الكلمات استغلها "أبو عمار" في برنامجه مع الأمريكان. أذكر جيداً أنه في الاجتماعات التي كنا نعقدها مع "أبو عمار" كان يقف نايف حواتمة وياسر عبد ربه ويقولان إن الإسرائيليين قرروا الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة، والسؤال المتبقي لدى الإسرائيليين هو "لمن هذه الأرض؟ هل نعطيها للملك حسين أو تكون تحت إشراف الأمم المتحدة، أو نحن كفلسطينيين نتولى الإشراف عليها؟".

كنت أقول لهم هذه أحلام يقظة، والإسرائيلي لن ينسحب من الأراضي التي احتلها عام 1967.

وتوجهنا لعقد مجلس وطني فلسطيني في القاهرة في العام 1974- والكتلتان موجودتان- وكان عدد أعضاء المجلس 125 عضواً. وحضر عن الجبهة العربية المدعومة من العراق المؤرخ الكبير الدكتور عبد الوهاب الكيالي- رحمه الله. وكان هناك مكان للمشاهدين وقاعة الصحافة ممتلئة أيضاً.

وقف يومها خالد الفاهوم رئيس المجلس الوطني ودعا أعضاء المجلس الوطني إلى قاعة جانبية، وأخبرنا أن الرئيس أنور السادات سيحضر ليفتتح المؤتمر، وسيسلم

علينا فرداً فرداً. بقيت داخل قاعة المجلس مع شخص من بيت الصايغ كانت يده مكسورة، ولم نخرج للسلام على أنور السادات. وجاءنا مسؤول مخابرات مصري وقال لي: "يا أبو جهاد لماذا لم تذهب للسلام؟! يجب أن ترى الصحفيين فكل الكاميرات موجهة إليك"، فأجبته: "لا أريد"، ولم يستطع إقناعي.

ذهبت للمقاعد الخلفية بينما مكاني محدداً في المقاعد الأمامية. وحضر السادات بعد تأخره قليلاً وسلّم على من كانوا في المقاعد الأمامية في القاعة وسأل عني، وكنت أعرفه من أيام عبد الناصر وسامي شرف، فقالوا له: أحمد لا يريد أن يظهر في الصور ولهذا ذهب للأعلى، واتصلوا بي بعدها وأخبروني أن الرئيس أنور السادات يدعونا لحضور احتفال للجيش الثالث المصري في السويس. وكان بين المدعوين أبو عمار- صلاح خلف- خليل الوزير- جورج حبش- نايف حواتمة وزهير محسن.

كان معي في السيارة نايف حواتمة وزهير محسن، وتوجهنا إلى الاحتفال. وكان الجيش يملأ الطرقات، وقلت ساخراً: إن السادات في مسيرته سيدمر الأمة العربية.

بدأ استعراض الجيش الثالث وكان ضخماً وقلت في نفسي: كيف كان ممكناً لجيش بهذه القوة أن يحاصر؟!

وعندما انتهى الاحتفال أرسل السادات في طلبي. هنا شعرت بالحرج فتوجهت إليه، فقال لي: هل ترى يا أحمد هذا هو الجيش الثالث لمصر، فقلت له: يا سيادة الرئيس نعم، وأستغرب كيف أن لدينا جيشاً بهذه القوة والضخامة ونقبل بالشروط الإسرائيلية والأمريكية (لم تنقصنا الشجاعة عندما كان مطلوباً أن نحدد موقفنا).

كان عندي قناعة تامة أن السادات يسير ضمن برنامج محدد وحربه كانت تحريكاً. ومن العلامات المشبوهة أن فك للحصار عن الجيش الثالث المصري كان مقابل رسالة أرسلها للسعودية والخليج طلب منهم فيها إعادة ضخ النفط.

شكلنا لجنة تنفيذية جديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأصبح رفيقنا "أبو جهاد" طلال ناجي عضواً.

بعد عودتنا من المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقدناه في القاهرة، شن الإسرائيليون غارات على قواعدنا وقواعد فتح وبعض المخيمات. والتقينا مع الرئيس حافظ الأسد فأعطى أوامره بإرسال طواقم من الجيش السوري وعلى وجه السرعة

لحماية المخيمات، مزودة بوسائل دفاع جوي من رشاشات وصواريخ ستريللا ومدافع (37). لا يمكن لي أن أنسى وأنا أشاهد بأم عيني المعركة الجوية بين طائرات سورية وإسرائيلية.. كانت الطائرات المعادية تريد الانقضاض علينا في منطقة صور فتواجهها الطائرات السورية. يومها سقطت طائرة سورية وهبط الطيار بالمظلة وأحضرناه وقد اعتقدنا في البداية أنه إسرائيلي.

في تلك الأجواء حاول الرئيس حافظ الأسد أن يبني علاقات قوية مع المقاومة الفلسطينية عله يستطيع إبعاد أبو عمار وحركة فتح عن خط أنور السادات. وكانت معركة حافظ الأسد السرية هي ألا يدخل في تصادم مباشر مع السادات. ولم تدخل سورية بتصادم سياسي وإعلامي معه حتى قبيل زيارة السادات للقدس وتوقيعه اتفاقية كامب ديفيد.

في بيروت عام 1974 أنشأنا جبهة الرفض الفلسطيني نحن والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- الجبهة العربية- وجبهة النضال الشعبي، وكانت رداً على قرارات دورة المجلس الوطني الفلسطيني الثانية عشرة التي أقرت بإقامة الدولة الفلسطينية على أي جزء من فلسطين، وذلك كجزء من برنامج النقاط العشر.

لم تلقَ جبهة الرفض قبولاً سورياً. أذكر جيداً أن عبد الحليم خدام وفاروق الشرع تصارحا معنا وقالا إننا نصعّد ونستعجل المعركة وإن إسرائيل يمكن أن تشنّ هجوماً على لبنان، وإن سوريا مازالت تعمل على تأهيل جيشها بعد حرب تشرين والاستنزاف.

كانت وجهة نظرنا أن الإسرائيلي غير قادر على القيام بعمل عسكري كبير لأنه أيضاً يعيد بناء جيشه وشكل لجنة "إغراناد" للتحقيق في التقصير لذلك سيكتفي بضربات جوية.

كان هدفي من تشكيل جبهة الرفض ألا نستعجل التصادم مع ياسر عرفات، وكانت الجبهة الشعبية قد دفعت لإنشاء منظمة تحرير فلسطينية جديدة في العراق، فقلنا لهم ليس صحيحاً أن ندخل بصراع مع ياسر عرفات.

كنا نسعى في جبهة الرفض كي يدرك ياسر عرفات أن هناك معارضة حقيقية، وأننا لن نتصادم لا مع سورية ولا مع ياسر عرفات وبهذا نشكل قوة مانعة لأي تنازل.

اتصل بنا العراقيون وأبدوا استعدادهم لتمويل جبهة الرفض، وبدؤوا بتمويلها، حتى أن الجبهة الشعبية بدأت تحضر لعقد مجلس وطني فلسطيني في بغداد. وأذكر جيداً أن "أبو ماهر اليماني" تحرك إلى الكويت للتحضير لهذا المؤتمر لكننا كنا ضد هذا الطرح.

انشقت الساحة الفلسطينية بين جبهة الرفض وفي المقابل كانت (فتح- الجبهة الديمقراطية- الصاعقة) وعملنا على توسيع جبهة الرفض وكنت أتحدث في الاجتماعات عما نريده من جبهة الرفض ولماذا شُكلت وهمنا أن نثبت أن المقاومة الفلسطينية جديرة بالحياة.

تآمروا على جبهة الرفض بعدما شعر العراقيون أننا غير موافقين على قتال السوريين، كيف سنقاتل السوريين؟ لقد أرسلت لنا سورية في عام 1974 طواقم إلى المخيمات ومعها مدافع مضادة للطائرات وصواريخ إلى تل الزعتر وشاتيلا وبرج البراجنة، كيف سنواجههم وكان سلاح الجو السوري يشتبك مع العدو الإسرائيلي فوق صور؟!

كان هناك خلاف فيما بيننا في جبهة الرفض، والذي زاد من حدة الخلاف العلاقات المتأزمة بين العراق وسورية. وكنت أقف في وجه هذه الطروحات وكنا نهدف من جبهة الرفض أن نرمي طوق نجاة لياسر عرفات لنبعده عن مسار السادات.

وحين تصدعت جبهة الرفض تصدع أيضاً الحلف الذي كان أقامه ياسر عرفات عام 1973 وضم منظمة الصاعقة والجبهة الديمقراطية. لكن "أبو عمار" لم يقطع علاقاته مع السادات بل كان قد طورها، ودليل ذلك لقاؤه مع السادات بحضور اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير في الإسكندرية- وكان رفيقنا طلال ناجي عضو اللجنة التنفيذية حاضراً- وقال السادات في الاجتماع وبالحرف الواحد: "يا إخوان إذا سرتم معي في برنامجي سأحصل لكم على دولة فلسطينية في غزة والضفة الغربية". وكان هذا "يدغدغ" ياسر عرفات.

في هذه المرحلة بدأت تظهر تصدعات داخل الفصائل الفلسطينية حيث انشقت عن الجبهة الشعبية ما أسميت "الجبهة الشعبية الثورية".

أيضاً في حركة فتح برز تيار معارض لسياسات ياسر عرفات على مستوى اللجنة المركزية، أحياناً يتزعمه صلاح خلف، وأحياناً أخرى نمر صالح وماجد أبو شرار.

صلاح خلف كان يصطدم مع ياسر عرفات، وكثيراً ما قام وفد من جبهتنا برئاسة الدكتور طلال ناجي وفضل شرورو بتهدئة الخلافات بينهما. وفي القطاع العسكري لحركة فتح كان هناك تشكيل معارض لـ "أبو عمار" فيما كان يحاول أن يمرر اتفاقية "فاس الأولى" للاعتراف بإسرائيل والتي طرح أفكارها الأمير فهد. حينها ولم يستطع أن يمرّرها لا في المجلس الثوري ولا في اللجنة المركزية.. وأذكر جيداً أن السفير العراقي في لبنان اتصل بي ودعاني إلى العشاء عنده في الحازمية فسألت عن المدعوين، وكانوا جورج حبش- عبد الرحيم أحمد أمين عام الجبهة العربية- سمير غوشة أمين عام جبهة النضال وجميعهم من جبهة الرفض. وكان من ضمن المدعوين وفد قيادي عراقي منهم طه ياسين رمضان.

توجهت إلى الحازمية، وفي هذا الاجتماع طرح الإخوة العراقيون أن السادات وحافظ الأسد يسيران باتجاه تسوية مع الأمريكان والإسرائيليين، والمفروض أن يكون هناك موقف واضح وصريح تجاه هذا الأمر.

أنا طرحت سؤالاً وطلبت إجابة واضحة وصريحة: هل يوجد وجه تطابق بين الرئيس حافظ الأسد والسادات بشأن التسوية السياسية؟

وقلت لهم: "معلوماتنا أنه توجد أزمة كبيرة بين حافظ الأسد والسادات بعكس ما تطرحون. عليكم ألا تضعوا السادات وحافظ الأسد في كفة واحدة".. وناقشنا هذا الموضوع مطولاً.

قال طه ياسين: "نحن قررنا سحب الجيش العراقي الذي أرسلناه في حرب تشرين من سورية". فقلت: أعرف. لأنني التقيت الرئيس حافظ الأسد بعد حرب تشرين وتحدثت معه حول المبادرة العراقية بإرسال الجيش وأنه يجب استثمارها وأن تتم مصالحة سورية- عراقية، فأبدى الرئيس حافظ الأسد استعداده، وقلت له أنا جاهز للذهاب إلى الأخوة في العراق وأن ألتقي بهم.

في لقائي الأول بالقيادة العراقية ومع الرئيس أحمد حسن البكر وبعد 3 سنوات قطيعة بعد حرب أيلول، كان الاجتماع عاصفاً كبيراً وعلى رأس جدول الأعمال حرب

أيلول السبعين والموقف العراقي بشأن الانسحاب وعدم دعم المقاومة. وتناولنا في حديثنا بوادر سحب الجيش العراقي من سورية وأن هذه فرصة لبقاء الجيش العراقي في سورية، فلماذا لا يتم إنهاء الخلاف البعثي وأن تجدوا حلاً لهذا الموضوع، خاصة وأن الرئيس حافظ الأسد يرحب ببقاء هذا الجيش؟

قالوا لي: "إن الرئيس حافظ الأسد يسير باتجاه التسوية السياسية ونحن لا نريد أن ندمغ بأننا شركاء في التسوية السياسية المذلة مع أمريكا وإسرائيل"، ولكنني لاحظت أن الرئيس أحمد حسن البكر يتحدث معي وهو "مغلوب" على أمره فصدام حسين هو الذي يدير دفة القيادة.

في المطار وأثناء عودتي التقيت بأحد أعضاء القيادة القطرية العراقية. قال لي إنهم اتخذوا قراراً بقطع النفط عن بانياس وطرابلس وإن أنابيب النفط ستمر من الأراضي التركية، فقلت له: "الأمر سيكون مكلفاً، وتركيا جزء من الحلف الأطلسي"، فقال لي إن القرار اتخذ. وعدت من رحلتي خالي الوفاض وقابلت الرئيس حافظ الأسد، وقلت له إنني لم أوفّق، فقال لي: "قلت لك إن هذا سيحدث. وها هم قد قطعوا ضخّ النفط". فأجبته بأنهم أخبروني بذلك وأنا في المطار. قال لي الرئيس حافظ الأسد: "سيرهنون نفطهم عبر تركيا والحلف الأطلسي وباتجاه السعودية وأمريكا لأن صدام يسعى للتقرب من أمريكا".

بعد دخول الجيش السوري إلى لبنان عام 1976 بدأت الخلافات تشتد. ولعبت القيادة العراقية في التحريض على الرئيس وقالوا "الأسد أتى ليكسر رقابنا في لبنان لصالح الجبهة الانعزالية اللبنانية". وبدأت "المناوشات" بين الجيش السوري في البقاع من جهة وبين فتح والجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية بطلب من العراقيين من جهة أخرى. وهنا بالتحديد انتهت جبهة الرفض لأن البرنامج السياسي في المنطقة يتعارض مع توجهاتنا.

عملية الخالصة وأم العقارب الاستشهاديتين 1974

أول عملية استشهادية في تاريخ الثورة الفلسطينية المعاصرة نفذتها الجبهة الشعبية- القيادة العامة كانت في منطقة الخالصة في نيسان 1974. في مقر لنا في

منطقة العرقوب- جنوب لبنان، اجتمعت مع رفاقي وقلت لهم: أمامنا بوابة وحيدة فقط. نحن بحاجة إلى رفاق طبيعة مهماتهم تفرض أنهم قد لا يعودوا من عملياتهم العسكرية، أي أنهم (استشهاديون) وسنشكل "وحدة انتحاريين".

تفاجأت بالعشرات من الشباب الذين أرادوا أن ينضموا لهذه الوحدة، دربناهم وأصبحوا جاهزين للعمليات الاستشهادية. وبالفعل نُفّذت أول عملية في أكبر مدينة موجودة في منطقة الجليل الأعلى هي "كريات شمونة" المستوطنة التي بنيت على أنقاض قرية صغيرة اسمها "الخالصة" وهي بعيدة أربعة كيلومترات عن الحدود اللبنانية.

كانوا ثلاثة مقاتلين شباب: شاكر موزاني عراقي الجنسية- أحمد شاكر سوري الجنسية- منير المغربي فلسطيني الجنسية. وقد جهّزناهم ببنادق وأحزمة ناسفة. ووفق التخطيط للعملية كان من المفروض أن يصلوا قبل الفجر ويدخلوا المستعمرة لتنشبّ المعركة هناك.

دخلوا المستوطنة وقتلوا وجرحوا الكثيرين.. كانت ضربةً قويةً للإسرائيليين.

بعد عملية الخالصة بمدة هاتفني القيادي الفلسطيني صديقي شفيق الحوت، وكان مسؤولاً لمكتب منظمة التحرير في بيروت، وقال: "أبو جهاد" حضر وفد جامعي ياباني وهو بطريقه. وأتمنى عليك أن تقابله".. قلت له: "أنت تعرف أنني لا أجري مقابلات صحفية". لكن بعد إلحاحه وافقت. ويومها لم يكن أحد يعرف صورتي ولم أكن قابلت صحيفة منذ العام 1965 وحتى ذلك الحين. كنت على قناعة أننا يجب أن نبقى جنوداً مجهولين.

التقيت بالوفد الجامعي الياباني في مكتب منظمة التحرير بكورنيش المزرعة، فسألوني عن عملية الخالصة الاستشهادية. قالوا "نحن نعتقد في عقيدتنا أن الأشخاص لا يموتون وهناك من يتقمص أرواحهم، ولهذا نفّذ الجنود اليابانيون عمليات "كميكاز" لأننا مؤمنون بتقمّص الأرواح. أنتم كمسلمون كيف تنفّذون عمليات "انتحارية"؟ هل أولئك الشباب أيتام؟".. فأجبتهم بالنفي وأن عائلاتهم موجودة وليسوا بيائسين من الحياة، فاستغرب الأكاديميون اليابانيون طرحي.

لم تمر عشرة أيام على عملية الخالصة حتى نفّذنا عملية "أم العقارب" في "كيبوتز كفار شامير" وكانت ثقيلة الوقع على الصهاينة وقتل فيها وأصيب عدد كبير من الإسرائيليين.

أيضاً نفّذنا عملية ثالثة في مستعمرة "كفار جلعاد" في الجليل. والجبهة الديمقراطية نفّذت عمليتين مهمتين جداً: عملية معالوت ترشيحا وعملية بيسان.

كنا في عام 1974 نعبر من العرقوب إلى الجولان وصولاً إلى سهل الحولة، وعملياتنا في جبهة الرفض شكّلت إحراجاً للقوى الفلسطينية على الساحة الفلسطينية. وشعرت حركة فتح بالإحراج بعد تنفيذنا لعمليات نوعية، نحن كقيادة عامة، وكذلك الجبهة الديموقراطية، فجهّز خليل الوزير مجموعة "سافوي" في عام 1975 وأرسلوا أفرادها بزورق مطاطي إلى شواطئ تل أبيب ودخلوا فندقاً يقع على شاطئ المدينة قرب الأبنية التي تشغلها رئاسة الأركان العامة لجيش العدو الإسرائيلي في منطقة هاكرياه، واشتبكوا مع العدو وفجّروا فيما بعد الفندق، وسقط عدد من الإسرائيليين بين قتيل وجريح.

قررنا أن ننفّذ عملية من البحر. وكانت لنا قاعدة بحرية جنوب اللاذقية. واتفقنا مع العقيد معمر القذافي أن يرسل لنا سفينة تجارية إلى ميناء اللاذقية نقوم بتحميلها "بأي مواد" لتعود إلى ليبيا وعلى متنها زورقان مطاطيان. وفي بور سعيد وعندما تصل السفينة إلى محاذاة تل أبيب يتم إنزال الزورقين المطاطيين من السفينة ويتحركان باتجاه تل أبيب. وبالفعل أرسل لنا قذّاف الدم ابن عم العقيد معمر القذافي سفينة كبيرة وقمنا بشراء 600 طن من البصل- وكان قائد السفينة قبطان مصري الجنسية.

نفذت الخطة حسب الاتفاق، وعندما أصبحت السفينة بمحاذاة تل أبيب علم القبطان بالزورقين فاتصل بالمخابرات المصرية وأحبطت العملية.

بدأت المقاومة الفلسطينية تستعيد ألقها وقوتها... قمنا بأكثر من عملية. وكان ممنوعاً علينا أن ننشئ أي قاعدة في الجنوب اللبناني. حفرنا الأنفاق والمغر في جبل الشيخ وكنا نتعرض أحياناً للقصف الإسرائيلي، حيث كان الطيران الإسرائيلي يغير دائماً على قواعدنا ويفشل في تحقيق نتائج لأنها كانت محصنة. ورداً على تصعيدنا

ضُربت المخيمات الفلسطينية وأولها مخيم النبطية في العام 1974- 1975 وهو مخيم صغير فيه حوالي 6000 نسمة وقد دمر تماماً بغاراتٍ متتالية وهجّر سكانه. وصعّد الطيران الإسرائيلي شنّ ضرباته على المخيمات من الجنوب إلى الشمال وواصل العدو عملياته ضدنا ونفّذ عمليتين كبيرتين، واحدة قبل أيلول السبعين عندما اجتاح منطقة العرقوب، والثانية عندما قصفنا بالطائرات.. وساندنا الطيران السوري واستشهد الطيار فايز منصور وكان محترفاً.

لبنان على صفيح ساخن... الحرب الأهلية 1975

نحن كجبهة كنا نتابع التطورات في الأردن- سورية- لبنان- مصر، ولم يبق لنا إلا الساحة اللبنانية المجاورة لفلسطين لمتابعة مسيرة عملنا الفدائي.

مؤشرات الحرب الأهلية بدأت خيوطها عام 1975، في الذكرى الأولى لعملية الخالصة لجبهتنا 13 نيسان. وقتها أقمنا مهرجاناً كبيراً في بيروت وحضرته حشود من المخيمات الفلسطينية في لبنان ومن مخيم تل الزعتر. وبعد انتهاء المهرجان عاد الحضور إلى مخيماتهم. وفي الطريق المختصر الذي سلكه أهلنا من مخيم تل الزعتر- وهو يمر عبر عين الرمانة ويصعد إلى جسر الباشا ومنه إلى تل الزعتر- فتحت النيران من قبل الكتائب وقوات النمور على الباص المليء بالرجال والنساء العزّل المدنيين، واستشهد جميع من كان فيه وهم بحدود خمسة وثلاثين شخصاً.. كان ذلك هو ما عرف لاحقاً باسم حادثة "البوسطة" في عين الرمانة.

اجتمعنا كقيادة للمقاومة وقيادة الحركة الوطنية اللبنانية في مقر حركة فتح في بيروت للتدارس في المستجدات الجديدة بعد مجزرة "البوسطة" وحضر الاجتماع صلاح خلف ومعظم قيادات فتح - "أبو عمار" كان مسافراً-، وتحدثنا عن طبيعة الرد. وكوني المعني الأول بالمأساة والذين استشهدوا كانوا من مناصرينا، كان جوابي لا نريد أن نرد بشكل عشوائي، يجب التقصي أمنياً ومعرفة من يقف وراء الحادثة؟

توجهت بعدها إلى دمشق، وإذ برفاقي يُرسلون لي برقية أن "أبو إياد" صلاح خلف نصب مدفع الهاون وأعطى الأوامر بقصف حي عين الرمانة لأن وجهة نظره كانت إذا لم نفعل ذلك فإنهم سيتجرؤون علينا في المستقبل ويجب أن نلقنهم درساً. بدأ قصف

الهاون والمدفعية على عين الرمانة والأشرفية واشتعلت الحرب الأهلية في لبنان. هذه الحرب أخذت اتجاهاً دموياً للغاية وأنا مقتنع أن السادات استخدمها لتغطي على تحركاته بالتوافق مع كسينجر.

بدأ الوضع يتأزم فلجأ آلاف المدنيين اللبنانيين إلى سورية.. (700) ألف دخلوا سورية كلاجئين بسياراتهم وتم إيواؤهم وسمح لهم أن يعملوا بسياراتهم اللبنانية كسيارات أجرة ليتمكنوا من العيش، علماً أن سوريا كانت تمر بمشاكل اقتصادية والأمم المتحدة لم تتدخل لمساعدة اللاجئين الذين هربوا من مناطق متعددة من لبنان نتيجة الحرب الأهلية.. الرئيس حافظ الأسد كان يعتبر قضية لبنان حيوية لسورية، ولكن ليس بالقضاء على الفلسطينيين والحركة الوطنية اللبنانية.

دخل جيش التحرير إلى لبنان، لكن وبأوامر من "أبو عمار" تم اعتقال قائده مصباح البديري. وبعد أن تدخلنا عند "أبو عمار" تم إطلاق سراح مصباح البديري. ثم تعرض زهير محسن مسؤول منظمة الصاعقة للهجوم وحوصرت القوات الموجودة في مطار بيروت.

تصاعدت حدة الأوضاع وتأزمت وحصل الانشقاق في الجيش اللبناني، قسم باتجاه المسلمين وقاده أحمد الخطيب وقسم مع العقيد بركات مع الجبهة اللبنانية.. وانقسمت بيروت إلى شرقية وغربية. كنت أنبه في اجتماعاتنا مع "أبو عمار" والقادة الفلسطينيين إلى خطورة ما سيصل إليه هذا القتال بنا كفلسطينيين، فهل نحن قادرون على أن ننهي الجبهة اللبنانية الانعزالية؟

الرئيس حافظ الأسد أرسل إلى بيروت عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي وناجي جميل ثلاث مرات واجتمعوا مع "أبو عمار" لكن دون نتيجة.

في أحد الاجتماعات كنت موجوداً، سألوا "أبو عمار" إلى أين تريدون أن تصلوا؟ أوقفوا هذه الحرب.

توسعت دائرة الحرب بشكل كبير وخاصة أن هناك حوادث كانت قد حصلت في الكحالة وفي غيرها من المناطق. وكنت أرى أن هذه الحرب بدأت تتحول إلى حرب أهلية.

مع اندلاع الحرب كان الجيش السوري يتواجد في البقاع فقط. واشتعلت بيروت وأصبح قتل المدني من أسهل ما يمكن. وفي بيروت – الأشرفية ارتفعت الشحنات الثأرية، وبدأت الحشود تزداد. وكفلسطينيين كنا نملك من السلاح أكثر مما يملكه الكتائب وكميل شمعون "الوطنيين الأحرار".

توجه وفد مسيحي إلى الرئيس حافظ الأسد وطلب منه أن يتدخل لإيقاف الحرب، فأرسل الرئيس حافظ الأسد إلى بيروت وفداً عسكرياً كبيراً ضم حكمت الشهابي وناجي جميل والتقوا مع "أبو عمار" والقيادة الفلسطينية واللبنانية وطلبوا تهدئة الوضع.

بدأت أجهزة أمن الرئيس حافظ الأسد تشعر أن المسيحيين الذين طلبوا التدخل لنجدتهم ولإيقاف هذه الحرب، يدفعون إلى علاقات مع الإسرائيليين (كميل شمعون، بيير الجميل) وكانت الحركة الوطنية اللبنانية (كمال جنبلاط، الحزب الشيوعي، القومي السوري، محسن إبراهيم، وأحزاب ناصرية "المرابطون" وقليلات وقوى أخرى) في حرب عنيفة معهم. نحن كجبهة لم نسحب قواتنا من الجنوب اللبناني، وكنت أقول إن هذه المعركة تبعدنا عن فلسطين. لكن صلاح خلف في خطاب له قال: "إن الطريق إلى فلسطين تمر عبر جونية". تصادمت معه في اجتماع قيادي وقلت له: "هل باستطاعتك دخول جونية؟ فما هذا الكلام الذي تقوله وإلى أين سيصل بنا؟ وإلى أين نسير في هذه الحرب؟"

كنا نحاول وقف إطلاق النار، لكن كان هناك من هو متحمس للقتال مثل الشهيد كمال جنبلاط وجورج حاوي وغيرهم. أولئك كانوا يعتقدون أن "اللقمة" باتت قريبة وستنتهي المارونية السياسية. وبدأ المسيحيون بالاندفاع تجاه الإسرائيليين.

اشتدّت الحرب الأهلية وقرّر السوريون أن يصعدوا من البقاع إلى الجبل ليضغطوا باتجاه بيروت.

كنا نناقش في القيادة الفلسطينية وكنت أقول إن "هذه حرب أهلية والمسيحي والمسلم يقتلون بعضهم البعض ونتيجتها أن ينتصر أحد الفريقين على الآخر ويفرض عليه الاستسلام فهل هذا ممكن؟".. وكانت الآراء في جبهة الرفض متباينة..

طرحت أمام الجميع أن سورية هي الجهة الوحيدة المؤهلة لوقف الحرب الأهلية، فاعتبر البعض من القادة الفلسطينيين واللبنانيين- في الخفاء دون مواجهتي بالحجة- أن أحمد جبريل عميل سوري لأنني كنت ضد استمرار هذه الحرب وأرفض الدخول في مواجهة مع الجيش السوري .

بدأ المسيحيون بجلب الأسلحة من الإسرائيليين واستعدوا للهجوم.. وهاجموا وسط بيروت والنبعة ولم يستطيعوا دخول تل الزعتر، وتوجهوا إلى الساحل وسيطروا على بيروت باتجاه عين المريسة والقنطاري. وأصبح شارع الحمراء تحت مرمى أسلحتهم. أصبح الوضع خطيراً، وحينها كنت في الجنوب اللبناني و"ميليشياتنا" الشعبية موجودة في المخيمات.

اختل الوضع وأدركت القيادة السورية أنها لم تعد قادرة على ضبط الأوضاع، فالمسيحيون فتحوا خطاً مع الإسرائيليين وبات السلاح يتدفق إليهم من البحر.

اتصل بي وزير الخارجية السوري حينها عبد الحليم خدام وقال لي إن القيادة تود لقائي. توجهت إلى مكتب حكمت الشهابي في دمشق، وقالوا لي: في لبنان الوضع أصبح معقداً والقوات الانعزالية سيطرت نارياً على شارع الحمراء والبنك المركزي. لكن كجبهة ما زلتم موجودين على الحد الأمامي مع الإسرائيليين في الجنوب وتقاتلون هناك على الرغم من أن بيروت في خطر.. وحذروا من أن الوضع أصبح مختلاً لصالح الكتائب اللبنانية.

سحبت قواتنا من الجنوب اللبناني إلى الضاحية في بيروت. كانوا حوالي 1200 مقاتل، وكان الوقت صيفاً والمدارس خالية فتمركزوا فيها. كان قتالنا مع العدو الإسرائيلي يختلف عن قتال الشوارع والمدن حيث أن قتال الشوارع والمدن له عقيدة قتالية مختلفة. لذلك بدأنا بتدريب قواتنا في الضاحية وتنفيذ عمليات استطلاعات. وكان المهم ألا يسقط شارع الحمراء، أما عين المريسة ومناطق أخرى فقد عملنا على استرجاعها.

كان يقود المارونية السياسية بشير الجميل وإيلي حبيقة وسمير جعجع .

منذ بداية المواجهات قلت: أنا طول حياتي لا أؤمن بالقوات المشتركة غير المتجانسة، فقط أؤمن بوجود قطاعات محددة كي أعرف من على ميمنتي وميسرتي ومن خلفي.

شُكّلت قيادة عسكرية تحت إمرة "أبو عمار" وأرسلت الرفيق "أبو إبراهيم" عضو اللجنة المركزية ليكون ممثلاً لنا وقلت له إننا نريد أن نطرح المواضيع التالية:

أولاً: كيفية الخروج من المدن والقرى للمواجهة مع العدو الإسرائيلي.

ثانياً: أن تقسم قطاعات عمل عسكرية بين الفصائل- في حين كان "أبو عمار" مع وجود قوات مشتركة تحت إمرته، ونحن كنا ضد هذا الطرح ولم نشارك بالقوات المشتركة لأن تدريبنا وتعبئتنا ومسلكيتنا تختلف عن كل الفصائل.

ثالثاً: عدم الانكفاء عن المواقع الأمامية باتجاه الداخل.

خططنا كيف سنقاتل داخل المدينة وكيفية عبور الشوارع دون أن يتم قنصنا، وكيف يمكن فتح المباني على بعضها بالأنفاق. وأنا اتخذت لي مركزاً قيادياً في القنطاري. وبدأنا القتال باتجاه الخط الأول في "الهوليدي إن" و"السان جورج". ودخلنا بأسلوب وتكتيكات مختلفة عن التكتيكات التي تستخدم حيث لم يستطيعوا أن يتجاوزوا طريق الشياح باتجاه عين الرمانة ولا السيطرة على "غاليري سمعان" لأن تل الزعتر كان محاصراً.

بدأنا معركة شرسة مع الموارنة اليمينيين المتصهينين وكان يقودهم بشير الجميل، داني شمعون، إيلي حبيقة، سمير جعجع. دارت معارك شديدة للغاية وسيطرنا على النسق الأول والأبنية الرئيسية وباغتناهم من أماكن لم يتوقعوها وسيطرنا على "برج المر".

أصبت في قدمي في اشتباكات فندق "الهوليدي إن" فضمدت جراحي وكان برفقتي ممرض قال لي: "من الضروري أن تذهب إلى مشفى "البربير" لأن الجرح عميق ولا بد من خياطته". توجهت إلى المشفى ورافقنا شاب صغير حينها "أبو نضال"- هو مدير مكتبي الآن- ولم يكن يعرف صورتي أحد. في المستشفى وبعد الفحص قالوا لي إن الطلق حارق والعضلات قد تآكلت ولا بد من إجراء عمل جراحي تحت التخدير العام،

فطلبت منهم أن يجروا العملية تحت التخدير الموضعي، فرفضوا لأن التخدير الموضعي لا يحل مشكلة الألم، فقلت لهم جربوا وإن تألمت خدروني تخديراً عاماً.

أجروا العملية تحت التخدير الموضعي وبقينا حوالي الساعة والنصف وغادرت مع أنه من المفروض ألا أغادر لوجوب بقائي تحت المراقبة.

تابعنا القتال الشرس وصعدنا إلى فندقي "الهوليدي إن" و"فينيسيا" ولم يتوقع الانعزاليون مباغتتنا لهم فانهاروا ووقعت في صفوفهم خسائر كبيرة و تراجعوا للخلف وسيطرنا على الكتل الضخمة من الأبنية.

كنت أتوقع أنهم صباحاً سيشنّون هجوماً مضاداً كبيراً لاسترداد الكتل التي خسروها. وتوجهت إلى الكتل في الثانية صباحاً فوجدت شبابنا منهكين من التعب. قمت بإيقاظهم وقلت لهم: مع طلوع الضوء سيشنّون علينا هجوماً معاكساً فجهزوا "طلاقياتكم" واستعدوا. وبالفعل مع الصباح نفّذوا هجوماً ضخماً للغاية وتصدينا له وأوقعنا في قواتهم قتلى وجرحى واضطروا للانسحاب.

هنا أعطيت أوامري بالتقدم وسيطرنا على نادي ضباط الجيش اللبناني وتقدمنا في المناطق التجارية لمدة 25 يوماً حتى وصلنا إلى ساحة الشهداء الفاصلة بيننا وبينهم.

في المنتصف هناك فندقان أحدهما "الهيلتون" وكان مؤلفاً من 27 طابقاً، والثاني فندق "النورماندي" وكانوا متمركزين فيهما. دخلنا إلى فندق "الهيلتون"- وكان عمري حوالي 38 عاماً- من خلال فتحات التهوية وهي عريضة قطرها يزيد عن المتر، تسللنا إليه عبر مكتب جريدة اسمها "لسان الحال" ملاصقة للفندق وكان معي ثمانية مقاتلين وسرنا فيها بهدوء حتى وصلنا منطقة حيث بدأنا نسمع كلامهم في اللوبي. كانوا فتيات وشباباً وكان معنا بندقية معدلة بولندية ترمي قنابل يدوية تتسع لقنبلتين أخذتها وقلت للمقاتل الذي يسير خلفي: سنقوم بفتح شبك التهوية ونرمي القنابل. ونفذّنا الأمر وسمعنا صراخهم وبدأنا إطلاق النار. ثم طلبت من المقاتلين التقدم. سيطرنا على اللوبي وأصبحت المعركة داخل الفندق فانهارت معنوياتهم. نظفنا الفندق بشكل كامل وكنا أحياناً نعبر فوق أجساد رفاقنا الشهداء. فتحنا الثغرات بين الأبنية وانتقلنا من بناءٍ لبناء. وكنا كجبهة نقاتل وحدنا. وحتى لا تأخذ المسألة صبغة

فلسطينية طلبنا مشاركة عدد من مقاتلي الأخ عبد الرحيم مراد وعمر حرب (حزب الاتحاد الاشتراكي العربي).

كانت معركة قاسية وخسرنا بحدود 75 شهيداً منهم قيادات مهمة.

خلال 27 يوماً قاربت ذخيرتنا على الانتهاء وكان ضابط الارتباط الليبي الأخ صالح الدروقي قد اشترى لنا الذخائر بـ "المفرق" وكان يحضرها لنا بكيس من الخيش كي نستطيع المتابعة. وقد سيطرنا وأخذنا رصيف من أرصفة الميناء وبناء الفتال وسوق الجوخ وغيرها وأسرنا الكثيرين وكنا نسمح لهم بالحديث مع عائلاتهم. وسلمناهم بعد يومين لريمون إدة وهو من قام بتسليمهم إلى الكتائب والجبهة اللبنانية الانعزالية.

التقيت مع الشهيد كمال جنبلاط في بيته وكان برفقتي فضل شرورو، وقلت له: يا أستاذ كمال قلتم لنا أن بيروت ستسقط إذا سقطت عين المريسة وشارع الحمراء، فها نحن دفعناهم إلى منطقة الأشرفية وقدمنا خيرة شبابنا كشهداء والأسواق التجارية مليئة بالبنوك وكنا قد لغّمنا الشوارع الفرعية والجزئية حول المنطقة حتى لا تتم عمليات سلب ولا نسمح لأي أحد بالدخول إليها إلا من خلال الممرين اللذين أقمناهما، وأنتم أبناء لبنان وبيروت فتفضلوا واستلموها وأنا سأقوم بتسليمها لك أنت زعيم الحركة الوطنية اللبنانية..

قال لي: كيف ستتركنا. عندما سيعلمون سيعودون للمنطقة في اليوم التالي. كما أنني لا أستطيع الوقوف في وجه اللصوص والعصابات التي تريد الدخول والسلب.

فقلت له: أنا سأحمي لك الحدّ الأمامي وهي المنطقة المسماة بسوق الجوخ وشارع اللنبي والفتال، وأنتم عليكم أن تسيطروا على المناطق الخلفية وأن تطلبوا من أصحاب هذه المحال أن يستلموها. وأقسم بالله أني هيأت الشباب قبل الاشتباكات وحذرتهم من الاقتراب من مراكز الصاغة والذهب في حال دخلناها.

بدأت تلوح في الأفق تطورات لحظناها حيث أن عبد الحليم خدام دفع إلى استيعاب القيادات اللبنانية مسيحيين ومسلمين وجمعهم سوية وتم إصدار الوثيقة الدستورية التي أجبرت المارونية السياسية على التنازل عن بعض المكاسب لمصلحة

الطرف الإسلامي. هذه الوثيقة الدستورية استند عليها اتفاق الطائف.. لكن الجبهة اللبنانية تابعت هجماتهما علينا.

أدخلت سورية قواتها إلى لبنان، فقرر "أبو عمار" والحركة الوطنية اللبنانية بتحريض من أنور السادات والعراقيين أن يواجهوا الجيش السوري عند خروجه من البقاع باتجاه الجبل وبيروت.

دارت معارك واشتباكات عنيفة ووصل الجيش السوري إلى المطار وإلى قرب المدينة الرياضية بعدما دفع خسائر كبيرة. بعدها حضر عبد السلام جلود مبعوثاً من العقيد معمر القذافي. لم يكن مرحباً به من قبل "أبو عمار" والحركة الوطنية لكنهم لم يستطيعوا رفض وساطته لأن ليبيا كانت تدعمهم مالياً.

كانت تصلنا أخبار أن عبد السلام جلود كان ميالاً للسوريين. وقبل أن أغادر دمشق بطائرة هيلوكوبتر مع محمد حيدر نائب رئيس الوزراء في سورية للشؤون الاقتصادية وناجي جميل و"أبو ماهر" غنيم، كان محمد حيدر يأخذ عبر الهاتف التعليمات الأخيرة من الرئيس حافظ الأسد. فطلبت محادثة السيد الرئيس.

قلت: يا سيادة الرئيس هذه المعركة ليس فيها منتصر. علينا جميعاً أن نجد حلاً لهذه القضية.

ووصلنا إلى مطار بيروت وعقدنا اجتماعات في منطقة "خلدة" في مركز قيادة القوات السورية، وحضر الاجتماع صلاح خلف وخليل الوزير و"أبو ماهر". وكان رأي صلاح خلف وخليل الوزير أن يتم تخفيف حدة الاحتكاك وأن ينسحب الجيش السوري من بيروت ويعود إلى المطار.

استمر الحوار لمدة يومين وأخبرنا ناجي جميل أخيراً أن الجيش السوري سينسحب من لبنان.

صلاح خلف وخليل الوزير اعتبرا أنهما انتصرا بانسحاب الجيش السوري.

وبعد هذه الأحداث كان "الكتائب" يهيئون أنفسهم للهجوم على مخيم تل الزعتر. وكان جسر الباشا تحت سيطرتنا وبالإمكان عن طريق غاليري سمعان الذهاب لجسر الباشا لنصرة تل الزعتر.. في اجتماع مع القيادة الفلسطينية كنت قد قلت: مخيم تل الزعتر فيه 50 ألف من الأطفال والنساء، إن لم نتخذ إجراءات حقيقية فلن نتمكن من

فك الحصار عنه. نحن بحاجة لتسوية سياسية، وبين عشية وضحاها قد تهاجمه الكتائب.

وأُقر في الاجتماع أن أذهب إلى مخيم تل الزعتر بوفد برئاستي ومعي عطا الله عطا الله "أبو الزعيم" من حركة فتح وممدوح نوفل عن الجبهة الديمقراطية ونشكل قيادة هناك.

قسمنا المنطقة لمحاور، هم أخذوا أفضل وأقوى المحاور وتركوا لنا المحور الأضعف القريب من الدكوانة.

سيطر الكتائب بعد ذلك على جسر الباشا الأول، وأصبح الطريق صعباً من "عاليه" فلكي تنحدر في الوديان ثم إلى جسر الباشا تحتاج يوماً للنزول في هذا الوادي الضخم وهناك قرى للموارنة.

تكلمت مع رفاقنا عبر الأجهزة اللاسلكية في تل الزعتر، وقالوا سقط تل الزعتر ولم يبقَ إلا قطاع- القيادة العامة- وكان أضعف قطاع لكننا حصناه تحصيناً كافياً.

وقال لي رفيقنا في المخيم إن مسؤولي الفصائل يريدون الحديث إليك، قالوا لي: نحن محاصرون والناس تشرب بولها بدلاً من الماء.

ذهبت إلى الاجتماع القيادي الفلسطيني وكان معنا المبعوث الليبي عبد السلام جلود، وحضر كمال جنبلاط وغيره من قيادات الحركة الوطنية اللبنانية، وأخبرتهم: لم يبقَ إلا قطاع القيادة العامة والجميع محاصر وتكلمت معهم عبر الأجهزة، وهم يطلبون حلاً سريعاً وإلا فستحدث مجازر كبيرة.

حصل نقاش وسألوا ما العمل؟ فقلت لهم: إما أن تكون لدينا المقدرة على فك الحصار عن الناس وننقذهم، أو نبحث عن حل سياسي. والحل السياسي غير ممكن مع الكتائب أو نمور شمعون. سورية تستطيع أن تضغط عليهم وخاصةً أن الجيش السوري موجود فوق الجبال عند "ضهور الشوير" المشرفة تقريباً على تل الزعتر.

أضفت، لذلك أنا أقترح التالي: الأخ عبد السلام جلود و"أبو عمار" وأنا وجورج حبش ونايف حواتمة نذهب لسورية للقاء الرئيس حافظ الأسد.

عبد السلام جلود أيد طرحي وقال: هل تستطيعون إنقاذ مخيم تل الزعتر؟

بعد ذلك تقرر أن يأتي مع عبد السلام جلود، فاروق القدومي، فضل شرورو وياسر عبد ربه.

فقلت لهم مع احترامي لمن ذكرتموهم ولكن هذا لن يحل المشكلة. وكان عبد السلام جلود- كما أسلفت- وبحضور قادة المقاومة الفلسطينية قد اقترح أن نذهب إلى دمشق نحل المشاكل مع الرئيس حافظ الأسد.

رفضوا وقال "أبو عمار" أنا لن أذهب وأضع يدي بيد حافظ الأسد.

قلت له: يوجد (50) ألف شخص في مخيم تل الزعتر ألا يتطلب هذا أن نذهب ونقابل السوريين كي يضغطوا على الجبهة اللبنانية حتى لا تحصل كارثة في مخيم تل الزعتر؟

وكان الجيش السوري في الجبل ويمكنه أن يتقدم ويفك الحصار.

سقط مخيم تل الزعتر وحصلت المذابح والتهجير لأهلنا وهنا اتُهمت سورية بأنها هي من قاتل في مخيم تل الزعتر. والحقيقة لم يكن هناك جيش سوري. الجيش السوري كان موجوداً على بعد 7 كم شرقي تل الزعتر.. وتم بثّ شائعات أن الجيش السوري كان يتفرج على ما حصل واعتبر الرئيس الأسد أن هذه إهانة لجيشه الذي قدم تضحيات كبيرة.

عقدنا في العام 1976 اجتماعاً للقيادة الفلسطينية. في ذلك الاجتماع قلت لهم: حاولنا المستحيل أن نتجنب وقوع الكارثة على شعبنا ورفضتم كل الاقتراحات في التواصل مع سورية ولم تستطيعوا فك الحصار عن قادتكم والمخيم وقد طلبوا النجدة- خاصةً بعد سقوط جسر الباشا- لا سياسياً ولا عسكرياً. وقد تحدثت بالجهاز اللاسلكي مع كل ممثليكم وكنتم غير قادرين على مؤازرتهم لفك الحصار..

للأسف كانوا يروّجون بتحريض من السادات والعراقيين أن هناك اتفاقاً بين الرئيس حافظ الأسد والمبعوث الأمريكي مورفي ينص على دخول الجيش السوري إلى لبنان لإنهائنا كفلسطينيين والقضاء على الحركة الوطنية اللبنانية خدمةً لإسرائيل مقابل استعادة الجولان.

قمة السعودية وتشكيل قوات الردع العربية 1975-1976

قرأ كيان الاحتلال أن الحرب الأهلية في لبنان هي ضالته الكبرى لذا مدّ الجبهة اللبنانية الانعزالية بالسلاح والإمكانات وكان يقدم لها دورات عسكرية داخل الكيان الصهيوني.. مثلاً سمير جعجع خريج المعاهد العسكرية الإسرائيلية وهذه الأمور لم تكن خافية علينا وكنا نعرف تفاصيل تلك المسائل لعلاقتنا بالأحزاب الوطنية اللبنانية، وأمريكا كان لها مصلحة حيوية في الحرب.

تصاعدت المواجهات على الساحة اللبنانية وتصدّع الجيش اللبناني وانقسم وتشكلت المحاور السياسية. واعتقدت الحركة الوطنية اللبنانية أنها كانت قادرة على حسم المعركة متجاهلةً مرتكزات وترابطات الجبهة اللبنانية ومن يشكل لها الحماية. واعتقد كمال جنبلاط أن بإمكانه الإخلال وبدل أن يكون وزير داخلية من الممكن أن يصبح رئيس وزراء.

الاتحاد السوفياتي في تلك المرحلة كان ضد دخول سورية إلى لبنان وكانت علاقاته جيدة مع القوى الوطنية اللبنانية.

نحن كتنظيم كانت لنا علاقات مع "الاتحاد السوفياتي" وكنا نلتقي مندوبهم في بيروت بشكل دوري ويضعنا في صورة الموقف. لم أزر موسكو في ذلك الوقت وتواصلوا معنا عبر سفيرهم فوق العادة في لبنان.

وقفنا إلى جانب الحركة الوطنية اللبنانية ومددناهم بالسلاح والإمكانات ومنهم الحزب القومي السوري، والحركات الناصرية. لكن لا يعني ذلك أننا يجب أن نسير أمامهم. قلوبنا وعواطفنا كانت معهم، ودعمنا الحزب الشيوعي اللبناني بالإمكانات في فترة لاحقة.. وابن جورج حاوي يعرف ما قدمناه.

كنا نقول إننا لا نستطيع القتال نيابة عنهم، وطبعاً هذا الأمر لم يكن مستحسناً من "أبو عمار" وبعض الفصائل الفلسطينية التي لم تكن راضية، وحتى الحركة الوطنية كانت تريدنا في المقدمة لأن مقاتلينا أشاوس ويقاتلون العدو الإسرائيلي قتالاً شرساً.

نحن كنا خائفين من الحرب الأهلية واستمراريتها ونراقب الجبهة اللبنانية الانعزالية التي بدأت تمدّ خيوط العلاقات مع (إسرائيل) التي زودتهم بالسلاح والعتاد.

وكنت أتساءل هل من الممكن أن نرى الإسرائيليين في جونية والأشرفية؟ كنا في قلق على المخيمات الفلسطينية الموجودة في المنطقة الشرقية مثل مخيم ضبيّة وتل الزعتر وجسر الباشا. كما كان قسم من الفلسطينيين يسكن في "الكارنتينا" لذلك عندما أصدر "أبو عمار" الأوامر لقوات اليرموك بقيادة سعد صايل وأبو موسى بالتقدم باتجاه الساحل والسيطرة على السعديات والجيّة والرميلة، طلبوا منا المشاركة فرفضنا. وقلنا لهم: هذا الأمر سيعرض جيوبنا المحاصرة للخطورة وبالتالي سننجدها. كنا قادرين على أن نتفاهم مع كميل شمعون حيث قواته ممسكة بالطريق ونعمل على إيجاد طرق التفافية من إقليم الخروب إلى الشوف إلى بيروت أما أن نأخذ "جيب" السعديات- الجية- الرميلة وهي قلعته، فلن يسمح لنا.

لذلك كان الهجوم على مخيم تل الزعتر من "نمور" شمعون الأكثر قسوة وهو رد على ما حصل في السعديات.

وقد انتقدنا في الجبهة ما حصل. مع ذلك طلبوا منا المشاركة معهم في الساحل حين بدؤوا في منطقة السعديات، وساعدنا في المواجهات.

كان لدينا قناعة كاملة أن الحرب الأهلية في لبنان التي بدأت تتدحرج يجب أن تتوقف لكن كنا نقول كيف يجب أن تتوقف ومن سيوقفها؟ وكان القتال بشعاً لا أخلاق فيه. ووجهة نظرنا في الجبهة أن سورية هي الوحيدة القادرة على إيقاف هذه الحرب. لذلك كنا واضحين في لقاءاتنا واجتماعاتنا ونقول: إن سوريا قادرة على أن توقف الحرب ويجب إقناع المسيحيين بفك ارتباطهم مع العدو الإسرائيلي. كنا نقول هذه ليست معركتنا، المعركة مع العدو الإسرائيلي الذي له أطماع في لبنان والمنطقة، فتآمر علينا في الساحة الفلسطينية الذين عارضونا الرأي.

تقدم الجيش السوري ووصل إلى مطار بيروت و"خلدة" وتمركز في عرمون و"بشامون" وهنا تدخل معمر القذافي وأرسل عبد السلام جلود. وكنا في جبهة الرفض ولكنها كانت متصدعة، والعراقيون يريدون منا القتال، فقلت لهم: نحن لن نقاتل، وأضفت أنني لن أحيد عن موقف مبدئي ولو سيتم إطلاق النار علي.

مع اشتداد الحرب الأهلية تدخلت الكويت والسعودية وطلبت عقد مؤتمر مصغر في الرياض لمجموعة من الدول (مصر، السعودية، الكويت، قطر، سورية، لبنان، ومنظمة

التحرير الفلسطينية). تمت مناقشة الوضع في لبنان وأقروا تشكيل قوات ردع عربية. وعندما عاد الرئيس حافظ الأسد من السعودية قابلته وسألته: "ماذا حدث معكم يا سيادة الرئيس؟" فضحك وقال: "قبل الاجتماع بدقائق أخذني أنور السادات جانباً وقال لي يا أخ حافظ أنا وأنت كنا شركاء في حرب تشرين فدعنا نستمر معاً.. لم أجبه وبدأنا الاجتماع واتفقنا على تشكيل قوة ردع عربية لا تقل عن 100 ألف جندي، فاقترح "أبو عمار" أن يشارك لواء مصري".

وأضاف الرئيس حافظ أن السادات انتفض في وجه "أبو عمار" وقال له: لا تتدخل بيني وبين أخي حافظ! هو ينوب عني. فتراجع ياسر عرفات وقال له: إذاً فليكن قائد قوات الردع مصري، فقال له السادات: لن يكون مصرياً.. واتفقوا على تشكيل قوات ردع من الدول العربية وعددها ومن سيشارك فيها. وتسلم قائد قوات الردع مقدم لبناني اسمه سامي الخطيب ولكن القوة الأساسية هي القوة السورية التي كانت موجودة في لبنان. وشاركت وحدات رمزية من اليمن وليبيا والكويت والسودان.

دخل الجيش السوري مع قوات الردع نهاية عام 1976 ووصل إلى "جسر الكولا" و"الفاكهاني" في بيروت بقرار قمة الرياض العربية، وأشرفت فتح على تنظيم السير.

كما دخلت قوات الردع المناطق المسيحية مثل الأشرفية وجونية وهرب الإسرائيليون.

حين كنت موجوداً في موقع قريب للأشرفية في شرقي بيروت، كثيراً ما كنت أقول هل سيأتي الإسرائيليون إلى المنطقة التي أتواجد فيها بالسيارات؟ اسم تلك المنطقة هو أرض جلول وكان هناك مبنى كامل للموساد الإسرائيلي في الأشرفية وضباط في "بكفيا" و"جونية".

يسجل للرئيس حافظ الأسد أنه كان يدفع لوقف الحرب الأهلية اللبنانية لأنها تضعف الموقف السياسي، وهمه أن يكون لبنان الموحد قوة لسورية، وأن تبقى منظمة التحرير الفلسطينية حليفاً قوياً، وأن لا يرتمي المسيحيون في حضن الإسرائيليين. لكن "أبو عمار" أقنع بعض الفصائل الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية أن حافظ الأسد أرسل هذه القوات لصالح الجبهة اللبنانية الانعزالية لضرب الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية.

وخلال أشهر بدأت الجبهة اللبنانية الانعزالية، المارونية السياسية، الاحتكاك والتحرش بالجيش السوري الموجود في المناطق المسيحية "الأشرفية وكسروان وجونية وجبيل" وخاض الجيش السوري أشد وأقسى المعارك وواجههم في بيروت. بدأت الأمور تتبدل في الساحة اللبنانية وتتغير المفاهيم والادعاءات حول قوات الردع العربية بوصفها أنها جاءت لتقضي على الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية.. هذه الديماغوجيا التي روّجوها من أن الأسد قادم إلى لبنان لعقد صفقة مع المسيحيين والأمريكيين تلاشت على أرض الواقع.

بعد زيارة السادات للقدس تحرك داخل حركة فتح تيار ضد التوجهات السياسية لـ "أبو عمار" وشكلوا وحدة تدعى "وحدة المئة" فيها مئة شخص من ضباط قوات اليرموك وحركة فتح، وظهرت تيارات أخرى فيها بعض القادة التاريخيين.

كنا نتواصل مع هذه التيارات، وكما أشرت سابقاً، كانت الخلافات بين هؤلاء القادة التاريخيين و"أبو عمار" تصل لمرحلة التصادم. وكنا أحيانا نقوم بدور الوساطة للمصالحة.. مثلاً رفيقنا طلال ناجي بذل جهداً كبيراً لمصالحة "أبو عمار" وصلاح خلف، وقد وصل الحد بينهما لحشد قواتهما للصدام.

الجيش السوري وقوات الردع العربية أصبحتا رديفاً لنا على الأرض اللبنانية، وكانت قوات كاملة عدا الدفاعات الجوية الثقيلة مثل الصواريخ.

الدخول السوري إلى لبنان كان بغطاء عربي تحت اسم "قوات الردع العربية" لوقف الحرب الأهلية، واستطاع إلى حد ما أن يوقفها وأصبح للقوات السورية في لبنان شرعية عربية وفق مؤتمر القمة العربي الذي عُقد في الرياض. لكن الجبهة اللبنانية المارونية متمثلة بحزب الكتائب ونمور أحرار شمعون أرادوا أن تكون هذه القوات إلى صفهم في مواجهة الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية بينما الرئيس حافظ الأسد كان حريصاً أن لا يدخل في المربعات الأمنية في المخيمات أو في منطقة الفاكهاني. وحاولت سورية أن تجمع الوطنيين اللبنانيين والمسيحيين واتفقوا على وثيقة دستورية بإشراف عبد الحليم خدام ووقعوا عليها جميعاً. ولكن وللأسف لم يلتزم أحد بها، رفضها ياسر عرفات رغم أن وفوداً سورية وعلى أعلى المستويات

التقته مثل عبد الحليم خدام، ناجي جميل، حكمت الشهابي، وطلبت منه المساعدة في احتواء المشاكل لكنه لم يلتزم بوعوده فخطوطه مع السادات كانت قوية.

الأيدي الخفية وانشقاق 1976

سقط مخيم تل الزعتر في 1976 وللأسف كانت قد تشكلت كتلة داخل جبهتنا بزعامة أبو العباس وطلعت يعقوب وعبد الفتاح غانم وأبو أحمد حلب. وهؤلاء قاموا بممارسات تتنافى مع قيم وأخلاق جبهتنا. وكنا في فترة تحضير لمؤتمر جبهوي وقلت لهم: سأحاسبكم.

تكتلوا وروجوا أن الخلاص من أحمد جبريل هو الحل، مادام حياً فالجبهة الشعبية- القيادة العامة- ستبقى في موقفها مع سورية. وقد حضر إلي وفد من التكتل ممن لم يشارك بالإساءة الى المال العام منهم علي إسحاق. قال لي: "يا رفيق أنت تعلم أنه هناك من يريد شقّ الجبهة لأسباب خاصة به وفتح جاهزة للدعم، وأنت تعطيهم مبرراً لذلك بدفاعك عن الموقف السوري". قلت: "أنا لا أدافع عن الموقف السوري أنا أدافع عن قضية فلسطين". قالوا: سنحضر جميعاً المؤتمر ونناقش الوضع السياسي وننتقد الدخول السوري إلى لبنان.

في عام 1976 وفي وضح النهار، فوجئنا بحصار المبنى الذي كنت فيه في بيروت ولم يكن برفقتي سوى 16 مقاتلاً. فُتح الهجوم علينا بجميع الأسلحة ومن جميع الجهات. توقف القتال ليلاً ودخل إلينا شخص ومعه ورقة مكتوب عليها "إلى أحمد جبريل.. سلّم تسلم. ونحن نتعهد بسلامة حياتك". كتبت لهم على ذات الورقة "أعطوا فرصة لسكان المبنى من المدنيين ليخرجوا وسألقنكم درساً لن تنسوه في حياتكم".

بدؤوا يذيعون عبر إذاعة إبراهيم قليلات أن أحمد جبريل سيسحل في الشوارع، انتظروا أيها الناس، هيئوا أنفسكم، هذا السوري جاء ليدمر الفلسطينيين والحركة الوطنية اللبنانية لصالح الجبهة اللبنانية- المسيحية.

واصلنا القتال حتى المساء وحاولت قوات عسكرية تابعة لنا أن تساندنا لكنهم سدوا جميع منافذ بيروت.

اندلع حريق في البناء فتوجهنا إلى السطح وبالقرب من بنائنا بناء آخر يبعد حوالي أربعة أمتار.

قلت لهم: يا شباب لا يوجد حل سوى أن نقفز إلى البناء المجاور وبالفعل قفزنا جميعاً وبدأنا ننتقل من مبنى إلى آخر حتى وصلنا قرب المدينة الرياضية ومن ثم إلى دار المعلمات. هناك كانت الأراضي رملية وتواجدت قوات عراقية لبنانية. وأوقفنا حاجز تفتيش للعراقيين وسألنا عن هوياتنا، فقلنا له: "صديق" وتوجهنا برفقة الحاجز إلى مبنى الجبهة العربية التابعة للعراق /مركز قيادة/، وكان عبد الرحيم أحمد أمين عام الجبهة العربية موجوداً في المبنى (كان عبد الرحيم أحمد معنا في جبهة الرفض)، ورحب بنا واتصل مع أبو عمار وأخبره بوجودي مع بعض رفاقي في مركز الجبهة العربية.

أرسل أبو عمار سعد صايل إلى مركز الجبهة العربية ورافقته إلى المبنى الذي تواجد فيه أبو عمار. سعد صايل أخبرني فيما بعد أن أبو عمار يريد أن ينقذني من العراقيين. وحين وصلنا قال لي أبو عمار حاولت أن أنقذك وأرسلت من الجنوب اللبناني مصفّحتين. واصطحبني إلى غرفته الخاصة كي أستريح.

رفاقي الذين ظلوا في المبنى قالوا لي: أرسل أبو عمار حراسه بعدما غادرتم ونادوا بمكبرات الصوت يا أخ أحمد "عليك الأمان"، وقد تدخل السفير الليبي في لبنان وقال لـ "أبو عمار" أن العقيد معمر القذافي يحمّله مسؤولية حياة أحمد جبريل.

حضر طلال ناجي من دمشق إلى بيروت وكان عضو لجنة تنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية وقال لـ "أبو عمار": سنتوجه إلى دمشق برفقة حرسك الخاص، وبالفعل تحركنا باتجاه دمشق.

جسمنا العسكري من خلدة إلى جنوب لبنان لم يتأثر بعملية الانشقاق عام 1967 لكن التأثير كان في الوضع التنظيمي في بيروت، حيث كانت في بيروت هراوة قوية واعتقلوا رفاقاً لنا بحدود ستين رفيقاً، ولو تدخل أبناء شعبنا لكانوا أُعدموا.

بعد وصولي إلى دمشق مع رفيقي طلال ناجي ارتحت لوقت وبعدها توجهت مع مجموعة من الرفاق القياديين منهم "أبو جهاد" يوسف طُبل رحمه الله إلى إحدى قواعدنا جنوبي لبنان واجتمعنا مع القوات العسكرية واتخذنا قراراً بأن نستعيد بعض

المواقع التي خسرناها في منطقة الدامور والناعمة من المنشقين. وبالفعل استعدناها، ودخلنا بيروت وحاصرنا المنشقين داخل منطقة الفاكهاني. كما أننا هاجمنا بعض المواقع المتفرقة لهم في الضاحية واعتقلنا قسماً منهم، وأصبحت بيروت الغربية كلها معنا ماعدا الفاكهاني حيث كان أبو عمار موجوداً وشكل حماية لهم.

هنا اجتمعت قيادة المقاومة الفلسطينية في بيروت بطلب من أبو عمار لحل المشكلة واقترحوا أن المنشقين سيطلقون على أنفسهم اسم جبهة التحرير الفلسطينية وهو اسمنا القديم، مع أنه لم يعاصر أحد منهم الجبهة في مراحلها الأولى. وأطلقنا سراح معتقليهم وأطلقوا سراح معتقلينا الذين باغتوهم بالانشقاق، ودخلنا إلى "الفاكهاني" و"أرض جلول".

أحداثٌ جسام 1977- 1982 ومتغيرات عاصفة

قبل زيارة السادات للقدس، دُعي أبو عمار لمجلس الشعب المصري عام 1977 حيث ألقى أنور السادات خطاباً قال فيه إنه سيزور الكنيست الإسرائيلي وسيناقش موضوع السلام. استقبل الحاضرون هذا الإعلان بالتصفيق ومعهم أبو عمار. كانت مأساة أن يعلن السادات في العام 1978 التوقيع على اتفاقية في كامب ديفيد ويصفق له العالم.

الرئيس المصري أنور السادات في مرحلة سابقة وفي اجتماع مع منظمة التحرير الفلسطينية "اللجنة التنفيذية في الاسكندرية"- وكان حاضراً ممثلنا الدكتور طلال ناجي، قال: سيروا معي وأنا أؤمن لكم حكماً ذاتياً أو دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

الثورة الإسلامية الإيرانية هبة وموقف

لم نفاجأ كجبهة باتفاقية كامب ديفيد، لكن وقعها كان كبيراً للغاية على معنوياتنا وعلى الأمة العربية. وانقسم الشارع شعباً وحكومات لقسمين، قسم يقول إن إسرائيل حقيقة وواقع علينا الاعتراف به، وآخر يقول هذا واقع وليس حقيقة.

في العام 1979 كانت المنطقة على صفيح ساخن واندلعت الثورة الإسلامية الإيرانية وأسقطت شاه إيران أكبر طاغية في الشرق الأوسط، ووقف الإمام الخميني وقال: اليوم في طهران وغداً القدس وعلى المسلمين أن يقفوا في كل أنحاء الدنيا ليكون للقدس يوم عالمي في السبيل إلى تحريرها، وإسرائيل غدة سرطانية يجب أن تقتلع.

وقد نادى العرب قائلاً إن إيران مستعدة لأي شيء من أجل المعركة ضد الكيان الصهيوني. وحُوّلت السفارة الإسرائيلية في طهران إلى أول سفارة فلسطينية في العالم، فشُنّت على الثورة ومفجّرها حربٌ ضروس عربية وعالمية.

نحن لم نكن نعرف الإمام الخميني ولكنني انجذبت باتجاه الثورة الإسلامية في طهران، واعتبرنا انتصارها هبة من السماء. لقد منحتنا السكينة وعوضتنا عن مصر التي أخذها السادات للحضن الإسرائيلي والأمريكي.

الموقف الفلسطيني انقسم مرة أخرى؛ أبو عمار أيد ثورة الإمام الخميني وذهب إلى طهران، واستُقبل استقبالاً كبيراً. لكن لم تمض أشهر حتى بردت العلاقات بينهم، وسبب الفتور عرفته من خلال لقاءاتي مع القيادات الإيرانية عندما كانوا يحضرون إلى لبنان، قالوا لي: أتى ليساومنا، قال لهم: "أعطوني ورقة الرهائن الأمريكيين لأساوم أمريكا لأجل حقوقنا". كذلك كان سفير فلسطين في طهران هاني الحسن ينقل كل شيء عن الثورة الإسلامية إلى السعودية، ويرسل نسخة إلى (أبو عمار).

بدأت العلاقات تفتر بينهم وحاول أبو عمار القيام بزيارات لاحقة للقاء الإمام الخميني لكنه كان يعتذر لانشغاله.

أنا زرت إيران في تلك الفترة ولكنني لم أقابل الإمام الخميني بسبب مرضه، وبدأت علاقاتنا مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية بالتطور التدريجي.

عندما أعلن صدام حسين الحرب على إيران وقفنا ضده، وكانت الحرب مؤيدة من دول الرجعية العربية والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة.

كان الإمام الخميني يقول آنذاك إن الشيطان الأكبر هو أمريكا، والشيطان الأصغر الاتحاد السوفييتي. وكنت أنصح أن لا يتم التحرش بالجمهورية الإسلامية الإيرانية، بل يجب التحالف معها ضد إسرائيل وبناء علاقات بين الثورة الإيرانية وليبيا.

أردت علاقات جيدة بين إيران وليبيا، وسافر عبد السلام جلود إلى إيران واستُقبل استقبالاً كبيراً وعاد بمعلومات مشابهة عن الثورة الإيرانية، وهذا ما كنت أصبو إليه، وأرسل الصواريخ مع طواقمها الليبية إلى إيران. وكان سفير الجمهورية الإسلامية في ليبيا الشيخ أنصاري قد زارني في الفندق في ليبيا وقال لي: إن الإخوة في الجمهورية الإسلامية مشتاقون كي يلتقوك.

من الأحداث العربية التي أثرت أيضاً في مسار القضية الفلسطينية، المصالحة التي تمت في قمة بغداد 1979 وتم فيها التصالح لأول مرة بين سورية والعراق. وأنا شخصياً كنت أتابع هذه اللجان وإلى أين ستصل، وقد وصلت إلى حد الاتفاق على

السفارات وتوحيدها . وبالنسبة لنا كجبهة وأنا بشكل شخصي، كانت تلك من الوقائع القليلة في حياتي التي فرحت لحدوثها عربياً، فقد أصبح لدينا العمق السوري العراقي من أجل تحرير فلسطين.

في العام 1978 نفّذت حركة فتح عملية كبيرة قادتها الشهيدة دلال المغربي. العملية رفعت من منسوب التصادم مع الكيان الصهيوني فشنّوا هجوماً على جنوب لبنان- اجتياح الليطاني- وكنا في تلك الفترة نعيد ترتيب وضعنا العسكري والتنظيمي بعد المؤامرة (الانشقاق) الذي حيك ضدنا . ورغم ذلك وفي اجتماع قيادي للمقاومة الفلسطينية طلب منا كجبهة، المشاركة في المواجهات (لأنهم يعرفون قوتنا في مواجهة العدو الإسرائيلي).. كنا في القطاع الغربي بشكل رئيسي وأخذنا على عاتقنا قطاع بنت جبيل- قانا- صديقين والأوتوستراد الرئيسي من بنت جبيل إلى منطقة صور- البرج الشمالي في صور، وهم أخذوا الطرق الجبلية التي تمتد من الأراضي الفلسطينية باتجاه أبو الأسود والليطاني.

وفي طريقنا للتمركز قامت بعض العناصر المنشقة بأوامر من "أبو العباس" بالتعرض للقوات وسقط لنا شهيدان في "البرغلية" . وكان بوسعنا أن نلتفت لتأديبهم ولكن أولويتنا كانت مواجهة العدو الإسرائيلي. وتموضعنا وأقمنا دفاعاتنا من بنت جبيل باتجاه قانا وصديقين، وقلقنا أن يتقدموا من منطقة زبقين.

دارت بيننا وبين الإسرائيليين معارك قاسية واستطعنا في بعض الممرات الإجبارية أن نفجّر ألغاماً على الطريق ما فاجأ العدو الإسرائيلي فلم يعد يستطيع العمل بسهولة في تلك الطرق. واستمرت المعارك تقريباً عشرة أيام لم يستطع العدو الإسرائيلي خلالها أن يتقدم نحو صور لكنه سيطر على مناطق تجاه الليطاني وأبو الأسود . وهناك أذكر جيداً بأن القدر حمانا من عملية عسكرية كبيرة.

كنت في "زبقين" وكان العدو الإسرائيلي قد زرع عميلاً في صفوفنا، وقررت أنا أن أعود لتنظيم بعض الصفوف في منطقة الصرفند، وإرسال بعض المعدات التي تساعدنا في استمرارية المواجهة. كنا نحتاج (لكومبريسات) لحفر الطرق الإسفلتية وزرع الألغام في الطرق والمحاور. وكان لنا هناك أيضاً مشفى ميداني.

يومها كان القمر هلالاً وعندما وصلنا بمحاذاة البحر من منطقة أبو الأسود أشرت للموكب أن يتوقف قليلاً وقلت لهم: لا تستبعدوا أن يكون العدو الإسرائيلي قد أنزل كمائن من البحر على الشريط الساحلي بين صور والزهراني، علينا المتابعة بطريقة مختلفة عما سبق، قلت لهم: السيارة الأولى تشعل الأضواء أما السيارات الباقية فتطفئ أضواءها وبين كل سيارة وأخرى 50 – 100م وفي كل سيارة مقاتلين، فإن دخلت إحدى السيارات في الكمين تتوقف السيارات الأخرى ويشتبك المقاتلون مع الكوماندوس الإسرائيلي.

وضعت هذا الأمر كاحتمالية وسرنا على هذا الأساس، ووصلنا إلى منطقة الصرفند وبدأت في تفقّد الجرحى في المستوصف وكنت قد أرسلت أحد الشباب بجرار زراعي ومعه "كومبرسات" وقلت له أن يذهب باتجاه منطقة قانا – صديقين وأرشدته إلى الطريق لصور والبازورية. وعاد الشاب بعد نصف ساعة وأخبرني أنه كان هناك كمين إسرائيلي رابض على الطريق وقتل أطفال ونساء كانوا في خمس سيارات. اعتقد العدو الإسرائيلي أن السيارات القادمة من صور قرب البحر هي سياراتنا، عندئذ بدأت أشك أن هناك اختراقاً أمنياً.

الحس الأمني وتكتيكنا العسكري منع العدو من استهدافنا فلم يستطع العدو الإسرائيلي أن يصل من رأس الناقورة إلى صور ولا لبنت جبيل عبر قانا وصديقين لأننا كنا نقاتل بشراسة.

في صور استطاع رفاقنا أسر جندي إسرائيلي بينما استطاع العدو أن يتقدم في محاور أسهل له للدفاع، ووصل إلى مناطق قريبة من الليطاني وأشرف على مصبه... واتُخذ قرار دولي يدعو القوات الصهيونية إلى الانسحاب، فانسحبوا مرة أخرى للخلف.

في العام 1981 عقد أبو عمار هدنة مع الإسرائيليين عبر الأمم المتحدة. نحن كتنظيم اختلفنا معه وقلنا هذا خطير للغاية لكن للأسف الفصائل الفلسطينية الأخرى والحركة الوطنية اللبنانية وقفت معه.

حشد أبو عمار الحركة الوطنية اللبنانية لتقف في وجهنا وقد اتخذنا قراراً بأننا لن نعلن وقف إطلاق النار وعندما تسنح الفرصة سنقاتل. وكانت ذريعته أن الاتفاق سيمنع الإسرائيليين من اجتياح جنوب لبنان.

زرت ليبيا والتقيت مع قيادة الثورة الليبية وعلى رأسهم الأخ معمر القذافي- رحمه الله- وحضر "أبو بكر" يونس رحمه الله وعبد السلام جلود وشرحت لهم الوضع الفلسطيني وما نحن مقبلون عليه وقلت إن ما قام به الإسرائيليون في عملية "الليطاني" بداية التحرك والأسوأ قادم. وطلبت منهم المدد والمساعدة وأن نعمل على جذب الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية ومنظمة الصاعقة وجبهة النضال الشعبي، وضمّ البعض من الحركة الوطنية اللبنانية لفرملة ياسر عرفات من التحرك بسرعة باتجاه السادات الذي أصبح اتفاقه مع (إسرائيل) على وشك أن يطبخ.

قال لي معمر القذافي: لا مانع تفضلوا ووافقوا على طلبي. وقتها استقبلنا في خيمة وأحضروا الخرائط. وقال: "الإسرائيليون سينفذون عدواناً واسعاً عليكم". ولدرجة اهتمامه كان يتخيل محاور التقدم الإسرائيلي جنوب لبنان.

وكنت قد تحاورت مع جورج حبش الذي كان له هو والجبهة الديمقراطية موقف سلبي من ثورة الفاتح. وعندما عدت إلى بيروت اجتمعت بهم وقلت إنني "تحدثت مع معمر القذافي وأبدى استعداده لاستقبالكم"، قال لي جورج: "إن ذهبت معك إلى ليبيا فقد يعتقلني معمر القذافي"، فأجبت بأنه لن يفعل وأبدى استعداده لزيارة ليبيا على أن أكون معه. وفعلاً سافرت ومعنا بعض القوى الوطنية اللبنانية وكان جورج مموهاً تمويهاً كاملاً. وقبل اللقاء كانت هناك مظاهرة شعبية كبيرة ضد خطوات السادات وخطب جورج حبش بالجماهير، والتقينا مع القيادة الليبية وأُعطي المال ووُعد بالسلاح. وأذكر تماماً حين كنا في الفندق قال لي جورج حبش بالحرف الواحد: أنا ما حييت سأبقى أتذكر لك هذا العمل الكبير.

أمدّنا القذافي بالسلاح وكنت أقوم بتوزيعه على الفصائل بكميات كبيرة وبالعدل. الأسلحة لم تكن خفيفة، فقد كانت أسلحتنا متوسطة وثقيلة (مدافع- راجمات صواريخ) وكذلك مجنزرات تحمل رشاشات تسمى "شيلكا" وهو سلاح مضاد

للطائرات. وأرسل العقيد القذافي وحدة ليبية معها صواريخ "سام 9" تستطيع إسقاط الطائرات على ارتفاع 9 كم في الجو.

بدأ حضور كتلتنا يقوى وكذلك الجناح المعارض لـ (أبو عمار) في داخل حركة فتح "المجلس الثوري" "أبو نضال" صبري البنا- الذي كنت قد نصحته عندما زرت العراق عام 1974 أن يكفّ عن موضوع العمل الخارجي لصالح الدولة "كذا" أو غيرها وعليه القتال ضد العدو الإسرائيلي مباشرة.

لم أتدخل في الشأن الداخلي لحركة فتح لا مع "أبو نضال" المجلس الثوري ولا غيره رغم حماسي له ولكتلة "المئة".

هذه التطورات الإيجابية انعكست على التحالفات الفلسطينية بعد أن استطعنا إقناع الأخوة في ليبيا بخطورة الوضع في لبنان، وأنشأنا تحالفاً بيننا وبين منظمة الصاعقة- الجبهة الشعبية- الجبهة الديمقراطية- جبهة النضال الشعبي. وهنا بدأ ياسر عرفات يشعر بقوتنا كتحالف وحاول جورج حبش وسمير غوشة إحياء جبهة الرفض لكني رفضت.

وأذكر جيداً أن الرفيق طلال ناجي عضو اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير أخبرني آنذاك أن ياسر عرفات لم يستطع أن يأخذ قراراً تحرشياً بليبيا، ووقفت الفصائل بمن فيهم نحن كجبهة في وجهه، وخاصةً أن بعض المستقلين في اللجنة التنفيذية مثل عبد المحسن "أبو ميزر" ومحمد زهدي النشاشيبي أصبحا في صفنا، فرفع كأسه وقال "هذه كأس معمر! فتأثيره في منظمة التحرير الفلسطينية أكثر مني!".. وبدأت هذه الكتلة تزعج "أبو عمار".

في 15- 22 كانون الثاني/يناير 1979م عُقد مجلس وطني فلسطيني في دمشق- نقابة العمال- دورة هواري بومدين، وكان الوضع الفلسطيني في حالة مريحة من خلال ميثاق العمل القومي. وكنا نشعر أن "أبو عمار" ينتابه ولأول مرة القلق، وكنت أرى ذلك بوضوح فهو كان متوجساً من هذه الوحدة والميثاق، بالنظر إلى علاقته بالسادات، وهذا الميثاق سيجعله أسيراً لهذه الوحدة. وقد بدأت بعض قيادات الصف الأول في حركة فتح تتمرد عليه مثل صلاح خلف وخليل الوزير ونمر صالح "أبو صالح"، فهؤلاء بدأوا بشق عصا الطاعة وكذلك تنامى بقوة تيار داخل حركة فتح

يسمونه "مجموعة المائة" من عسكريين داخل حركة فتح، وكان قد انشق "أبو نضال" صبري البنا المدعوم من العراق.

لم يكن وضع حركة فتح مستقراً رغم سيطرة "أبو عمار" بقبضة حديدية على المال والسلاح والإعلام.

في المجلس الوطني الفلسطيني الدورة (14) والتي عُقدت في دمشق اتخذنا قرارات سياسية مهمة جداً كاستمرارية تحرير فلسطين كلها. واتفقنا على اختيار اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية من كل الفصائل الموجودة وكان لفتح اثنان فيما باقي الفصائل واحد. ومعروف أن "أبو عمار" كان بارعاً في موضوع المستقلين الموالين له يحتضنهم ويحتويهم بالمال والجاه.

اتفقنا مع قيادات النسق الأول في فتح مثل صلاح خلف ومن حوله ومع "مجموعة المئة" أن نقيد حرية "أبو عمار" في اتخاذ قرار متفرد في المستقبل وخاصة أنه يسيطر على كل المفاصل من مال وقيادة عسكرية وإعلامية.

حاول صلاح خلف أن يشكل الأمن المركزي فأحضر هايل عبد الحميد وشكل أمن الـ (17) ليواجهه، وبدأ عرفات يشعر أنه بدأ يخسر المعركة.

طرحنا في المجلس الوطني وجوب الحد من عدد المستقلين وأن يكون هناك أعضاء جدد في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، حتى من فتح، من التيارات غير المؤيدة لياسر عرفات "أبو عمار" سواء من النسق الأول أو الثاني. ولن نقول لفتح عليكم الخروج، لكن نحد من الذين يصوتون لياسر عرفات في اللجنة التنفيذية ويأتمرون بقراراته مثل "جمال الصوراني وحامد أبو ستة وأبو زهدي النشاشيبي". وسعينا إلى أن يعمل صلاح خلف لإضافة خالد الحسن وآخرين من فتح، ونحن كمنظمة فلسطينية وكجبهة شعبية- قيادة عامة نقبل بذلك.

في اجتماع بدمشق اتفقنا مع بعضنا على كل ذلك. هنا عرف أبو عمار أن هذا سيجرده من صلاحياته فرفض رفضاً قاطعاً وقال: من فتح لن يكون سوى فاروق القدومي، وهدد أنه سيوقف أعمال المجلس الوطني الفلسطيني.

تأزم الوضع في المجلس الوطني، وأذكر جيداً أن عبد الحليم خدام وكان بضيافته طارق عزيز طلب مقابلتنا، وكان برفقتي زهير محسن أمين عام منظمة الصاعقة،

وعبد الرحيم أحمد أمين عام الجبهة العربية، وآخرون لا أذكر أسماءهم. قال لنا طارق عزيز: لا نريد أن نفشل المجلس الوطني الفلسطيني وأنتم تلحظون أن ياسر عرفات قلق وخائف من ميثاق العمل القومي. اتركوا له ما يريد في قائمة المستقلين في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، ولكل حادث حديث.

قلنا: إنها فرصة سانحة، لكنهم أكدوا أنه سيُفشل المؤتمر إن لم يحصل على ما يريد، وخاصة مع ورود استشهاد "أبو حسن سلامة" المقرب منه جداً ومسؤول حرسه الرئاسي.

عدنا إلى اجتماع المجلس الوطني في نقابة العمال ووافقنا كما يريد أبو عمار بالنسبة للمستقلين، على أن يحدد أسماءهم من لديه أكثرية في المجلس.

فرحنا بميثاق العمل القومي ولكن هذه الفرحة لم تدم طويلاً، فعندما أصبح كل شيء مهيئاً لإعلان الوحدة وأن يصبح أحمد حسن البكر رئيساً لجمهورية سورية والعراق، فوجئنا بعزل أحمد حسن البكر من قبل نائبه صدام حسين الذي تسلم الحكم واتهم زملاءه الذين كانوا يشرعون في برنامج ميثاق العمل القومي بالخيانة وقام بإعدامهم.

ما حصل دفعنا للخوف، كيف تفشل هذه التجربة التي كنا نعول عليها أهمية كبيرة في تحرير فلسطين!

صدام حسين أراد أن يتقرب من أمريكا ويبعد سورية عن الجمهورية الإسلامية في إيران، فقد عارضت سورية الحرب العربية- الأمريكية على إيران، ووقف الرئيس حافظ الأسد مع معمر القذافي بجرأة وشجاعة في وجه التآمر على الثورة الإسلامية.

أصبحت سورية في عامي 1979- 1980 مستهدفة من الإخوان المسلمين من الشرق (العراق) ويتسللون إلى "حماة" وينفذون كذلك عمليات انتحارية في دمشق. وشكلت معسكرات الإخوان المسلمين في لبنان المدعومة من "أبو عمار"، وكان مسؤول (الكفاح المسلح) المدعو أبو طعان وهو قيادي في فتح، ينسق مع الإخوان المسلمين الحرب على سوريا.

في عام 1981 عُقد في دمشق مؤتمر وطني بدورة جديدة. وهنا كان "أبو عمار" في حالة انتشاء ولم يعد تحت ضغوط ميثاق العمل القومي وتحالف فتح مع باقي

المنظمات الفلسطينية. وانتهت دورة المجلس برفض أفكار الأمير فهد للتسوية (قبل أن يصبح ملكاً) حول الانسحاب الإسرائيلي وتنفيذ القرار 242 والتطبيع والصلح مع كيان الاحتلال الصهيوني.

بدأ الرئيس حافظ الأسد يحاول جسر الهوة مع فتح، خاصة أن قوات الردع السورية موجودة في لبنان. وهنا أذكر أنه في عام 1981 دعا عبد الحليم خدام بتكليف من الرئيس حافظ الأسد قيادات النسق الأول في حركة فتح إلى دمشق، ومنهم صلاح خلف وخليل الوزير وفاروق القدومي وأبو ماهر غنيم وآخرون، وتوصلوا إلى اتفاق وحدة ما بين سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية. وتم الاتفاق على وثيقة تنظم هذه الوحدة، وأخذوا هذه الوثيقة وتوجهوا إلى بيروت لعرضها على رئيس المنظمة "أبو عمار" فرماها في سلة المهملات.

بعد فترة عقد "أبو عمار" في بيروت اجتماعاً للمجلس الثوري واللجنة المركزية لحركة فتح. وقد نقل لي تفاصيل ما حدث من قيادة فتح في المجلسين، أن "أبو عمار" قال لهم: "أنتم ترفضون مشروع الملك فهد مشروع "فاس"، وأنا أقول لكم إذا واصلتم رفضه سيكون هذا آخر اجتماع للمجلس الثوري واللجنة المركزية وسنغادر لبنان". وكان يقول في الاجتماعات: "إذا حدث عدوان شبيه لعدوان 1978 أو أكبر قليلاً فمن الممكن أن يصل إلى الزهراني أو صيدا".. ولم يكن يشير الى احتمال وصول الاجتياح إلى بيروت.

كنا نعي جيداً أن هذا الاجتياح سيُحدث كارثة كما حدث معنا عام 1970 في الأردن، لذا كنت أصرخ بصوت عالٍ أن اخرجوا إلى الجنوب لنواجه "الإسرائيليين" لكنهم كانوا مصرين على البقاء داخل المدن وخاصة في بيروت.

لم نستطع في اجتماعات القيادة العسكرية مع "أبو عمار" أن نتفق على أبسط الأمور، وكان العدو ينفذ عمليات كوماندوس على الطريق الساحلي من صور للرشيدية لبيروت وقد ضرب سيارات المقاومة عدة مرات. وكنا نطرح فكرة تقسيم الطريق لقطاعات وكل تنظيم يستلم قطاعه، وكانوا يريدون قوات مشتركة ونحن لم نكن نؤمن بهذا الأسلوب. ولم يستطع الإسرائيليون أن يصلوا إلى المنطقة التي كانت بعهدتنا والممتدة من معامل "الجية" حتى بداية "خلدة".

حاولنا أن ندفع لتحصين وضعنا في جنوب لبنان في الوديان والجبال وتشكيل عقد دفاعية لقتال العدو، ولكن هذه المواقع ظلت ضعيفة لأن يمينها ويسارها وأمامها مكشوف وينبغي أن تساندها مواقع لباقي الفصائل. لم يتجاوبوا رغم الإمكانات التي قُدمت من ليبيا، وكان الطيران الإسرائيلي يضع ثقله لضرب مواقعنا في الجبهة.. أكثر من سبعين بالمئة من الغارات كانت ضد مواقعنا بينما 30- 40 بالمئة ضد حركة فتح وباقي التنظيمات.

تحولت بيروت إلى مراكز أجهزة أمنية للمنظمات عوضاً أن تكون رديفاً ومزوداً للقواعد المقاتلة في الجبهة الأمامية. وكان في التنظيم الواحد أكثر من جهاز أمني يعمل لحسابه.

أذكر جيداً أن "أبو عمار" في العام 1979 كان يشكل قيادة عسكرية للفصائل، وكان الاجتماع صباحاً في مقره وحضره ممثلنا أبو ابراهيم عضو اللجنة المركزية.

بدأ الطيران الإسرائيلي بغارات كثيفة على الناعمة والدامور، وبقذائف ثقيلة لتدمير الأنفاق، ويبدو أن الإسرائيليين علموا بأنني كنت هناك. وكانت أصوات القصف تُسمع في بيروت. واستمرت الغارات من العشرة صباحاً حتى بعد العصر، حيث أهالت علينا الطائرات مئات الصواريخ.

أدخلوا ورقة لإخباره عن القصف لـ "أبو عمار" أثناء الاجتماع قرأها وقال للمجتمعين: "الغارات دمرت الأنفاق وهناك خسائر كبيرة في الأرواح" وطلب أن يرسلوا ثلاثين سيارة إسعاف للدامور والناعمة لإجلاء الجرحى والشهداء. رفيقنا أبو إبراهيم اتصل بالمحطة المركزية وكانت لدينا شبكة اتصالات لاسلكية متطورة جداً، وسأل الرفاق عن الوضع فطلبوا منه أن يتصل بي كوني موجوداً هناك، فاتصل بي وقلت له: نشاهد القصف ونحن في الأنفاق ولم نتضرر.

سألني ما النتائج؟ أجبت: "الوديان امتلأت حفراً بعمق عشرة أمتار وعرض عشرين متراً وأنفاقنا كلها سليمة"، سألني عن الجرحى والشهداء فأجبت "لا يوجد". وعاد أبو ابراهيم للاجتماع وقال لـ "أبو عمار": "تحدثت مع أبو جهاد أحمد وهو موجود هناك، وأخبرني أنه لا يوجد شهداء ولا جرحى رغم فداحة القصف". هنا ضحك "أبو عمار" وقال له: "معرفتك بأبو جهاد من سنين قليلة، أنا أعرفه من العام

1965. هل سيقول لك عبر الأجهزة اللاسلكية أن هناك شهداء وجرحى؟"، ونظر "أبو عمار" إلى سعد صايل وقال له: اذهب للناعمة والدامور، وأعطنا تقريراً عما حدث. فحضر سعد صايل وعبر الوديان بصعوبة جراء القصف ووصل إلى أحد الأنفاق حيث كنت، ووجدنا نشرب الشاي والقهوة، واندهش وقال: هذا شيء لا يصدق، وقام بجولة في نفق يتسع لمئة مقاتل بأسرتهم، وشاهد المطابخ والمطاعم ومستودعات التسليح ثم اصطحبناه لمواقع أخرى، وغادرنا ونقل لـ "أبو عمار" صورة الواقع.

بعد أيام قليلة اتصل بي "أبو عمار" وقال لي أنه سيأتي لطريق ليشرب القهوة فرحبت به، فحضر وجلسنا وأخبرني أن سعد صايل أعلمه عن هذه المعجزات من الأنفاق والتحصينات وطلب بعض المعدات الهندسية من أدوات حفر وغيرها لتنفيذ ذلك في الجنوب اللبناني، فضحكت وقلت له: "أنت لديك الإمكانات المالية الكبيرة جداً وهذه المعدات موجودة في السوق، وإذا أردت أن نعطيك العناوين ومن أين تحصل عليها جاهزون، وإن أردت في المرحلة الأولى خبراء سنؤمنهم لك، أما أن أعطيك المعدات فهذا صعب ورفاقي سيسخرون إن تم هذا الأمر".

لم يكن لدي مقر في بيروت وكنت دائماً في الجنوب باستثناء مرحلة مؤامرة الانشقاق.

جهدنا كان منصباً على الجنوب اللبناني وسيطرنا على الطريق الساحلي ما بين الناعمة- الدامور كونه طريق مواصلات مهم جداً بين مخيمات الجنوب والشمال. وما وصلنا من مساعدات مالية من العقيد معمر القذافي كنا نشتري به معدات هندسية لحفر الأنفاق.

كان همي اليومي بعد أن شكلنا قوة متحالفة تتلقى التمويل والتسليح من ليبيا أن أدفع الفصائل الفلسطينية لتقليدنا لنشكل مجموعة من القلاع تتعاون مع بعضها البعض فلا يستطيع العدو ببساطة الدخول إلى أعماق بيروت.

حاول البعض منهم البدء بتجربة بسيطة جداً فقامت الجبهة الديمقراطية والجبهة الشعبية بمحاولات، حتى أننا استطلعنا معاً الوديان والجبال التي يجب أن نمسكها يميننا ويسارنا لنكون كلنا مع بعضنا البعض. ولكني لم أنجح للأسف بإقناعهم. لقد نفذوا تجارب بسيطة ووجدوا الأمر صعباً.

أتكلم عن تحصينات في الجبال والوديان وليس عن عمليات، وكان شاقاً للغاية، إضافة إلى أن القيادات ينبغي أن تكون على رأس عناصرها، كما لم يكن سهلاً حفر الجبال والوديان وإنشاء مراكز للتموين والتعبئة من وداي زبقين- لقانا- للصديقين- الوادي الأخضر. وكانت قواعدنا فيها منتشرة إلى الريحان- العرقوب- نهر الحاصباني- لجبل الشيخ.

كنا الوحيدين الذين خضنا هذه التجربة، وكنت أدعو مسؤولي الفصائل العسكريين ليروا ماذا نفعل وماذا أنجزنا. أطلعتهم على الدشم والمغر التي نقاتل منها وكيف نحتمي من القصف.

أنا أدلل هنا أن العدو كان يعمل على إفشال تجربتنا في التحصينات فكثف ضرباته، وكنا قلقين من المنتظر في جنوب لبنان.

وعمل الإسرائيليون على زراعة شبكات للتجسس داخل الساحة الفلسطينية سواء في تنظيمنا أو تنظيمات أخرى. ففي تنظيمنا استطاعوا زراعة أحد الأشخاص واسمه أبو حسين سرور من قرية عيتا الشعب على الحد الفاصل مع فلسطين المحتلة، وكان له دور كبير في بعض الأعمال التخريبية. وفي داخل حركة فتح وكما أخبرني صلاح خلف أبو إياد، ألقى الأمن الموحد القبض على مسؤول إداري يتبع لـ "أبو عمار" كان يبذخ في النوادي الليلية وتبين أنه يتعامل مع العدو الإسرائيلي وأُلقي القبض عليه واعترف بعمالته. وقال ذلك العميل لخليل الوزير إنه لم ينفذ اغتيالات، وقد طلب منه الإسرائيليون دسّ حبات من الرز المسموم في الطعام لـ "أبو عمار" وهو الطعام المحبب إليه، وكانت قد أرسلته له المخابرات الإسرائيلية وخبأه في فرشاة للشعر.

الإسرائيليون أرسلوا سيارات متفجرة للفاكهاني عن طريق عملاء لهم، سواء كانوا فلسطينيين أو لبنانيين وكانت تنفجر في الشوارع. وقصفوا مراكز لقيادات فلسطينية مثل مركز نايف حواتمة في الفاكهاني.

عملية التبادل "النورس" 1979

كنت حريصاً أن ألتقي الأسير الإسرائيلي واسمه أبراهام الذي أسرناه في صور عام 1978 لأعرف معنوياته - وكان منهاراً- وحينها كان مناحيم بيغن رئيس وزراء.

قلت له: هل تستطيع أن تقول في حديث مصور إن مناحيم بيغن أجرم بحق الشعب الفلسطيني منذ نشأته وحتى الآن؟ فأجاب: أنا جاهز.

أعددنا بعض الرفاق من جبهتنا ليظهروا على هيئة صحفيين، وبدأ يشتم أمامهم قيادته.

جرت اتصالات متعددة من جانب الصليب الأحمر لإطلاقه. كانت المفاوضات مباشرة بيني وبين رئيس الصليب الأحمر الدولي في الشرق الأوسط. سألته عن الثمن الذي سيدفعه الإسرائيليون لإطلاق سراحه، فأجابني بعد "فترة" إن الاسرائيليين مستعدون لإطلاق سراح 10 فدائيين هم يختارونهم، فكان جوابي قاطعاً حاسماً، يطلق مقابله 80 أو 100 فدائي ونحن من يختارهم، ولا يحق لهم الاعتراض.

أسمينا العملية بـ "النورس" لأن النورس طير تهتدي به السفن لتصل إلى الشاطئ. أما كيف اخترنا أسرانا وأسيراتنا في المعتقلات الصهيونية فكان على الشكل التالي:

- طلبنا من المنظمات الفلسطينية تزويدنا بقائمة يضعون فيها الأولوية لمن يريدون إطلاق سراحه وفق الأرقام، فرقم واحد له الأفضلية وكنت أخفي أسرار اللقاءات كي لا تصل لـ "أبو عمار" حيث قلقت من عملية تخريب.
- النساء في المعتقلات لهن الأفضلية، فيجب أن لا تبقى أي امرأة في السجون الإسرائيلية، وقد أطلقنا سراح حوالي عشرين مناضلة من السجون الإسرائيلية من مختلف الفصائل الفلسطينية. كان لدينا كجبهة أسرى عند العدو الإسرائيلي ما يقارب 40 والباقي من المنظمات الأخرى، كما أطلقنا سراح قيادات مهمة من كل الفصائل.

تفاصيل التبادل

سافر إلى جنيف عضوا المكتب السياسي عمر الشهابي وفضل شرور ومعهم آخرون حيث أشرفا على دقة التنفيذ. العملية كانت محفوفة بالمخاطر لأن الإسرائيليين يمكن أن يغدروا في أي لحظة.

وكان السيناريو على النحو التالي: ينطلق الأسير الإسرائيلي من دمشق على متن طائرة ليبية إلى جنيف. والتعهد يقضي أن تتم العملية هناك بأمان حيث تحضر طائرة إسرائيلية تحمل (79) رفيقاً ورفيقة إلى جنيف ويتم التفقد بالاسم.

تمت العملية وتحرك الـ (79) مناضل ومناضلة وتوجهوا بطائرة ليبية إلى العاصمة طرابلس ومن طرابلس إلى دمشق، وتوزعوا إلى فصائلهم، وكانت فرحة كبيرة.

عملية النورس هي أول عملية تبادل يرضخ فيها العدو لشروط الجبهة الشعبية- القيادة العامة.

الاجتياح الإسرائيلي للبنان 1982 مقاومة ومساومة

إذا أردنا أن نقرأ في أسباب الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982سنكون أمام التالي:

أولاً: شعور قادة العدو الصهيوني أن سورية كانت وحيدة حيث أن ميثاق العمل القومي قد دُمر والإخوان المسلمين بدؤوا بمخططهم لضرب سورية وإضعاف الرئيس الأسد.

ثانياً: انتصار الثورة الإسلامية في إيران.

ثالثاً: مقتل السادات جعل الصهاينة يعقدون العزم للقيام بضربة استباقية لتعزيز اتفاقية كامب ديفيد وذلك لخوفهم أن من يخلفه قد لا يلتزم بتنفيذ اتفاقيات كامب ديفيد.

رابعاً: وهذا مهم جداً، أننا فقدنا الحاضنة الشعبية اللبنانية التي استقبلتنا عام 1968 في جنوب لبنان وجبل عامل بالأرز والورود ووضعوا أولادهم بتصرفنا.

فقدنا الحاضنة الشعبية جراء تصرفات بعض الأجهزة في فتح. أذكر عندما كانت تتعرض قواعدنا لغارات إسرائيلية في جبل عامل، في وديان عميقة، كان أهالي المنطقة يأتون على بغالهم لمساعدتنا وللاطمئنان علينا وعلى جرحانا.

ولا يمكن أن أنسى كيف قامت قوات من حركة فتح بقصف قرية أنصارية (الشيعية) بالمدفعية، وكيف أن جهاز أمن يقوده (عزمي الصغير) أذل زعماء العشائر في الجنوب. وللأسف سكان تلك المناطق لم يستطيعوا التمييز بين هذا التنظيم وذاك وكانوا يضعوننا كلنا على قدم المساواة، فحركة فتح كانت الأكثرية. أكثر من ذلك أن هذه القرى بدأت تتعامل معنا بقسوة ومنها من بدأ يرفض بيعنا المواد الغذائية، وفي الوديان والجبال أصبحوا ينظرون إلينا نظرة الريبة.

الإسرائيليون أدركوا هذه المعادلة، فعند اجتياحهم جبل عامل لم تواجههم مقاومة. وكنت أرى أمامي ما يحدث حيث هناك من يجلس بسعادة في البيوت المسيطر عليها من العصابات التي تأخذ "أتاوات" في شارع الحمراء وغيره كأمن الـ (17).

الفساد انتشر في بيروت بشكل كبير في هذه المرحلة ودائماً كنت أردد المدينة مفسدة الثورة.

قبل الاجتياح "الإسرائيلي" بفترة تعثرت في أحد الوديان في جنوب لبنان، وتعرضت لكسر فقرات في ظهري ونُقلت إلى بلغاريا للعلاج. لكني كنت متواصلاً مع رفاقي، كنت أحثّهم على حفر الأنفاق وبناء الدشم في الوديان، وأطلب من الفصائل ذلك. وأذكر أنني طلبت من الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية ومنظمة الصاعقة وجبهة النضال الشعبي أن نتشارك في جهود إشادة تحصينات حول بعضنا البعض وهي ما تسمى العقد الدفاعية لمواجهة العدو الإسرائيلي كي لا ينفرد بنا متفرقين.

كنت أحذرهم من أننا إن لم ندرك ذلك سيداهمنا الوقت. وكنت أؤكد أن علينا القيام بواجبنا كي لا يأتي يوم نقول فيه لقد حاولنا لكن الآخرين خذلونا. ولطالما حذرت من أننا في زنزانة ونرتدي اللباس الأحمر ومحكوم علينا بالإعدام في لبنان ولا نعرف متى سينفذ بنا حكم الإعدام.

قلت ذلك في مقابلة مع صحيفة السفير وكنت قد انتقلت من الناحية السرية للعلنية في العام 1976-1977.

حصل الاجتياح الإسرائيلي ولم يكن مفاجئاً لنا رغم أن "أبو عمار" عقد اتفاقاً مع الإسرائيليين عبر الأمم المتحدة عام 1981 لوقف العمليات ونحن اختلفنا حول مع هذا الاتفاق. وكنت وما زلت أتعالج في بلغاريا وزوجتي معي. وقد تضاربت آراء الأطباء بين إجراء عملية أو تثبيت وعلاج طبيعي. وهنا لم أعد أحتمل فطلبت مقابلة مدير المشفى وقلت له بالحرف: أريد أن أغادر المشفى والسفر إلى لبنان. لم أعد أستطع البقاء دقيقة أخرى. فقال لي: "أنت في وضع صعب"، فطلبت منه أن يبلغ اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري أنني سأقفز من أعلى الشرفة إلى الأرض وألقى الموت أفضل من البقاء في هذه الحالة.

حضر لإقناعي بعض أعضاء اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي البلغاري، وتناقشوا مع الأطباء وقرروا تجهيز رداء حديدي خاص (كان يستعمل للمرة الأولى)

وهو عبارة عن مشد يتألف من أسلاك حديدية أرتديه من الرقبة إلى الفخذين وقالو إنه يمكنني الحركة ببطء وبمساعدة العصا.

سافرت من بلغاريا إلى اليونان وكان مطار دمشق الدولي مغلقاً، بسبب المعارك التي كانت تدور فوق سوريا والبقاع. وقد سقطت سبعون طائرة سورية أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان. وبمجرد أن أعيد فتح المطار سافرت إلى دمشق وطلبت من زوجتي أن تتوجه إلى المنزل، وكانت خائفة من أن أغادر إلى لبنان، فقلت لها إنني ذاهب إلى المكتب لأتحدث عبر الأجهزة اللاسلكية مع رفاق.

توجهت إلى لبنان واجتمعت مع القيادة العسكرية في البقاع، ورتبت الأمور ثم صعدت إلى الجبال وأنا ألبس الحزام الحديدي وأتّكئ على العصا. التقيت مع القيادة العسكرية للجبهة، وكان بينهم ابني جهاد، وزودتهم بتوجيهاتي حول أماكن زرع الألغام وبناء "السدادات" ومناطق المواجهة. وقبل مغادرة الموقع إلى بيروت قال رفاقي: "الإسرائيليين وصلوا إلى خلدة، وعليَّ أن أبقى في الجبل".. رفضت وقلت لهم: "العدو الإسرائيلي سيدخل بيروت ونحن سنمنعه من دخولها".

حصل قتال شرس وصمود بطولي هائل من بعض المجموعات الفدائية وخاصة في قلعة الشقيف ومخيم عين الحلوة واستشهد من رفاقنا القائد العسكري لإقليم لبنان أبو خليل البيتم في منطقة صور.

حاصر الإسرائيليون بعض المخيمات، وكانوا يعبرون الأراضي اللبنانية بكل حرية، ودون اعتراض. الحالة بيننا وبين الشعب اللبناني في الجنوب لم تكن طبيعية، والإسرائيليون يعرفون هذه الحقيقة، وكان لديهم عملاء مطلعون على الواقع.

كان الإسرائيليون قد وصلوا خلدة والشويفات قبل وصولي لبيروت. وفي خلدة دارت معارك بين قوات خاصة سورية والإسرائيليين، واستشهد الكثير من الجيش السوري. وقواتنا في الناعمة قاتلت قتالاً شرساً واستشهد عدد من رفاقنا وعلى رأسهم قائد موقع الناعمة الشهيد أبو علي عمر الجريوني.

يشهد الجميع بمواجهتنا للإسرائيليين في جنوب خلدة عند السعديات. قاتلنا واستبسل رفاقنا بين خلدة والناعمة. واجهنا الاسرائيليين ودمرنا لهم آليات، ولكن الذي أثر على معنويات رفاقنا هو الانهيار الكامل لحركة مقاتلي فتح وانسحابهم الكيفي باتجاه بيروت والبقاع، وكان على رأسهم القائدان في فتح "الحاج" إسماعيل في منطقة الساحل و"أبو هاجم" في منطقة القطاع الشرقي.

ظل شبابنا يقاتلون في منطقة الجبل وآزرهم الجيش السوري المتواجد في صوفر وبحمدون.

في وقت حرج جداً دخلت بيروت وأنا على العصا وأرتدي الحزام الحديدي، دخلت عن طريق "خلدة" من طريق فرعي وليس من الطريق الرئيسي. وكانت مناطق الجنوب قد سقطت وبشكل دراماتيكي. وقد فوجئ رفاقي أعضاء المكتب السياسي بدخولي وكانوا ثلاثة وهم: طلال ناجي، يوسف طوبل، فضل شرورو.

وسألتهم عن الوضع فقالوا لي: إنه قد شكلت لجنة خماسية مع "أبو عمار" وسيحضر فيليب حبيب مع شفيق الوزان رئيس وزراء لبنان ليجتمع مع "أبو عمار".

كما أخبروني أن هناك اجتماعاً لقيادات المقاومة العسكريين والحركة الوطنية اللبنانية، فتوجهت وحضرت الاجتماع، وكان المرحوم الشهيد خليل الوزير وسعد صايل موجودين مع مجموعة أخرى من القيادات.

اجتمعنا في قبو لأحد المباني وكنا حوالي الثلاثين شخصاً، ولم يكن "أبو عمار" موجوداً في الاجتماع.

تحدثت وقلت لهم: لقد دخلت بيروت من منطقة خلدة، وشاهدت في الأوزاعي وفي بيروت أن الدفاعات غير واضحة، لذا أقترح تقسيم بيروت إلى قطاعات من حارة حريك باتجاه الشويفات وصولاً إلى البحر والرملة البيضاء والروشة، حتى ميناء بيروت بجوار بناء الفتال، لأن الإسرائيليين أصبحوا على أعالي جبال الشويفات باتجاه بعبدا. أما داخل بيروت وأحيائها فنتركه للحركة الوطنية اللبنانية، ونحن نأخذ المواقع الأمامية لأننا أكثر خبرة ودراية بالقتال.

طبعاً لم يخرج الاجتماع بنتيجة وفشل، وكلهم كانوا يقولون: علينا بقوات مشتركة فقلت لهم: لم نوافق على عمل القوات المشتركة دائماً بسبب ضياع المسؤولية لاختلاف التدريب والروح المعنوية، وما يجب أن نفعل الآن هو أن نتوزع على قطاعات، وكل تنظيم يختار قطاعه.

هذا الاقتراح الهام تم إهماله مما جعلني أترك الاجتماع وأقول لهم: الله يعطيكم العافية افعلوا ما تشاؤون. لم أحضر إلى بيروت لأجلس في قبو من الأقبية.

بدأت أتنقل على العصا وأنا أرتدي الحزام الحديدي من خلدة إلى الأوزاعي إلى حارة حريك وعلى الطريق الساحلي وصولاً إلى تواجد جيش التحرير الفلسطيني في ملتقى سباق الخيل بالتجارة طريق المتاحف. وزرت مقاتلي جيش التحرير واشتكوا لي

أن هذه الطريق مفتوحة أمامهم والدبابات الإسرائيلية بدأت تدخل من جهة الأشرفية- المنطقة الغربية لبيروت.

أرسلت لهم مجموعات من رفاقنا وألغاماً مضادةً للآليات، وزرعناها على الطريق والممرات وكنت مشرفاً على كل ذلك لأنه من الناحية الصحية كان ممنوعاً عليّ التعرض للإجهاد. وعندما كان يراني بعض المقاتلين من المنظمات الفلسطينية الأخرى من المواقع الأمامية يهرعون إليّ ويعانقونني، ويقولون لم يأتِ أحد قبلك ليرى الحقائق على الأرض. وقد وزعت مهام المحاور الأساسية من حارة حريك إلى المتحف على الرفاق "أبو فادي العلماني" و"أنور رجا" و"رامز مصطفى".

جهزنا الدفاعات، وطوال مدة الحصار الذي استمر لثلاثة أشهر كان تقدمهم بطيئاً لوجود مقاومة شديدة، فقد زرعنا الألغام في الرملة البيضاء والروشة وغيرها إلى طريق الأوزاعي- طريق المطار. وقد استشهد خلال عمليات زرع الألغام (أبو جهاد المسلخ) المسؤول العسكري لمنطقة بيروت. كما وزعنا كتيبة الدبابات السورية بشكل منظم في كراجات الأبنية حتى لا تكون لقمة سائغة للإسرائيليين، وأعدنا توزيع المدافع. وكانت الأوامر ألا تخرج الدبابة إلا حين تسمع هدير الدبابة الإسرائيلية لمواجهتها وجهاً لوجه. فتحنا ثغرات في الأبنية لقتال الشوارع ولاستخدام الأسلحة المضادة للدبابات.

تواجد معنا في بيروت اللواء السوري (85) وكان قائده محمد حلال.

كان القصف يشتد وتقدم القوات الإسرائيلية يتواصل وعلينا أن نواجه بكل ما نملكه وقد تقدم الإسرائيليون واحتلوا بيروت وأصبحوا على أبواب الأوزاعي وأمام حارة حريك وحي السلم.

سألت رفاقي الموجودين في حارة حريك وحي السلم إن كان بإمكانهم أسر جنود إسرائيليين من المطار أو من أي مكان، فقالوا: سنحاول، وبعد توجيهاتي للرفاق أسروا قائد دبابة أخذوه من داخل دبابته وأحضروه إلينا وكان يهودياً شرقياً.

قبل يومين من أسرنا للجندي الإسرائيلي، كانت حركة أمل قد أسرت جنديين.

بعد أن أعلن الإسرائيليون فقدان جندي، طلب "أبو عمار" رؤيتي من خلال مبعوثه العقيد سعد صايل وقال لي: اتفقنا مع فيليب حبيب على وقف إطلاق النار في بيروت وسيطبق. وبحث معي مسألة إطلاق سراح الجندي الإسرائيلي فقلت له: "عندما أسرنا جندي في 1978 أطلقنا سراح (76) مناضلاً من السجون الصهيونية في عملية

النورس عام 1979. لا يمكن أن نطلق سراحه دون ثمن. فقال: ما هو الثمن؟ فقلت: يجب إطلاق سراح كل الأسرى الذين تم أسرهم خلال اجتياح لبنان.

عاد والتقاني سعد صايل وقال لي: الأخ "أبو عمار" يهديك السلام ويخبرك أن لدى فتح طيار إسرائيلي أسير سقطت طائرته فوق النبطية من نوع "سكاي هوك" قبل الاجتياح بثمانية أيام فما رأيك أن نضعهما في صفقة واحدة؟

وافقت على هذا الاقتراح على أن أرى الطيار الإسرائيلي وأناقشه، وكان بعهدة "أبو الزعيم" وهو المسؤول عن أمنه وحراسته. توجه معي "أبو الزعيم" إلى المكان الموجود فيه الأسير الطيار. جلست معه ودار بيننا نقاش حاد. سألته لماذا اغتصبوا فلسطين وهل يستطيع أن يثبت تاريخياً أو قانونياً أن هذه الأرض لهم؟ وعندما سألته عن أصله وهو أشقر وعيناه خضراوان قال إن نبوخذ نصر سباهم، وعن معاملته قال: إنها في السماء، وسألته: هل أنت خائف؟ فأجاب بأنه ليس خائفاً وأن القوات الإسرائيلية أصبحت على بعد ثلاثة أو أربعة كيلومترات، فقلت له: لقد أسرنا قائد دبابة من دباباتكم فماذا تقول؟ ابتسم وقال لي: جيشنا ليس بهذه البساطة والسهولة كي تستطيعوا أسر قائد دبابة. أنا أسرت لأن طائرتي أصيبت. وأثناء حديثي معه كنت قد أعطيت إشارة لرفاقي لإحضار قائد الدبابة الإسرائيلي الذي أسرناه وبلباسه العسكري، وكان معي رفيقنا صالح الأبطح وهو يتحدث اللغة العبرية بطلاقة. طلبت من الأسيرين الإسرائيليين أن يسلّما على بعضهما، وبعد أن تحدثا مع بعضهما قلت للطيار الإسرائيلي: ما رأيك الآن؟ هل نحن بروح معنوية منهارة؟ فصمت وقال لي: لا. روحكم المعنوية ليست منهارة، فقلت له: سنلقنكم دروساً لن تنسوها.

للأسف سلم "أبو عمار" الأسيرين الإسرائيليين الطيار وقائد الدبابة دون أي ثمن، وكان المفروض قبل خروجنا من بيروت أن يطلق سراح الأسرى الفلسطينيين في معتقل أنصار وغيره.

كنا نجتمع كل يومين. وكنت أتعب كثيراً وآخذ الحبوب المسكنة للآلام. وكانت قيادات المقاومة الفلسطينية بمن فيهم "أبو عمار" تثمن ذلك. كانوا يحضرون إلى مقرنا حيث أتواجد ونلتقي لتدارس الأوضاع.

في الأيام الأولى من معارك بيروت، كنا في اجتماع قيادات المقاومة الفلسطينية واللبنانية وبحضور جورج حاوي، عبد الرحيم مراد، محسن ابراهيم، نبيه بري، وليد

جنبلاط. وقال لنا وليد جنبلاط: يا إخوان أعطيناكم لبنان (12) عاماً فاتركوه لنا الآن.

مع اشتداد الحصار بدأ "أبو عمار" يروج للاتفاق مع فيليب حبيب للخروج من بيروت رغم وجود لجنة يطلعها "أبو عمار" على المفاوضات التي يجريها مع فيليب حبيب. وقد أبلغ القيادة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية أن المقاومة الفلسطينية ستغادر بيروت.

أذكر أن الأخ "أبو صالح" القيادي في فتح وهو غير منسجم مع سياسة "أبو عمار" كان مؤيداً لمواقفنا، وقلنا له إذا أردتم الخروج من بيروت سنتوجه إلى المخيمات ونستشهد فيها ولن ننسحب. وسألت "أبو عمار" يومها إذا غادرنا إلى بيروت من سيحمي المخيمات وشعبنا؟ قال لي إنه اتفق مع فيليب حبيب أن مراقبين دوليين سيحضرون خلال الساعات القادمة لحماية المخيمات. فقلت له: القوات الدولية كانت موجودة على الحدود ولم تمنع الإسرائيليين من اجتياح لبنان.

رد "أبو عمار": "سنخرج مرفوعي الرؤوس وأسلحتنا بأيدينا" فقلت له: يا "أبو عمار" أين تريد الذهاب؟ أجاب: اتفقنا أن نتوجه إلى تونس- الجزائر- السودان- اليمن الشمالي أو الجنوبي. سألته: وسوريا؟

وفي ذلك الوقت كانت المعارك قوية بين الجيش السوري والإسرائيلي في منطقة نبع الباروك- عين زحلتا- صوفر- البقاع- بيادر العدس- بحيرة القرعون، حيث كان الجيش السوري وطيرانه دون دفاعات جوية. وفي بيروت كان معنا اللواء (85) السوري بكامل كتائبه وكتيبتان من جيش التحرير الفلسطيني.

شدد "أبو عمار" أننا سنغادر إلى تلك البلدان فقلت لماذا لا نتوجه إلى سوريا ونعيد ترتيب أنفسنا؟ فأجابني أن هذا الموضوع يجري بحثه، وعلى السوريين أن يوافقوا، وأن الرئيسين بورقيبة والشاذلي وافقا على استقبالنا.

أحرجني بإجابته، وعندما انتهى اللقاء توجهت مع جورج حبش ونايف حواتمة إلى بيت قريب من مكان لقائنا بـ "أبو عمار" وكان رأينا جميعاً أن هناك مؤامرة كبيرة وتهدف إلى إنهاء الكفاح المسلح وسحب المقاتلين من البقاع والشمال، وأن اتفاق "أبو عمار" وفيليب حبيب غير واضح ولا يخبرنا إلا الخطوط العريضة.

ثلاثتنا صغنا رسالة وبتواقيعنا، ووجهناها إلى الرئيس حافظ الأسد كي يستقبل المقاتلين في سوريا. وأرسلت الرسالة عبر الأجهزة اللاسلكية لرفيقنا عضو المكتب

السياسي عمر الشهابي في دمشق، فسلمها لعبد الحليم خدام الذي أرسلها بدوره للرئيس حافظ الأسد. وقد اتخذوا قراراً في القيادة القطرية لحزب البعث يرحب بقدومنا بمن فينا جبهة التحرير العربية التابعة للعراق. وطلب عبد الحليم خدام اللقاء ببعض القيادات الفلسطينية، فالتقى كلاً من عمر الشهابي من القيادة العامة، و"أبو ماهر" من فتح وصالح رأفت من الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين وأبلغهم بالجواب، وأرسل لي رفيقنا عمر الشهابي برقية شرح فيها ما حصل في اللقاء.

في اجتماعنا الثاني بعد (24) ساعة وبحضور جميع القيادات الفلسطينية، طلبت من "أبو عمار" قراءة البرقية التي وصلته من "أبو ماهر" غنيم فقال: "أي برقية ؟ لم أستلم شيء!".. قلت: "برقية اللقاء مع عبد الحليم خدام حول استقبالنا في سورية". عندها أخرجت البرقية وقرأتها وكنت قد أطلعت جورج حبش ونايف حواتمة على فحواها. وبعدها قلت له: سوريا على استعداد لاستقبالنا، فلماذا نذهب بالمقاتلين إلى أقاصي الدنيا؟ إذا حصل هذا فمعناه أن هناك صفقة سياسية وليس حلا للمشكلة.

فوقف "أبو عمار" أمام الجميع وقال لي: أبو جهاد أنا لا أعمل من تحت الطاولات. يجب أن يعلنوا أنهم على استعداد لاستقبالنا عبر وسائل الإعلام.

كل هذا الحوار الساخن كان يجري والاشتباكات عنيفة ولم تتوقف بل اشتعلت والحصار يستمر.

بعد أن طلب أبو عمار إعلاناً عبر وسائل الإعلام لاستقبالنا في سوريا، أرسلت برقية ثانية إلى عمر الشهابي وقلت له أن يتوجه إلى عبد الحليم خدام ويخبره بما جرى. وفي مساء نفس اليوم كانت وكالة سانا تذيع خبر موافقة الحكومة السورية لاستقبال من يريد من المقاومة بمن فيهم جبهة التحرير العربية. والتقيت "أبو عمار" وقال لي: يا أبو جهاد أنا لا أضع البيض في سلة واحدة ومن أراد الذهاب إلى سوريا فليذهب، ومن أراد الذهاب معي فليأت.

سأضرب هنا مثالاً عن الحرب النفسية التي عشناها قبل الخروج من لبنان.. فقد خرجت علينا صحيفة النهار اللبنانية بصور لمعسكرات مهيأة للفدائيين في سورية تحيط بها أسلاك شائكة وسط الصحراء، أما بقية المقاتلين فهم ذاهبون لتونس الخضراء والجزائر الجميلة.

نحن مع منظمة الصاعقة غادرنا بكل قواتنا إلى سوريا بشكل كامل، أما باقي الفصائل بما فيهم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية، فقد

قسموا أنفسهم إلى قسمين؛ منهم من غادر إلى سوريا ومنهم من غادر مع "أبو عمار". وقد حاول "أبو عمار" إقناع جورج حبش ونايف حواتمة بمرافقته لكنهما رفضا وكذلك رفضت بعض قيادات فتح مثل صلاح خلف وخليل الوزير وتوجها إلى طرطوس.

كان هناك العديد من نقاط الاختلاف بيني وبين "أبو عمار"، منها الخروج من بيروت وحماية المخيمات وكيف نتركها دون حماية وموضوع تبادل الأسرى وكيفية التواجد في لبنان بعيداً عن المدن وأن نستفيد من تجارب أيلول في الأردن عام 1970.

للحقيقة من جانب آخر فإن "أبو عمار" وفي كل الاجتماعات واللقاءات كان يقدرني. ولم أسمع منه في أي يوم كلمة صغيرة تجرح مشاعري بينما كان يقسو على بعض القيادات الفلسطينية. وبالمقابل أنا لم أجرح مشاعره لكني كنت أخطّئه في نهجه وأقول له إن هذا النهج لن يؤدي لتحرير فلسطين.

الخروج من بيروت 1982- إعادة البناء

مقتل بشير الجميّل

خط التسوية – منعطفات فلسطينية حادة

كنت في بيروت عندما انتخب المجلس النيابي بشير الجميل في "الفياضية". واعتبرت أن الهزيمة هزيمتان؛ خروجنا من لبنان، وهزيمة سياسية أخرى أن يصبح بشير الجميل رئيساً للبنان وهو لم يخفِ وجهه القبيح تجاه القضية الفلسطينية بتحالفه مع الإسرائيليين كما أنه قاتلنا مع إيلي حبيقة في حرب الفنادق.

كنا في صراع مرير معهم لذلك كان لما حصل وقع كبير علي وزاد فيه أن قسماً من المسلمين السنّة بدؤوا بمنحه الشرعية.

تحدثت مع قيادات في الحزب السوري القومي الاجتماعي "إلى متى ستصمتون على ما يحصل؟ بشير الجميل لن يصمت عنا كفلسطينيين فقط بل هو خطر عليكم أيضاً. إنه من قال سأجعل الفلسطينيين يدفعون فواتير الكهرباء والماء طوال هذه السنوات، ولن نكتفي بإزالة مخيم تل الزعتر بل باقي المخيمات الفلسطينية.

كنت قلقاً من عهد بشير الجميل وما يمكن أن يحصل ضد شعبنا الفلسطيني وكيف سنتركه أعزل.

اتصل بي صديق لي اسمه نبيل العلم وهو مناضل وثائر في الحزب السوري القومي السوري الاجتماعي وقال لي إنهم يفكرون بعملية ضد بشير الجميل.

كان هناك موعد دوري لبشير الجميل فهو يحضر كل يوم ثلاثاء ويجتمع مع الكادر الحزبي الكتائبي في الأشرفية.

كانت لدينا أجهزة تفجير عن بعد غالية الثمن ونادرة، كنا قد حصلنا عليها من اليابان عن طريق رفاق لنا في الكويت. وقد طلب الرجل استعارة الجهاز وقدمناه له. وكانت المنطقة بين بيروت الشرقية والغربية تعج بالحواجز الإسرائيلية.

وبدأ حبيب الشرتوني بنقل المتفجرات. وقد نقل بحدود (150) كيلوغراماً من المواد العجينية في حقيبة سامسونايت كان يضعها في الكرسي الخلفي للسيارة ثم يخبئها في سقيفة البيت المهجور. وذات مرة وكان مع حبيب فتاة، صادف أن الإسرائيليين فتشوا السيارات التي سبقته بدقة عالية ولكن عند وصول سيارته طلبوا

منه أن يتابع سيره. وقد أدخل حبيب الشرتوني الجهاز في حقيبة السامسونايت. وقبل يوم الثلاثاء بدأ بنقل المتفجرات من السقيفة إلى سطح المكتب الذي ستتم فيه الاجتماعات. أخذ الحقيبة وخرج إلى مسافة (200) متر واتصل بشقيقته وطلب منها الحضور بسرعة مخبراً إياها أنه تعرض لحادث سيارة. وصل بشير الجميّل إلى المكان وتم التفجير.

مقتل بشير الجميل حليف إسرائيل كانت نقطة انعطاف في تاريخ لبنان، فاجتمع اللبنانيون مرة أخرى وانتخبوا أمين الجميل رئيساً للبنان. والمفاوضات التي جرت بين الإسرائيليين واللبنانيين في عهد أمين الجميل في كريات شمونه وخلدة كانت بغطاء عربي وهنا تكمن الخطورة.

بعد مقتل بشير الجميل دخلت قوات نمور الأحرار والكتائب مخيمي صبرا وشاتيلا باتفاق وتغطية من آرييل شارون ونفذت مجزرتي صبرا وشاتيلا.

في العام 1982 غادرنا كل لبنان وكانت الضربة الثانية القاتلة.

الأولى كانت في أيلول 1970 عندما غادرنا الأردن ساحة الصراع الأساسية لتحرير فلسطين. وللأسف لم نخرج من الساحة اللبنانية كمقاومة فلسطينية لإعادة ترتيب أنفسنا لمتابعة النضال بل كان الاتفاق مع فيليب حبيب هو إنهاء الكفاح المسلح وسحب كل المقاتلين من كل لبنان إلى المنافي البعيدة: تونس، الجزائر، السودان واليمن.

الهدف الإسرائيلي في الحرب على لبنان لم يكن إخراج الفلسطينيين فقط بل إخراج الجيش السوري أيضاً. وبعد العام 1982 جاءت القوات الأمريكية والفرنسية والإيطالية لتثبيت الاحتلال الإسرائيلي. رئيس وزراء الاحتلال الإسرائيلي آنذاك مناحيم بيغن تحدث عن ثلاثة شروط:

أولاً: الانسحاب الفلسطيني الكامل إلى المنافي البعيدة من لبنان بما في ذلك البقاع والشمال.

ثانياً: انسحاب الجيش السوري.

ثالثاً: قيام نظام في لبنان يعقد مع (إسرائيل) اتفاق صلح واعتراف وتطبيع. تخيلوا هذا الوضع المأساوي: سوريا تلملم جراحها من مؤامرة الإخوان المسلمين، والاتحاد السوفييتي في مرحلة نزاع الموت، والمقاومة الفلسطينية تغادر إلى المناطق البعيدة!

عقدت قمة فاس في عام 1982. طبعاً نحن وبعض التنظيمات أصدرنا بياناً ضد قرارات المؤتمر واعتبرناه تصفية لحق العودة. وفي المؤتمر تم استقبال ياسر عرفات في المطار من جانب كل الزعماء العرب إلا الرئيس حافظ الأسد فقد رفض أن يخرج لملاقاته. وبعد عودة الرئيس حافظ الأسد التقيت به وسألته عما حدث فقال ليّ: رفضت أن أذهب إلى المطار في المغرب مثل كل زعماء العرب لاستقبال ياسر عرفات فقد دفعهم لذلك الملك الحسن.

وأضاف: عندما افتتحت الجلسة وأصبحت سرية وقف الملك الحسين وقال لقد ثبت أن إسرائيل حقيقة وواقع ونحن غير قادرين أن نحاربها، وهي تحتل لبنان، وأنا خائف على لبنان إن لم نتحرك بسرعة لإنقاذه سيكون مصيره كالجولان والضفة الغربية، وستقيم فيه إسرائيل المستوطنات لأن لديها أطماع في مياه الليطاني. وأضاف الملك حسين: لذلك أقترح أن نمنح لبنان تفويضاً للمفاوضات المباشرة مع الإسرائيليين من أجل الانسحاب من لبنان.

وهنا رفع الرئيس الأسد يده كما قال لي، فأغلق رئيس الجلسة متابعة الحديث بما طرح.

بعد مؤتمر القمة عام 1982 جاء "أبو عمار" إلى دمشق ليتابع اتفاق فيليب حبيب لخروج الفلسطينيين، ليس فقط من بيروت وإنما من الجنوب والبقاع والشمال أيضاً. وأخذ يسحب المقاتلين من البقاع ومن الشمال بالتزامن مع ظهور ترويج عن الحياة في تونس والقول إنها أجمل من الحياة في لبنان، حيث الطبيعة ومتع الحياة وراتب 800 دولار. وقد بدأ بعض المقاتلين في البقاع والشمال اللبناني بالمغادرة بالزوارق إلى قبرص وبالاتفاق مع الحكومة القبرصية حيث يستقلون الطائرات إلى تونس.

هنا بدأت أشعر بالخطر الكبير. لكن كان يخفف من ذلك وجود التيار داخل حركة فتح تيار "المئة" شخص الذي يتزعمه أبو صالح "نمر صالح" رحمه الله. فوثقنا العلاقة معه ومع "أبو موسى" و"أبو خالد العملة" وآخرين. واشتد الخلاف وبدأت مواجهات "أبو صالح" و"أبو موسى" مع "أبو عمار" في مواجهة برنامجه لترحيل وتفريغ البقاع والشمال. وكنا في الجبهة ندرك أنه بمجيء ياسر عرفات إلى سوريا كان قد اتخذ قرار تهيئة الأجواء لترحيل ما تبقى من مقاتلي حركة فتح. وكان قبلها قد أرسل العقيد سعد صايل إلى لبنان فاستشهد. ونحن حتى الآن لا نعرف ملابسات استشهاد

سعد صايل. وقد ربطتني به علاقة صداقة وكنت أراه إنساناً لطيف المعشر ونقيّ المعدن.

اتخذ أبو عمار قراراته المشهورة بعزل مجموعة من الضباط من مسؤولياتهم من قوات اليرموك في البقاع وفي الشمال، فرفضوا تنفيذ القرارات. وهنا تحركت بعض أجهزته الأمنية والعسكرية لقمع التمرد، وكذلك لمواجهة صبري البنا وقواعده السرية التي أصبحت علنية في البقاع. وحاولت الأجهزة الأمنية والعسكرية الهجوم على قواعد لصبري البنا فأنجدناهم واعتقلنا بعض رموزهم وأطلق سراحهم فيما بعد. واستشهد لنا مجموعة من الرفاق بينهم قائد وحدة الدبابات. وعندئذٍ شعرنا نحن في الجبهة الشعبية- القيادة العامة- أن من واجبنا أن نحمي الظاهرة الصحية التي تقف في وجه إنهاء الكفاح المسلح والانخراط في عملية التسوية السياسية. وحدث تأزم في علاقة "أبو عمار" مع سوريا، واعتبر أن المتمردين كما سماهم لديهم ضوء أخضر من سوريا، فبدأ يتحرش إعلامياً بالدولة السورية ويتهمها بمحاولة اغتياله في منطقة طلوع الثنايا على طريق دمشق حمص، فاتخذت القيادة السورية قراراً بإبعاده من سوريا وغادر خليل الوزير إلى طرابلس لبنان وتمت سيطرة حركة فتح- الانتفاضة- على القواعد في البقاع.

خروجنا من بيروت كان حافزاً لنا للتطوير، وقد سهلت لنا سوريا الحركة على أراضيها فأنشأنا معسكراً في منطقة الريحان شرقي مدينة دوما، وافتتحنا مركزاً للأبحاث العلمية بخبرات فلسطينية وسورية.

تطور نوعي ومقدمات الطيران الشراعي

منذ البداية في عملنا العسكري استعملنا الأجهزة اللاسلكية. لم يكن أحد من المقاومة الفلسطينية يستعملها. كما أننا أول من استخدم مناظير الرؤية الليلية في المقاومة الفلسطينية. وحين كنا نمتلك خبرة التفجيرات عن بعد لم تكن لدى باقي الفصائل أي دراية بذلك. وقد كنا نقوم بالتفجير على أساس الخلايا الضوئية.

منذ كنا في الأردن تطورنا في عملنا واجتهدنا كثيراً في القضايا العلمية. وبعد العام 1982 بدأنا بتصنيع طائرات خشبية وشراعية لا يستطيع الرادار كشفها، وتتسع لشخصين. واستطعنا أن نتواصل مع خبير هو الأستاذ مروان لوستان بولوني الجنسية

لتطوير عملنا. كنا نعمل حتى الثالثة فجراً وحاولنا صناعة غواصة تتسع لشخصين وتبحر تحت الماء وجربنا تصنيع طائرة هيلوكوبتر.

أنشأنا جناحاً لتصنيع الطائرات الشراعية، وأرسلنا بعض الرفاق للبحث في أوروبا عن هذه الطائرات وشرائها عن طريق اليونان، حيث كان محظوراً في سوريا. حصلنا على طائرات شراعية ولكنها كانت تتسع لشخص واحد وكان علينا الخروج إلى مناطق جبلية كي نستطيع الطيران كون تلك الطائرات لا تمتلك محركاً. وكانت هناك صعوبة لشخص أن يخاطر بحياته وهو لا يمتلك بعض الإرشادات الكتابية.. أضفنا محركاً للطائرات الشراعية بإشراف اللجنة العلمية ولم تكن عملية سهلة.

واستشهد رفيق لنا أثناء تجربة هذه المحركات ولكن في النهاية أحرزنا تقدماً وأصبح لدينا فريق علمي. ابني كان في "البكالوريا" عندما شكلنا هذا الفريق وكان من ضمنه. وقد هوت طائرته الشراعية من فوق جبل وكسرت كتفه وأسنانه ونقلناه يومها إلى مشفى الرازي بدمشق.

مررنا بمراحل صعبة حتى أصبح لدينا فريق للطيران. ثم عرفنا بوجود طائرة جديدة أمريكية اسمها "جايرو" وتحايلنا كثيراً كي نحصل عليها. تلك الطائرة مثل الهيلوكوبتر ولكنها أصغر، والتدريب عليها أسهل وهي سريعة جداً وتصل سرعتها إلى 100 كيلومتر في الساعة ولها القدرة على التحليق على ارتفاعات عالية ثم تطفئ محركها وتهبط بشكل شراعي لتفاجئ العدو الإسرائيلي، حيث أنه لا يمكن سماع هديرها. حصلنا على واحدة وطورناها لتحمل رشاشاً وتستطيع تنفيذ عملية استشهادية. ثم انتقلنا إلى التدريب الليلي على الطائرات الشراعية. لم يكن هذا سهلاً حيث تحدد عالمياً حركة الطائرات الشراعية بساعة محددة (مثل الساعة الخامسة عصراً). كنا نتجاوز هذه الأنظمة والقوانين ونطير ليلاً الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً. ثم استطعنا أن نسيّر أربع طائرات شراعية سويةً بحيث تطير كل اثنتين بقرب بعضهما، وهذه العملية لم تكن بسيطة وتطلبت مجهوداً كبيراً. وكنت في منتهى السعادة عندما نفّذ البيان العملي أمامي في "حوش الفارة" بالقرب من دمشق ونسميه الجليل.. فقد حلقت الطائرات بعيداً عن المعسكر لحوالي 30 كيلومتراً وكنت أنتظرهم. وكان يفترض أن يعودوا بتشكيل معين ويحطوا على مهبط صغير. انطلقنا إلى موقع الهبوط. انتظرناهم ولم نشعر بهم. واعتبرت أنه انتصار. وكان من بين هؤلاء الطيارين خالد أكر وميلود بن نومة اللذان نفذا عملية الطائرات الشراعية في معسكر

غيبور في الجليل الفلسطيني المحتل. ونفّذ أحد الرفاق بيان بالجايرو الأمريكية التي نصبنا عليها رشاش (106) وعلى ما يبدو أنه انخفض أكثر من اللازم واصطدم بالأرض واستشهد أمامي.

كنا نمر بأيام حزينة أثناء هذه التجارب والتدريبات، ونفرح عند تحقيق النجاح. وقد واصلنا التدريب إلى أن وصلوا بالطيران لمسافه 30 كيلومتراً مع القدرة على استخدام سلاحهم والاشتباك مع الهدف للانقضاض عليه ببنادقهم المعدلة.

كنت متابعاً لكل التفاصيل الصغيرة والكبيرة. وعملت على تسهيل كل العقبات من حيث جلب القطع وغيرها حيث كنا نرسل المهندسين إلى أوروبا لجلبها. حقيقةً تعذّبنا كثيراً وسقط لنا ثلاثة شهداء أثناء التدريب على الطيران الشراعي.

في ذات الوقت كانت إسرائيل قد أنشأت حواجز الكترونيةً على طول الحدود ووزعت ألغاماً. وكان هذا الحاجز مشكلة لنا بشأن كيفية تجاوز الألغام والطرق المحددة. جمعت خيرة مهندسي الالكترونيات والكهرباء في سوريا ومنهم رفيقنا الدكتور كمال ناجي عميد كلية هندسة الكهرباء في جامعة دمشق. وقد جمع المهندسين كي نستطيع معرفة هذا السياج الأمني من أجل الاستمرار في قتال العدو الإسرائيلي. توصلنا أن كيان الاحتلال يبيع إسبانيا مثل هذه الحواجز فأرسلنا الرفاق إلى إسبانيا لشراء حاجز لمزرعة أو لبيت ثم يرسله إلينا لنقوم بتفكيكه ودراسة خواصه.

كنا نطور أسلحتنا في مركزنا العلمي بحيث ومن الصعب الحفر للألغام في الطرق الإسفلتية. استخدمنا الإشارات الضوئية عندما يُقطع الضوء تندفع الصواريخ من جانب الطريق لضرب الدبابة أو الآلية أو حين تطأ الآلية على مسطرة بلون الإسفلت.

اشترينا من بولونيا بنادق معدلة تستطيع رمي القنابل اليدوية إلى مدى مئتي متر وقنابل ضد الآليات الخفيفة لمسافة 150 متر. هنا أقول إن هذا الجهد الكبير الذي بذلناه لقتال العدو الإسرائيلي كان لرفضنا الصعود إلى قطار التسوية، وأسميته قطار التيه.

لم نستسلم للتعب بل واصلنا تطوير قواعدنا وكوادرنا وأرسلنا قبل عام 1982 وبعده رفاقاً لنا إلى الكلية الحربية في ليبيا. وكنا كل سنة نرسل 10 إلى 12 شاباً يتخصصون في العلوم العسكرية ومنهم ابني جهاد الذي خضع لدورات أكاديمية في

الصاعقة والكوماندوس والمظلات. وعندما يتخرج هؤلاء الشباب كضباط من الكلية الحربية كنا نخضعهم لدورة في حرب العصابات وكنت أشرف عليها شخصياً. كما أرسلنا من نريد إعدادهم كطيارين حربيين فقد كنا نعد لليوم الذي نحصل فيه على طائرات من ليبيا ونرسلها في عمليات استشهادية. وقد تدرب شبابنا على طائرة الميج 21 والميراج الفرنسي.

استشهد في ليبيا رفيقانا الطياران مروان عباس ومحمد علقم فوق منطقة أوزو.

كنا نعد أنفسنا في البحر والجو وبشكل نظامي وفي مراكز أبحاثنا ونفكر ليل نهار بتصعيد القتال ضد العدو كي نقول لشعبنا الفلسطيني إن هذا طريق التحرير وليس الصعود إلى قطار التسوية.

وفي اتجاه موازٍ كانت القوات البحرية في الجبهة تتدرب في دورات خارجية على عمليات الضفادع. وقد أرسلت ابني خالد ذات صيف وهو في المرحلة الثانوية- الصف الحادي عشر- ليتدرب في ليبيا، وهناك تعلم الغطس تحت الماء وكيفيه وضع الألغام.

معارك الجبل وإسقاط اتفاق 17 أيار 1983- 1984

رغم القرار 425 الصادر عن مجلس الأمن القاضي بالانسحاب القاضي بالإنسحاب الإسرائيلي من لبنان دون قيد أو شرط، توصل أمين الجميل إلى اتفاق مذل أسوأ من اتفاقية كامب ديفيد هو اتفاق 17 أيار. 1983/5/17.

الاتفاق ينص على السماح بمحطات إنذار إسرائيلية فوق جبال الباروك وجبال جنوب لبنان وتحديد قوام وسلاح الجيش اللبناني الذي سيتواجد في الجنوب اللبناني. وعرض أمين الجميل الاتفاق على مجلس النواب ووافق عليه الجميع عدا النائبين زاهر الخطيب ونجاح واكيم، وبقي توقيع أمين الجميل للتصديق عليه. وغادر لبنان إلى سوريا كل من جورج حاوي، معروف سعد، وليد جنبلاط ومحسن ابراهيم.

بعد أن وافق البرلمان اللبناني على اتفاق 17 أيار التقيت مع الرئيس حافظ الأسد وكان الجيش الأمريكي المارينز والإيطالي قد تم وضعه في بيروت. وقلت له: "يا سيادة الرئيس ماذا بعد؟ ماذا ننتظر كأمة؟ صحيح أنكم قاتلتم بشجاعة ورجولة معنا في معركة لبنان، ولكن الآن الإسرائيليون في دير العشائر قريبون من قطنا وفي بيادر العدس وعند بحيرة القرعون وفي كل بيروت". وأضفت: إنهم والله قادمون إليكم يا سيادة الرئيس. هذه المحاولات المستمرة التي استهدفت سوريا بعمليات الإخوان

المسلمين بالتعاون مع صدام حسين وتنسيق ميثاق العمل القومي وإقالة أحمد حسن البكر، كلها تدلل وبوضوح أنكم ستكونون الهدف التالي. لكن الهجوم خير من الدفاع.

فشرح لي الرئيس حافظ الأسد بعض العقبات وأهمها وضع الاتحاد السوفييتي صديق سوريا وكيف أنه ينازع وما قبل الموت.. قلت له: ليس أمامنا من طريق آخر، فردّ الرئيس الأسد: "أنا لا أنام الليل وأنا أفكر بما سنفعل"، ثم سألني: هل نستطيع باعتقادك؟ قلت: ليس لنا خيار آخر يا سيادة الرئيس. فأضاف: نحن والله لا نملك لا المال ولا السلاح لمثل هكذا برنامج. فقلت: "إن كنت موافقاً فسأذهب إلى ليبيا وأقنع العقيد معمر القذافي والقيادة الليبية بهذا الطرح".

سافرت إلى ليبيا والتقيت العقيد معمر قائد ثورة الفاتح رحمه الله و قلت له: أنت قلت إن قطار الموت سيصل إلى كل الدول العربية.. لنأخذ الآن فرصة ونقاتل قطار الموت هذا قبل أن يصل إليكم.

وأوضحت له أننا نريد السلاح لنا وللبنانيين الوطنيين وهم أغلبهم موجودون في سوريا، فطلب من "أبو بكر يونس" رحمه الله تحميل سفينة بكل أنواع الأسلحة لتتحرك إلى الموانئ السورية، وسألني وماذا عن المال؟ أجبته: أنا يمكن أن أتحمل مسؤولية توزيع السلاح على الفصائل الفلسطينية التي تريد أن تقاتل ولا تقبل بالهزيمة، وأيضاً على الأحزاب الوطنية اللبنانية الموجودة. أما المال فاعذرني. لا أستطيع استلامه والقيام بهذه المهمة. وأضفت أن ليبيا كانت تعطي الجميع أموالاً وأسلحة، ومن الأنسب أن لا يكون ذلك من خلالنا. لا نريد أن يعتقد البعض ذات يوم أننا تلاعبنا بذلك. ولا نريد أن نضع أنفسنا موضع الشك.

وهذا ما حصل، فقد حضر إلى طرابلس وليد جنبلاط وجورج حاوي وإنعام رعد وعبد الرحيم مراد وعمر حرب وأخذوا حقائب المال.

وقال لهم العقيد معمر القذافي: أرسلنا إلى الأخ أحمد جبريل السلاح والسفن تحركت.

عدت واجتمعت بالرئيس حافظ الأسد وأخبرته ما حدث بالتفصيل، فَسُرَّ الرئيس حافظ الأسد وقال بأنه سيعزز الجيش السوري في البقاع والجبل وقرب صوفر والفالوغا. وبدأنا نتصل بالأحزاب الوطنية ونسأل عن احتياجاتهم من سلاح وتدريب وعتاد.

وبدأت المقاومة اللبنانية ببعض العمليات داخل بيروت- عملية الويمبي للقومي السوري في الحمراء، وقُتل فيها عدة إسرائيليين. ونحن كنا نساعدهم وندربهم ولكن هم من يقومون بالتخطيط والتنفيذ.

طلبت من الرئيس حافظ الأسد أن يدعو عبد الحليم خدام وكان قد أصبح نائباً للرئيس، لاجتماع القوى الفلسطينية واللبنانية الراغبة في إسقاط اتفاق 17 أيار.

واجتمعنا عند خدام كلبنانيين وفلسطينيين وتحدثنا كيف نسقط اتفاق 17 أيار ونواجه الهجمة الأطلسية الإسرائيلية. ورغم وضع الجمهورية الإسلامية الإيرانية وخوضها حرباً قاسية جداً مع العراق إلا أن الإمام الخميني رضوان الله عليه أرسل عبر سورية سرية أو أقل من كتيبة من الحرس الثوري الإيراني وتمركزت في البقاع في ثكنة تدعى "ثكنة عبد الله".

عند عبد الحليم خدام ناقشنا سبل العمل للمواجهة، واتفقنا على مواجهة اتفاق 17 أيار سياسياً وعسكرياً.

في لقاءاتنا مع الحركة الوطنية اللبنانية بدأنا نرتب أمورنا ونحشد قواتنا. وكان السلاح يتدفق من ليبيا فنفرغه في الموانئ السورية ونوزع على الحركة الوطنية اللبنانية.

اتفقنا مع القيادة السورية أن تسندنا بالمدفعية إن احتجنا. وأذكر جيداً أني ذهبت إلى منطقة الفالوغا مع بعض الكوادر القيادة العسكرية في جبهتنا للاستطلاع ودراسة الموقف العسكري. كانت حاملات الطائرات الأمريكية والسفن والمدمرات الأمريكية والفرنسية وطائرات الهيلوكوبتر الحربية تملأ السماء. وشعرت أن رفاقي أصابهم بعض القلق.

مساءً جلسنا سوية وقلت لهم: أنا صريح معكم وشعرت بقلق انتابكم عندما شاهدتم السفن المعادية والطائرات من حدود صيدا إلى جونية. وأنتم ربما تتساءلون هل نستطيع هزيمة كل هؤلاء مع الجيش الإسرائيلي؟! فقالوا: نعم، نحن قلقون، فقلت لهم: من تجارب التاريخ إن الله معنا وهذه قناعتنا وإن لم نقم بهذا ففي الغد سيكون الوضع أكثر تعقيداً. فلنبادر نحن بالهجوم. أنا قاتلت في الجيش السوري وفي الأردن، كنت أتخيل أن القذائف التي تطلقها السفن الإسرائيلية والأمريكية والفرنسية وكذلك الطائرات كأنها تصطدم مع بعضها البعض بسبب غزارتها.

التقيت مع وليد جنبلاط مراتٍ متعددة ونسقنا في معارك الجبل. وكان يتواجد في الجبل الجيش اللبناني ومركزه في سوق الغرب، وقائد التشكيل فيه الجنرال ميشيل عون. وكان مركز سمير جعجع في منصورة بحمدون.

بين الفصائل الفلسطينية واللبنانية كنا نحن كجبهة القوة الأساسية. وشهد بذلك وليد جنبلاط وقال مرات متعددة إن القيادة العامة كان لها الأثر الكبير والهام في معارك الجبل حتى الوصول إلى بيروت.

وقدمنا الشهداء القادة والعناصر وكان ابني جهاد حينها في الكلية الحربية وقد حضر بإجازة وشارك في القتال كعنصر ضمن فصيل وليس كقائد. وكان خالد يرمي على المدفعية والراجمات. استطعنا أن نحقق مكاسب على الأرض رغم مشاركة الطيران الأمريكي والأطلسي والإسرائيلي في مهاجمتنا وليس فقط أمين الجميل وجيشه، وسقطت طائرتان أمريكيتان في منطقة صنين وأسر الجيش السوري طياريهما.

خضنا معركة سوق الغرب في مواجهة اللواء الثالث الذي كان يقوده الجنرال عون. كانت معركة قاسية للغاية، لكن كانت تحزنني الممارسات البعيدة عن الأخلاق الثورية التي انطلقت من الغرائز أثناء حرب الجبل بين إخواننا المسيحيين والدروز.

في بحمدون والشوف يسكن أيضاً مسيحيون. أخوتنا الدروز قتلوا بعض هؤلاء. وكنا نجد الجثث على أطراف الطرق. نحن حمينا المسيحيين وقدمنا لهم الطعام والعلاج، وكنت أنقلهم بسيارات إلى زحلة والبقاع، منهم جنود في الجيش ومدنيون. وقد أسرنا مجموعات من اللواء الثالث صف ضباط وجنود. ولم أعتبرهم أسرى حرب. ألبستهم اللباس المدني وقلت لهم: اذهبوا الله معكم. حتى أن أحد الضباط المحليين من قوى جنبلاط شعر بحمايتنا للمسحيين فحاول حصار موقع لنا، فاتصلت بوليد جنبلاط وقلت له: إذا لم تسحب هؤلاء فسنشتبك معهم ومن ثم سننسحب من المعركة لأننا لا نريد حرباً قذرة. فأصدر تعليماته للابتعاد عن الموقع.

كنا نقاتل بشرف. وكانت رسالتي أن يعلم المسيحيون أن هناك فلسطينيين هدفهم فلسطين. كنت أشعر أن هذه ليست بحرب. هذه الحرب لا تحضنها الأخلاق.

دخلنا مراكز قيادات سمير جعجع في منطقة الشوف والجبل وقد تركها هارباً، وإن قرأ كلماتي فسيتذكر.

اقتحمنا غرف عملياتهم بعد معركة سوق الغرب. دخلنا إقليم الشحار المشرف على بيروت- الشويفات. وفي تلك الآونة حصلت في بيروت محاولة انتفاضة لإعادتها للحضن الوطني لكن قمعها اللواء السادس اللبناني.

عندما وصلنا إلى إقليم الشحار فتحنا طريقاً بيننا وبين الضاحية. وقوتنا كانت محدودة جداً في بيروت. وكان الأستاذ نبيه بري- حركة أمل- في الضاحية، فأرسلت لهم على عجل سيارات مليئة بالأسلحة مكتوب عليها الجيش الليبي، فأرسل لي: أرجوك "أبو جهاد" أخرج الأسلحة من الصناديق ولا تظهر أنها من ليبيا بسبب قضية موسى الصدر.

فأخرجنا الأسلحة من الصناديق ونقلناها بأكياس خيش.

نجحت الانتفاضة الثانية في السيطرة على بيروت الغربية، وشارك فيها ضباط وطنيون. وعادت بيروت الغربية وسقطت الشويفات وخلدة، وفُتح الطريق إليها.

في ذلك الوقت نُفذت عمليتان كبيرتان في بيروت؛ الأولى ضربت قوات "المارينز" قرب المطار، والثانية استهدفت مبنيين للقوات الفرنسية والأمريكية في بيروت الغربية. وقبلهما عملية استشهادية في البرج الشمالي دمرت مركز القيادة الإسرائيلي.. هذه العمليات دفعت القوات الأمريكية والفرنسية للهرب.

عملية الجليل لتحرير الأسرى 1985- حرب المخيمات

عملية التبادل في عام 1985 والتي أطلقنا عليها اسم "عملية الجليل" لم يكن هدفها استعراضياً، ولم نسمّها باسم شهيد من الجبهة ولا تسميات أخرى. أردنا أن نقول إن الجليل فلسطيني- عربي، والدفع إلى استنهاض شعبنا داخل فلسطين وأن دورهم ريادي في تواصل الاشتباك مع العدو. وعملياتنا الاستشهادية كانت تضم فدائيين من سورية والعراق للنهوض بالواقع الفلسطيني وترابطه مع الوضع العربي. وكذلك أردنا أن نقول في عملية الجليل أننا لا نقايض على القيم والمبادئ. وعندما طرح العدو علينا أن نتخلى عن المطالبة بالثائر الياباني أكوزوموتو ومقابل ذلك يطلق سراح من 50- 100 بدلاً عنه رفضنا بشدة.

سعينا في عملية تبادل الجليل ألا نترك في سجون الاحتلال أي فلسطيني من فلسطينيي العام 1948 الذين يحملون جنسيات "إسرائيلية" وعددهم حوالي 57

مناضلاً. ولم نترك أية امرأة في المعتقل، وكذلك من الضفة الغربية وغزة ولبنانيين وعرب. وممن أطلقنا سراحهم أصبحوا قيادات في المقاومة الفلسطينية.

كان لعملية الجليل أهداف كبيرة جداً، وقد مرت بمراحل معقدة وحررنا فيها 1155 مناضلاً ومناضلة. وقد استمر التفاوض لعامين مقابل ثلاثة جنود إسرائيليين. وهناك خمس محطات مرت عملية التفاوض بها وهذا يظهر مدى تعقيدها.

فوجئنا صباح تنفيذ العملية بتحرك قوات عسكرية تابعة لفتح والديمقراطية من مخيم شاتيلا ودخلوا إلى الفاكهاني وصولاً إلى جسر الكولا في المنطقة الفاصلة مع الطريق الجديدة واستولوا على هذه المنطقة.

هنا استنفرت السلطة والقوى اللبنانية وتحركت حركة أمل- وكانت القوة الرئيسية- ودارت معارك عنيفة في الفاكهاني وجسر الكولا. وتراجعت القوات الفلسطينية إلى شاتيلا حيث تمت محاصرتهم.

بدأت حركة أمل محاولاتها للدخول إلى مخيم شاتيلا وهذه الوقائع كلها حدثت في ذات اليوم الذي تمت فيه عملية تبادل الجليل، وركز الإعلام على الاشتباكات وتجاهل عملية الجليل.

عودة القوى الفلسطينية إلى الفاكهاني لم يكن بقرار متفق عليه، ولولا هذا التحرك لما حصلت حرب المخيمات. وكان الاتفاق بعد عودتنا إلى مخيماتنا في لبنان ألا نغادرها ونستجر التجارب السابقة. وكنا قد شكلنا في العام 1985 تحالفاً فلسطينياً عماده الأساسي "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة، الجبهة الشعبية، حركة فتح الانتفاضة، جبهة النضال، الصاعقة، الحزب الشيوعي الثوري". وأطلقنا عليه تسمية جبهة الإنقاذ لإنقاذ الوضع الفلسطيني رداً على حوار "أبو عمار" مع أمريكا وظهور معالم صفقة للتسوية.

في حرب المخيمات كنا في "الشويفات" مشرفين على القوات العسكرية، ولنا داخل مخيم شاتيلا قوات من رفاقنا في الجبهة. وأرسلنا بعض الكوادر القيادية لدعم وإسناد رفاقنا. وكان الرفيقان ابني جهاد- رحمه الله- وأنور رجا يشرفان عليها. وهنا أتذكر العمل النوعي الذي قام به الشهيد "أبو جابر" الحلبي رغم أن يده كانت مقطوعة وكان لعمله البطولي هذا أثر مباشر في سير هذه الأحداث المؤسفة. وقدمنا لهم الدعم

المدفعي والصاروخي للدفاع عن هذه المخيمات سواء برج البراجنة أو مار الياس أو شاتيلا.

وكانت تعليماتنا صارمة أن لا تجاوز من المخيم حتى إلى المدينة الرياضية حتى لا يحصل أي احتكاك مع لبنانيين في المرحلة الحساسة.

في شاتيلا دارت اشتباكات شديدة للغاية وحاصرت حركة أمل مخيم شاتيلا. وكانت القوات الخاصة في الجبهة الشعبية- القيادة العامة هي القوة الأساسية التي تقاتل دفاعاً عن المخيم، هي ومسؤولها الأول السياسي والعسكري الرفيق أبو أكرم "جمعة العبد الله".

ازدادت حدة الاشتباكات مع حركة أمل وانتشرت باتجاه الجنوب نحو عين الحلوة والمية ومية. وأصبحنا في ظرف صعب، وكان همنا وهدفنا الدائم مواجهة الإسرائيليين، وإذ بنا نغوص باشتباكات مع الأخوة في حركة أمل.

لعب صمودنا دوراً في وقف الحرب. والنقطة الأخرى أن الطلائع الأولى لحزب الله والأخوة في الحرس الثوري الإيراني من رجال الدين الشيعة في مخيم برج البراجنة وكل لبنان، أصدروا فتاوى تحرم الحرب وتطلب من حركة أمل أن توقفها. وأثناء حرب المخيمات فوجئت أن الجبهة الشعبية غادرت جبهة الإنقاذ الفلسطينية.

تأزمت العلاقات بيننا وبين الأخوة في سورية وظهر ذلك في اجتماع لجبهة الإنقاذ الفلسطينية مع الرئيس حافظ الأسد وكنت موجوداً فيه. واعتبر الرئيس حافظ الأسد أننا نتحمل مسؤولية الحرب.

حاولنا أن نشرح له أن هذه المعركة حصلت من فئة مهزومة موجودة في تونس، وأن بقاياها هم من فجر الحرب. وكانت هناك صعوبة في تفهم موقفنا.

لم تكد تنتهي حرب المخيمات في عام 1988 حتى دعا "أبو عمار" إلى مجلس وطني فلسطيني في الجزائر واستطاع أن يضم جورج حبش لمشاركته في المجلس.

بالنسبة لنا كان آخر مجلس وطني فلسطيني حضرناه في عام 1983 وألقيت فيه كلمة قلت فيها: هذا آخر مجلس وطني سنحضره لأنكم تسيرون باتجاه الاعتراف بالقرار (242) لتصفية فلسطين واللاجئين.

ثم ذهبوا إلى الجزائر ونحن قاطعنا هذا المؤتمر في الجزائر.

دور قومي للجبهة الشعبية – القيادة العامة في ليبيا صحراء "أوزو" 1987

بدأت مراحل التهافت للتواصل بين منظمة التحرير الفلسطينية مع أمريكا في تونس تزداد وتائرها . ولم يكونوا خجلين من اللقاء بسياسي أمريكي من الدرجة الرابعة، واعتبروا ذلك مكسباً كبيراً، أن تعترف أمريكا بمنظمة التحرير. وكانت هذه المفاوضات إذلالاً وتنازلات من قيادة منظمة التحرير التي يرأسها الأخ "أبو عمار" .

بدأنا في الجبهة نستشعر الخطر على المستوى السياسي حيث أن هناك انحرافاً مكشوفاً من القيادة المتنفذة في منظمة التحرير والتنازل بدا واضحاً . وهنا جرت أحداث كبيرة في ليبيا التي كانت كلمة سر ثورتها ثورة الفاتح هي القدس. وقفت معنا وقدمت لنا ولكل الفصائل الفلسطينية ولفصائل الحركة اللبنانية الوطنية المال والسلاح، ولم تبخل علينا، وبدأت تتعرض لمخاطر كبيرة. ومع اشتداد الهجمة على ليبيا من تشاد بدعم أمريكي من الحدود التشادية وقسم من النيجر في الجنوب اتسعت المخاطر على حدود طولها ليس أقل من ألف كيلومتر وليس بمقدرة الجيش الليبي أن يواجه حرب عصابات على هذه المسافة الطويلة.

اتصل بنا العقيد معمر القذافي ومع القوى الفلسطينية والأحزاب اللبنانية. واجتمعنا في طرابلس وقال: نحن في ليبيا مهددون بالخطر من الجنوب بعد أن فشلوا من الشمال، ونأمل مساعدتكم في هذه المعركة.

كان وليد جنبلاط موجوداً وكذلك الحزب الشيوعي والحزب القومي السوري. وقررنا أن نتحرك لمساندة ليبيا كي ندافع عن ثورة الفاتح التي وقفت مع الثورة الفلسطينية وأعطتنا السلاح والمال.

سافرت إلى ليبيا مع مجموعة من رفاقنا لاستطلاع المنطقة قبل أن تتحرك قواتنا إلى منطقة "أوزو" على الحدود التشادية، فوجدنا الطبيعة القاسية للغاية لدرجة أنك لا تجد طيراً في السماء والحرارة تصل صيفاً إلى 52 درجة وفي الليل تصل إلى 4- درجات ولا أمطار ولا أشجار، ومصادر المياه بعيدة جداً.

المنطقة كانت صعبة للغاية ولكننا قررنا أن نتوجه إلى "أوزو" وأرسلنا فوجاً أسميناه "فوج القدس" من 1200 مقاتل، بحيث أن كل فوج يبقى لمدة ستة أشهر يتدرب فيها على كل أنواع الأسلحة والرمايات، ثم يعود ليأتي غيره.

نحن كجبهة أرسلنا إلى ليبيا قوات هي الأكبر، وكانت المعركة صعبة جداً، حيث أن الأراضي صحراوية ونحن لم نعتد القتال في هكذا أراضي.

الجيش الليبي لم يكن مهتماً بالتحصينات الدفاعية وبدأنا نرتب أمورنا .

وليد جنبلاط وبعض الأحزاب اللبنانية أرسلوا بعض القوات ولكنهم قاموا بسحبهم فيما بعد . وبقينا نحن وحركة فتح "الانتفاضة" وجبهة النضال الشعبي. ولكن القوة الأساسية كانت الجبهة الشعبية- القيادة العامة.

تواجدت في "أوزو" لثلاثة أشهر متتالية. وبدأنا بتجهيزات يومية في الصحراء. رفعنا السواتر وجهزنا خزانات المياه في حال انقطعت عنا المياه. وكانت الطائرة تصل إلينا من طرابلس تحمل الخبز وتوزعه على القوات الموجودة، فطلبنا منهم أن يعطونا الطحين. وأعطونا كميات كبيرة من الطحين وخزناها كي لا ننتظر الطائرة التي قد لا تأتي لأي سبب كان. وأنشأنا أفراناً خاصة وبدأنا نخبز، ورتبنا القضايا اللوجستية. ومع كل احتياطاتنا كانت الخيام تغوص تحت الأرض بسبب الرطوبة. كما أنشأنا مستوصفات لعلاج المرضى.

كانت تجربة كبيرة حيث بدأنا بالأعمال القتالية فزرعنا الألغام حول المواقع ورفعنا المراصد العالية ونصبنا عليها رشاشات مناسبة. وحضر الليبيون والقوى الفلسطينية للاستفسار عن كيفية رفع رشاش 23 ملم على التلال. كما أنشأنا مرصداً رئيسياً باستخدام خزانات للوقود، ثم باشرنا بالتدريب التعبوي وكانت لدينا دبابات وناقلات جنود وراجمات، وكل أنواع الأسلحة كانت متوفرة وهذه فرصة أردنا اغتنامها .

بدأنا عمليات التدريب على الدبابات وناقلات الجنود والمدفعية والراجمات وكل أنواع الأسلحة الموجودة وهكذا ارتفعت الروح المعنوية لدى الجيش الليبي. وقد زارني في الموقع قائد القوات الليبية فوجد أننا قمنا بزرع الخضار وشاهد برك وشلالات الماء والحمامات فأبدى استغرابه من هذه الإنجازات.

الإخوة في الجيش الليبي كانوا يعتقدون أن التشاديين محصنين (بحجابات) حيث أنك إذا أطلقت عليهم النار لا يموتون أو يحصل استعصاء في أسلحتهم.

الحقيقة أن رمل الصحراء القاسي إذا تسرب إلى السلاح من الممكن أن يشكل استعصاءات صعبة جداً ويمكن أن تتفجر الماسورة نتيجة ذلك، فكنا ننظف الأسلحة كل يوم ونضع البنادق في أكياس مخصصة، وكان مقاتلونا ينظفون المدافع والدبابات بهذه الطريقة.

عملية قبية "الطائرات الشراعية" 1987

عندما غادرت إلى "أوزو" في الصحراء الليبية مع فوج القدس كنت أتوقع أن الإسرائيليين سيعرفون بسفري ويتوقعون أنه لن تنفذ أية عملية. فأخبرت رفاقي في القيادة العسكرية الموجودين في سورية أنه بعد شهر من وصولي أخاطبكم باللاسلكي وأعطيكم الشيفرة لتنفذوا العملية.

كنت أنفذ تجربة عسكرية كبيرة في الصحراء وحضرها العقيد القذافي وكبار الضباط الليبيين ومنهم "أبو بكر" يونس وأبدوا إعجابهم بما أنجزناه وتساءلوا لماذا لا تقوم باقي الفصائل بتنفيذ هكذا تجارب. وكنت قلقاً جداً مع اقتراب ساعة الصفر لأن الهدف الذي سيتوجه إليه الطيارون هو معسكر للجيش الإسرائيلي اسمه "غيبور" (ويعني بالعربية الأبطال) يقع في سهل الحولة وهو تابع للواء غولاني لواء النخبة، وقد رصدناه من مكان عال جداً بمنظار كبير.

كنا نريد هدفاً عسكرياً، والعملية الملاحية ليست سهلة ليلاً وصعوبتها تكمن أن يطير الطيارون باتجاه المعسكر على مسافات عالية بدون صوت "موتور".

كان خالد أكر وميلود بن الناجح يشكلان ثنائياً هجومياً يرافقهما طياران على مسافة منهما للتمويه. وحطّ الطياران البطلان بسلام بالقرب من معسكر "غيبور"، وأنا كنت في صحراء "أوزو" الليبية أتابع الإذاعة الإسرائيلية، وقد بثّت أن طائرات شراعية هبطت على معسكر "غيبور" وسببت خسائر بين قتيل وجريح.

دخل خالد أكر إلى المعسكر بينما ميلود بن الناجح ظلّ حمايةً له. ووفق الرواية الإسرائيلية أن خالد أكر وجد في طريقه للمعسكر سيارة مطفأة الأضواء وفيها ضابط إسرائيلي وفتاة يتسامران فقتلهما بكاتم الصوت وتقدم باتجاه المعسكر ودخل من البوابة وقتل الحرس، ودخل المعسكر وفتش عن تجمعات الجنود فشاهد خياماً كما نقلت الرواية الإسرائيلية، ووجد فيها مجندات أغلق عليهن الباب ولم يقتلهن. وتوجه لـ (الندوة) والمطعم وفتح النار من بندقيته المعدلة ورمى القنابل اليدوية وتراجع لأن النيران كانت تأتيه من الوراء. وتعامل رفيقه ميلود مع الجنود خارج المعسكر. وبقي يقاتل حتى نفذت ذخيرته واستشهد داخل المعسكر. الشهيد خالد أكر الذي كان نحيل الجسد وهذا ما ساعده ليحمل الكثير من الذخيرة. قال له الرفاق الذين جهزوه "سنزودك ببعض "التمر- العجوة والماء"، فرفض وقال أعطوني ذخيرةً بدلاً منها.

ميلود بن ناجح حاول أن يطير فانتبهوا له وأسقطوا طائرته واستشهد. ووفق الرواية الإسرائيلية أن خالد أكر ورفيقه ميلود قتلا وجرحا العشرات. وظهر الدمار الكبير في المعسكر وكأن من قام بذلك فصيل أو سرية وليس شخصاً واحداً.

عملية قبية "الطائرات الشراعية" كانت فريدة من نوعها، وشكل الإسرائيليون لجنة كبيرة للتحقيق تهاوت فيها الرتب.. كيف تستطيع طائرات شراعية أن تجتاز الحدود دون أي إنذار ورغم أن قواعدهم الأمامية تراقبنا وكيف وصل أبطالنا خالد أكر وميلود بن ناجح نومة لسهل الحولة في إصبع الجليل؟!

الخبراء الأجانب والإسرائيليون قالوا إن ما حصل من أصعب أنواع الطيران، فأن يطير مقاتلان معاً في ليلةٍ ظلماء بتشكيل منسق، فإنهما إما مجنونان أو مدرّبان تدريباً احترافياً.

أسمينا العملية باسم عملية "قبية" وهي اسم قرية فلسطينية ارتكب فيها الصهاينة مذبحة بحق أهلنا في فلسطين.

إنزال الناعمة 1988- مقاومة مفتوحة مع العدو

بعد العام 1982 ومعركة طرابلس مع "أبو عمار" تواجدنا كجبهة في الجنوب اللبناني ونفذنا العديد من العمليات. وكنا نقاتل على جبهات متعددة، فالانسحاب البريطاني والأمريكي والإيطالي من بيروت لعب دوراً إيجابياً في تصاعد المقاومة.

في عام 1986 تم الإعلان عن حزب الله والتقينا بهم وعرفنا أن هدفهم هو القدس. أيدنا كذلك كل العمليات التي نفذت من قبل الحزب السوري القومي الاجتماعي- عملية سناء محيدلي، ولولا عبود من الحزب الشيوعي اللبناني، وعمليات الحزب الناصري. وكان هناك برنامج متصاعد للمقاومة ونحن معهم وشعبنا داخل فلسطين معنا.

عندما بدأ حزب الله ينتشر ويكبر ويقود المعارك في الجنوب اللبناني كنا سويةً وكتفاً إلى كتف. ولم نكن نريد أن نظهر في الإعلام.. ففي جبل عامل وبسبب إساءات البعض من الفلسطينيين أصبح غير مرغوب بنا، فقررنا ألا نظهر إعلامياً حتى العام 2000 عندما هزم الإسرائيليون وانسحبوا دون قيد أو شرط.

عدت إلى دمشق عندما استقر الوضع في "أوزو" وزرت قواعدنا المقاتلة في الجنوب لترتيب وضعها بعد الغارات التي شنّت علينا إثر عملية الطائرات الشراعية.

بعد عملية الطائرات الشراعية "قبية" وفي العام 1988 (أوج الانتفاضة الفلسطينية) نفذت وحدات إسرائيلية أكبر عملية "كوماندوس" في تاريخ الجيش الإسرائيلي على مواقعنا في الدامور والناعمة، وقد أعدوا أنفسهم ليأخذونا أسرى بـ "الشباك". وكانوا من قبل قد فشلوا مرات في اعتقالي ومنها خطف طائرة قادمة من ليبيا كان من المفترض أن أكون على متنها.

قبل يوم من العملية كنت في "الناعمة" أرتب أوضاعنا ونبهت المقاتلين إلى أنه يمكن أن يقوم الصهاينة بتنفيذ عملية ضدنا لرفع معنوياتهم بعد عملية قبية "الطائرات الشراعية" وقبلها عمليتي تبادل الأسرى "الجليل" و"النورس". ولم تكن لدي معلومات ولكنه حس أمني.

في الليلة التي سبقت العملية استيقظت في الساعة الواحدة ليلاً على صوت إطلاق نار في أحد الأنفاق وأخبرني المسؤول العسكري أن هناك اشتباهاً بشيء ما.

كنت أتوقع عملية "الكوماندوس" فقمت بتبديلات وتغييرات وقلت لهم إن العدو سيأتي من البحر وسينزل في "الدامور" مع أدلاء يعرفون مواقعنا. إلا أن تلك المواقع كانت متناثرة في أكثر من مكان، والبحر يبعد ثلاثة كيلومترات عنا، وليس بإمكان العدو أن يكتشف كمائننا حتى لو تواجد لديه عملاء، لأنها تتغير بشكل يومي، فضلاً عن أن أجهزة اللاسلكي لا تعمل إلا في الوقت المطلوب والمحمولات الرشاشة تتموضع في دشم مموهة لا يستطيع أحد كشفها.

في الصباح اجتمعت بالحراس الذين أطلقوا النار من دشمة مموهة فقالوا أنهم رأوا ثلاثة أشخاص- ظنوا بداية أنهم من رفاقنا- وطلبوا منهم أن يتوقفوا فلم يفعلوا فأطلقوا النار باتجاههم.

غادرت الناعمة بعد يوم من اطمئناني لحسن سير العمل، وكنا في حالة تأهب كي نتفادى أي خسائر في حال تعرض الأنفاق للقصف الصهيوني.

في تفاصيل العملية أن العدو الصهيوني أنزل قوة "كوماندوس" كبيرة على الشاطئ بكل هدوء وسرية. وكان رئيس الأركان آنذاك (دان شامرون) على متن زورق مقابل "الناعمة" يقود العملية. أحضروا معهم كلاباً بوليسية مدربة وهي من أغلى أنواع الكلاب وأذكاها وعلى ظهرها مواد متفجرة وكيميائية ليفجروها داخل الأنفاق. وكانت طائرات "الهليوكوبتر" جاهزة لأخذ الجثث والأسرى.

كنت في بيروت عندما أخبروني أن الهجوم الإسرائيلي قد بدأ، فعدت إلى "خلدة" مع قوة احتياطية. وأكد لي رفاقي أن وضعهم جيد ومنعوا القوة الإسرائيلية من الاقتراب من الأنفاق وأوقعوا في صفوفها جرحى وقتلوا قائدها (كان العدو يعده ليستلم رئيس أركان الجيش الإسرائيلي) لكن للأسف نجحوا في استهداف قائد الموقع "أبو جميل".

في الصباح وتحت ضغط كمائننا ورشاشاتنا وشراسة مقاتلينا أصدر دان شامرون أوامره بالانسحاب. وفي طريق انسحابهم ومع الفجر كنا نحاصر سبعة جنود من النخبة. ولأول مرة يترك الجيش الصهيوني مجموعة من أفراده. حاصرناهم وعبر مكبرات الصوت فاوضناهم على الاستسلام. وارتفعت حدة المعركة شراسة من خلال القصف الجوي. وتبين أن الجنود الإسرائيليين كان معهم لاسلكي، وقد حددوا مكانهم ومكان رفاقنا فاستشهد لنا أربعة مقاتلين.

كنت على تواصل مع رفاقي لحظة بلحظة وأقول لهم ابقوا على تماس مع الجنود الصهاينة كي لا يقصفكم الطيران.

الإسرائيليون تركوا عتادهم وحتى كلابهم المحملة بالمواد الكيماوية وغنمنا وسائل اتصال أرضية وأسلحة كثيرة، ولم يستطيعوا أن يدخلوا أي نفق من الأنفاق، ثم تمكنت طائرات الهيلوكوبتر من انتشال المحاصرين الذين كدنا نأسرهم.

فشلت عملية الناعمة رغم أنهم هاجموا مواقعنا بقوة كبيرة استعدّت جيداً وجرى تدريبها عاماً كاملاً في النقب وبنخبة من الجيش الإسرائيلي حيث بنوا معسكرات شبيهة لمعسكراتنا .. وهذا جاء على لسان قادة العدو.

بعد العملية العسكرية حضر غازي كنعان مسؤول المخابرات السورية في لبنان آنذاك وقال: أين الأسرى الإسرائيليين؟ أجبته: قبل أن تسأل عن الأسرى اسأل أولاً كيف تمت المعركة! فقال لي بأدب إن القيادة مهتمة بالأسرى.

كانت هذه العملية انتكاسة كبيرة للإسرائيليين ورفعت من قوة الانتفاضة. وكانت تصل أهلنا في فلسطين أخبار العمليات التي تنفذ بشكل يومي في جنوب لبنان من قبل حزب الله. وقد كان دورنا أساسياً والأخوة في حزب الله كانوا يستفيدون من تجاربنا وخبراتنا.

في الوقت الذي كانت فيه القيادة السياسية لمنظمة التحرير تسير باتجاه التفريط بالحقوق، كانوا يروجون أن أحمد جبريل يذبح الشعب الفلسطيني ويرسل أبناءه للموت

في جنوب لبنان. قدمنا الشهداء لأجل فلسطين وكانت تمر أيام نستقبل فيها في مخيم اليرموك عشر شهداء مقاتلين وقياديين.

الجبهة الشعبية- القيادة العامة في دائرة الاستهداف الامريكي- قضية لوكربي 1988

في عام 1988 سقطت طائرة أمريكية نوع بيونغ 747 فوق قرية لوكربي في اسكتلندا وقتل فيها 259 شخصاً.. الأعوام التي سبقت سقوط الطائرة الأمريكية تلك كانت ساخنة للغاية.

أولاً: الضربات القاسية التي تلقاها العدو الإسرائيلي في جنوبي لبنان بقيادة حزب الله ونحن كنا شركاءه.

ثانياً: العمليات النوعية التي نفذناها ومنها عملية الطائرات الشراعية ودورها في تأجيج الانتفاضة الأولى عام 1987 التي بدأت تلقى تعاطفاً في الشارع الأوروبي، وعملية تبادل الأسرى التي أطلقنا عليها اسم عملية الجليل وتحرر من خلالها 1155 أسيراً.

علاقتنا كجبهة مع الجماهيرية الليبية كانت محط أنظار الولايات المتحدة الأمريكية وقادة العدو الصهيوني. وكان هناك سعي أمريكي لإبعاد العقيد القذافي عن حركات التحرر التي كان يدعمها. فقبل عملية سقوط الطائرة وفي عام 1986 خُطفت طائرة ليبية صغيرة من قبل العدو وكان من المقرر أن أكون على متنها. وفوجئ الإسرائيليون أني لست على متنها وكانوا قد اعتقدوا كما يبدو أن خللاً أمنياً قد حصل حين سألني العقيد أمام الصحفيين وبعض الحضور في مؤتمر لحركات التحرر عن موعد سفري فأجبته يوم غد.

علم العقيد القذافي من أبو بكر يونس بتأجيل سفري على طائرتي المقررة ودعانا إلى مقره لتناول الغداء. وبينما كنا نتناول الطعام أحضروا له قصاصة من الورق وأخبروه أن طائرات العدو الصهيوني خطفت الطائرة الليبية الخاصة التي كان من المفروض أن أكون على متنها.

بعد خطف الطائرة عقدت مؤتمراً صحفياً في فندق "باب البحر" في طرابلس وحضره صحفيون عالميون ومحليون وتحدثت عن أنه كان هناك مخطط لاختطافي.

وقد صرح المسؤولون الإسرائيليون أن المخابرات السوفييتية هي من أخطرني بذلك. والحقيقة أنني وبحدس داخلي أجلت السفر. وقلت أمام الصحفيين إن الطائرات في العالم أصبحت في وضع خطير للغاية. وسألني صحفي أجنبي: حتى الطائرات الأمريكية؟ فقلت له: كل الطائرات في العالم، فما دامت حصلت هذه القرصنة الجوية فمعنى ذلك يجب أن تتوقعوا حصول أي شيء.

في عام 1988 سقطت الطائرة الأمريكية فوق قرية لوكربي الاسكتلندية وتأكد الأمريكيون والبريطانيون أن سقوطها بسبب عمل تخريبي وليس نتيجة خلل فني، فأعلنوا أن أحمد جبريل هو المسؤول عن إسقاطها خدمةً لليبيا. وأصبحت المتهم الأول عن إسقاطها هكذا بلا تدقيق أو تشكيل لجنة تحقيق. وطُلب من الرئيس حافظ الأسد تسليمي إلى أمريكا أو طردي وإلا ستتعرض سورية للخطر. وكان الرئيس الأسد يقول لهم إن أحمد جبريل مواطن سوري ولا أستطيع تسليمه. أثبتوا لنا أنه نفذ العملية.

وكانت تصلني كل مواقف الرئيس الأسد الصلبة في قضية "لوكربي" لقناعته ببراءتي من التهم المنسوبة إلي. وتحدثت في مؤتمرات وتصريحات صحفية أني مستعد للمثول أمام محكمة دولية نزيهة أو أمام أية لجنة تحقيق محايدة. وسُئلت في مؤتمرات عدة عن المستفيد من إسقاط الطائرة وكان جوابي أن الإسرائيليين المستفيد الأول.

وتدحرجت التهمة ووُضعت أنا وعائلتي وجبهتنا على قائمة الإرهاب وصدر قرار بمصادرة "أملاكنا" في البنوك التي ليس لنا فيها أرصدة أصلاً.

قبل سقوط الطائرة وفي بداية 1988 تم اعتقال مجموعة لنا في ألمانيا قائدها الرفيق حافظ الدلقموني. وكانت ألمانيا محطة لنقل السلاح والعتاد إلى داخل الأرض المحتلة عن طريق ميناء حيفا، حيث نخبئه في السيارات التي تنقل من ألمانيا إلى الأرض المحتلة. وساهمت المخابرات الأردنية في اعتقال هذه المجموعة عبر اختراق لها داخل صفوفنا فأعلموا المخابرات الألمانية. ومن الممتلكات التي صودرت من المجموعة أجهزة تتعلق بالضغط الجوي والتفجير بالضغط الجوي. وتحدث صحفيون أجانب عن أن أجهزة الضغط الجوي التي وُجدت مع "مجموعتكم في ألمانيا مشابهة للأجهزة التي تم استخدامها في تفجير الطائرة الأمريكية". واستنتجوا أننا نفذنا هذه العملية دعماً لليبيا التي تعرضت لغارات جوية بريطانية وأمريكية. وكنت أرد: لتقم "C.I.A" بالتحقيق معهم. وفعلاً حققت معهم وثبت أنه لا تورط لنا بعملية سقوط الطائرة

وبقيت التهمة ملصقة بنا إلى العام 1992. إلى أن قام أحد الدبلوماسيين الليبيين بالهروب من السفارة الليبية في مالطا والتجأ إلى أمريكا وأخبرهم أن ليبيا تقف وراء العملية. وبعدها سقطت التهمة عنا وأُلصقت بليبيا وبدأت العقوبات تنهمر عليها من كل أنحاء العالم.

بعد سنوات أُطلق سراح رفيقنا حافظ الدلقموني ورفيقيه. لكن عادت نغمة اتهامنا إعلامياً مرة أخرى عبر تقرير مفبرك من أحد أعضاء تنظيمنا في يوغوسلافيا تم استدراجه "أبو أحمد غبن". وكان الهدف تبرئة المتهمين الليبيين. وقد اتهمني التقرير الذي عرضوه على المحكمة أني من قام بتفجير الطائرة عبر الإيعاز لمجموعاتنا في الخارج. وعادت الصحافة مرة أخرى تكتب أن هناك خيوطاً تشير إلى أن أحمد جبريل هو الذي نفذ العملية.

تحركات سياسية لمنظمة التحرير وتصاعد الافتراق

كما سبق وذكرت أننا نجحنا بإطلاق سراح أسرى من الاتجاهات الإسلامية من سجون العدو الإسرائيلي. ولم يكن في ذلك الوقت قد أُعلن عن إنشاء حركة الجهاد الإسلامي وحركة حماس.

بعد الانتفاضة الأولى أُعلن عن انطلاق حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين. وكنت بغاية السعادة لأن بعض القيادات المهمة في الجهاد الإسلامي أُطلق سراحها في عملية تبادل الأسرى عملية "الجليل" في العام 1985 ومنهم زياد النخالة (الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي) وغيرهم من قيادة الجهاد الإسلامي.

مع تصاعد وتيرة الانتفاضة داخل فلسطين بدأ المشهد المقاوم يتغير ويتكرس حضور أهلنا في مقاومتهم اليومية، وهذا ما كنا نسعى إليه خلال السنوات الماضية، أي كيف يتحمل شعبنا مسؤوليته الصعبة في وقت صعب.. وبعد فترة انطلقت حركة حماس بقيادة الشيخ أحمد ياسين الذي حررناه من السجون الإسرائيلية في عملية "الجليل". وعندما اشتدت الانتفاضة اعتقل الإسرائيليون أعداداً كبيرة من نشطاء حركة حماس والجهاد الإسلامي وأبعدتهم خارج أرض فلسطين إلى "مرج الزهور". وتفاعلنا نحن كقيادة عامة معهم في "مرج الزهور" وبدأت تظهر معالم علاقات صحيحة وجدية مع هذه الفصائل.

التقينا مع الشهيد فتحي الشقاقي أمين عام ومؤسس حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين بعد حضوره إلى لبنان. وكنا نسهر الليالي وأطلعني على كتابه عن الثورة الإسلامية في إيران ودورها المنتظر.

وحدثت تطورات سلبية في لبنان وهي اندلاع القتال عام 1989 بين الأخوة في حركة أمل وحزب الله. وكانت معركة صعبة وقاسية جداً، حتى أن هذا الأمر شغلنا كثيراً وتوقف قتالنا مع العدو الإسرائيلي لستة أشهر.

كنا نريد إيقاف هذه المعركة. وكنا نحظى بتقدير حزب الله والأخوة في إيران.

في تلك الأجواء عُقد اجتماع تاريخي بيننا وبين الرئيس حافظ الأسد وكان معي وفد من الجبهة وقلنا له: هل من المعادلة أن يُهزم حزب الله أو حركة أمل؟ لمَ لا نفكر بحل يُخرج كلاً منهما منتصراً؟

فقال الرئيس حافظ الأسد وقتها إن قيادة حزب الله - وكان أمينه العام صبحي الطفيلي- يكرهون سورية ويصفونها بأقذع الأوصاف.

صبحي الطفيلي كان متشنّجاً في مواقفه. وكنت دائماً أقول إن هذا التشنج لن يفيد. قلت له: "إن كان الموضوع يتعلق بقيادة حزب الله فأنا مستعد للذهاب لإيران ونبحث تغيير القيادة".. ولعبنا دوراً تاريخياً في هذا الموضوع.

توجهت إلى إيران والتقيت الأخوة في طهران- من السيد علي خامنئي إلى رئيس الجمهورية آنذاك السيد هاشمي رفسنجاني- وتجاوبوا مع ما طرحته وتركت لهم الخيار.

خرج الطفيلي من قيادة حزب الله وأصبح الشهيد السيد عباس الموسوي أميناً عاماً، وهو شخصية فريدة من نوعها ويقرأ بعمق المعادلات في المنطقة الإقليمية والمحلية، وبنى علاقات جيدة مع السوريين. وتوقف هذا النزف والاقتتال بين حزب الله وحركة أمل وكلاهما التفت لقتال العدو الإسرائيلي.

كانت تربطني علاقات فريدة مع الشهيد عباس الموسوي، وكان يحضر إلى قواعدنا ومراكز قياداتنا في البقاع ونسهر معاً ونتناول الإفطار في شهر رمضان. وقدمنا لهم العتاد والسلاح.

كانت مساعدتنا لحزب الله بالسلاح تزعج غازي كنعان فاعتقل رفيقنا مسؤول القيادة الميدانية في البقاع لثلاثة أشهر، ثم اعتقل مرافقي الخاص وأثناء تعذيبه ثُقبت طبلتي أذنيه ولم ينتزع منه أي اعتراف حول كيفية تمرير السلاح لحزب الله.

بعد استشهاد السيد عباس الموسوي واستلام السيد حسن نصر الله بنيت معه علاقات حميمة وودية للغاية، وكنت أرسل ابني الشهيد جهاد لطرفه ويلتقي مع الشهيد عماد مغنية المسؤول العسكري لحزب الله وينسقان سوية. ولم نكن نبخل عليهم بالعتاد والسلاح.

أذكر أنني أرسلت الشهيد جهاد لطرف السيد حسن نصر الله وطرح عليه فكرتي في حفر أنفاق تتجاوز نقاط المراقبة الحدودية الإسرائيلية للدخول إلى المستوطنات في فلسطين المحتلة، على أن يكون هذا العمل بالتعاون مع حزب الله. وأذكر أني اقترحت أن نبتدئ من كفر كلا باتجاه مستعمرة المطلة، وأن علينا أن نبدأ بالتحضير لحفر الأنفاق لضرب نقاط المراقبة. لكن للأسف لم نوفق.

كنت سعيداً جداً عندما علمت لاحقاً أن حزب الله قام بحفر هذه الأنفاق، وكانت لدى الشهيد جهاد التعليمات والصلاحيات الكافية لإعطاء حزب الله كل ما يحتاجونه، فقد زودناهم حتى بالدبابات ومدافع الميدان الطويلة وراجمات وصواريخ.

انهيارات عربية وفلسطينية رسمية

كانت منظمة التحرير الفلسطينية توصلت إلى "كونفدرالية" مع الملك حسين في العام 1985. وكان بعض أعضاء اللجنة المركزية في حركة فتح ومنهم هاني الحسن يرسل لي الأخبار المتتالية أو عن طريق مدراء مكاتبهم ويخبرونني عن لقاءاتهم والتوجهات السياسية لفتح. "أبو عمار" كان يعلم أن هناك من يزودني بالأخبار دون معرفته.. للأسف كانوا قد استقلوا قطار التيه السياسي والضياع.

كنت مختلفاً مع "أبو عمار" سياسياً، ولكن على المستوى الشخصي كان ودوداً ويقدرني جداً ويتعاطى معي باحترام شديد، على خلاف تعامله مع بعض القادة في الفصائل الفلسطينية أو في حركة فتح.

نحن وقفنا مع الثورة الإسلامية في إيران وبقينا في نفس الموقع ومعنا فصائل فلسطينية، بينما فصائل فلسطينية أخرى وقفت مع "صدام" في حربه الظالمة لثماني سنوات ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية وما تلاها من غزو الكويت.

بعض الفصائل الفلسطينية كانت مع غزو صدام للكويت، وهذا ما سبب كارثة إنسانية بحق الشعب الفلسطيني. فبعد تحرير الكويت، وكانت فيها جالية فلسطينية تعدادها نصف مليون وعملت في مراكز مهمة وساهمت في بناء الكويت، شعرنا

بالخوف مما ينتظرهم، وقد حصل ما كنا نتخوف منه. دفعنا نحن الفلسطينيون ثمناً كبيراً ولم يبقَ في الكويت إلا الآلاف.

كان هناك تفاؤل قبل مؤتمر مدريد تحديداً من الفلسطينيين الذين يركبون في قطار التيه. التقيت مع الرئيس حافظ الأسد قبل مؤتمر مدريد. الأخوة في سورية لم يكونوا متفائلين أبداً.

في العام 1991 وقبل مؤتمر مدريد عقد مجلس الشورى الإيراني مؤتمراً في إيران (مؤتمر التضامن مع الانتفاضة) حضرته وفود عالمية وعربية وإسلامية، وكان رئيس المؤتمر السيد مهدي كروبي رئيس مجلس الشورى آنذاك. فوجئت بأن السيد كروبي دعاني لإلقاء كلمة فلسطين رغم وجود وفد فلسطيني كبير أرسله "أبو عمار".

أنا أُحرجت لأني لم أكن قد جهزت نفسي، لكنني تحدثت عن المخاطر التي تحيق بالأمة وعن أن أمريكا تراوغ ولن تعطي الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين أي شيء، وقلت: "إن أمتنا ليست ضعيفة وإنما الضعف من إرادتنا. لم تعد الجيوش العربية تفكر بفلسطين. فلسطين هي عنوان فقط وآخر بند في جدول الأعمال- إن كانت موجودة، اللهم إلا إعلامياً وحسب- وتكلمت عن الجيوش العربية وكيف أن ضباطها الكبار ومسؤوليها همهم بناء البيوت والقصور في الجبال وعلى البحر. وقلت إنه من المفروض أن تتصالح الأمة مع نفسها وترجع للانتفاضة، لا أن تسير وراء أمريكا وتلحق بقطار التيه الذي يسير باتجاه السراب.

كان حاضراً في المؤتمر وفد سوري كبير من مجلس الشعب السوري آنذاك. وبعد الجلسة الافتتاحية التي تحدثت فيها أرسل الوفد السوري (فاكساً) للقيادة عن طريق السفارة السورية قال فيه: إن أحمد جبريل تهجم على الدول والجيوش وعلى الجيش السوري.. مع أنني في الحقيقة تحدثت عن مطلق الوضع العربي وليس ضد الجيش السوري بشكل خاص.

فوجئ الرفيق د. طلال ناجي أن نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام اتصل به وطلب رؤيته وكذلك رؤية خالد الفاهوم وعبد المحسن "أبو ميزر"، وحضر اللقاء علي دوبا وحكمت الشهابي. وقد أخبروا د. طلال ناجي ومن معه أني هاجمت سورية وجيشها واتخذوا قراراً بإغلاق مكاتبنا ومعسكراتنا في دمشق. وقالوا للدكتور طلال "إن راقت طهران لأحمد جبريل يمكنه البقاء فيها".. رد د. طلال ناجي: إن هناك

صعوبة في الاتصال مع طهران وإنه لا يعلم حقيقة ما قلت هناك، وسيعرف ذلك بعد عودتي.

أجابوه أنهم اتخذوا قرارهم ورفعوه للرئيس حافظ الأسد للمصادقة عليه. لكن جواب الرئيس حافظ الأسد كان: "هل أنتم مجانين لتتخذوا هكذا قرار! أنتم تنفذون رغبة أمريكا في وجه أحمد جبريل والقيادة العامة! وكان هذا دليلاً آخر على حكمة الرئيس حافظ الأسد.

عندما عدت من طهران روى لي رفاقي القصة. وقابلت اللواء ماجد سعيد مسؤول الأمن الوطني وهو صديقي وابن دورتي وقال لي: الرئيس حافظ الأسد طلب أن أتأكد من هذا الكلام. وتأكدت أنك لم تتلفظ باسم الجيش السوري.

عُقد في العام 1991 مؤتمر مدريد بوجود وفد فلسطيني- أردني مشترك تحت العلم الأردني وكان يرأس الوفد الفلسطيني د. حيدر عبد الشافي- رحمه الله- وقد تحدثوا بشكل جيد داخل المؤتمر لكن ما حصل بعد مدريد هو الكارثة الكبرى.

كان مؤتمر مدريد غطاء لاتفاق أوسلو الذي فرط بجذور القضية الفلسطينية. وبدأت الديماغوجيا العربية والدولية والعالمية تطبل وتزمر له وأنه سيقيم دولة فلسطينية، تماماً كما طبلوا وزمروا في عام 1988 في مؤتمر الجزائر ويومها وقف "أبو عمار" مع جورج حبش ورفعوا أيديهم علامة على أنهم انتصروا في إعلان الدولة الفلسطينية.

لكن من اعترف بهذه الدولة؟! فقط بعض دول "العالم الثالث" أما الدول الكبرى فلم تعترف. كانوا يتهموننا بالعدمية وأننا نعارض من أجل المعارضة وهم سيحققون انتصارات للشعب الفلسطيني.

كارثة أوسلو

في 13 أيلول عام 1993 فوجئنا باتفاق أوسلو. وكان الملك حسين يشجع ياسر عرفات على عقده وكان سرياً للغاية، حتى أن اللجنة المركزية في حركة فتح لم تعرف به وبتفاصيله.

سألت "أبو مازن" (مهندس الاتفاق) بعد سنين فقال: "لا أحد سوى أنا وأبو عمار واثنين آخرين كنا على علم باتفاق أوسلو". سألته: لماذا سرتم بهذا الطريق ووقعتموه؟ من أعطاكم الحق بالتنازل عن 78% من أرض فلسطين أرضنا التاريخية أرض الآباء

والأجداد، فأجاب: بعد اجتياح الكويت قررت أمريكا والسعودية سراً العمل على معاقبة كل من وقف مع صدام. نحن قلنا إن "الجرة ستتطبش برأسنا" وسنطرد من تونس بضغط من أمريكا على الرئيس بورقيبة فأين سنذهب؟ ووقعناه لنحافظ على أنفسنا.

هذه كانت مبررات "أبو عمار" و"أبو مازن" وقد تمكنا من فرضه على اللجنة المركزية والمجلس الثوري لحركة فتح.

وحقيقة الأمر أن اتفاق أوسلو إذلال حقيقي بكل معنى الكلمة وهو أخطر من اتفاق كامب ديفيد.

اتفاقات أوسلو هي من أوقفت الانتفاضة الفلسطينية. ونحن في الجبهة قدنا حراكاً لتجميع القوى الفلسطينية التي وقفت ضد اتفاق أوسلو، فالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تراجعت عن تحالفها مع "أبو عمار" بعد محطات في عدة مدن وغيرها. وأذكر جيداً أن جورج حبش كان يقول: إن "أبو عمار" سادات فلسطين.

وكبر تحالفنا، واضطرت الجبهة الديمقراطية أن تتحالف مع الحزب الشيوعي الفلسطيني، وكان تحالفاً هشاً. وشكلنا (التحالف الفلسطيني) وفق برنامج سياسي وميثاق وطني مع مجموعة من المستقلين الفلسطينيين منهم المرحومان خالد الفاهوم وعبد المحسن أبو ميزر.

التقيت الرئيس حافظ الأسد وقلت له: سنستفيد من القوى الإسلامية، وقضية فلسطين وسورية ستستفيد أيضاً من تحشيد قوى المقاومة الرافضة لأوسلو. واقتنع بكلامي.

نحن كجبهة مهدنا الأجواء في دمشق مع الإخوة السوريين لاستقبال سورية لحركة حماس.

أُبعد خالد مشعل من الأردن واستقبلته دمشق وشكلنا تحالفاً ضد اتفاقات أوسلو من جبهتنا ومعنا (حماس- حركة الجهاد الإسلامي- الجبهة الشعبية- الجبهة الديمقراطية- فتح الانتفاضة- جبهة النضال الشعبي- منظمة الصاعقة- جبهة التحرير الفلسطينية- الحزب الشيوعي الثوري الفلسطيني).

كنا منسجمين في تحالفنا الوطني وبدأ يكتسب تعاطفاً شعبياً في أماكن مختلفة من الوطن العربي. وأصبح في سورية مركز جديد يضم قوى إسلامية (حماس والجهاد الإسلامي) يناهض المركز الذي يسير في قطار التسوية بشكل مباشر.

في العام 1997 وفي عملية تبادل أُطلق سراح الشيخ أحمد ياسين من سجون العدو. بعدها كان في زيارة للقاهرة للعلاج، وطلب لقاء الرئيس المصري حسني مبارك لكنه رفض.

وأثناء وجوده في القاهرة تحدثت معه مرتين كي أقنعه بالقدوم إلى سورية وساعدني في هذا الأمر خالد مشعل. وقد زار دمشق عام 1997 وقابل الرئيس حافظ الأسد الذي استقبله بحفاوة. كما أننا استقبلناه وأقمنا له مهرجاناً جماهيرياً ضخماً واصطحبناه إلى معسكراتنا ونفذنا بحضوره عرضاً عسكرياً كبيراً.

عقدنا العديد من المؤتمرات في الخارج وحضرها مناضلون مخضرمون وشاركنا الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بله- رحمه الله- وكان صديقي، وألقى كلمة قال فيها: "هذا الطريق الصحيح باتجاه فلسطين وليس أوسلو". ويوم التقيته قال لي: "هذا الطريق الأصعب لكنه الطريق السليم حتى لو لم تروا النصر فالأجيال بعدكم ستدركه. النصر لكم لأنكم مع المبادئ".

وثقنا العلاقات مع الجمهورية الإسلامية في إيران، وسافرت إلى طهران وشرحت وجهة نظرنا من اتفاق أوسلو وطالبنا بعقد مؤتمرات دولية.

كانت معركة سياسية قاسية للغاية بيننا وبين نهج "أبو عمار". وفي مؤتمر عُقد في طهران لأجل عدالة قضية فلسطين التقيت بعدد من أعضاء المجالس التشريعية والبرلمانات العربية، ومنهم رئيس البرلمان الأردني آنذاك عبد اللطيف عربيات. وفي حفل عشاء على شرف الوفود جلس إلى جانبي عبد اللطيف عربيات وسلم عليّ بحرارة، فسألته بحياء: "هناك شاب اسمه أحمد عربيات هل يقربك؟ لقد كان من المتحمسين للمقاومة وقاتل في الأرض المحتلة".. فضحك وقال: هذا أخي.

(لم أكن أعرف أن أحمد هو الأخ الأكبر لعبد اللطيف) وأضاف الأخ عربيات: "ذات مرة دعوناك إلى بيتنا في السلط وكنت "أفرد لك" لحمة "المنسف"، فأجبته: "ربما نسيت" وسألني لماذا لا أزور الأردن؟ وأضاف: "زارها نايف حواتمة وجورج حبش" أجبت: الأردن يعزّ عليّ وأقربائي كلهم يعيشون فيه. أتمنى أن أزوره لكن لا أريد أن أقابل أحداً من المسؤولين الأردنيين لا في أجهزة الأمن ولا الملك. إن قبلوا سأحضر". فرد قائلاً: سأبحث هذا الأمر.

عندما زار عربيات دمشق التقيته وسألته عن الأمر فقال: عندما عدت من طهران إلى عمان التقيت مع رئيس الوزراء طاهر المصري وطرحت عليه الفكرة وقال

لي لم نرَ من أحمد جبريل أي تصرفات مخلّة سواء في أحداث أيلول أو قبلها وسنتعاون في إقناع الملك حسين كي يتمكن من زيارة الأردن.

اتفقنا أن يلتقيا مع رئيس المخابرات الأردني آنذاك محمد الذهبي، وقال رئيس المخابرات بحقي أشياء جيدة، منها أن تنظيمنا لم يقم بأي أعمال مخلة مثل تفجيرات أو غيرها، ولم يقتل وصفي التل، ولم يقل كل السلطة للمقاومة، ولم يخطف طائرات.

ذهبا سوياً إلى الملك حسين وأخبراه بشروطي للقدوم إلى الأردن، فصمت ثم قال لهما: لماذا يضع أحمد جبريل اشتراطات؟

في نهاية الجلسة وعدهم بدراسة ذلك.. سألته ماذا يعني دراسة ذلك؟ أجاب: يعني أنه غير مرحب بك إلا إذا صرحت وخرجت لأجهزة الإعلام كما فعل آخرون. وهذا يعني الاعتذار عما حدث في أيلول 1970..

باختصار ليس سراً أنني وأسرتي ومن يمت لي بصلة وكل جبهتنا مرفوض وجودنا أو حتى زيارتنا للأردن. رغم أن المخابرات الأردنية أرسلت أكثر من دعوة عبر مبعوثين تقول لنا أنتم مرحب بكم، تفضلوا واجلسوا مع الملك حسين. شرطنا الوحيد هو الحديث مع الملك حسين.

تراجع العمل المسلح داخل فلسطين بعد اتفاق أوسلو واعتقد "أبو عمار" أن الطريق سالك أمامه، فبدأ بقمع معارضي اتفاق أوسلو من الاتجاهات الإسلامية النامية.

اعتقل قيادات حماس والجهاد الإسلامي وقيادتنا أيضاً ومن فصائل فلسطينية أخرى. وامتلأت السجون بكل من يفكر بقتال العدو الإسرائيلي أو باستمرار الكفاح المسلح. وأخبرني الشهيد عبد العزيز الرنتيسي والزهار أن أجهزة الأمن في غزة عذبتهما بشكل بشع. وأنا شخصياً تعرفت إلى عبد العزيز الرنتيسي عن قرب وهو من خيرة رجال حماس.

حتى الفصائل الحليفة تاريخياً لـ"أبو عمار"- الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية- عمل على شقّهما واستمال منظمات هشة مثل جبهة النضال الشعبي وعين أمينها العام السابق سمير غوشة عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكذلك من انشقوا عن جبهتنا عين لهم عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. لكننا كنا مستمرين في جنوب لبنان مع حزب الله بالقتال. قاتلنا إلى جانبهم وتحت رايتهم حتى العام 2000 عندما تم تحرير جنوب

لبنان. وقد استشهد من تنظيمنا قوافل من الشهداء، وكانت الغارات الإسرائيلية لا تتوقف عن استهداف مواقعنا، وكان أكبرها على مواقعنا في الناعمة والدامور.

حزب الله قاد معارك شرف كبيرة ولم يستطيع العدو الإسرائيلي أن يحقق مكاسب في حربه "عناقيد الغضب" وغيرها. وكان سبب توقف هذه العمليات انهمار صواريخ الغراد عليهم، فقد خرجت من مستودعاتنا آلاف صواريخ الغراد التي أُعطيت لحزب الله. ورفاقنا أيضاً نفذوا عمليات خاصة ضد العدو الإسرائيلي ومستوطناته المتقدمة.

بعد انتصار حزب الله في حرب "عناقيد الغضب" وقع اتفاق "نيسان" برعاية الرئيس حافظ الأسد. وكنت والسيد حسن نصر الله والسيد أختري في السفارة الإيرانية نجتمع ليلاً نهاراً وعلى تواصل مع الرئيس حافظ الأسد الذي كان يرسل المعنيين ليبلغونا بتطورات الاتفاق. وفي النهاية وقع اتفاق نيسان 1996/4/27 وينص في بعض فقراته على عدم ضرب الأهداف الأمنية على جانبي الحدود. قلت لبعض رفاقي في المكتب السياسي: إن استطاع "أبو عمار" الحصول على الضفة الغربية لحدود الرابع من حزيران و"القدس الشرقية" فهذا يعني أنني كنت "قصير النظر" وسأغيب عن الساحة، سأستقيل، وأكثر من ذلك قلت في قرارة نفسي: إن عادت "القدس الشرقية" سأعتذر من ياسر عرفات، إذ من الممكن أن تكون هذه الخطوة على طريق تحرير كامل فلسطين.

لكن في الحقيقة كنت أرى أيضاً أنه حتى وإن تم انسحاب إسرائيل لحدود 1967 وإزالة المستوطنات في الضفة الغربية والانسحاب من "القدس الشرقية" ستكون الدولة الفلسطينية الناتجة مجرد دولة مسخ ولن تستطيع العيش، فلا مقومات لها ولا تنطوي على أي مشروع كبير.

بعد اتفاق أوسلو سيطرت أمريكا على الخليج وأصبحت لها قواعد بحرية وجوية. وتلكأ الإسرائيليون في تنفيذ اتفاق أوسلو، فشعر "أبو عمار" بعد ست سنوات من الاتفاق أنه خُدع، وأن أمريكا تخلت عنه وكذلك الغرب.

في تلك الأجواء تفجرت الانتفاضة الثانية عام 2000 واتسعت لأن كتائب شهداء الأقصى شاركت فيها بقرار من عرفات. ونفذت المقاومة الفلسطينية عمليات كبيرة سواء داخل فلسطين عام 1948 أو في الضفة الغربية.

عام 2000 حاول "أبو عمار" احتواء كل المنظمات الفلسطينية، وحضر إلى منزلي الشهيد "أبو علي" مصطفى الأمين العام السابق للجبهة الشعبية مودعاً لأنه قرر الذهاب إلى الضفة الغربية. أنا أحترم "أبو علي" مصطفى وأعرفه منذ 1967. وهو رجل شجاع. قلت له: "يا أبو علي، أنت ذاهب بموافقة المخابرات الأردنية والإسرائيلية تحت مظلة اتفاق أوسلو"، فقال إنه ضد اتفاق أوسلو وسيدخل عملية شبه انتحارية. ودعته وقلت له أنني ضد ذهابه إلى الضفة الغربية وسيكون هدفاً مباشراً للإسرائيليين. وبعد أن غادرني قلت في نفسي: لن يعود.

كان "أبو عمار" يعرف أني لن أدخل تحت مظلة أوسلو ولم يدخل أحد من جبهتنا، ولم يعرض عليّ أصلاً أن أدخل إلى الضفة الغربية، بينما باقي الفصائل دخلت إلى فلسطين ومرت تحت العلم الإسرائيلي.

مع اتساع دائرة الانتفاضة الثانية أرسل لي أبو عمار بعض الرسائل مع كبير مرافقيه (فتحي) ومع شخص آخر، قال فيها: إن العدو الإسرائيلي لم يعطنا ما اتفقنا عليه في أوسلو، وكان من المفروض أن نعلن دولة فلسطينية وهذه كذبة كبيرة جداً، فلا سبيل أمامنا إلا أن يشعر العدو أنه مجبر على التنفيذ من خلال عملنا القتالي.. وبهذا اعترف أنه كان على خطأ.

بدأنا بإرسال السلاح والعتاد لأهلنا في فلسطين. وكانت هذه مهمة ابني الشهيد جهاد مسؤول العمليات في لبنان. لذلك بدأ الإسرائيليون يترصدونه وتعرض لأكثر من محاولة اغتيال. وكان جهاد يخطط للدخول إلى قطاع غزة، وكنت موافقاً على رغبته، لكنني قلت له: "يجب أن يكون معك بعض المال لتصرف على طعامك وشرابك، وأنت لا مال معك وستكون عالة على الأخرين". قال لي يومها: اكتب لي رسالة للعقيد معمر القذافي (العقيد كان يحب جهاد).. كتبت رسالة وسلمها للعقيد، فأجابه بأنه سيدرس الموضوع. ولم يقدم المبلغ الذي طلبته منه. لكن ذلك لم يثنِ جهاد عن مواصلة مؤازرة القطاع فأرسل دفعتين من السلاح إلى غزة عبر البحر، فبات في يد شعبنا صواريخ غراد و(107) بينما لم تصل الدفعة الثالثة بعد أن اعترض الإسرائيليون السفينة وصادروها.

كنت بغاية السعادة عندما علمت أن بعض عناصر فتح أو كوادرها يشرفون ويقودون بعض الأعمال القتالية في الضفة الغربية. و كان "أبو عمار" يريد أن يكون العمل داخل الضفة الغربية فقط، لكن الأخوة في حركة حماس والجهاد الإسلامي

تجاوزوا هذا الخط و دخلوا فلسطين 1948 ونفذوا عمليات بطولية مدهشة للغاية وأوقعوا خسائر كبيرة في صفوف العدو الإسرائيلي. هنا بدأت ترشح تسريبات عن خلافات داخل حركة فتح. بدأت أولاً في غزة حيث أن محمد دحلان مسؤول جهاز الأمن الوقائي هاجم موسى عرفات وهو من أقرباء "أبو عمار" ومسؤول جهاز أمني أيضاً في غزة وقتله في مقره. هذا أغضب "أبو عمار" ولكن وبسبب قوة نفوذ دحلان لم يحاسب.

الموضوع الثاني أن محمود عباس وفريقه كانوا ضد "أبو عمار" ويجاهرون بكل وضوح ويقولون إن "أبو عمار" يلعب لعبة خطيرة، فهناك خطورة حتى على منطقة (أ) وفق اتفاق أوسلو.. فغادر محمود عباس رام الله وأقام في عمان للضغط على "أبو عمار".

الإسرائيليون اتخذوا قراراً بدخول المنطقة (أ): طولكرم، جنين، بيت لحم، الخليل، ولم يدخلوا بعد رام الله، فأرسل "أبو عمار" لي رسالة يسألني فيها عن طرق للتنسيق المستقبلي بيننا لمواجهة العدو، أجبته: استفد الآن من قدرتك على الحركة وعليك بحل السلطة ومغادرة رام الله إلى عمان أو أي منطقة بما في ذلك دمشق، ودع الأمور تعود كما كانت قبل اتفاق أوسلو.

فأجابني بأنه سيبقى، لأن الإسرائيليين قالوا له: إن خرجت فلن تعود.

هذه المرحلة كانت صعبة ومتلاحقة وصعوبتها تكمن في اختلاط المواقف السياسية، فموقفنا ضد "أبو عمار" ونهجه تراجع لأنه كان يقود الانتفاضة الثانية وأصبحنا ندعمه، والإسرائيليون حاصروا رام الله.

في هذه المرحلة تواصلت مع "أبو عمار" وقال لي: نحن بدأنا لثورة معاً، فدعنا نسير معاً من جديد.

في الأثناء آزرنا الفصائل الإسلامية، حركة الجهاد الإسلامي وحماس وقدمنا لهم أجزاء من معسكراتنا ولم يكن مسموحاً لهم في حينه إقامة معسكرات. الأخوة في حماس تدربوا في معسكراتنا وأنشأوا مركز بحوث وتشاركنا معهم في مركز البحوث السوري، والشهيد المهندس التونسي محمد الزواري الذي اغتيل في تونس كان موجوداً في قواعدنا في "حوش الفارة" مع خبراء لتطوير طائرات مسيّرة. وأيضاً بدأ الخبراء السوريون يدربون الإخوة في حركة حماس والجهاد الإسلامي على الصواريخ وتطويرها. كما قمنا بمحاولة مع المرحوم معمر القذافي وبمشاركة حركة حماس حيث

التقى ابني خالد مع العقيد القذافي بشكلٍ سريّ وتم إرسال السلاح للسودان ومنه كان ينقل عبر البحر لفلسطين.

طورنا الصواريخ وأصبحت تصل لمدى ستين كيلومتراً، واتصلنا بالإيرانيين وطلبنا أن يسمحوا لنا بإجراء تجاربنا على أراضيهم.

الرئيس بشار الأسد، وبعد وفاة الرئيس حافظ الأسد، واصل نهج والده وزاد في دعم المقاومة وخاصة حماس. وقال لنا الرئيس بشار الأسد شخصياً إن هناك سلاحاً نوعياً قدمناه للإخوة في حزب الله وسنقدمه لحماس والجهاد الإسلامي ولكم. سألت الرئيس بشار الأسد: ما هو هذا السلاح؟ فأجاب: صاروخ الكورنيت ضد الدبابات.

سوريا ثوابت وطنية.. فلسطين مركز الصراع

مع وصول الاتفاقيات الأمريكية- السورية إلى طريق مسدود دفع الرئيس الأمريكي بيل كلينتون للقاء بالرئيس حافظ الأسد واتفقا أن يلتقيا في جنيف 2000/3/26 بعد أن أرسل له سفيرهم في دمشق ليقول للرئيس الأسد إن رئيسه كلينتون سيقدم لكم هدية كبيرة للغاية.

كانت الخلافات السابقة في المفاوضات بين الإسرائيليين والسوريين عبر الوسيط الأمريكي تتركز حول خط وقف إطلاق النار. الإسرائيليون أرادوا تثبيت أن خط وقف إطلاق النار والانسحاب من الجولان هو إلى حدود الانتداب البريطاني الفرنسي، بينما الرئيس حافظ الأسد أكد أن الانسحاب يكون لخطوط الرابع من حزيران. النقطة الثانية للخلاف تمحورت حول المنطقة الأمنية على البلاد. العدو الإسرائيلي طرح مسألة وجود الجيش السوري فقط حول دمشق، ورفض الرئيس الأسد كل هذه الشروط.

حين عاد الرئيس حافظ الأسد رحمه الله التقينا بوزير الخارجية فاروق الشرع وبحضور عبد الحليم خدام. وأخبرنا السيد الشرع كيف فرد كلينتون الخرائط وقال إن الإسرائيليين وافقوا أن ينسحبوا من كل هذه المناطق وبقيت فقط "هذه المناطق" وشاطئ بحيرة طبريا. فرد عليه الرئيس الأسد وقال له: أعد كل هذه الخرائط. لم أحضر للقائك لأسمع هذا الكلام.

أنا شخصياً تنفست الصعداء وقلت ستبقى سورية مرفوعة الرأس.

هنا أتذكر لسوريا موقفها ومواجهة الضغوط حين ركزت الولايات المتحدة على شخصي وأخبرني فاروق الشرع بمحاولات المقايضة حين مرت سوريا بسنوات قحط وقلة الأمطار، وذكر لي في لقاء جمعني به أنه طلب من السفير الأمريكي بدمشق أن تشتري سوريا قمحاً أمريكياً بسعر خاص مخفض، وتمت الموافقة الأمريكية على الكمية ولم يتبقَّ سوى التوقيع على الاتفاق. وللموافقة النهائية طلب السفير الأمريكي في دمشق تسليمي لبلاده والثمن كان 200 مليون دولار- الفرق بين سعري القمح الأمريكي العام والخاص. فقال له الأستاذ فاروق الشرع: هل نفهم أنه لن نستطيع توقيع العقد دون أن تأخذوا الجواب؟

خرج فاروق الشرع إلى غرفة مجاورة واتصل بالرئيس حافظ الأسد وأخبره بتفاصيل الاجتماع فقال له الرئيس الأسد: فليجمعوا أوراقهم. ويقفل الموضوع.

في خضم هذه التطورات وتصاعد الانتفاضة، عقد مؤتمر القمة العربي في 2002/3/27 في بيروت وحضر فاروق القدومي بدلاً من "أبو عمار" الذي منعه الإسرائيليون من الخروج من رام الله.

طرح الأمير عبد الله في مؤتمر القمة مبادرة عربية لإنهاء الصراع، وسورية لم توافق عليها، وقبل طرحها اتفقت مع الرئيس اللبناني آنذاك أنها ناقصة؛ لأنها لا تتضمن حق عودة اللاجئين الفلسطينيين الذين طردوا من ديارهم.

توجهت إلى بيروت أثناء انعقاد مؤتمر القمة في بيروت، وكان في فندق فينيسيا. والتقيت مع الصحفيين الذين يتابعون وقائع المؤتمر وكان معي ابني جهاد ورفاق آخرون. وفي اللقاء الإعلامي قلت إن هذا المؤتمر وهذه المبادرة فيهما تفريط بالحق الفلسطيني.

مع تزايد الضغوط على سوريا بعد مؤتمر القمة عام 2002 التقينا نائب رئيس الجمهورية عبد الحليم خدام في بيته، وكان معي الرفيق فضل شرورو ود. طلال ناجي وذلك بعد زيارة وزير الخارجية الأمريكي كولن باول لدمشق. فقال لنا خدام: "ليس أمامنا سوى القبول بالشروط الأمريكية وإلا ستقع كارثة على سوريا". سألناه: "وما هو مصيرنا ومصير حزب الله؟" فأجاب: "ستغلق مكاتبكم ومعسكراتكم وتعودون للمخيمات وتمارسون العمل من خلال مكاتب اجتماعية" وأضاف: "حلفاؤنا السوفييت دورهم ضعيف، وجيشنا موزع بين لبنان وسوريا وغير قادر أن يقاتل الجيش الأمريكي إذا تقدم من العراق باتجاه سوريا من الغرب". وسألته بنوع من السخرية: "وماذا عن

إذاعة القدس؟" فنظر إلى فضل شرورو وقال له: "أعلن يا أخي أن هناك خللاً فنياً وأغلق الإذاعة". وعندما قابلنا غازي كنعان وكان وزيراً للداخلية، تحدث بنفس المنطق. وقلت لغازي كنعان: لا تقل هذا الكلام لغيرنا لأنه سيسبب مشاكل كبيرة.

قررنا مقابلة الرئيس بشار الأسد والتقيناه وسألناه عن زيارة كولن باول فقال: طرح علينا أن سورية ستصبح بوابة العراق ووعد وعوداً كبيرة، وقال في النهاية يجب أن تسيروا معنا. وكي نتأكد من ذلك عليكم إغلاق مكاتب الفصائل الفلسطينية ومعسكراتهم.

الرئيس بشار الأسد رد على باول بشجاعة ورجولة وقال له: إن كل شروطه مرفوضة، "وسنبقى نصفكم في إعلامنا أنكم دول مستعمرة وغازية". وغادر كولين باول بخفي حنين.

في الحج.. جهاد يتمنى الشهادة ويسبقني

قررت الذهاب للحج في 2002 بعد انتهاء مؤتمر القمة في بيروت وخاصة بعد عملية القلب المفتوح والعمر يركض بنا. كانت عائلتي تلح علي من سنوات ورافقني إلى الحج ابني جهاد وعدد من رفاقنا.

نمنا في الشوارع ولم ننزل في قصور وفنادق 5 نجوم. كنا متقشّفين، نأكل على الحصيرة "الطون" و"السردين" وفي المساء أذهب إلى الحرم وأقرأ القرآن لساعات عدة.

في إحدى المرات وقف مجموعة من الشباب إلى جانبي وكانوا يرتدون عباءات بيضاء أنيقة، وكنت أقرأ القرآن. ألقوا السلام وسألوني عن بلدي فأجبت أنا فلسطيني. وأرادوا الحديث بالسياسة فقلت لهم: "أنا في مسجد ولا أتحدث بالسياسة. وأساساً أنا صريح وإن تكلمت فقد تغضبون".. وكانوا من الإحساء في المنطقة الشرقية.

في نهاية المطاف تحدثنا، وشرحت لهم المبادرة العربية وأن فيها اعترافاً بإسرائيل، وكيف أننا لم نعد نسمع هنا في الخطب عن فلسطين. وأثناء الطواف حول الكعبة التقيت بأحد نواب السيد حسن نصر الله وتعانقنا وأكملنا الطواف حول الكعبة. هناك تضرعت إلى الله بصوتٍ منخفض أن يمنحني الشهادة، وإذا بي أرى جهاد بجانبي يدعو بصوت عالٍ ويقول: يا رب امنحني الشهادة.. فأخذته إلي وقلت له: لا تزاود أنا أدعو للشهادة منذ كان عمري 20 عاماً فلا تزاود عليّ.

كان ابني جهاد يتابع عمله النضالي والقيادي في الجبهة ويدرس في الجامعة اللبنانية- كلية الحقوق، وكان في السنة الأخيرة ولم يكون معروفاً على المستوى الإعلامي حتى بين زملائه في كلية الحقوق، حتى لم يكن معه مرافقة أبداً.

ترصده الإسرائيليون من خلال عملائهم داخل الجبهة وخارجها ووضعوا عبوة تحت سيارته- اعتقلناهم فيما بعد- مرافقه لم يكن متورطاً. كان يظن أن من شاهدهم هم من المخابرات اللبنانية. ربما انطلت عليه هذه اللعبة.. وأطلقنا سراحه فيما بعد.

ركب جهاد في السيارة وبعد 50 متراً حدث الانفجار واستشهد. أما من تآمر عليه فهو شخص من بيت خطاب كان عميلاً ومرتبطاً مع شخص يدعى "أبو جراح" والاثنان مرتبطان بالإسرائيليين.

يوم استشهاده 2002/5/20 كنا مجتمعين مع المكتب السياسي لحركة حماس في مقرهم في شارع الثلاثين في مخيم اليرموك. وكان يحضر معنا من قادة حماس خالد مشعل و موسى أبو مرزوق. وفي القاعة كان طلال ناجي وفضل شرورو يجلسان قريباً مني، وقد خرجا وبعد 15 دقيقة دخل الإثنان وكانت ملامحهما توحي بأن حدثاً غير عادي قد حصل، فقلت لهم على الفور: "جهاد استشهد أليس كذلك؟" فأجابوا: "نعم استشهد"، فطلبت من الحضور قراءة الفاتحة. عدت إلى مكتبي وبدأت باستقبال المعزين ووسائل الإعلام. واتصل بي "أبو عمار" معزياً. وقلت يومها: "إن دم الشهيد جهاد استمرار لدماء كل الشهداء الذين عبّدوا لنا هذا الطريق. يعزّ عليَّ جهاد ولكنه كان يقاتل العدو. وتذكرت كلامه أثناء الطواف حول الكعبة وقلت إن الله أعطاه الشهادة وتقبل منه الدعاء.

وعند وفاة أبو عمار الذي عزاني هاتفياً باستشهاد جهاد توجهت على رأس وفد جبهوي إلى القاهرة لوداعه وكان فيه د. طلال ناجي وفضل شرورو.

في القاهرة دخلنا من المكان المخصص لكبار الضيوف ودخل الوفد السعودي وفي آخر الوفد كان رفيق الحريري. لا أزال أذكر هذه الصورة. وهذا أظهر أن الحريري كان ملحقاً بالوفد السعودي. صعدنا إلى الطائرة التي ستقلّ جثمانه إلى عمان وودعناه في النظرة الأخيرة أنا والوفد المرافق؛ وتذكرت بعض الأيام الجميلة التي ترافقنا فيها.

وتتابعت التطورات في المنطقة مع بدء جورج بوش الابن الإعداد لمهاجمة العراق في 2003. ورغم أن العلاقات كانت مقطوعة بيننا وبين القيادة العراقية فإننا أرسلنا وفداً جبهوياً برئاسة د. طلال ناجي وفضل شرورو وعمر الشهابي واجتمع مع قيادات عراقية والتقاهم "أبو العباس" الذي انشق عن الجبهة في العام 1976 ودعاهم لمزرعته وقال لهم كلماته المشهورة: "أنا نادم لانشقاقي عن الجبهة. أبو جهاد أحمد أبي وأخي". وأبلغنا السفير العراقي في دمشق أننا جهزنا كتيبتين مسلحتين ومدربتين وجاهزتين على الحدود وسألناه عن كيفية صد الهجوم وشكرنا.

بعض القيادات الفلسطينية كالراحل جورج حبش زار العراق وسألته عن الوضع فقال لي إن معنوياته عالية والعراق قوي، وكان في ضيافة صدام حسين الذي سأل أحد ضباطه عن الجمرة الخبيثة فأجابه الضابط: "جاهزة". فقال صدام لجورج حبش: لو أطلقناها لمسافة 10 كيلومترات سنقضي على المهاجمين، فعاد حبش بمعنويات عالية وقال إن العراق قوي، لكن فوجئنا للأسف بانهيار النظام في العراق واحتلال البلاد.

عندما بدأ الغزو الأمريكي للعراق جمع رفيق الحريري بعض قيادات بيروت في قصره ومنهم أصدقاء لي أخبروني أنه قال لهم: "إن المرحلة الماضية انتهت، ونحن الآن في مرحلة جديدة اسمها المرحلة الأمريكية" - وكان يضحك وأضاف: وسيطرة السوريين في لبنان سوف تنتهي.

وكانت تصلنا منه رسائل كره بشكلٍ غير مباشر بمطالبته بنزع سلاح الجبهة الشعبية- القيادة العامة خارج المخيمات. الرسائل كانت عبر عبد الحليم خدام نائب رئيس الجمهورية آنذاك والذي قال لي في لقاء، وكان برفقتي وفد من الجبهة: يا "أبو جهاد" إلى متى ستبقون في الناعمة والدامور؟ لا يوجد غيركم من الفصائل الفلسطينية لديه قواعد هناك. أنا مستعد للتوسط بينكم وبين رفيق الحريري.

بعض رفاقي قال له: "هذه أنفاق كلفتنا ملايين الدولارات" فأجاب: "سأقنع أبو بهاء بأن يقدم لكم حوالي مليون دولار".

بعد صمت قلت له: أقول لك من النهاية قواعدنا ليست للبيع. أنشأناها لتحرير فلسطين والمعركة قادمة مع العدو. هل انتهى الصراع العربي- الإسرائيلي؟ هل أعدتم الجولان؟ هل عادت الضفة الغربية؟

وأذكر أننا طلبنا من عبد الحليم خدام تسهيل لقاء لوفد فلسطيني مع رفيق الحريري لشرح معاناة الشعب الفلسطيني في لبنان.

تم ترتيب موعد، وطلب مني عبد الحليم خدام أن أكون في الوفد فاعتذرت وقلت له لا تزعل، لم أقابله سابقاً ولن أقابله الآن. ليذهب د. طلال ناجي و"أبو موسى" وآخرون.

والتقى الوفد القيادي الفلسطيني برفيق الحريري، وبدا الرجل ممتعضاً ويقدم دروساً في الوطنية. وتوجه للدكتور طلال وقال له: ألا تريدون تركنا وشأننا في كفر شوبا؟- وكان يقصد الاشتباك الذي حصل مع دورية إسرائيلية قرب كفر شوبا وقتل فيه إسرائيليان واستشهد لنا رفيقان.

فوجئنا بمقتل الحريري. وبعد مقتله انسحب الجيش السوري من كل لبنان. لم تخبرنا القيادة السورية بقرار الانسحاب، فلو علمنا مسبقاً لرتبنا أمورنا بشكل أفضل. واعتقد البعض أن الجبهة الشعبية-القيادة العامة ستحل قواتها في لبنان وتعيدها للمخيمات وتنتهي قواعدنا التي بنيناها بالدم والعرق في الدامور أو الناعمة أو على الحدود السورية أو في سهل البقاع.

أقول بكل اعتزاز وقفنا وقفة رجل وقلنا لهم: لن نترك هذه القواعد رغم القرار 1559. وبدأت المؤامرات تتكاثر علينا. بدؤوا بمحاولات التفتيش بحجة تطبيق القرار 1559 وفوجئنا بقوات دولية تتصل بنا لتفتيش قواعدنا تحت ذريعة أنها أصبحت قواعد للجيش السوري. ترددنا ثم وافقنا وفوجئ المراقبون الدوليون بمواقعنا لدرجة أن أحد الضباط الإنكليز قال: نحن في الجيش البريطاني لدينا منشآت ضخمة لكن ليس لدينا مثل هذه الأنفاق.

توالت الأحداث واستمر اتهامنا بقتل الحريري. الاتهام جاء باسمي وأصدرنا بياناً قلنا فيه إن الاتهام باطل وليقدم المحقق الدولي "مليس" القرائن. وقلت أنا جاهز لأي إفادة وليأتي "مليس" إليَّ. وفيما بعد أعاد مليس حساباته وأعلن رسمياً أنه ليس لنا أي علاقة بمقتل الحريري.

ولتهدئة الأجواء بيننا وبين سعد الحريري وأهمية ذلك بالنسبة لوضع الفلسطينيين في لبنان، اقترح السيد حسن والشهيد آصف شوكت أن نشكل وفداً لمقابلة الحريري. ناقشنا السلبيات والإيجابيات ومن ثم ناقشت الاقتراح مع رفاقنا في

المكتب السياسي فوافقوا عليه. لكننا اشترطنا أن يحضر اللقاء حسن الخليل- المعاون السياسي للسيد حسن نصر الله- ليكون شاهداً على الحوار.

نسق حزب الله زيارتنا وتوجهنا لبيروت والتقينا بسعد الحريري. وضم وفدنا إلى جانبي كل من د. طلال ناجي ومسؤولنا في لبنان آنذاك أنور رجا.

في منزله في قريطم التقيناه وعندما ألقيت التحية عليه قلت له: "أنت تتهمني أني شاركت بقتل والدك؟ إن كانت هذه قناعتك فلا فائدة من هذا اللقاء لأنك تنظر إلي بمنظورٍ معادٍ"، فرد: "أعوذ بالله. أنت بريء من دم والدي وأبصم لك بالعشرة على ذلك". قال ذلك أمام حسن الخليل.

على مدار اجتماعين، وكل اجتماع استمر لمدة أربع ساعات، بدأنا بالنقاش، وتحدث بكل ما لديه عن سلاحنا. أجبته: "يا أخ سعد. أنت شاب صغير وتسير في طريق صعب وقاس للغاية. لا تكن من أولاد سايكس- بيكو كما يريد الغرب. حاول أن ترسم سياسة جديدة. نحن أمة واحدة وشعب واحد. سأسألك سؤالاً؛ أوليست أمك عراقية؟ أولم تتزوج سورية؟ معنى ذلك أنك تجاوزت كل الحدود المصطنعة". ثم تساءلت: هل انتهى الصراع العربي- الإسرائيلي؟ إن كان الأمر كذلك فلا قيمة لهذا السلاح. لكن العدو لا يزال يحتل أراضي لبنانية وفلسطينية وسورية. هل رأيتم منا في هذه القواعد العسكرية أي مخالفات انضباطية؟ اسأل أجهزتك الأمنية. اسأل القرى التي حولها. نحن من أربعين عاماً نحافظ على حسن الجوار. ربما عليك ضغوط تحملها. ألم يبق غيرنا لتحاربوه؟

في اليوم الثاني من لقاءاتنا قلت له: "أنتم في لبنان لستم بمنأى عن الأطماع الإسرائيلية وما زال لديهم أطماع كبيرة في الليطاني ومياهه. وهل تستطيع أن تعطينا أي ضمانة أن الصراع العربي- الإسرائيلي انتهى لنبحث موضوع السلاح الفلسطيني؟ ما زالت هناك حروب قادمة عديدة مع العدو الإسرائيلي ولديكم أرض محتلة والجولان محتل وقبل كل شيء فلسطين مازالت محتلة.

ودار نقاش طويل، وعند الساعة الواحدة والنصف ليلاً قلت له: "وسام الحسن المسؤول الأمني لديك يريد محاصرة قواعدنا العسكرية. لماذا لا يبحث عن خلايا الموساد التي تتكاثر في لبنان؟"

فاتصل به وطلب منه أن يحضر إلى طرفه، فحضر على وجه السرعة، وسألته: أنت وسام الحسن؟ قال "نعم أنا وسام الحسن". قلت له: "ألن تتركنا؟ لاحق خلايا

الموساد. نحن لسنا ضد لبنان". قال لي بالحرف: "أنا لحم "كتافي" من بيت الحريري وأنا مستعد أن أنسق معكم. اطرحوا اسماً من عندكم لننسق". وطرحت اسم أنور رجا مسؤول الساحة اللبنانية آنذاك.

في النهاية قلت لسعد الحريري: "المخيمات كانت محاطة بالأسلاك الشائكة قبل قدومنا للبنان. وحتى لو أراد أخ أن يزور أخاه كان يتوجب عليه أن يستأذن رئيس المخفر ويحدد عدة ساعات للزيارة. وكان هناك أسماء لهذه المخيمات تقشعر لها الأبدان، وكأنها استفزاز لنا، مثل مخيم "ويفل"- القائد البريطاني في الحرب العالمية الثانية- والدك أصدر قوانين تمنع الفلسطيني من العمل كطبيب ومهندس حتى لو كان خريج الجامعة الأمريكية. دعوا الثقة تعود إن كانت معدومة ولتلغى هذه القوانين. وإن انتهينا من هذه القضايا عندئذ نتصل بحزب الله لمناقشة باقي الأمور".

كان لقاؤنا في منتهى الوضوح، وقال لنا ممثل حزب الله الحاج حسن خليل: "أهنئكم على أسلوبكم وطريقة نقاشكم".

ثم التقينا أنا والدكتور طلال ناجي وأنور رجا بالسنيورة وكان معه مستشاره محمد شطح مسؤول الملف الفلسطيني وتحدثنا عن القوانين النافذة ضد الفلسطينيين وضرورة إلغائها، مثل قانون العمل. قال لي السنيورة: يا أبو جهاد لا أحد في لبنان يجرؤ على إلغاء مثل هذه القوانين، حتى لو وعدك سعد الحريري أنه سيلغيها أو سيعمل على ذلك.

كنت أشعر أثناء النقاش أن السنيورة معادٍ لنا ولحزب الله، وقابلت الأستاذ نبيه بري ووضعته في صورة الحوارات.

جهود لرأب الصدع الفلسطيني

مؤتمر الحوار الوطني في القاهرة 2005

في 2005 بدأت حقبة محمود عباس وأصبح رئيساً للسلطة وكل مهام "أبو عمار" في منظمة التحرير الفلسطينية وفتح أوكلت إليه. وكان في منتهى الوضوح وقال: لا لعب مع الإسرائيليين والأمريكان. سنتفاوض معهم. ولا مجال أمامنا سوى التفاوض.

هذا الوضوح على عكس "أبو عمار" الذي كان غامضاً ولا تعرف ما ينويه. بالنسبة لنا كجبهة، كما كنا سابقاً نواجه "أبو عمار" بدأنا نواجه نهج محمود عباس. ومنذ بداية تسلّمه مقاليد السلطة شرع بالسيطرة الداخلية فأقال كل أعضاء حركة فتح القدامى واتفق مع أمريكا و"إسرائيل" على تشكيل جهاز أمن فلسطيني جديد من شباب فلسطيني تتراوح أعمارهم بين 18- 19 سنة، لم يعيشوا واقع الثورة الفلسطينية. وهذا الجهاز أوكلت إليه مهمة التنسيق الأمني مع الإسرائيليين وأطلقت يد الأجهزة الأمنية وبدأت بتنفيذ أعمال بطش في الضفة الغربية وقطاع غزة.

لم يستطع محمود عباس رغم الإمكانات والعلاقات وكل تنازلاته إيقاف عملية الاستيطان في الضفة الغربية فالعدو لا يفهم إلا لغة القوة.

أصبح هناك كتلتان كبيرتان في الساحة الفلسطينية؛ كتلة عباس وفتح وبعض الفصائل التي تدور في فلكهما، وكتلتنا في التحالف الوطني.

ودفع محمود عباس "أبو مازن" لانتخابات في الضفة الغربية وقطاع غزة، وبدأ يفكر في إجراء انتخابات للتشاور مع جهات عربية ودولية. وكان رئيس وزراء العدو أريئيل شارون يشعر بالعبء الذي يسببه له قطاع غزة. كانت الأمور تسير في الخفاء لكن كنا نشعر بها. وفضح الأمر في عام 2004 عندما التقينا بالسيد محمود عباس[٣٩] في فندق المريديان أثناء زيارته لدمشق.

[39] - (معرفتي به قديمة ولا توجد بيننا أي عداوات شخصية. نحن مختلفون معه سياسياً).

عرّفنا السيد "أبو مازن" على الوفد المرافق له وقال لي هذا "أبو علاء" أحمد قريع رئيس الوزراء، فقلت له أمام الجميع: "أنت قريع؟" قال: "نعم أنا أحمد قريع". فسألته: "أنت من يملك معامل إسمنت ويبيعه للإسرائيليين لبناء المستوطنات والجدار؟" قال لي: "يا عمي "أبو جهاد" هذا ظلم".

في لقائنا طرح السيد محمود عباس أن شارون سينسحب من غزة. وقال لي: الحدود المصرية مع غزة لن يتواجد عليها أي إسرائيلي. وقبل أن آتي لدمشق التقيت مع شارون وتحدثنا مطولاً عن الانسحاب وكيف سيتم. وفي نهاية اللقاء سألني "إن انسحبنا من قطاع غزة هل ستسمحون لأحمد جبريل دخول قطاع غزة؟".. ولم يجبه "أبو مازن" لأنه تفاجأ بالسؤال كما حدثني.

اتفقنا أن نلتقي في القاهرة في العام 2005 على أرضية "وثيقة الأسرى" التي قدمها الأسرى الفلسطينيون داخل الأرض المحتلة، وهي فرصة كي نتحاور. اتفقنا مع الإخوة في حماس والجهاد ومنظمة الصاعقة للذهاب إلى القاهرة – كنت متردداً في الذهاب لكن قررت أخيراً الذهاب، فقد وصلتنا معلومات شبه مؤكدة أن "إسرائيل" تريد الانسحاب من قطاع غزة وهذا يعني أننا أمام واقع جديد فيه أرض محررة مساحتها 360 كم مربعاً.

عقد المؤتمر بحضور وفد من جبهتنا برئاستي وضم الدكتور طلال ناجي وعمر الشهابي ووفود من التنظيمات الأخرى حماس، الجهاد، وفصائل فلسطينية أخرى. وسهل محمود عباس مشاركة بعض الكوادر من حماس والجهاد الإسلامي من قطاع غزة والضفة الغربية ولنا أيضاً وتوجهنا للحوار.

بدأت جلسة الافتتاح في القاهرة وألقى اللواء عمر سليمان رئيس المخابرات المصرية آنذاك كلمة تعهد فيها أن مصر لن تتدخل في أمورنا الداخلية، لكن قال إن شارون أبلغهم رسمياً أنه يريد الانسحاب من قطاع بقرار إسرائيلي وليس انسحاباً مذلاً وتحت النار. وطلب أن يتوقف العمل العسكري في قطاع غزة. ورأى سليمان أنه يجب إعطاء شارون فرصة لسحب قواته من القطاع والمستوطنات، وقال "أنتم أمام خيار هل تريدون قطاع غزة؟".

في حواراتنا قررنا الاتفاق على التهدئة في القطاع لإعطاء فرصة للانسحاب الإسرائيلي والشروع بترتيب انتخابات في الضفة الغربية والقطاع /تشريعية ورئاسية/.

نحن في الجبهة طرحنا أن المسألة لا تتعلق فقط بهاتين المسألتين وقلنا: "أنتم تتحدثون عن وحدة قيادة للشعب الفلسطيني ومجلس وطني فلسطيني جديد، إذاً هي مرحلة انتقالية يجب أن تتواجد فيها قيادة فلسطينية مشكلة من الأمناء العامين واللجنة التنفيذية لتراقب الموضوع السياسي المتعلق بالقضية الفلسطينية. وإن لم يدرج ما طرحناه سننسحب وسنسافر على أول طائرة". وحصلت نقاشات طويلة وحادة وكدنا نغادر الاجتماع وتدخل المصريون وبعض الفلسطينيين وتم إدراج ما طرحناه.

في الجلسة الختامية حضر اللواء عمر سليمان وألقى كلمة شكر فيها الوفود وتحدث عن مجمل التطورات السياسية. وتحدثت يومها وقلت: يا "أبو مازن" اتخذنا قراراً أن تدعو الهيئة القيادية للاجتماع في القاهرة أو دمشق أو لبنان. والهيئة مسؤولة عن متابعة الملف السياسي للقضية الفلسطينية، فقال: أكيد لكن في هذه الفترة أنا مشغول بالسفر.

دعانا عمر سليمان إلى الغداء وكنت أنا و"أبو مازن" فقط وهو ثالثنا. وتحدث أنه خريج الكلية الحربية في مصر والمشير طنطاوي كان زميله في الدراسة، فسألته: "أنت ضابط من دفعة المشير طنطاوي لماذا وقعتم اتفاقية كامب ديفيد وممنوع عليكم التحرك شرق قناة السويس سوى بقوات محدودة؟" فقال لي إنه يلتقيني للمرة الأولى وسابقاً التقى مع قيادات فلسطينية كثيرة ولم أحضر. قلت له: أنا حضرت للمشاركة في اجتماع سياسي وليس مع مخابرات.

وسألت "أبو مازن" في لقاء الغداء: "كم تستوردون من البضائع سنوياً لقطاع غزة عن طريق ميناء أسدود؟" فأجاب: "لا أعلم". قلت له: "الرقم هو ستة مليون دولار. والآن وفي حال انسحب الإسرائيليون فأمامنا حدود مصر". والتفت إلى عمر سليمان وقلت له: هذا سينعش العريش والتجار المصريين، وأيضاً تمدون قطاع غزة بالكهرباء عوضاً عما نأخذه من الإسرائيلي. يجب أن نقطع العلاقات الاقتصادية بيننا وبين العدو الإسرائيلي وسيستفيد المصريون والتجار واليد العاملة المصرية بسبب الحركة النشطة مع القطاع.

كان عمر سليمان يسمعنا وهو صامت- لم أشعر أنه تجاوب مع كلامي- وبدأت أشكل قناعة أن الإسرائيليين سينسحبون ومصر لن تفتح حدودها الاقتصادية مع القطاع.

انسحب الإسرائيليون من قطاع غزة وهدموا المستوطنات كلها عن بكرة أبيها. وأصبحت حركة فتح سيدة غزة بأجهزتها الأمنية المعروفة.

بعد عودتنا من القاهرة عقدنا عدة اجتماعات للتحالف الفلسطيني في (مجمع الخالصة) في مخيم اليرموك وأكدت فيها حركة حماس على مشاركتها في الانتخابات التشريعية في غزة والضفة الغربية.

لم نتوقع أن تفوز قوائمها بهذا الشكل ونجحت بنسبة ممتازة مستفيدة من الخلافات داخل أجهزة فتح والسلطة وهيمنتها وقسوتها وبسبب الفساد المستشري والتخلي عن الكفاح المسلح الذي يعني استمرار المقاومة وهو ما جسدته حماس في مقاومتها.

الدول الغربية لم تعترف بالانتخابات وبوزارة اسماعيل هنية التي شكلها بعد الانتخابات، وصرحت أنها ستقطع المساعدات التي كانت تقدم. وتأزم الوضع وخفّت وتيرة الكفاح المسلح داخل فلسطين بشكل كبير.

اشتد قمع أجهزة السلطة للمنظمات الفلسطينية المعادية لاتفاق أوسلو في غزة والضفة وضد حكومة اسماعيل هنية. وأمام قسوة القمع في القطاع اتخذت حماس قراراً بالسيطرة على قطاع غزة، وأصبح كاملاً تحت سيطرتها وهرب محمد دحلان مسؤول جهاز الأمن الوقائي إلى الضفة الغربية، وانتهت كل الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة.

العدوان على لبنان 2006

اشتداد الحرب على غزة

قبل حرب عام 2006 على لبنان كان يربطنا تحالف قوي نحن وحماس والجهاد الإسلامي وحركة فتح "الانتفاضة" والصاعقة والنضال الشعبي وجبهة التحرير الفلسطينية والحزب الثوري الشيوعي الفلسطيني. وكان الإخوة في حركة حماس والجهاد يتحملون مسؤولية كبرى للنهوض بهذا التحالف بسبب قوتهم المادية الكبيرة وسعة انتشارهم.

شاركنا في مواجهة عدوان تموز على لبنان عام 2006 وكنا بذلك التنظيم الفلسطيني الوحيد رغم أن محمود عباس أعلن في تصريحات علنية أن السلاح الفلسطيني خارج المخيمات يجب أن يسحب أما داخل المخيمات فيمكن الحديث عنه.

كنا نشعر بتعاطف من حماس والجهاد وإخوتنا في الانتفاضة، لكنهم غير قادرين على مساعدتنا وكنا وحيدين في وجه هذا التيار. ولم تكن القضية بالنسبة لنا تتعلق فقط بأنفاق ودماء أُريقت في هذه الأنفاق، فقد كنا نرى فيها عناوين لتحرير فلسطين. ودارت معارك شرسة لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً استبسل فيها رجال حزب الله.

مشاركتنا لم تكن بقوة كما كانت في عدوان "عناقيد الغضب". كان دورنا محدوداً، وقد عرضنا على الحزب ذلك، لكن كان الرد أن لديهم قدرات كافية. وكان الرئيس بشار الأسد قد زودهم بصواريخ الكورنيت المضادة للدروع التي واجهت دبابات الميركافا وشلّت قدرتها.

قبل وقف إطلاق النار بيومين شنّ العدوان الصهيوني غارات قوية على قواعدنا وسط البقاع مستهدفاً القيادة الميدانية، واستشهد عضو لجنتنا المركزية حسين قبلاوي ومجموعة من المقاتلين.

وفي المقابل كان الاحتلال الصهيوني يخطط لتصعيد خطواته العدوانية فشنّ عدواناً على قطاع غزة 2008- 2009 وكانت من الأيام الصعبة في حياتي. كنا على تواصل مستمر مع قطاع غزة. واستبسل شعبنا وقواه المقاتلة. وكانت معارك شرسة. والقوتان الأساسيتان كانتا حركة حماس والجهاد الإسلامي. وقد شاركنا بفعالية وكذلك فعلت ألوية الناصر صلاح الدين وكتائب أبو علي مصطفى وقوى فلسطينية أخرى. وكنت على قناعة إن خرجنا من هذه المعركة بخير فسيكون المستقبل مفتوحاً أمامنا، وإن استطاع الإسرائيليون السيطرة على قطاع غزة فستكون أيامنا القادمة مظلمة وصعبة.. واستمر القتال لعشرين يوماً.

بدأت المفاوضات لوقف القتال وترأسها من الجانب المصري اللواء عمر سليمان.
قلنا: إن وقف إطلاق النار قرار مشترك.

طرح علينا المصريون أن ينسحب الإسرائيليون من الأبنية السكنية ورفضنا هذا.
قلنا: إن وقف إطلاق النار يعني انسحاب إسرائيل الكامل من قطاع غزة.

خلال العدوان على غزة أذكر أن وفداً للعلماء المسلمين برئاسة القرضاوي قام بجولة على الدول العربية لوقف المذبحة في غزة. وحين حضر الوفد إلى دمشق اتصل بي خالد مشعل وطلب مني حضور لقاء وفد علماء المسلمين. وحضر اللقاء د. رمضان عبد الله أمين عام حركة الجهاد الإسلامي.

تحدث القرضاوي عن إنجازاته وعملهم الإعلامي والشرعي والديني المؤيد لنا ضد العدوان الإسرائيلي. وفي النهاية طلبوا منا صورة للموقف في غزة، فوقف خالد مشعل وقال: "أبو جهاد" هو كبيرنا وهو من سيتكلم وأصر هو و د. رمضان عبد الله على أن أتحدث. وتحدثت عن الموقف العسكري حسب آخر ما وصلنا. ويومها سألت الشيخ القرضاوي: "أنت رئيس مجلس العلماء المسلمين وأراكم كلكم وجوهاً من الطائفة السنية. هناك رجال دين شيعة عراقيون وكويتيون وسعوديون ولبنانيون. إن كنتم لا تريدون إيرانيين فماذا عن هؤلاء؟". ووعدوا أنهم سيعملون على ذلك.

بعد توقف الحرب على غزة ومع مطلع العام 2009 دعت سورية وقطر لمؤتمر قمة عربي. وكانت قطر هي الدولة المضيفة لكن لم يتوفر النصاب القانوني. دعوا السيد محمود عباس لكنه رفض وقال: "إن حضرت سأذبح من الوريد إلى الوريد".

اقترحت سورية وقطر دعوتنا كفصائل فلسطينية وتوجهنا إليها نحن كجبهة وحركة حماس والجهاد الإسلامي والصاعقة وفتح "الانتفاضة" والحزب الشيوعي الثوري الفلسطيني وجبهة التحرير الفلسطينية وجبهة النضال. وجلسنا في مقاعد مؤتمر القمة العربي في مؤتمر تضامني، واتخذت فيه قرارات دعم لقضيتنا.

وعندما انتهى المؤتمر التضامني سلم علينا الأمير القطري حمد جميعاً وقال لي: "هناك من يناديك بجورج، وهنا ينادونك باسم أحمد جبريل!" فقلت له: لا، اسمي أحمد علي أحمد يعني على اسم جدي جبريل".

توالت الحروب على غزة.. ونحن في الجبهة الشعبية- القيادة العامة شاركنا في مواجهة عدوان 2014 وسقط لنا شهداء.

الحرب الكونية على سورية وموقف الجبهة الريادي إلى جانب سورية

في 2011/3/15 ومع بداية الأزمة السورية كان وضعنا في الساحة الفلسطينية صعباً والانقسام في ذروته.

بدأ الحوار في الساحة الفلسطينية لوضع حدّ للشرذمة والانقسام وتم التداول لعقد لقاء للفصائل الفلسطينية في القاهرة عام 2011. كانت وجهة نظري- وطرحتها في اجتماع جمع التحالف وعلى رأسه خالد مشعل- أن لا فائدة لأي حوار دون برنامج سياسي واضح. وسألت الإخوة في حماس والجهاد الإسلامي عما لديهم

لفرملة قطار التسوية الذي يقوده "أبو مازن" باتجاه الأمريكيين والإسرائيليين.. وطبعاً لم يكن هناك أي جواب.

قلت: "لماذا نذهب دون أن تكون لدينا ضمانات؟ لقد أخذوا وقتهم بشكل كامل فماذا كانت النتيجة؟" قال خالد مشعل: "علينا أن نذهب ولا نظهر أننا نقف عائقاً في وجه الوحدة الفلسطينية". فقلت له: "اذهبوا أما أنا فلن أذهب ورفاقي سيحضرون معكم". وقف خالد مشعل وقال: "أرجوك يا "أبو جهاد" لا تتركنا في هذه المعركة القاسية. أنت تشكل ثقلاً بحضورك اللقاء". وأمام الإلحاح- مع عدم قناعتي- اضطررت لمرافقتهم.

في 2011 التقت الفصائل الفلسطينية في العاصمة المصرية القاهرة، كنت على رأس وفد الجبهة الذي ضم د. طلال ناجي وأنور رجا. واستغربت عدم حضور بعض الفصائل المناضلة من حلفائنا، لكن جرى التأكيد أنهم سيدعون في الجولات القادمة.

وبعد نقاشات طويلة اتفقنا على برنامج لا يمثل الحدّ الأدنى لطموحات الشعب الفلسطيني أو مقاومته. ورجاني الجميع للتوقيع على الاتفاق، وهنا قلت لعزام الأحمد: أين توقيع رئيسك؟ سأوقع ولكن كتبت بجانب توقيعي "شاهد ما شفش حاجة".

بعد التوقيع دعانا رئيس المخابرات المصرية إلى إدارة المخابرات. وهناك أصريت على أن لا ندخل قبل حضور "أبو مازن". وقلت لمسؤول المخابرات المصرية: "يجب أن يحضر "أبو مازن" وندخل سوية ومعاً"، مع أن البعض كان قد دخل وجلس. حياني رئيس المخابرات المصرية بحرارة وقال لي: يا "أفندم" علمت أنك من دورة المشير طنطاوي فلك منا الاحترام".

حضر "أبو مازن" وألقى عليّ التحية وكنت في الصف الأول. ألقى "أبو مازن" كلمته وكذلك رئيس المخابرات المصرية وكذلك خالد مشعل. وتوجه مشعل في كلمته لمحمود عباس وقال: "نحن معك في الحركة السياسية. معك عام كامل تتحرك فيه دون التنسيق والاتفاق معنا".. وهذا ما أزعجني.

عدنا للفندق وفي بهوه التقيت مع وفد حركة حماس وكان فيه محمود الزهار وخليل الحية ومحمد نصر. وكانت المرة الأولى التي التقيهم.

جلسنا سوية وتوجهت للإخوة في حركة حماس وقلت لهم: "مبروك يا عروس". وبعد قليل نشب شجار بين فريقين في حركة حماس، محمود الزهار ومحمد نصر من

جهة وفريق خالد مشعل بالمقابل. فوقفت أنا والدكتور طلال ناجي والدكتور رمضان عبد الله للفصل بينهم. انفضّ الاجتماع ووجدنا أن هناك فريقين في حماس.

في اليوم التالي اتصل بي محمد بديع المراقب العام للإخوان المسلمين ودعاني للغداء فاتصلت بخالد مشعل وعلمت أنه مدعو والجهاد الإسلامي أيضاً.. وهناك فوجئنا أننا في مهرجان وليس فقط دعوة غداء. وكانت معظم قيادات الإخوان المسلمين في مصر حاضرة.

رحب بنا محمد بديع وبارك الاتفاق وطلب من خالد مشعل أن يضعهم بصورة التطورات الفلسطينية فقال: "أترك الكلمة لكبيرنا أبو جهاد".. وتحدثت لمدة ساعة بوجود وسائل الإعلام.

قلت في كلمتي: "أنتم لا تعرفونني. وأنا صريح كل الصراحة.. اعذروني إن تكلمت بصراحة". وتوجهت إليهم قائلاً: "من المهم أن لا نكرر الأخطاء التي وقعنا فيها في السابق" وأضفت "أنتم اليوم القوة المنظمة الوحيدة. وعليكم أن تصنعوا وحدة وطنية لمصر، وحدة وطنية بين المسيحي والمسلم وبين الناصري والإخواني والسلفي. لا تعيدوا تاريخ الأمة المرير الذي وصلت إليه وأخرجت مصر من محيطها وأصبح العلم الإسرائيلي مرفوعاً على ضفاف النيل. أما أن تستفردوا بأنكم القوة الكبرى فهذا سيدفّعكم ثمناً كبيراً. عليكم تجاوز الأحقاد". وشرحت لهم في كلمتي ما يحدث في سورية وأن النظام فيها مثالي ورشيد ويقف ضد تصفية القضية الفلسطينية. وقلت: "نحن كفلسطينيين نرى أنه إن تدمرت سورية ضاعت قضية فلسطين". وختمت بنصيحتهم أن يدفعوا كي تكون حماس حركة مقاومة بعيدة عن "الإخوان المسلمين" وأن يتركوها لظروفها.

العبث بأمن المخيمات والهجوم الإرهابي على الخالصة 2011

في 2011/5/15 ذكرى قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، قررنا في لبنان وسورية أن ندعو إلى مسيرات سلمية على الحدود الفلسطينية. وتولت جبهتنا الدور الأكبر في التحشيد لهذه المسيرات.

في سورية حشدنا عشرات الآلاف من الفلسطينيين للتوجه إلى الحدود مع الجولان، ونزعنا بعض الألغام بالقرب من الأسلاك الشائكة. وتقدم أبناء شعبنا وتجاوزوا الأسلاك ودخلوا إلى مجدل شمس وسقط ثلاثة شهداء من أبناء شعبنا.

كان يوماً كبيراً لفلسطين والأمة وانعكس بإيجابية عالية على أهلنا في فلسطين، حتى أننا طلبنا من الفلسطينيين في الأردن أن يحركوا قوافل إلى نهر الأردن لكن القوات الأردنية والمخابرات الأردنية منعت هذا الحراك.

بدأت الأوضاع تتأزم في سورية. وكان هناك توجه لمسيرة باتجاه الحدود في ذكرى النكسة 2011/6/5. لكن وصلتنا معلومات أن العدو سيدفعنا الثمن جراء ما حصل في 15 أيار وسيطلق النار على الحشود.

اجتمعنا كقوى فلسطينية واتخذنا قراراً بمنع التحرك باتجاه الجولان، وحزب الله اتخذ قراراً بأن يكون التحرك فقط لمنطقة الخيام.

في 5 حزيران 2011 في العاشرة صباحاً اتصل بي أحد رؤساء الفروع الأمنية ليخبرني أن هناك باصات تحمل آلاف الفلسطينيين من مخيم خان الشيح ومخيم اليرموك. وسألني كيف تم ذلك وأنتم أصدرتم بياناً تحذرون فيه من الذهاب إلى الحدود؟ فأجبته: إنه موقفنا وموقف التحالف لذلك أنا أستغرب وأتساءل من الجهة التي دفعت إلى ذلك؟!.

فوجئنا بهذا الزحف وسقط كما توقعنا عشرات الشهداء والجرحى. وأرسلنا السيارات لنقلهم وفتحنا أبواب مشفى أمية أمام الجرحى. وتساءلت من الذي دفع بهذه الحشود؟ ومن هي الجهة التي تقف وراء ذلك؟! وقررت أن أحضر الجنازة والصلاة على الشهداء.

اتصل بي الرفيق طلال ناجي وطلب من مرافقي سامي أن لا أتوجه إلى جامع الوسيم في مخيم اليرموك فهناك فوضى عارمة. ولكن تابعت ودخلت المخيم ووصلت إلى جامع الوسيم. لم أشاهد هناك أي تجمعات فسألت أين الحشود؟ فقالوا: خرجوا وكانوا غاضبين، ورفضوا أن يصلوا على الشهداء.

اتصلت برفيقي طلال ناجي فأخبرني أنه والرفاق في مجمع الخالصة. فتوجهت إلى الخالصة وكنت أظن أننا سنذهب منها إلى مقبرة الشهداء. لكن رفاقي قالوا لي هذا مستحيل في ظل هذه الفوضى. واكتشفنا أن هناك سيارات "سوزوكي" صغيرة فيها زجاجات مولوتوف وتزود بها المتظاهرون المتجهون للخالصة. وبدأ الآلاف يتراكضون من مقبرة الشهداء باتجاه الخالصة.

كان القرار صعباً في مواجهة الحشود، وقررنا الدخول وإغلاق الأبواب في الخالصة. صعدنا إلى الطبقات العليا، وكنا نطلق طلقات تحذيرية في الهواء حين

يحاول بعضهم الاقتراب من البوابات، ومن يقترب أكثر كنا نطلق أمامه، وحين يزداد الخطر كنا بصدد الإطلاق على الأقدام بحيث لا يقع ضحايا.

أنا شخصياً أخذت بندقية وجلست بجوار نافذة، وكان معي د. طلال وابني خالد ومجموعة من الكوادر. وانتقلت من نافذة لأخرى وشاهدتهم يهتفون ضدي. ويصرخون أن أحمد جبريل قام بمذابح طرابلس ويجب قتله وأنهم يريدون محاكمتي. وبقينا في محاولة لاستيعابهم من الساعة الرابعة بعد الظهر للواحدة ليلاً.

كان واضحاً أن الهجوم على الخالصة مدبر ومخطط له مسبقاً. وقام هؤلاء المدفوعون بجرائم وقتلوا رفيقنا "أبو العبد" ناصر عضو لجنتنا المركزية الذي حاول تهدئتهم وسحلوه عشرات الأمتار بعد أن طعنوه عشرات الطعنات بالسكاكين.

مجمع الخالصة في مخيم اليرموك كان مجمعاً تربوياً وفيه عيادات ومعاهد وروضات. وكانت هناك فتيات يعملن في مجمع الخالصة وقد تمكنا من فتح ثغرات ومكّناهنّ من الهرب. وبعد ساعات تدخلت قوات حفظ النظام لكنها لم تستطع الوصول إلى الخالصة. وخرج الدكتور طلال ناجي الذي أُصيب برأسه جراء ضربة تعرض لها. وأعتقد أنني خرجت بعد أن حضرت قوات حفظ النظام وأمنت طريقاً للخروج. لكنني لم أغادر الخالصة، إنما ذهبت إلى مبنى مجاور لها.

اتصلنا برفاقنا في الوحدات العسكرية في معسكر (عين الصاحب) وفي قواعدنا وعلى الحدود السورية اللبنانية واستنفروا كوادرهم العسكرية وقاموا بهجوم معاكس لإنقاذي وتمكنوا من السيطرة على الموقف.

المتظاهرون أحرقوا المشفى والروضة ومعهد اللغات واحترقت كل سياراتنا واستشهد رفيقان من الحراسات أحدهم أحرقوه حرقاً.

في اليوم الثاني وللأسف بثّت أجهزة الإعلام الفلسطينية والعربية أخباراً تقول إن أحمد جبريل تصدى لجنازة شهداء الجولان وقمعها، والحقيقة أنهم قلبوا الصورة. وطلب "أبو مازن" عقد اجتماع للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير وإحالتي للمحاكمة. لكن أسفي الكبير كان حيال موقف الحلفاء من القوى الفلسطينية الذين لم يقفوا معنا وكانوا متفرجين ولم يغطّوا في وسائلهم الإعلامية ما حصل من وقائع المؤتمر الصحفي الذي عقدناه لشرح ما حصل، مع أنني لم أقصّر معهم وقسمت معسكراتي في الغوطة وعين الصاحب بيني وبينهم وقدمنا لهم كل ما نستطيع من تدريب وغيره.

وبدأت الأحداث تتسع دائرتها وأعدنا تنظيم وضعنا في المخيمات، ثم فوجئنا بأن مخيم اليرموك عاصمة الشتات بدأ يشهد بعد صلاة الجمعة مظاهرات من أناس أغراب عن المخيم. وكانت أجهزة الدولة قد انسحبت من المخيم بعد الفوضى التي دبت فيه.

لم يعد المخيم آمناً ولم تعد لنا عليه سيطرة، فدعونا لاجتماع للفصائل ضم فتح والجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية لنقول لهم إن الوضع خطير وعلينا أن نفكر كيف يمكن أن نحافظ على المخيم. وسألوني ماذا أقترح؟ أجبت: نشكل لجاناً شعبية للدفاع عن المخيمات. لكنهم لم يتجاوبوا معي.

اجتمعنا في الجبهة وشرحت لرفاقي خطورة الوضع وأن ما يحصل لا يستهدف فقط مخيم اليرموك ومخيماتنا الأخرى بل الهدف سورية لتدميرها وتقسيمها وتهجير الفلسطينيين.

قلت بكل صراحة: من ليس مقتنعاً بما قلته فليغادر الجبهة، ولو اضطر الوضع أن أقاتل بنفسي سأفعل ذلك.

عملنا على تسوير المخيم بحواجز تفصل بين المخيم ويلدا وببيلا والتضامن والحجر الأسود، وسلحنا عدداً من أعضاء اللجان الشعبية.

ثمانية شهور ونحن نحمي المخيم. وبدأت ترتفع "أصوات" من القيادات التي أعلنت الحرب على سورية تتحدث عن دخول المخيم. وقال المدعو جورج صبرا إن المخيم أرض سورية وهو بوابة دمشق وسندخله. وحشدوا قوات كبيرة جداً من حوران والغوطة واجتاحوا المخيم من كل الجهات.

اندلعت اشتباكات قوية بين مقاتلينا وبينهم ونفذت ذخائرنا..

أنا أعذر اللجان الشعبية فمنهم من قاتل ومن استشهد ومن سلم سلاحه ومنهم من هرب أمام هذا الزحف الإرهابي الدموي الهائل. بقي خمسون مقاتلاً من جبهتنا محاصرين في مجمع الخالصة وأصبح وضعهم حرجاً للغاية ومنهم كوادر وأعضاء لجنة مركزية وكنت على تواصل معهم لحظة بلحظة، وكانوا يوصونني بعائلاتهم. ولدعمهم اقتحم ابني خالد المكان بسيارة مصفحة ووصل إلى مجمع الخالصة ومدّهم بالمعنويات. وكنا قد جهزنا (100) مقاتل بقيادة نضال عليان "أبو النورس" معاون مسؤول الدائرة العسكرية والأمنية لفك الحصار عنهم في شارع (30). وقد تمكنوا من كسر الحصار وأمنوا المقاتلين وأحضروا جثامين الشهداء.

لكن في طريق عودتهم اصطدموا بمجموعة مسلحة كانت تطلق النار وهي مختبئة، وكان مع تلك المجموعة أحد كوادرنا السابقين "أبو عبيدة" الذي كان قد انشق وانضم إلى المسلحين. وأصيب "أبو النورس" إصابة بليغة في شريان رئيسي ما أدى إلى استشهاده.

شراكة الدم والمصير في الدفاع عن سورية

كنا ندرك أن سورية مستهدفة وهذا ما جعلنا بصراحة نضع كل ثقلنا لنمنع هذا التآمر لتدميرها ككيان ونظام يقف بثبات مع قضية فلسطين، فإن دُمرت سورية تتحقق أماني بن غوريون في تقسيمها وإنهاء الجبهة الشرقية.

نحن استشعرنا بالخطر وكانت سنوات 2011- 2012- 2013 صعبة للغاية.

قاتلنا في غوطة دمشق ومعسكراتنا موجودة في "حوش الفارة" و"عين الصاحب" و"منين". وقاتلنا في حماة وحمينا المخيم من المسلحين ومنعناهم من دخوله. وشُنت هجمات على معسكراتنا في البقاع. وقاتلنا في الجبهة الشرقية والغربية.

أمام تفاقم الوضع الميداني بدأنا نشعر بالخطورة فشكلنا وفداً من الجبهة وضم بعض أعضاء المكتب السياسي: د.طلال ناجي، خالد جبريل، أنور رجا. والتقينا مع السيد حسن نصر الله في 2012/5/14 ولم يزل بعد مخيم اليرموك تحت سيطرتنا، وتحدثت معه بصراحة أن الوضع حساس والمؤامرة كبيرة. سألني ما العمل؟ قلت: "نحن كجبهة قادرون أن نؤسس لقوة فلسطينية تتجاوز عشرة آلاف مقاتل تستطيع حماية المخيمات وإسناد الجيش السوري في بعض المواقع. لكن هذه القوة بحاجة إلى سلاح وعتاد".

وافقني السيد حسن وقال: "كما تعلم ليس لدينا إمكانات" قلت له: "يمكن مساعدتنا من خلال علاقتك مع الأخوة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية. أنا سأتوجه إلى طهران وأنت يسّر لنا الطريق مع الإخوة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية لإنشاء مثل هذه القوة الفلسطينية".

توجهت إلى طهران مع د.طلال ناجي وأبو نضال العجوري وأنور رجا والتقينا مع القيادة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية وعلى رأسهم السيد أحمدي نجاد رئيس الجمهورية والسيد هاشمي رفسنجاني رئيس تشخيص مصلحة النظام آنذاك، والسيد لاريجاني رئيس مجلس الشورى، والسيد قاسم سليماني قائد فيلق القدس.

وتحدثنا معهم حول خطورة الوضع وتعمقنا في التفاصيل مع الجنرال قاسم سليماني، وقلنا له: "نحن على استعداد لتشكيل قوة من عشرة آلاف مقاتل يحمون المخيمات ويشكلون سنداً للجيش السوري، لكننا بحاجة لسلاح ومال وعتاد". وقدمت له ورقة بكل احتياجاتنا.

قبل عودتنا إلى دمشق وفي السادسة صباحاً زارنا الجنرال قاسم سليماني في الفندق وقال: "أنا موافق على ما تتفقون عليه أنتم والعميد الذي يمثل الحرس الثوري الإيراني في سورية ولبنان". وثمة ظروف حالت دون تحقيق ذلك.

التقينا كجبهة مع الرئيس د. بشار الأسد وطرحت معه ذات الأفكار التي تداولتها مع السيد حسن لتشكيل قوة فلسطينية وتحدثنا عن خطورة الوضع الذي تمر به سورية وليس أمامنا سوى الشهادة أو النصر. وجدت روحه المعنوية عالية جداً واتفقنا على تشكيل لجنة مشتركة وتواصلنا مع العماد الشهيد آصف شوكت. عقدنا عدة اجتماعات وجهزنا ورقة لاحتياجاتنا. وبعد استشهاد العماد آصف شوكت توقف عمل اللجنة المشتركة.

قدم تنظيمنا 400 شهيد وأكثر من ألف جريح في الدفاع عن سورية.

وفي الموقف الفلسطيني تباينت مواقف بعض القوى فمنها من نأى بنفسه ومنها من كان للأسف رمادياً. والأخطر أن الحرب على سورية كشفت لنا خطورة موقف حركة حماس التي كنا نتوقع منهما موقفاً داعماً لسورية وفي حماية المخيمات ولم يخطر لنا أنهم قد يتآمرون علينا في مخيم اليرموك وخان الشيح.

قبل أن يغادر خالد مشعل من سورية زارني في منزلي ونصحته بالبقاء وذكرته بلقائنا بمحمد بديع في القاهرة وقلت له: ما وفرته لكم سورية لن تجدوه في أي دولة عربية. أنت لم تجد سوى سورية تستقبلك رغم كل الضغوطات التي مورست عليها.

أكدت له أن طريقهم خاطئ وقلت له بالحرف: "أنا أكبر منك عمراً وتجربة يا "أبو الوليد" هذا خداع أمريكي سيجركم للهاوية. وأنتم تنتقلون من حركة مقاومة لتكونوا جزءاً من حركة الإخوان المسلمين. انظر إلى الرئيس المصري محمد مرسي! هل فتح لكم مكتباً في القاهرة؟ لم يحصل ذلك لأن اتفاقية كامب ديفيد تحكمه".

حاولت إقناعه لأنني كنت أعتبره كأخٍ لي، لكنه اعترف وقال هناك ضغط كبير من حركة "الإخوان المسلمين" وعلينا مغادرة سورية.

قبل سفره بيوم حضر إلى منزلي ليودعني وجلسنا لساعات وقال لي: "سأذهب إلى قطر" فقلت له: "إن كنت مضطراً لمغادرة سورية اذهب إلى لبنان- الضاحية الجنوبية — افعل كما د. رمضان عبد الله. لا تذهب إلى قطر التي تمول هي والسعودية المسلحين. أنت بذلك كأنك تتخذ موقفاً علنياً ضد سورية، وهذا سينعكس سلباً على شعبنا الفلسطيني. هل ستحرر فلسطين من أكبر قاعدة أمريكية في المنطقة وتقول إنك لن تتنازل عن شبر من فلسطين؟!".

قبل مغادرته قال: يا "أبو جهاد" لن نغيب كثيراً عنكم. شهران وسنعود". وكان يعتقد أن النظام السوري سوف يسقط. وأضاف بنوع من الدعابة لكنها ليست بريئة: "إن أردت أن ترافقني فأهلاً وسهلاً أنت ومن تريد ولكم الصدارة". فأجبته: "أنا أحاول إقناعك بالبقاء في سورية وأنت تريد إقناعي بالذهاب إلى قطر!! والله سأقاتل التكفيريين والقتلة في الشوارع".

لقد وقع الإخوة في حركة حماس في شباك خديعة كبرى نفذها "الإخوان المسلمون" الذين بشّروا أن المنطقة ستصبح تحت سيطرتهم والصراع سيكون مع إسرائيل وإيران.

صفحات في رحلة العائلة

كنت صريحاً مع أهلي ولم أكن أرغب بالزواج لأنني كنت أعتبر نفسي مشروع شهيد فعاندت عائلتي بدايةً رغم أني وحيدها.

لي خمس شقيقات أكبرهن فايزة كانت متزوجة من الضابط علي بوشناق، وهو فلسطيني الأصل وخدم في الجيش العربي السوري. شقيقاتي فوزية وسميرة وأميرة وسحر كن يشاركن وهن صغيرات في النشاطات النسوية والمناسبات الوطنية. وأذكر أن شقيقتي أميرة، وكان عمرها 14 عاماً، شاركت في المظاهرات الوطنية وكانت تلقي القصائد الحماسية. وفي إحدى المظاهرات الكبرى في ساحة مجلس الوزراء خرجت إلى الشرفة وألقت شعراً وأبكت الحضور.

ألحت عائلتي عليّ كي أتزوج وهي تراني منخرطاً في العمل الوطني، واقتنعت أخيراً لكن بشرط أن لا يشكل ذلك عائقاً أمام مشروعي الكفاحي.

تزوجت عام 1962 من ابنة خالتي "نهى الغزّي" وكانت طالبة جامعية وهي من عائلة دمشقية كبيرة وعمها "سعيد الغزي" كان رئيس وزراء سابق في سورية. وسكنا مع عائلتي في غرفة في شارع بغداد الخلفي- الإنشاءات- ساعدتني بعملي السري وبحماسة كبيرة وهي لم تزل طالبة جامعية. وكانت تقوم بأعمال الطباعة لتنظيمنا السري، وكانت الظروف حينها صعبة جداً وتحت المراقبة الشديدة.

رزقنا بطفل عام 1964 وأسميته "جهاد" تيمناً بهدف الجهاد في فلسطين. ثم رزقت بـ "خالد" في العام 1965 وقد أسميته تيمناً بخالد بن الوليد، وأيضاً لأن طريق جهادنا مستمر وصعب وقاسٍ؛ أي (جهاد خالد) وأن معركتنا مستمرة. وحتى أنني في الجيش العربي السوري كنت أسميت معسكراً خدمت فيه باسم معسكر "جهاد" وهو بالقرب من صحنايا، وحتى الآن اسمها معسكرات الجهاد.

تحملت عائلتي كثيراً لكني كنت أتابعها وفق المتاح، أتابع أبنائي وأسرتي وإخوتي.

حين كنا كتنظيم في الأردن كنت أغيب عن البيت لسبعة أشهر حتى يكاد طفلاي ينسيان أني والدهم. وحين أدخل إلى المنزل أجدهما يلعبان تحت الطاولات والكراسي ولا يكترثان للضيف القادم ثم تعود الألفة. وأحياناً كانت زوجتي تضطر أن تحضر إلى عمان مع طفليّ ليرياني وذلك لصعوبة تنقلي. وذات مرة حضرت وكانا بحالة مرض

ويشكيان من التهاب اللوزات. وقد أخذتهما إلى طبيب صديق لي من عائلة بدران في عمان وأجرى لهما عملية الاستئصال.

لم أكن أظهر الحنية والعاطفة. وهذا له علاقة بطريقة تربيتي فقد تأثرت بوالدي في طريقة تربيتي لأبنائي. كنت أرسلهم في العطل الصيفية وهما في المرحلة الابتدائية إلى القواعد، وكانا يسرّان جداً رغم قساوة الحياة في القواعد العسكرية. وكنت عندما أعاقب أحدهما أكتفي بأن أحرمه من الذهاب للقواعد. كنت أوجههما عندما يذهبان إلى القواعد العسكرية، وأطلب منهما أن يمارسا انضباطاً عالياً بحيث لا يشعران أحداً أنهما "أبناء الأمين العام" فتراهما يقومان بتنظيف المرافق والحراسة وغسيل الأواني وكان هذا محط إعجاب الرفاق في الجبهة.

كنت أتابع دراستهما وساعدتني عائلتي في تربية ولدي، فأختي أميرة كانت تأخذهما إلى الجامع وترعاهما لانشغال زوجتي بوظيفتها وحرصها على تواصلها مع المخيمات الفلسطينية، فكان الحمل الأكبر على عاتق والدتي.

انتسب جهاد للجبهة وعمره 15 عاماً وكان يقضي الصيف في وحدة الرواد- الطيران الشراعي. وقد سقط ذات مرة من طائرة شراعية وتهشمت أسنانه وكتفه. أما ابني خالد فكان بعمر 14 عاماً عندما توجه أول مرة إلى ليبيا ليخضع لدورة ضفادع بشرية.

استمرت حياتي الزوجية مع ابنة خالتي نهى حتى عام 1975.

تزوجت مرة أخرى في العام 1976. زوجتي الثانية تحمل شهادة أدب إنكليزي وهي من عائلة الموصللي العائلة المرموقة والمتدينة، وقد عاشت مع عائلتي بمحبة واحترام متبادل، وكانت علاقتها مع جهاد وخالد ممتازة وتقوم بتدريسهم اللغة الإنكليزية. أنجبت منها: نور، يمان، بدر، مجد، غزوة، نصر.

الشهيد جهاد درس في الكلية الحربية في ليبيا وخالد درس في الكلية البحرية، فقد أصرا أن يدرسا فروعاً تكون في طريق العمل لتحرير فلسطين رغم أني قلت لخالد: "إذا استشهدت أنا وأخوك لا يبقى سواك لتحمل مسؤولية الأسرة"، فقال لي: "من المستحيل أن أقبل هذا الكلام". وذهب إلى ليبيا ودرس في الكلية البحرية والتحق بدورات متعددة في الغطس والضفادع البشرية واستلم بعدها مسؤول الوحدات البحرية في الجبهة.

ابنتي "نور" تحمل شهادة فلسفة وعلم اجتماع، وشقيقتها "يمان" خريجة الـ VTC قسم الكومبيوتر. "بدر" درس في إيران هندسة كومبيوتر وهو عضو لجنة مركزية ومسؤول الشبيبة في الجبهة. أما "مجد" فهي خريجة صيدلة، و"غزوة" خريجة أدب إنكليزي، وأصغرهم "نصر" درس الهندسة في إيران.

كان الشهيد جهاد يزورني دائماً مع طفليه أحمد وعلي. (والدتهم ابنة الشهيد عبد المحسن أبو ميزر) وكنت أرى كم هي عاطفته جياشة تجاههما. وبعد استشهاده شعرت أن عليّ أن أعاملهما معاملة مختلفة عما كنت أعامل أولادي، حيث كان والدهما يعاملهما معاملة خاصة. وقد تخرج أحمد طبيب أسنان. وحين التقيت حفيديّ أحمد وعلي في 2017 أخذتهما إلى الجنوب اللبناني وتحدثت إليهما عن والدهما وحثثتهما أن لا تبعدهما الغربة عن وطنهما.

كنت أقيد نفسي وأمنعها من أي اندفاع عاطفي تجاه أولادي وأسرتي لكن الأمر مختلف عما أظهره، وكنت أكبت عواطفي.

ليس من السهل أن أفقد جهاد شهيداً ولا أذرف دمعة، لكن عندما أكون وحيداً كنت أبكي بكاء شديداً.

كنت حريصاً أن لا أظهر أي ضعف أمام الناس وأمام أولادي وأشعر أحياناً بنوع من تأنيب الضمير، حيث لم أعطِ أسرتي حقها. أخذت حقي حيث تابعت مسيرتي باتجاه ما أريده من أهداف، أما حقهم كأسرة، كعواطف ورعاية وكلام جميل فكنت مقصراً فيه.

وصيتي الدائمة لأبنائي أن يحافظوا على أخلاقهم ويتذكروا دائماً أنهم تربوا في بيت قيم ومبادئ.

بين المقدمات والنتائج..

هذا ما أردته من كتابة مذكراتي

يمكن أن يتساءل البعض: لماذا تأخرت في كتابة مذكراتك؟

كنت دوماً أقول بتواضع إنني أمضيت عمري في جبهات القتال.. من جبهة إلى جبهة. وقد وصلت إلى عمرٍ معين، فوجدت منذ سنوات عديدة أن هناك إمكانية للكتابة، وقد شجعني كثيرون على كتابة مذكراتي.

أذكر قبل سنوات أني كنت قد سجلت عدة حلقات في برنامج (شاهد على العصر) لقناة الجزيرة، بعد محاولات وإلحاح من أكثر من طرف، وكذلك في محطة الميادين.

ولكن فليعذرني قارئ كلماتي هذه إذا كنت قد أغفلت موضوعاً أو اسماً معيناً، والسبب هو طول الفترة الزمنية وأرشيفنا الذي لم نستطع إعداده منذ البدء واعتمادنا على استدعاء بعض الرفاق الذين مازالوا أحياء، أو تعبوا من المسير في هذا الدرب.

وما أريد التأكيد عليه هو أن كل ما جاء في مذكراتي لم أكن أقصد من ورائه المس بأحد أو توجيه إهانة لأحد أو لتنظيم بعينه أو تصفية حساب مع أحد. ونحن لا نبرئ أنفسنا من بعض الأخطاء التي ارتكبناها، ولكنها الحقيقة التي يجب أن تُقال لتستفيد منها الأجيال التي ستتسلمها الراية لتتابع المسير في مواجهة أعداء هذه الأمة.

لم أندم على شيء في مسيرتي وإن لم أصل إلى الهدف الذي سعيت إليه. كنت أتوقع أن يتحقق التحرير مع إدراكي أن الطريق إلى فلسطين صعبة وشاقة.. ولكن أن نشعل شمعة في هذا الظلام الدامس خير من أن نلعن الظلام.

في خطنا السياسي لم أخطئ أبداً ولم أبحث عن مركزٍ شخصي. وكنت أواجه التيار ورياحه العاصفة. وأقول هناك الكثيرون ممن أخطأوا في الساحة الفلسطينية، ولكن هناك مناضلون وقادة وثوار شرفاء من الفصائل والشخصيات المستقلة ومن مبدعين وأدباء وسياسيين وقفوا معنا في الخندق الذي اخترناه.

منذ لحظة البدء لمشوارنا الكفاحي كنت قد قرأت تجارب الحركات الثورية في العالم. وكانت الثورة الجزائرية ملهمة لي. وفكرت في الإنسان الذي يصنع الثورة وكيف يمكن أن تستمر.

عندما أجلس وحيداً أتساءل: حين أغيب عن هذه الحياة هل ستستمر المبادئ والقيم أم تنطفئ؟ ثم يأتي جيل ينهض من جديد. نحن كجيل لم نسلم الراية لكن بعد غيابنا، هل الراية ستبقى كما أردنا ام ستنحرف؟

قلقٌ أنا على المستقبل لأن قسماً من النخب الفلسطينية والعربية أصبح مؤمناً أن الكيان الإسرائيلي حقيقة وواقع وهو يروّج للقبول بما يطرح من تسويات متساوقاً مع النظام الرسمي العربي.

كنت أقرأ وأنا بعمر الثانية عشرة في الأديان.. قرأت التوراة والتلمود واطلعت على كتب الجغرافيا والتاريخ غير المدرسية ومقدمة ابن خلدون. وكانت تشدّني قصائد زهير بن أبي سلمى وأبو فراس الحمداني ومحمود درويش ونزار قباني وسميح القاسم ومظفر النواب.

في التاريخ قرأت "رجال حول الرسول" (ص) وإسكندر المقدوني و"كفاحي" مذكرات هتلر، ومذكرات "تشرشل" وكتاب "الأمير" لميكيافلي ولساطع الحصري وللزعيم أنطون سعادة، وقرأت "عاصفة على السكر" لجان بول سارتر ومعجب بشخصية جيفارا وأشعر أني قريب من جيفارا وإن لم ألتقه.

قرأت أيضاً كتباً رومانسية "مجدولين تحت ظلال الزيزفون" للمنفلوطي وكذلك كل كتب شارل ديغول والكثير من الكتب الأمريكية والدراسات الاستراتيجية حول منطقتنا، وكتاب باتريك سيل "الصراع على الشرق الأوسط" وكتابي الدكتورة بثينة شعبان "حافة الهاوية" و"عشرة أعوام مع حافظ الأسد".

شدّتني بعض القيادات العربية والعالمية وأعجبت بها كالرئيس جمال عبد الناصر، حافظ الأسد، هواري بو مدين، العقيد معمر القذافي رغم أخطائه، ومن الرموز العالمية هوشي منه، ومن القادة العرب وخاصةً في مواجهة الغطرسة الأمريكية وإسقاط ما سمّي بالربيع العربي الرئيس بشار الأسد.

وأعجبت بشخصية الإمام آية الله الخميني مفجّر الثورة الإسلامية الإيرانية وأيضاً أعجبت بشخصية الإمام القائد آية الله علي الخامنئي، وأعتز بشخصية المجاهد الكبير السيد حسن نصر الله وبشخصية القائد الجهادي الفذّ قاسم سليماني.

طوال حياتي كنت قائداً في الميدان، وما من مترٍ واحدٍ في فلسطين من رأس الناقورة حتى العقبة إلا ودخلته. ما من كيلومترٍ واحدٍ من رأس الناقورة لجبل الشيخ إلى سهل الحولة والجولان إلا ووطأته قدماي.

دربت المقاتلين على المواجهة في الميدان وكنت أعزز روح القتال وأجترح السبل لقتال العدو، ولم أجلس وراء طاولة لأقود المقاومة أو أدير المعركة عن بعد عبر أجهزة لاسلكية.

وطلبت الشهادة وتمنّيتها منذ كان عمري عشرين عاماً، وأنقذني القدر مراتٍ عديدةً من الاغتيالات "الإسرائيلية".

كل حياتي عشتها مع رفاقي في القواعد ونمت فيها مثل كل المقاتلين، وكنا نأكل الخبز اليابس، نفتّه ونجهّز شوربة العدس مع البصل.

دائماً أسأل نفسي بحق من أخطأت؟ إذا كنت قد أخطأت بحق عنصر فإنني كنت في صباح اليوم التالي أعتذر منه وأقبله.. إن أخطأنا نصحّح أخطاءنا.

لم أرتكب الخطايا بحق الأمة سواء في الاستراتيجيات أو التكتيك، وكل كلمة قلتها في هذه المذكرات مجبولة بدم الشهداء وعرق ودموع أمهات آلاف الشهداء الفلسطينيين ومن متطوعين عرب في الجبهة الشعبية" القيادة العامة".

وصيتي إلى رفاقي أن يتمسكوا بالمثل والقيم والمبادئ والأخلاق وفلسطين من البحر إلى النهر ومن شمالها إلى جنوبها.

النصر قادم وإن كانت المعركة صعبة.

الفهرس

إهداء......5

مقدّمات استثنائية......7

الإمساك باللحظة التاريخية وحرب الهوية......7

الخيار الوحيد .. ورياح القلب والعقل......8

غاندي لا يواجه (مصارع الرب)......10

الفرق بين موتين!......13

عذر جيفارا وملهاة أبو القناني......15

الأسئلة المحرمة!......17

غدر الخوارج ورقصة شارون......20

قاتلت بيروت لكنها سقطت......21

نحيب التلمود وقسَم الاغتيال......23

أوهام التكتيك......24

الطفولة والنشأة......27

ذاكرة المكان......27

ذكريات الطفولة......28

ما قبل النكبة......30

ذكريات الحرب واحتلال فلسطين......32

اختبار الذات والإعداد للعودة إلى فلسطين......35

النشاط داخل الكلية الحربية المصرية......38

تجربتي في الجيش العربي السوري......45

عيناي وهدفي فلسطين......45

الوحدة .. وتدمير قرية التوافيق......48

محطات في الطريق- الجيش- التنظيم السري 51
في الدرب الوعر 53
في مدرسة الهندسة في "تلكلخ" 57
نقلي إلى الفوج (88) في منطقة الكسوة 62
لم أنسَ قضيتي 62
طلب الاستقالة من الجيش 67
مغادرة الجيش السوري عام 1963 68
قصة اعتقالي مع فضل 72
الزواج.. 75
شركاء العمل الوطني 75
تجارب نضالية نهلت منها 83
التشكيل التنظيمي داخل الجبهة 84
منظمة التحرير – النشأة: 87
بناء الكادر التنظيمي والعسكري لجبهة التحرير الفلسطينية 92
انطلاق "العاصفة فتح" في 1/1/ 1965 100
التنسيق مع حركة "فتح".. تجربة الوحدة الفلسطينية 101
الخلافات داخل الهيئة القيادية المشتركة بين فتح والجبهة 107
الانفكاك في العلاقة بين جبهة التحرير الفلسطينية وحركة فتح 117
عدوان حزيران 1967 120
انتقال الجبهة لمرحلة العمل العلني والمهام الجديدة 123
ولادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين 132
الدخول إلى الأردن وتقدير الموقف السياسي والعسكري 135
الخلايا السرية للجبهة في ساحة الأردن وتحولها الى العمل العلني 135
تنظيمات فلسطينية في الأردن تنضم إلى الجبهة الشعبية (جبهتنا) 135
المواجهة الأولى مع نظام الملك في الأردن 163
خطف طائرة العال (الإسرائيلية) 1968 وتحويلها إلى الجزائر 175

بوادر خلافات ائتلاف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين 181
دور الجبهة الشعبية– القيادة العامة في الكفاح المسلح........ 195
مسرح العمليات في لبنان منذ 1968 – 1971 199
مؤشرات المواجهة مع النظام الأردني – تفاقم الصورة 205
انتصار ثورة الفاتح في ليبيا عام 1969 وأثرها على القضية الفلسطينية 207
أحداث مهمة قبل أيلول الأسود 1970 وأحلام السلطة لدى حركة فتح 213
تغيير هام وسلبي مفاجئ للنظام في العراق 216
الاختلاف والفراق بين عرفات والرئيس عبد الناصر وردود الفعل 218
أحداث أيلول الأسود 223
في الهوية السياسية والفكرية 244
العودة إلى سورية وانطلاقة جديدة........ 253
تصعيد العمل المسلح ما بعد أيلول........ 255
التواجد الفلسطيني في لبنان 255
حرب تشرين 1973 وانعكاساتها على قضية فلسطين 258
جبهة الرفض الفلسطينية 1974 260
عملية الخالصة وأم العقارب الاستشهاديتين 1974 266
لبنان على صفيح ساخن... الحرب الأهلية 1975 269
قمة السعودية وتشكيل قوات الردع العربية 1975-1976 279
الأيدي الخفية وانشقاق 1976 283
أحداث جسام 1977- 1982 ومتغيرات عاصفة........ 287
الثورة الإسلامية الإيرانية هبة وموقف 287
عملية التبادل "النورس" 1979 298
تفاصيل التبادل 299
الاجتياح الإسرائيلي للبنان 1982 مقاومة ومساومة 300
الخروج من بيروت 1982- إعادة البناء........ 309
مقتل بشير الجميّل 309

خط التسوية – منعطفات فلسطينية حادة 309

تطور نوعي ومقدمات الطيران الشراعي 312

معارك الجبل وإسقاط اتفاق 17 أيار 1983- 1984 315

عملية الجليل لتحرير الأسرى 1985- حرب المخيمات 319

دور قومي للجبهة الشعبية – القيادة العامة في ليبيا صحراء "أوزو" 1987 322

عملية قبية "الطائرات الشراعية" 1987 324

إنزال الناعمة 1988- مقاومة مفتوحة مع العدو 325

الجبهة الشعبية- القيادة العامة في دائرة الاستهداف الامريكي- 328

قضية لوكربي 1988 328

تحركات سياسية لمنظمة التحرير وتصاعد الافتراق 330

انهيارات عربية وفلسطينية رسمية 332

كارثة أوسلو 334

سوريا ثوابت وطنية.. فلسطين مركز الصراع 341

في الحج.. جهاد يتمنى الشهادة ويسبقني 343

جهود لرأب الصدع الفلسطيني 349

مؤتمر الحوار الوطني في القاهرة 2005 349

العدوان على لبنان 2006 واشتداد الحرب على غزة 352

الحرب الكونية على سورية وموقف الجبهة الريادي إلى جانب سورية 354

العبث بأمن المخيمات والهجوم الإرهابي على الخالصة 2011 356

شراكة الدم والمصير في الدفاع عن سورية 360

صفحات في رحلة العائلة 363

بين المقدمات والنتائج 367

هذا ما أردته من كتابة مذكراتي 367

رغم ما تشهده الساحة الفلسطينية على الصعيد السياسي من انقسامٍ في المواقف والإيديولوجيات، وما يعيشه الوطن العربي من تشظّ أدى إلى المزيد من الفرقة والتفتيت، ورغم ما ستثيره من جدل مذكّرات أحد أبرز رجالات الثورة الفلسطينية، فقد آلينا على أنفسنا في دار دلمون الجديدة أن نتصدى لإخراجها إلى النور إيماناً منّا بجدوى هذه التجربة القيادية الفريدة والفذّة في تكريس حالة النضال الشعبي بعيداً عن أي اعتبارات أو أهداف آنية مباشرة..

تجربة رسم ملامحها باقتدار رجلٌ تجذّر بالأرض إلى حدّ التماهي، فكانت له مهداً لانطلاقة نهجه الثوريّ ورحماً لاحتواء روحه الفدائية التوّاقة إلى الحرية. فكان بفطرته ونقاء سريرته أهلاً لأن يصبح قدوة ونموذجاً يحتذى..

ولا شكّ أن القارئ لمذكراته والدارس لنظريته الثورية يستطيع أن يتلمّس من السطور معنى أن يولد الإنسان في بيئة تقدّر العلم وتتطلّع إلى مخرجاته كضرورة وكعامل نهوض إنسانيّ ووطني في أرض مستهدفة أو هكذا قُدّر أن تكون مسرحاً لصراعات وتناهب الدول الكبرى..

بوعيه الفطريّ أدرك أحمد جبريل ما يتهدّد أرضه وأهله ووطنه من مخاطر، فوضع نفسه طلقة أولى في صدر الإستعمار ليصبح القائد والمعلّم والمثل في إنكار الذات لصالح القضية، متخفّياً وراء اسم مستعار لم ينجح في تنحية شخصه ودوره البارز في تاريخ النضال الشعبي الفلسطيني رغم الإحباطات والمؤامرات والتنازلات أحياناً لصالح الهدف الأسمى. ومع ذلك كان حصاده وافراً ونجاحاته أكبر من أن تنال منها محاولات التضليل والتعمية من قبل اللاهثين وراء المجد والشهرة.. ليثبت بالدليل القاطع أنّ حلم العودة لا يمكن أن يمرّ إلا من فوهة البندقية، وأنّ الانتصار الحقيقيّ لن يكون إلا بالفعل المقاوم والكفاح المسلّح والتضحيات الجسام، وأنّ العمل الفدائيّ الذي أرسى قواعده هو الخيار الوحيد لاستعادة الأرض والحقوق..

ولن نتحدّث عن المحطّات المشرقة والمعارك الباسلة التي خطّط لها وانتصر فيها. فهذا ما سنتركه لقارئ مذكّرات أحمد جبريل في فصولها الإنسانية والوطنية والعسكرية والتي تأخذنا من ملاعب الطفولة الأولى إلى ميادين النضال وتبلور الفكر الثوري النهضوي الذي قاد معركة التحرّر ضدّ العدو الإسرائيلي، ونجح في إعادة القضية الفلسطينية إلى واجهة الحدث..

وليست مذكراته ومسيرته النضالية سوى رسالة ودليل عمل للأجيال العربية التي ما زالت تخوض معركتها في صراع لم ولن يهدأ حتى تعود الأرض والحقوق، وفي مقدّمتها حق العودة الذي نذر أحمد جبريل حياته من أجله مناضلاً لم تهن عزيمته ولم تلن حتى الرمق الأخير...

الناشرة




9 789933 661700



دار دلمون الجديدة